حَجَر النّور

نِفَر الصّامِت

كريستيان چاك

تعريب : ليلى حافظ - د. منار رشدى أنور

دار الشروق

حَجَرالنّور

نِفَر الصّامِت

La Pierre de Lumière
Nefer Le Silencieux
Christian Jacq

Tour Maine-Montparnasse 33, avenue du Maine
BP 142 - 75755 Paris cedéx 15
Tél : 33156802680 - Fax : 33156802672
e-mail: editionsXO@easynet.fr

حجـر النـور
نفر الصامت
كريستيان چاك

تعريب :
ليلى حافظ ـ د. منار أنور

الطبعة العربية الأولى : ٢٠٠٠
رقم الإيداع : ٢٠٠٠/٥٢١٨
الترقيم الدولى : ISBN : 997 - 09 - 0626 - 3
القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ ص.ب : ٣٣ بانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ (٢٠٢) ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى : dar@shorouk.com

تقديـم

العالم كله يعجب بإبداعات الفن المصرى ، سواء كانت الأهرامات ، أم المعابد، أم المقابر، أم التماثيل ، أم اللوحات . ولكن من الذى أبدع كل تلك التحف الفنية التى تمس شغاف قلوبنا بقوتها الروحية والسحرية ؟

لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون من حقق ذلك مجرد قطعان من العبيد أو عمال مضطهدين ، ولكنهم جماعات، أعضاؤها المحدودون كانوا فى الوقت نفسه رجال دين وحرفيين. وعن طريق مزج السمو الروحانى بالعمل اليدوى، قاموا بتكوين جماعة من الصفوة مسئولة مباشرة أمام الفرعون .

لقد حصلنا بالصدفة على وثائق كثيرة خاصة بإحدى تلك الجماعات التى عاشت طوال خمسة قرون من عام ١٥٥٠ إلى عام ١٠٧٠ قبل الميلاد، فى قرية فى صعيد مصر، لا يدخلها المدنسون.

هذه القرية كانت تحمل اسما غريبا : «ساحة الحقيقة»، وهى باللغة الهيروغليفية «سيت ماآت »، أى المكان الذى كانت الإلهة ماآت تؤكد فيه صفاتها من الاستقامة والدقة والتناسق التى تتميز بها أعمال أجيال من «خدام ساحة الحقيقة» .

تقع القرية وسط الصحراء ليس بعيدا عن المناطق الزراعية، معزولة داخل أسوار عالية، تملك محكمة خاصة بها، ومعبدا ومدينة للأموات. وعاش الحرفيون هناك معا كعائلة كبيرة يتمتعون بمكانة خاصة، لما لمهمتهم الأساسية من أهمية : بناء مسكن الأبدية للفراعنة فى وادى الملوك .

يستطيع المرء اليوم أن يكشف أسرار ساحة الحقيقة من خلال زيارة دير المدينة عند البر الغربى لمدينة طيبة. لم يتغير الجزء السفلى للمساكن، ويمكن للزائر أن يسير فى الطرقات التى سار فيها من قبل كبار الحرفيين والرسامين والنحاتين والكاهنات التابعات للإلهة

حتحور. وثَم معابد، وأماكن للجماعة، وقبور مزينة بشكل بديع، مما أكد على الشخصية المقدسة للمكان. كما ضم المكان خزانات مياه، ومخازن حبوب، وقاعة لعمل الحرفيين، وأيضا مدرسة.

لقد حاولت أن أعيد للحياة تلك الشخصيات الاستثنائية، مغامراتهم وحياتهم اليومية، بحثهم عن الجمال والروحانية، فى عالم يكون أحيانا عدائيا، وحاسدا. لم يكن سهلا دائما الحفاظ على وجود ساحة الحقيقة، ولم تتوقف المؤامرات خاصة فى تلك الفترة العصيبة التى جرت فيها هذه الأحداث.

إننى أهدى تلك القصة إلى كل حرفيى ساحة الحقيقة الذين امتلكوا أسرار «مسكن الذهب» ونجحوا فى نقلها إلى أعمالهم.

* * *

مقدمة

في منتصف الليل خرج تسعة من الحرفيين، يقودهم كبير المجموعة، من ساحة الحقيقة، وبدءوا يتسلقون طريقا ضيقا ينيره ضوء القمر الساطع.

على قمة التل الذى كان يطل على ساحة الحقيقة، اختبأ ميهى وأخذ يراقب قرية البناءين التابعة لفرعون، والقابعة هناك فى الصحراء حيث خبئت أسرارهم داخل أسوار، ووراء حائط من الجص. لم يستطع ميهى أن يخفى صيحة فرح.

فمنذ عدة أشهر، حاول قائد المركبات أن يجمع معلومات حول تلك الجماعة التى تقوم بحفر وتزيين مقابر وادى الملوك والملكات.

ولكن أحدا لا يعرف شيئا عن تلك الجماعة، باستثناء رمسيس الثانى، حامى ساحة الحقيقة حيث كبار الفنانين، ونحاتو الحجارة والمثالون والحرفيون تعلموا مهامهم الأساسية من أجل بقاء الدولة. كانت لقرية الحرفيين حكومتها الخاصة، وقانونها، وكانت مسئولة مباشرة أمام الملك ورئيس حكومته، الوزير.

أما ميهى فلم يكن عليه إلا أن يهتم بعمله العسكرى، الذى ينبئ بمستقبل باهر. ولكن كيف له أن ينسى أنه طلب ضمه إلى الجماعة، وأن ترشيحه رفض؟ إن المرء لا يتجاهل شخصا فى مثل مكانته النبيلة. انضم ميهى وهو غاضب لسلاح الصفوة، المركبات، حيث أظهر عبقرية فذة. وبسرعة استطاع أن يحتل مكانة مهمة فى سلم العسكرية.

ولكن الكراهية كانت قد نبتت فى قلبه، كراهية مدمرة تتزايد يوما بعد يوم تجاه تلك الجماعة التى كانت السبب فى إهانته، والتى منعته، بمجرد وجودها، أن يعرف السعادة الكاملة.

لذا كان القرار الذى اتخذه الضابط: إما أن يكشف كل أسرار ساحة الحقيقة، واستغلالها لصالحه، وإما تدمير تلك الجزيرة الصغيرة التى تعيش فى عزلة وتفخر بميزاتها.

للوصول إلى ذلك الهدف، كان يجب على ميهى ألا يرتكب خطأ واحدا، وألا يثير أى شكوك. ولكن ميهى فى تلك الأيام الأخيرة كان يشعر بالتردد. أليس «خدام ساحة الحقيقة»، حسب التعبير الرسمى، مجرد أشخاص بائسين وسلطتهم مجرد سراب وأوهام؟! ألا يضم وادى الملوك، الذى كان تحت حراسة مشددة، أشياء أخرى غير الملوك المجمدين داخل سكون الموت؟

كان ميهى مضطرا لأن يختبئ فى التلال التى تطل على القرية المحرمة، فقد كان أمله أن يفاجئهم فى إحدى المرات فى أثناء قيامهم بالطقوس التى لم يكن أحد يتكلم عنها، ولكن إحباطاته كانت دائما ضخمة، بحجم جهوده التى يبذلها.

ولكن فى تلك الليلة، وقع أخيرا، الحدث الذى ينتظره من زمن!

خرج الرجال العشرة، الواحد تلو الآخر، يتسلقون التل الغربى، ويسيرون ببطء على طول الطريق إلى أن وصلوا إلى القمة حيث بنيت كهوف من الحجارة، يخلون فيها بعض الوقت خلال العام. من هنا، لم يكن أمامهم إلا أن يتخذوا الطريق الذى يهبط نحو وادى الملوك.

فى تلك اللحظة حرص قائد المركبات، وهو فى قمة حماسته، ألا يتحرك حتى لا تنزلق قطعة حجر واحدة صغيرة فتفضح وجوده. فقد كان ميهى يجازف بحياته، خاصة وأنه كان يعرف أين تقع نقاط المراقبة التى يحتلها رجال الشرطة المسئولون عن أمن الوادى المحرم. فقد كان الجنود الذين يحملون القوس لديهم أوامر بإطلاق أسهمهم على أى شخص فور رؤيتهم إياه، وبغير أى تحقق من هويته.

فى مدخل هذا المكان المقدس حيث تُسجَّى مومياوات فرعونية منذ بداية الإمبراطورية الجديدة، تفرق الحراس للسماح بالدخول لعشرة من خدام ساحة الحقيقة.

ومع تسارع دقات قلبه، تسلق ميهى مُرتقًى حادا حتى يستطيع مراقبة المكان بدون أن يراه أحد. وعلى حجر مسطح رقد الضابط، وقام بمتابعة المشهد الرائع بدون أن يغيب عن نظره حركة واحدة.

انفصل زعيم المجموعة عن مجموعته، وأمام مدخل قبر رمسيس العظيم، وضع شيئا كان يحمله منذ خروجه من القرية، ثم أزاح الستار الأبيض الذى كان يغطيه.

حجر.

مجرد حجر نحت على شكل مربع. انبثق منه نور قوى إلى حد أنه أضاء البوابة الضخمة التى تغلق المسكن الأبدى للفرعون الحاكم. بدا الأمر وكأن نور الشمس قد سطع فى منتصف الليل، وتراجعت الظلمات.

قام الحرفيون العشرة بالتعبد طويلا أمام الحجر، ثم حمله زعيم المجموعة، بينما فتح اثنان من التابعين باب المقبرة. تقدمهم الزعيم ودخل أولا، يتبعه الحرفيون الآخرون، واختفى الركب فى أعماق المكان الذى أضاءه نور الحجر.

ظل ميهى متجمدا بضع دقائق. لا، لم يكن يحلم! كم من الكنوز الرائعة تملكها الجماعة! إنها تعرف سر النور، ورأت الحجر الذى ينبثق منه، إنه حجر حقيقى ليس وهما ولا أسطورة! كانوا بشرا وليسوا آلهة، هؤلاء الذين قاموا بنحته، وعرفوا كيف يستخدمونه. وكم قطع من الذهب الخالص صنعوها فى معاملهم، حسب ما يتردد من أقاويل مؤكدة!

لقد فتحت آفاق لا شك فيها أمام ضابط المركبات. الآن عرف أن أصل ثروة رمسيس الأكبر الضخمة، توجد هنا فى ساحة الحقيقة. ولهذا السبب، تعيش الجماعة بعيدا عن العالم، مختفية وراء أسوار قريتها.

ـ ماذا تفعل هنا أيها الصديق؟

التفت ميهى ببطء ليرى أمامه جنديا نوبيا يحمل قوسا وخنجرا.

ـ أنا.. أنا فقدت طريقى.

ـ هذه المنطقة ممنوع الوجود فيها، ما اسمك؟

ـ أنا من الحرس الشخصى للملك وكنت فى مهمة خاصة.

أكد له ميهى ذلك بشىء من التفاخر.

ـ لم يبلغنى أحد.

ـ هذا طبيعى.. فلا يجب أن يعرف أحد شيئا.

ـ ولماذا؟

ـ لأن على أن أتأكد من أن إجراءات الأمن تعمل بالدقة المطلوبة، وأنه لا يمكن لأى

دخيل التسلل إلى وادى الملوك. أهنئك أيها الجندى. لقد أثبت لى أن القوات المسئولة فى هذا المكان تعمل بفاعلية.

شعر النوبى ببعض التشكك.

- كان يمكن للقائد أن ينبهنى!

- ألا تفهم أن ذلك مستحيل؟

- هيا معا لنقابل القائد. فليس من حقى أن أتركك تغادر المكان هكذا.

- إنك تؤدى عملك بدقة شديدة.

وفى ضوء القمر الكامل، طمأنت ابتسامة ميهى النوبى، الذى أعاد سلاحه إلى حزامه.

وبسرعة أفعى الرمال، انطلق ضابط المركبات برأسه إلى الأمام، وانقض به على الجندى فى صدره.

هوى الجندى البائس إلى الخلف، وتدحرج من على التل إلى أن سقط على أرض مسطحة بالقرب من الوادى.

وتبعه ميهى، برغم أنه كان يجازف بالسقوط. وعندما رأى أنه لا يزال حيا برغم جرح غائر فى رقبته، قام، متجاهلا نظرة الرجاء فى عينى ضحيته، بالقضاء على آخر نفس فيه مستخدما حجرًا مدببا، حطم به رأسه.

بدون تأثر مما حدث، انتظر القاتل دقائق. وعندما تأكد أن أحدا لم يكتشفه، عاد يتسلق قمة التل بدون أن يترك أثرا وراءه. وبحذر أكبر، ابتعد عن المنطقة المحرمة.

منذ تلك الليلة المثيرة، لم يعد فى عقل ميهى إلا فكرة واحدة: كشف غموض ساحة الحقيقة!

ولكن كيف يصل إلى ذلك وحده؟ إذا كان لا يستطيع دخول القرية، فإن عليه إيجاد وسيلة للحصول على معلومات مهمة.

وهكذا حلم القائد بمستقبل رائع: أن تصبح أسرار وثروة الجماعة ملكه، وملكه وحده!

* * *

الفصل الأول

العمل فى الأرض بعد الفيضان شاق جدا: بذر البذور ثم الحصاد وجنى المحصول، وملء المخازن بالحبوب.. الخوف من الجراد والقوارض وأفراس النهر التى تقضى على المحصولات، الرى وصيانة الأدوات، تضفير الحبال خلال الليل بدلا من الخلود إلى النوم، والإشراف على المواشى والدواب.. القلق المستمر الذى يشعر به الفلاح على أرضه، فلا يرى أى طموحات أخرى غير التأكد من جودة القمح وصحة البقر.. آردون لم يعد يتحمل هذه الحياة الرتيبة.

تحت ظلال شجرة الجميز، وعند التقاء الأرض الخضراء بالصحراء، جلس الشاب، ولكنه لم يستطع أن يغفو أو يخلد إلى الراحة التى يستحقها قبل أن يعود إلى مراعى عائلته للعناية بالمواشى. فإن آردون، هذا الشاب الذى يبلغ السادسة عشر من عمره، والذى طالت قامته لتصل إلى مائة وتسعين سنتيمترا كأنه عملاق، لم يكن يرغب فى تحمل حياة الفلاح مثل والده وأجداده من قبل.

كان يأتى يوميا إلى هذا المكان الهادئ وبقطعة خشب شكلها بنفسه، كان يرسم بها على الرمال صورا لحيوانات. أن يرسم، ذلك هو ما كان يعشقه ويقضى فيه الساعات الطوال، ثم يلون رسمه ليتحول إلى حمار أو كلب أو واحد من آلاف الحيوانات الأخرى!

كان آردون يعرف كيف يراقب ويتابع. وكانت رؤياه تدخل قلبه، الذى بدوره يعطى الأمر ليده كى تتحرك بكل حرية وتخط أشكالا تتحول إلى لوحات مملوءة بالحياة أكثر مما فى الواقع. كان لابد أن يحصل الشاب على ورق بردى وسكين وبعض الأصباغ.. ولكن والده مزارع، وعندما أوضح له الشاب المراهق رغباته، ضحك ملء شدقيه.

لم يكن هناك إلا مكان واحد، يستطيع فيه آردون الحصول على كل ما يريده، وهو: ساحة الحقيقة. هذا المكان الغامض المغلق أمام الجميع، فلم يكن أحد يعرف أى شىء عما يجرى داخل محراب القرية، باستثناء أن كبار الحرفيين فى المملكة ورساميها كانوا يتجمعون هناك، فقط هؤلاء الذين كلفوا بتزيين مقبرة فرعون.

لم يكن لدى ابن الفلاح أى فرصة للدخول وسط تلك الجماعة الرائعة. وبرغم ذلك، لم يستطع الشاب أن يمنع نفسه من أن يحلم بالسعادة التى يشعر بها كل هؤلاء الذين يستطيعون أن يكرسوا حياتهم تماما لموهبتهم، وينسوا التفاهات اليومية.

* * *

- مرحى يا آردون، أتستمتع بوقتك؟

كان هذا الذى ما برح يتحدث إلى آردون بتلك اللهجة الساخرة، يدعى روستو، وكان فى العشرين من عمره، كبير الحجم، قوى العضلات، يرتدى لباسا قصيرا، ويقف بجانبه شقيقه الأصغر، جروس جاريه، مبتسما ابتسامة بلهاء. كان جروس يبلغ من العمر خمسة عشر عاما، لكنه كان يزن عشرة كيلوجرامات أكثر من شقيقه الأكبر، بسبب كل تلك الحلوى التى يلتهمها كل يوم.

- اتركانى وحدى أنتما الاثنان.

- ولكنك لا تملك هذا المكان.. ومن حقنا أن نأتى هنا.

- أنا لا أريد أن أراكما.

- ولكننا نحن نريد أن نراك. وعليك أن توضح موقفك.

- أى موقف؟

- كأنك لا تعرف.. أين كنت فى الليلة الماضية؟

- أتعتقد أنك شرطى؟

- ناتى.. هل هذا الاسم يعنى لك شيئا؟

ابتسم آردون.

- ذكرى رائعة.

تقدم روستو خطوة فى اتجاه آردون.

- أيها القذر! تلك الفتاة ستتزوجنى.. وأنت تجرأت الليلة الماضية و..

- هى التى جاءت تبحث عنى.

- أنت كذاب!

وقف آردون.

ـ لا أقبل أن يتهمنى أى شخص بالكذب .

ـ بسببك ، لن أتزوج من عذراء .

ـ وما أهمية ذلك؟ إن كانت ناتى تحمل بعض الذكاء ، فلن تتزوجك!

كشف روستو وجروس جاريه عن سوط من الجلد . كان السوط قصيرا ، لكنه كان يثير الخوف !

ـ انتظر قليلا ـ أقترح آردون ـ لقد أمضينا ناتى وأنا وقتا ممتعا معا ! هذا حقيقى ، ولكن الطبيعة هى التى أرادت ذلك . ولكى أكون لطيفا معك فإننى سأقبل ألا أراها بعد اليوم . وبصراحة ، لن أفتقدها .

ـ سنقوم بتشويه وجهك ـ قال روستو ـ ومع سحنتك الجديدة لن تستطيع إغواء أى فتاة أخرى بعد اليوم .

ـ لن يضيرنى أن أصلح من شأن اثنين من الأغبياء ، ولكن الطقس حار ، وأنا أفضل أن أكمل نوم القيلولة .

انقض جروس جاريه على آردون رافعا ذراعه اليمنى . ولكن فجأة تراجع هدفه من أمامه ، ورفعه إلى أعلى ثم قذف به فى الهواء ، فسقط برأسه على جذع شجرة الجميز . ومات فى الحال .

بعد ثوان من الدهشة ، تحرك روستو . فقام بالتلويح بالسوط فى الهواء ، وتصور أنه استطاع تمزيق وجه آردون ، ولكن ذراعه توقفت عندما أمسك بها العملاق الشاب بكل قوة إلى أن كسر كتفه . وهكذا انتهى الصراع قصير الأمد ، وترك روستو السوط الجلدى وهرب وهو يصيح من الألم .

لم تظهر نقطة عرق واحدة على جبين آردون . فقد تعود على القتال منذ أن كان فى الخامسة من عمره ، وبعد أن تعرض لعدة تجارب عنيفة تعلم كيف تكون ضرباته قاضية . ولأنه كان متأكدا من قوته ، لم يحاول أبدا استفزاز أحد ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يتراجع قط عن أى معركة . فإذا كانت الحياة لم تهده بأى هدية ، فهو أيضا لن يهدى أحدا .

ولكن ، عندما مرت بخاطر آردون فكرة قضاء فترة الظهيرة فى المراعى ، يعود بعدها إلى المنزل حاملا الحليب وبعض الأخشاب الجافة ، شعر باكتئاب شديد .

والغد ينبئ بأنه سيكون أسوأ من اليوم ، وأكثر بهتانا ، وأقسى رتابة . وبدأ الشاب يشعر بروحه تنسحب منه وكأن دماءه تتسرب منه ببطء . كم هى مهمة تلك الأرض الزراعية التى

تملكها عائلته! يحلم والده بقمح ناضج وأبقار حلوبة، ويحسده الجيران على نجاحه، والفتيات يتصورن آردون وريثا غنيا يستطيع مع قوته الجسدية أن يضاعف إنتاجه ويصبح ثريا. وكن يحلمن بالزواج من فلاح غنى، وبذرية كثيرة تضمن لهن شيخوخة سعيدة.

الآلاف يكتفون بذلك المصير، ولكن آردون ليس من هؤلاء، بل على العكس، يشعر به يطبق عليه ويخنقه أكثر من جدران السجن. ومضى الشاب إلى الصحراء، ناسيا كل تلك المواشى التى سترعى بدونه، مثبتا نظره على قمة الجبل التى كانت تهيمن على البر الغربى لمدينة طيبة، أغنى مدن الإله آمون حيث شيدت مدينة الكرنك المقدسة، وعاش فيها العديد من المتعبدين.

على البر الغربى، يمتد وادى الملوك والملكات والنبلاء الذى يضم مقار الأبدية لكل تلك الشخصيات البارزة، كما يضم معابد الفراعنة لآلاف السنين، منها الرامسيوم، معبد رمسيس الأكبر.. ألم يتردد أنهم يعملون يدا بيد مع الآلهة وفى حمايتهم؟

فى أعماق الكرنك السرية، كما فى أبسط المعابد، كانت الآلهة تتحدث، ولكن من يفهم حقيقة رسالتهم؟ آردون، استطاع أن يفك لغز العالم من خلال الرسم على الرمال، ولكنه ما زال يفتقد الكثير من العلم والمعرفة من أجل أن يحقق تقدما.

هذا الظلم، هو لن يقبله. لماذا تتحدث الآلهة المختفية فى أعالى البر الغربى إلى فنانى ساحة الحقيقة؟ ولماذا تبقى صامتة عندما يستجديها هو أن تلبى نداءه؟ غرق الجبل فى ضوء الشمس، تاركا إياه فى وحدته، إذ كيف يتسنى لخليلاته الشابات اللاتى يشعرن بنهم الشهوة، أن يفهمن هذه الآمال التى يعتمل بها صدره؟

ولكى ينتقم، قام بحفر خطوط فى الرمال بكل الدقة التى يملكها، ثم أزالها بقدمه بغضب شديد وكأنه يدمر معا تلك الآلهة الصامتة ومشاعره بعدم الرضا.

ولكن قمة الغرب ظلت كما هى، عظيمة ومغلقة لا يستطيع أحد اختراقها. وبرغم قوة آردون الجسدية، شعر بالتفاهة. لا، لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا.

هذه المرة والده سيستمع إليه.

* * *

الفصل الثانى

جاء سوبيك من النوبة البعيدة مسقط رأسه، لينضم إلى قوات الشرطة عندما كان فى السابعة عشرة من عمره. كان كبير الحجم، رياضى البنية، ممتازا فى تعامله بالهراوات، لذلك، استطاع الشاب الأسود ذو الهيبة الجميلة أن يجذب نظر رؤسائه، وأن يكشف عن كل مميزاته خلال فترة التدريب التى قضاها فى صفوف شرطة الصحراء، فقد استطاع أن يلقى القبض على أكثر من عشرين بدويا من اللصوص، منهم ثلاثة من الخطرين، الذين تخصصوا فى الهجوم على القوافل.

جاءت ترقية سوبيك سريعة: فعندما بلغ الثالثة والعشرين عين قائد قوات الأمن المسئولة عن ضمان حماية ساحة الحقيقة. والواقع أن ذلك المنصب لم يكن أبدا مطمعا للضباط بسبب جسامة المسئوليات المفروضة والتى تحظر على شاغل المنصب ارتكاب أى خطإ. فلا يجب أن يدخل وادى الملوك أى كائن مدنس، أو أى فضولى يتسبب وجوده فى إثارة الاضطراب فى الهدوء الذى يلف قرية الحرفيين. وكان على سوبيك أن يتجنب أى حادث، وإلا عوقب فى الحال بأمر من الوزير.

كان مكتب النوبى فى أحد الحصون التى كانت تمنع الدخول إلى ساحة الحقيقة. وبرغم أنه كان يقرأ ويكتب، فإنه لم يكن لديه أى اهتمام خاص لقصاصات الورق ولترتيب التقارير المهمة التى تركها لمرءوسيه. كان المكتب يتكون من منضدة مستديرة، وثلاثة مقاعد صغيرة بلا ظهر، وهو ما قدمته الإدارة لتأثيث المكتب، وهى أيضا التى تقوم بتنظيفه وصيانته.

كان سوبيك يقضى معظم وقته فى الموقع، يتنقل بين التلال التى تطل على المواقع المحرمة، حتى فى قيظ الشمس. كان يعرف كل درب وكل قمة وكل منحدر فيها، ولم يكف أبدا عن استكشاف المكان. فكان من مهامه إلقاء القبض على كل من يثير الريبة بوجوده فى مكان محظور، ويتم استجوابه بدون مداورة، ثم ينقل إلى البر الغربى حيث

تحكم محكمة الوزير عليه بعقاب صارم.

ابتداء من الساعة السابعة يستقبل النوبى حراس الليل، ويوجه إليهم هذا السؤال: «هل هناك أى بلاغات؟» يردون: «لا شيء، يا ريس»، ثم يذهبون للنوم.

ولكن فى هذا الصباح، لم يخف الحارس الأول إحراجه، فقال:

ـ هناك مشكلة، يا ريس.

ـ وضح كلامك.

ـ لقد مات أحد رجالنا تلك الليلة.

ـ هجوم؟ قال سوبيك بقلق.

ـ بالتأكيد لا.. وإلا كنا استطعنا الوصول إلى المجرم. هل تريد أن ترى الجثة؟

خرج سوبيك من المكتب ليعاين جثة الرجل البائس.

ـ الجمجمة محطمة، جرح عند الصدغ. قال ملاحظا.

أشار الحارس قائلا: ليس غريبا أن يصاب بمثل تلك الإصابات بعد سقوطه من فوق التل. كانت تلك أول نوبة حراسة ليلية له، ولم يكن يعرف المنطقة جيدا. فتزحلق ووقع على الحجر الكبير، وتدحرج على المنحدر. هذه ليست أول حادثة من نوعها، ولن تكون الأخيرة.

قام سوبيك باستجواب الحراس الآخرين: لم يلاحظ أحد وجود أى متسلل. وكان واضحا أن ما حدث كان نتيجة لحادث بشع.

* * *

ـ ماذا تفعل هنا يا آردون؟ كان يجب أن تكون فى المرعى!

ـ لقد انتهى ذلك يا أبى.

ـ ماذا تقصد؟

ـ لن أخلفك فى هذا العمل.

كان المزارع جالسا على الحصير، فوضع أمامه ألياف البردى التى كان يصنع منها حبلا، ونظر إلى ابنه وقال غير مصدق:

ـ هل جننت؟

ـ إن عمل الفلاح يصيبنى بالملل.

ـ لقد قلت أنت نفسك مائة مرة إن المرء لا يستطيع أن يقضى وقته كله يستمتع! الحقيقة أننى لم أعرف أبدا أفكارا غريبة مثل أفكارك، ولقد اكتفيت بالعمل الشاق من أجل إطعام عائلتى. فأسعدت أمك، وربيت أربعة أطفال، شقيقاتك الثلاث وأنت، وأصبحت مالكا لتلك المزرعة وأراض واسعة.. ألا ترى أن كل ذلك نجاح جميل؟ وبعد موتى لن تشعر بالحاجة وستشكرنى ما تبقى من حياتك. أتعرف أن العام الحالى عام خير وفير والسماء كريمة والإنتاج سيكون وفيرا؟ كما أننا لن ندفع ضرائب كثيرة بعد أن منحتنا مصلحة الضرائب تسهيلات. لا أتصور أنك تنوى أن تدمر كل هذا!

ـ أنا أريد أن أبنى حياتى.

ـ دعك من الكلمات الكبيرة. هل تتصور أن الأبقار ستتغذى من تلك الكلمات؟

ـ الأبقار سترعى بدونى، وأنت لن تتعب فى إيجاد من يحل مكانى.

قال المزارع فى صوت مرتجف بسبب القلق الذى استبد به:

ـ ماذا حدث لك يا آردون؟

ـ أنا أريد أن أرسم.

ـ ولكنك فلاح، وابن فلاح! لماذا تبحث عن المستحيل؟

ـ لأنه مصيرى.

ـ كن حذرا يا بنى: هناك نار شريرة تشتعل داخلك. إن لم تخمدها ستحرقك.

ابتسم آردون ابتسامة حزينة وقال:

ـ أنت مخطئ يا والدى.

أمسك المزارع بثمرة بصل وقضمها بأسنانه. وسأله قائلا:

ـ ماذا تريد حقيقة؟

ـ أن أنضم إلى جماعة ساحة الحقيقة!

ـ لقد جننت يا آردون!

ـ هل ترى أننى غير قادر على ذلك؟

ـ غير قادر، غير قادر، أنا لا أعرف! ولكنه الجنون. . فليس لديك فكرة عن الحياة المرعبة التى يعيشها هؤلاء الحرفيون! لقد فرضت عليهم السرية، وحرموا من الحرية، وأرغموا على طاعة رؤسائهم القساة. . لقد كسر الصخر ذراع أحد النحاتين بسبب الإرهاق، وتنتشر الآلام فى فخذيه وظهره. إنهم يموتون من العمل المضنى! وماذا عن المثالين؟ إن استخدام المقص أكثر إنهاكا من تقليب الأرض بالفأس. وفى الليل يستمرون فى العمل على ضوء الفوانيس، ولا يستريحون يوما!

ـ يبدو أنك تعرف الكثير عن ساحة الحقيقة.

ـ هذا ما يرددونه. . لماذا لا تريد أن تصدقه؟

ـ لأن الإشاعات دائما كاذبة.

ـ أتعطينى يا بنى درسا فى الأخلاق! اسمع نصيحتى تسلم. بشخصيتك الصعبة تلك، كيف ستتحمل الالتزام بالقواعد؟ إنك ستتمرد من اللحظة الأولى! كن فلاحا مثلى، ومثل أجدادك، وستكون سعيدا بقية حياتك. مع تقدم العمر ستهدأ وستضحك من تمردك فى فترة المراهقة.

ـ إنك يا أبى غير قادر على فهمى. ولا فائدة من الاستمرار فى هذا الحديث.

قذف المزارع ثمرة البصل بعيدا.

ـ والآن هذا يكفى. أنت ابنى، وعليك طاعتى.

ـ الوداع.

أدار آردون ظهره إلى والده الذى أمسك بآلة من الخشب وضربه على ظهره.

استدار الشاب ببطء.

ما رآه المزارع فى عينى العملاق الشاب أرعبه، وجعله يتراجع إلى أن التصق بالحائط.

فجأة ظهرت سيدة صغيرة الحجم تملأ التجاعيد وجهها، وقفزت بينهما من الخلف حيث كانت مختبئة، وأمسكت بذراع ابنها اليمنى، وصاحت:

ـ لا تهاجم أباك، أتوسل إليك!

قبلها آردون على جبهتها، وقال :

ـ أنت أيضا يا أمي ، لا تفهمينني، ولكني لا ألومك. اطمئني، إنني راحل ولن أعود مرة أخرى.

صاح والده محذرا :

ـ إذا خرجت من هذا البيت فسأتبرأ منك !

ـ إن هذا من حقك .

ـ سينتهي بك الحال بائسا!

ـ هذا لا يهمني!

وعندما تخطى عتبة منزل عائلته، أدرك آردون أنه لن يعود أبدا .

عندما توجه آردون إلى الطريق الذي يمتد داخل مزارع القمح، بدأ يتنفس بعمق. فأمامه انفتح عالم جديد.

* * *

الفصل الثالث

خرج آردون من الأراضى الزراعية وتوجه نحو ساحة الحقيقة. لم تخفه حرارة الشمس المحرقة ولا جفاف الصحراء. كان الشاب يأمل أن تفتح له أبواب القرية عندما يدق على بابها.

فى هذا الوقت من نهاية اليوم، لم يكن هناك أحد فى الطريق الذى شهد آثار حوافر الحمير التى كانت تحضر يوميا الماء والطعام وكل ما تحتاج إليه الجماعة من أجل أن تعمل «بعيدا عن العيون والآذان».

كان آردون يحب الصحراء. كان يتشرب من قوتها الصارمة، ويشعر بروحها تتردد فى وحدة واحدة مع روحه، فكان يسير فيها لأيام عديدة دون أن يشعر بالتعب، مستمتعا بإحساس تلامس الرمال الحارقة مع قدميه العاريتين.

ولكن هذه المرة لم يبتعد الشاب كثيرا. فلقد أوقفته أولى القلاع الخمس التى تحمى ساحة الحقيقة. وشعر آردون بعيون الحراس الذين كان يراقبون كل خطواته، فقرر أن يتوجه مباشرة إلى الحارس. إذ من الأفضل أن يواجه الحراس ويعرف إلى أى مدى يمكن أن يأمل أن يذهب.

خرج من القلعة جنديان من حاملى الأقواس. واستمر آردون فى سيره، ذراعاه بجانبيه حتى يعرفا أنه ليس مسلحا.

ـ قف!

توقف الشاب.

اقترب أكبر القواسين، وهو نوبى، من آردون. أما الآخر فقد ظل مكانه حاملا قوسه مُوجَهًا إليه.

ـ من أنت؟

ـ اسمى آردون، وأرغب فى طرق باب جماعة ساحة الحقيقة.

ـ أتحمل بطاقة مرور؟

ـ لا.

ـ من الذى أوصى بك؟

ـ لا أحد.

ـ هل تسخر منى أيها الفتى؟

ـ إننى أستطيع الرسم وأريد أن أعمل فى ساحة الحقيقة.

ـ هذه المنطقة محرمة، أنت تعرف بلا شك.

ـ أريد أن أقابل أحد الأساتذة الحرفيين لكى أثبت له موهبتى.

ـ إن لدى أوامر. إن لم ترحل حالا فسألقى القبض عليك بتهمة تحدى الشرطة.

ـ ليس لدى أى نية سيئة.. اسمح لى أن أجرب حظى!

ـ ارحل من هنا!

ألقى آردون نظرة على التلال المحيطة بهم. ولكن القواس النوبى حذره قائلا:

ـ لا تأمل فى أن تندس فى تلك المنطقة، فستقتل.

كان آردون يستطيع أن يقتل الحارس بضربة واحدة بقبضته، وينبطح على الأرض لتلافى سهم زميله، ثم يقتحم المكان. ولكن كم من القواسين يجب عليه أن يواجه قبل أن يصل إلى بوابة القرية؟

فعاد إلى طريقه يائسا.

ما أن ابتعد عن أنظار الحراس، حتى جلس على صخرة، وقرر أن يراقب ما يحدث عند المكان، ربما يصل إلى فكرة يستطيع من خلالها الدخول إلى القرية.

ظلت أم آردون تبكى لساعات، دون أن تتمكن أى من بناتها من التخفيف عنها. أما الأب فقد اضطر إلى أن يعين ثلاثة فلاحين محل العملاق الشاب فى العمل. كان الأب

غاضبا غضبا شديدا، لا يخفى، على ذلك الابن العاق. فتوجه إلى الكاتب العام لكى يملى عليه كتابا يوجهه إلى مكتب الوزير. أملى المزارع على الكاتب فى كلمات واضحة وحاسمة، كما يسمح له القانون، قراره بحرمان ابنه آردون من ميراثه على أن تعود كل أملاكه إلى زوجته التى من حقها التصرف فيها كما تشاء. وإذا توفيت قبله، ترث البنات الثلاث التركة بالتساوى بينهن.

ولكن تلك الوصية لم تكن كافية لتشفى غليل المزارع الذى أهانه ابنه وتلاعب به. وإذا كان آردون قد جن، فيجب إعادته إلى رشده. لم يجد المزارع وسيلة أخرى أفضل من استخدام القوة الجبرية لسلطة غير قابلة للمناقشة.

توجه والد الشاب المتمرد إلى الشخص المسئول عن السخرة، وهو كاتب دقيق فى عمله، سليط اللسان مثير للاشمئزاز. فهو مسئول عن منصب صعب ولكنه قليل الربح، وحاول مرارا بكل الطرق الملتوية أن يحصل على ترقية ليعمل فى المدينة عند البر الشرقى ولكن بلا نتيجة. عمل فى هذا المكان شهورا عديدة سبقت الفيضان. فكان مسئولا عن تشغيل العمال من أجل شق الترع وإصلاح السدود. وبرغم ذلك لم يكن يحصل إلا على أقل الأجور. ولأن المتطوعين كانوا قلة، فكان عليه إجبار عمال السخرة على العمل، وإقناع أصحاب الأراضى بإعطائه بعضا من عمالهم مقابل أن يخفض لهم الضرائب. كانت المفاوضات طويلة ومؤلمة ومتعبة.

لذلك فعندما رأى الكاتب والد آردون يدخل مكتبه توقع منه مرثية طويلة عريضة ومطالب عديدة، كان مستعدا لرفضها كلها مرة واحدة كما فعل دائما. ولكن المزارع طمأنه قائلا:

ـ لم آت إلى هنا لكى أضايقك، بل لكى أطلب مساعدتك.

أجاب الموظف:

ـ غير ممكن. فالقانون هو القانون، ولا يمكننى أن أمنحك أى مميزات، برغم أننا نعرف بعضنا بعضا منذ سنوات عديدة. ولكن إذا قام مالك واحد برفض السخرة، هذا الشكل الأساسى للعمل، فسنفقد الطمى ومميزاته وستدمر مصر!

ـ إننى لا أعترض على شيء، ولكنى أريد أن أتحدث معك عن ابنى.

ـ ابنك؟ ولكنه استثنى من السخرة!

ـ لقد رحل عن المزرعة .

ـ إلى أين ذهب؟

ـ لا أعرف . . يتصور أنه رسام . كم أنت مسكين يا آردون ، فلقد جننت !

ـ أتقول إنه لم يعد يعمل فى المزرعة أو فى المراعى؟

ـ نعم ، للأسف الشديد .

ـ ولكن ذلك جنون!

ـ والدته وأنا منهاران تماما ، ولكننا لم نستطع منعه من الرحيل .

ـ يكفى أن تضربه بالعصى قليلا ، وينتهى الأمر!

ولكن المزارع قال وقد خفض رأسه :

ـ لقد حاولت ، ولكن آردون ، قوى البنية مثل العملاق . . وأصبح هذا الابن العاق عنيفا! لقد كنت متأكدا أنه على وشك أن يضربنى .

صاح الكاتب مستنكرا :

ـ ابن يضرب أباه ؟! يجب اقتياده للمحكمة ، ومعاقبته .

ـ لدى فكرة أخرى .

ـ أنا منصت .

ـ بما أنه لم يعد ابنى ، وبما أنه غادر المنزل ، فلماذا استثناؤه من السخرة بعد الآن؟

ـ سأقوم باستدعائه ، اعتمد على .

ـ نستطيع أن نقوم بأكثر من ذلك .

ـ لا أفهم .

قال المزارع هامسا :

ـ هذا المجرم فى حاجة إلى درس قاس ، ألا تعتقد ذلك؟ إذا قمنا بمعاقبته بقسوة ، فإن هذا التحذير سيمنعه من ارتكاب أخطاء كبيرة . وإذا لم نتدخل ، فأنا وأنت سنُعَدّ مسئولين .

اهتم الكاتب بما يقول المزارع وتساءل :

ـ ماذا تقترح؟

ـ تصور أنك استدعيت آردون للعمل فى السخرة ورفض المثول . . فإنه سيُعَدّ هاربا من العمل . فى هذه الحالة تستطيع أن تضعه فى السجن مع بعض المجرمين الأشقياء الذين سيعلمونه درسا لا ينساه .

ـ من الممكن أن نقوم بذلك . . ولكن ما المقابل؟

ـ بقرة حلوب .

شعر الكاتب ببعض الارتياح . ثروة صغيرة مقابل عمل سهل .

ـ اتفقنا .

ـ سوف أضيف بالطبع بعض القفاف من الحبوب . لا تدمر آردون تماما . . فكل ما أطلبه هو أن يعود إلى العمل فى المزرعة .

* * *

الفصل الرابع

سقطت ثمرة من عيش الغراب الندية على جبين آردون، ففتح عينيه.

وجاء كلب ذو شعر رمادى يتشمم الدخيل النائم. لم تشرق الشمس بعد، وهبت رياح باردة على البر الغربى قادمة من مدينة طيبة والطريق الذى يقود إلى ساحة الحقيقة.

داعب الشاب الكلب، وعندما سمع أصوات حوافر تقترب، ابتعد. مر قطيع من مائة حمار يسير بخطوات منتظمة، يحمل الطعام ومتجها إلى قرية الحرفيين. كان الحمار الذى يقود القطيع يعرف طريقه تماما، وكان يقوده فى خطوات واثقة.

تابع آردون القطيع بكثير من الإعجاب. فقد كان، مثله، يعرف وجهته، ولكن، بعكسه، كان القطيع يتجاوز كل العوائق والحراس فى القلاع.

وراء القطيع الأول ببضع خطوات، سار قطيع آخر يضم خمسين حمارا آخر من حاملى قرب المياه. وكان المسئول عنهم يسير وراءهم يحمل فى يمناه عصا تساعده على تنظيم خطوة الحيوانات وإبعاد الأفاعى، وعلى كتفه اليسرى قربة مياه تحمل بضعة لترات من المياه.

ترك الكلب ذو الفروة الرمادية آردون وتوجه ليسير مع سيده، رجل مسن يتحرك بصعوبة. توجه الشاب إليه وقال له:

ـ هل أستطيع مساعدتك؟

ـ إن ذلك عملى، يا فتى.. قد لا يستمر طويلا، ولكنه يكفينى لكى أعيش قبل عودتى إلى موطنى فى الدلتا. إذا ساعدتنى، فلن أستطيع أن أكافئك.

ـ هذا ليس مهما.

على أكتاف آردون بدا الحمل خفيفا كريش الإوز المقدس؛ إوز الإله آمون.

ـ أتقوم بهذا العمل نفسه كل يوم؟

ـ نعم، أيها الفتى. فالحرفيون فى ساحة الحقيقة يجب ألا ينقصهم شىء، وبخاصة الماء! وبعد الكمية التى ننقلها لهم فى الصباح، وهى الأهم، هناك عدة نقلات خلال اليوم. وإذا زاد احتياجهم للمياه لسبب ما، فنقوم بزيادة عدد الحمالين. إننا لسنا المساعدين الوحيدين الذين يعملون من أجل ساحة الحقيقة. فهناك الذين يقومون بالغسيل والخبيز والجزارة. وهناك صناع البيرة، والحدادون، والحطابون، والنساجون، والدباغون وآخرون كثيرون! فإن فرعون حريص على أن يتمتع الحرفيون اليدويون بأفضل وسيلة معيشة ممكنة.

ـ هل دخلت بالفعل إلى القرية؟

ـ لا. فإننى سقاء، وأقوم بملء الخزان الكبير أمام المدخل الشمالى. هناك خزان آخر بالقرب من الجدار الجنوبى. يأتى سكان ساحة الحقيقة إلى هذا المكان لملء قربهم.

ـ من الذى يستطيع أن يعبر المدخل؟

ـ فقط أعضاء الجماعة، أما المساعدون فيبقون فى الخارج. ولكن لماذا تسأل كل تلك الأسئلة؟

ـ لأننى أريد أن أدخل مع الجماعة لأكون رساما.

ـ لن تستطيع أن تفعل ذلك عن طريق حمل المياه!

ـ يجب أن أطرق الباب الرئيسى، أقابل أحد الحرفيين؛ لكى أشرح له. .

ـ لا تعتمد على ذلك! فهؤلاء الأشخاص لا يتكلمون كثيرا، ولا يرحبون بأحد، كما أن هيئتك لن تعجبهم بالتأكيد. وسيكون مصيرك قضاء بعض الشهور على الأقل فى السجن. ولا تنس أن الحراس يعرفون كل سقاء .

ـ هل تحدثت مع أى من الأعضاء؟

ـ بعض الكلمات المتناثرة حول الطقس والعائلة.

ـ ألم يتكلموا معك عن عملهم؟

ـ هؤلاء الأشخاص يعملون فى صمت، يا فتى، ولم ينكث أحد منهم بالعهد الذى قطعه على نفسه. هذا الذى يتكلم كثيرا يطرد مباشرة من هنا.

ـ هناك بالتأكيد أعضاء جدد!

ـ هذا من الأمور النادرة. يجب أن تستمع لى وتنسى أحلامك. . هناك أشياء تستطيع أن تقوم بها أفضل كثيرا من أن تسجن نفسك فى ساحة الحقيقة لكى تعمل ليل نهار من أجل مجد فرعون. إذا فكرت جيدا فستجد أنها ليست حياة تحسد عليها. أنت شاب وسيم وتستطيع أن تجذب الفتيات. استمتع بحياتك لعدة سنوات، تزوج مبكرا ليصبح لك أطفال يتصفون بالجمال، وابحث عن عمل جيد، ليس متعبا مثل عمل السقاء.

ـ أهناك نسوة فى القرية؟

ـ نعم، هناك نساء لديهن أطفال، ولكنهن يعشن حسب قوانين ساحة الحقيقة، مثل الرجال. العجيب أنهن لا يتحدثن كثيرا عن حياتهن.

ـ هل رأيتهن؟

ـ البعض منهن.

ـ هل هن جميلات؟

ـ هناك من كل الأشكال. . ولكن لماذا الإصرار؟

ـ إذن، فمن حقهن الخروج من القرية؟

ـ كل سكان القرية لديهم هذا الحق. إنهم يتحركون بحرية بين ساحة الحقيقة والقلعة الأولى. وأحيانا يتصورون أنفسهم عند البر الشرقى، ولكن كل ذلك لا يهمنى.

ـ إذن، قد أستطيع مقابلة أحد الحرفيين!

ـ يجب أن تتأكد أولا أنه عضو حقيقى بالجماعة، فهناك الكثير من المدعين. وبعد ذلك، هم لن يوافقوا أبدا على التحدث معك.

ـ كم عدد القلاع هناك؟

ـ خمس. إننا نطلق عليهم أيضا كلمة «الجدران الخمسة»، فهناك نفس العدد من نقاط الحراسة حيث يراقب الحراس كل من يقترب من القرية. الإجراءات قوية، صدقنى، وحتى التلال تقع تحت المراقبة الدقيقة، خاصة منذ تعيين سوبيك رئيس الشرطة الجديد. إنه ضابط نوبى، يبدو ناقما ومصرا على إثبات كفاءته. ومعظم الرجال الذين يعملون

تحت سلطته من نفس قبيلته، وهم يطيعونه طاعة عمياء. بمعنى آخر، لن تستطيع إفسادهم. فهم يخافون منه إلى درجة أنهم على استعداد لإفشاء اسم المفسد فى الحال.

آردون اتخذ قراره: يجب عليه أن يصل بأى شكل إلى القلعة الأولى ويتحدث إلى أى شخص من الداخل.

- إذا أكدت لهم أنك مريض وأننى أحد أقاربك أتيت لكى أساعدك على حمل المياه، هل سيتفهم الحراس ذلك؟

- يمكن أن نجرب، ولكن ذلك لن يقودك إلى شىء.

عندما لاحظ آردون الحراس عند القلعة الأولى، أدرك أن القدر يلعب فى صالحه: فلقد تغير الحرس والقواسون، لذا فلن يتعرف الجدد عليه.

عندما اقتربا منهم وكان السقاء المسن يسير مستندا على ذراع آردون، قال له الحارس الأسود:

- إنك تبدو مريضا.

- لم أعد أملك أى قوة.. لذا طلبت من هذا الشاب أن يساعدنى.

- هل هو من عائلتك؟

- إنه أحد أبناء إخوتى.

- هل تضمنه؟

- إننى سأتوقف قريبا عن العمل، وهو اقترح أن يحل محلى.

- توجه إلى نقطة المراقبة الثانية.

أحرز آردون انتصارا أوليا! كان على حق عندما قرر أن يثابر. وإذا استمر الحظ يخدمه هكذا، فإنه بالتأكيد سيستطيع رؤية القرية عن قرب، ومقابلة أحد الحرفيين الذى سيفهم موهبته.

كانت النقطة الثانية أكثر دقة من الأولى، والثالثة أكثر. وقد لاحظ الجنود أن السقاء لم يكن يدعى الإرهاق. وبما أنه لابد من توفير المياه، وأن أيا من رجال الشرطة لن يقبل أن يترك نقطة مراقبته لكى يقوم بهذا العمل المرهق، لذا تركوا الرجلين يمران.

عند النقطة الرابعة تمت إجراءات شكلية، ولكن عند النقطة الخامسة والأخيرة، تصاعد نشاط مكثف. رجال من المساعدين يقومون بإنزال حمولاتهم من على ظهر الحمير، وفرز المقاطف والأوانى المليئة بالخضراوات والأسماك المجففة، واللحوم والفواكه والزيوت والمراهم.

تعالى فى كل مكان صياح الناس، من ضحكات ونكات ومن الحث على الإسراع.. وقام أحد رجال الشرطة بدعوة السقاء إلى التقدم لكى يسكب حمله الثقيل من المياه فى إناء ضخم أثار إعجاب آردون. ترى أى عامل فخار فنان استطاع أن يصنع هذا الإناء بهذا الحجم الكبير؟

بالنسبة للشاب كان ذلك هو أول معجزة يراها لساحة الحقيقة.

* * *

الفصل الخامس

اقترب رجل قصير وسمين من آردون .

ـ أنت تبدو لى مندهشا ، يا بنى .

ـ من الذى صنع هذا الإناء الضخم؟

ـ أحد عمال الفخار الحرفيين الذين يعملون فى ساحة الحقيقة .

ـ كيف قام بهذا العمل؟

ـ لديك فضول كبير .

انفرجت أسارير آردون . فبدون أى شك ، هو الآن يقف أمام أحد فنانى القرية!

ـ لا ، إن ذلك ليس فضولا! إننى أريد أن أكون رساما وأنضم إلى الجماعة .

ـ حقيقى؟ . . تعال واشرح لى ذلك .

قاد الرجل القصير آردون عبر النقطة الخامسة والأخيرة من نقاط التفتيش ، ومرا بصفين من الورش حيث يعمل إسكافيون ونساجون وحدادون . دعا الرجل آردون للجلوس على مسطح حجرى عند سفح تل صخرى .

ـ ماذا تعرف عن ساحة الحقيقة يا بنى؟

ـ لا شىء ، أو القليل . . ولكننى على يقين أن ذلك المكان هو المكان الذى يجب أن أعيش فيه .

ـ ولماذا تتصور ذلك؟

ـ إن عشقى الوحيد هو الرسم . هل تريد أن ترى؟

ـ هل تستطيع أن ترسم وجهى فى الرمال؟

وبــدون أن يخفض عـينيه عن وجه الرجل، قـام آردون برسم الشكل بدقة بمساعدة حجر مدبب.

ـ والآن ما رأيك؟

ـ تبدو موهوبا. أين تعلمت الرسم؟

ـ لم أتعلمـه! فـأنا ابن مـزارع، ولطالما قـضـيت السـاعـات أرسم كل مـا أراه. ولكن تنقصنى الأسرار التى تدرس هنا، أنا متأكد من ذلك. وأنا أريد أن أرسم وأبث الحياة فى لوحاتى بالألوان!

ـ لا ينقصك الطموح ولا الموهبة.. ولكن ذلك قد لا يكفى لكى تدخل ساحة الحقيقة.

ـ ما المطلوب أكثر من هذا؟

ـ سآخذك إلى شخص قد يستطيع حل كل مشكلاتك.

* * *

لم يصدق آردون أذنيه. كم كان على حق فى أن يجازف! خلال سويعات قليلة انتقل من عالم إلى عالم آخر، وسوف يحقق حلمه.

تأمل الشـاب الورش التى اصطفت خـارج القـرية، وبدت جـدرانـهـا عـاليـة لا يـمكن عبورها، ولاحظ أنهـا مصنوعة من الخشب الخفيف، من السهل رفعها ومن السهل أيضا فكها.

قال الرجل القصير الذى لاحظ اهتمامه:

ـ بعض المساعدين لا يتواجدون هنا كل يوم.. فهم لا يأتون إلا عند اللزوم.

ـ أنت واحد منهم؟

ـ أنا أعـمل فى الغـسيل. عـمل قـذر، صـدقنى! فعلىَّ أن أغسل حـتى مـلابس النسـاء المتسخة. سواء كن يعشن فى تلك القرية أم فى قرية أخرى، ذلك لا يغير شيئا.

توجه الرجل القصير مباشرة إلى القلعة الخامسة.

توقف آردون بلا حراك.

ـ ولكن.. أين تأخذنى؟

ـ أتصورت أنك ستدخل ساحة الحقيقة بدون أن يتم إجراء تحقيق دقيق معك؟ اتبعنى، فلن تندم.

عبر الشاب عتبة نقطة الحراسة تتبعه نظرات قواس نوبى لا تخلو من السخرية. وسار الشاب فى ممر مظلم فى آخره مكتب يهيمن عليه رجل أسود ضخم، يبدو رياضيا مثله تماما.

قال القصير:

ـ صباح الخير يا سوبيك. لقد أحضرت لك جاسوسا نجح فى تخطى الجدران الخمسة عن طريق مساعدة سقاء. أرجو أن تكون المكافأة على نفس حجم الخدمة المقدمة.

استدار آردون وحاول الهرب.

أمسك قواسان نوبيان بالشاب الذى قام بتوجيه ضربة قوية بكوعه فى وجه الأول، وضرب الثانى تحت الحزام بركبته. كان فى استطاعة آردون أن يختفى، ولكنه فضل رفع القصير من تحت إبطيه.

ـ لقد خنتنى وسوف تندم على ذلك!

ـ لا تقتلنى، فقد كنت أنفذ القانون فحسب!

شعر آردون بسن خنجر يغرز فى عروقه.

وقال سوبيك يأمره:

ـ هذا يكفى، اتركه وقف هادئا، وإلا قتلتك.

شعر الشاب أن النوبى لم يكن يهزأ، فأعاد القصير إلى الأرض، ففر هاربا بدون حتى المطالبة بمكافأته.

صاح رئيس الشرطة المحلية آمرا:

ـ ضعوه فى الأغلال الخشب.

قيد آردون فى الأغلال وقيدت قدماه فى الأصفاد، ثم ألقى به فى ركن من المكتب. اصطدمت رأسه بقوة فى الحائط، ولكنه لم ينبس ببنت شفة.

قال له سوبيك:

ـ أنت رجل عنيد، من الذى بعث بك إلى هنا؟

ـ لا أحد. أنا أريد أن أكون رساما، وأنضم إلى الجماعة.

ـ جميل. . ألم تجد شيئا أفضل تقوله؟

ـ تلك هى الحقيقة!

ـ الحقيقة ؟! كم من الناس يتصورون أنهم يعرفونها. . هنا فى ذلك المكتب، كثيرون منهم غيروا رأيهم واعترفوا أنهم يكذبون. تصرف عاقل، فى رأيى. . أليس كذلك؟

ـ أنا لا أكذب.

ـ يجب أن أعترف أنك كنت بارعا، وكان رجالى فى حالة مؤسفة. سيعاقبون على ذلك. أما أنت، فستقول لى من الذى يدفع لك؟ من أين أتيت؟ ولماذا أنت هنا ؟

ـ أنا ابن فلاح، وأريد أن أتكلم مع أحد الحرفيين فى ساحة الحقيقة.

ـ وماذا تريد أن تقول له؟

ـ أبلغه رغبتى فى أن أصبح رساما.

ـ إنك عنيد حقا. . وذلك لا يعجبنى، ولكن يجب ألا تستنفد كل صبرى.

ـ لا أستطيع أن أقول لك أى شىء آخر، لأن ما قلته هو الحقيقة!

فرك سوبيك ذقنه. وقال:

ـ يجب أن تفهم يا فتى ما أقول: إن دورى هو ضمان أمن ساحة الحقيقة بكل الوسائل، وتَعُدُّنى السلطات العليا رجلا كفئا وجادا. وأنا أهتم كثيرا بالحفاظ على سمعتى تلك.

ـ لماذا تمنعنى من التحدث إلى أحد الحرفيين؟ سأله آردون.

ـ لأننى لا أصدق قصتك، أيها الفتى. إنها قصة مؤثرة حقا، ولكنها غير معقولة على الإطلاق. فلم أر أبدا تلميذا يتقدم بتلك الطريقة عند أبواب القرية ويطلب الدخول.

ـ أنا ليس لدى أى أقارب أو علاقات مع شخصية كبيرة تمنحنى المساندة، ليس لدى توصية من أحد. وأنا لا أهتم بكل ذلك؛ لأننى لا أعرف إلا رغبتى! اسمح لى أن أقابل رساما، وسوف أقنعه.

لثوان، بدا سوبيك مهزوزا.

ـ من المؤكد أنك لا تفتقد الجرأة. ولكن معى أنا، فإن ذلك لا يؤدى إلى شىء. هناك كثير من الفضوليين الذين يسعدهم معرفة أسرار الحرفيين فى ساحة الحقيقة، وهم على استعداد لدفع الثمن لذلك. وأنت، لست إلا مبعوثا لأحد هؤلاء الفضوليين. . وستقول لى الآن عن اسم هذا الفضولى.

تصاعدت داخل آردون مشاعر مختلفة من الألم واليأس، وحاول الوقوف، ولكن أغلاله كانت أقوى منه.

ـ إنك مخطئ، أحلف لك إنك مخطئ!

ـ فى الوقت الحالى لن أسألك عن اسمك، لأننى متأكد أنك ستكذب. إنك بالفعل عنيد، والمهمة التى كلفت بها هى بالتأكيد ذات أهمية خاصة. إلى الآن لم أخطئ إلا القليل. . ولكن معك، فإن الأمور أكثر جدية. إذا تكلمت فورا فستجنب نفسك الكثير من المضايقات.

ـ رغبتى هى أن أرسم، وأن أقابل المعلمين الكبار. . ليس لدى أى نية أخرى.

ـ مبروك، يا صديقى، فلا يبدو عليك أى خوف. عادة لا يتحمل المرء معى كل هذا الوقت. ولكنك ستتكلم فى النهاية، حتى ولو كان جسدك أقوى من الجلمود. أستطيع أن أبدأ عملى معك فورا، ولكننى أتصور أنه من الأفضل أن أتركك لتلين قليلا حتى تكون مهمتى أسهل. بعد خمسة عشر يوما فى الحبس المنفرد ستكون بالتأكيد أقل عندا وأكثر ثرثرة.

* * *

الفصل السادس

عاد الصامت من رحلته الطويلة فى النوبة حيث قام بزيارة مناجم الذهب، والمحاجر والعديد من أماكن العبادة التى بناها رمسيس الأكبر، منها معبدا أبى سمبل اللذان احتفلا بالنور الإلهى، إله النجوم وحبه الأبدى للزوجة الملكية العظيمة نيفرتارى، التى اختفت قبل الأوان. الصامت كان يقضى وقته فى الواحات حيث كان يمضى الأسابيع وحده فى الصحراء، بلا خوف من الحيوانات المتوحشة.

كان الصامت وريثا لسلالة عريقة فى ساحة الحقيقة، وكان مصيره كمثّال هناك مخططا له. فكان ينحت تماثيل الآلهة والنبلاء وحرفيى الجماعة حتى يستمر التقليد الذى وضع منذ عهد الأهرامات. ومع تقدم السن كان من المنتظر أن يتولى مسئوليات أكثر، وكان يعرف أنه فى الوقت المناسب سيقوم هو أيضا بإعداد خليفته ليتولى المسئولية من بعده.

ولكن بقى شرط لم يتحقق بعد: أن يسمع النداء. لم يكن يكفى أن يكون والده حرفيا، ولا أن يكون مهندسا جيدا حتى يستطيع أن يفتح أبواب الجماعة. كان كل من أعضاء الجماعة يحمل هذا الاسم: «هذا الذى سمع النداء». وكل منهم كان يعرف ماذا يعنى هذا الاسم بدون أن يستطيع أن يشرحه.

لم يتجاهل الشاب أن الاستقامة هى الشىء الوحيد الذى يجعل مهنته تحبه، وهو كان غير قادر على الكذب: هذا النداء المهم، لم يسمعه. هو الذى كان قليل الكلام إلى حد أنه كان يسمى «بالصامت». كان يتألم من هذا الصمت الآخر، الذى لم يكسره أى صدى.

اعترف والده وكبار المسئولين فى الجماعة أن الوضع الوحيد المقبول فى حالة الصامت هو: أن يخرج إلى العالم الخارجى ليكتشفه، وإذا حابته الآلهة، قد يسمع النداء فى النهاية.

ولكن الشاب لم يتحمل أن يعيش بعيدا عن ساحة الحقيقة، هذا المكان الذى ولد وكبر فيه، وتربى فيه بقسوة لم يندم عليها أبدا. ولكن العودة إلى هناك كانت أمرا مستحيلا.

فقد كان يحتمل فى صدره هذا الشعور المؤلم بأنه يفقد نفسه كل يوم أكثر من اليوم السابق، وبأنه أصبح مجرد شبح وحيد.

كان الصامت يأمل أن تخلق تلك الرحلة والطبيعة القوية فى النوبة، الأوضاع الضرورية لكى يتردد الصوت الغامض، ولكن جهوده كلها ذهبت هباء. وهكذا عاد إلى طيبة وفى نيته أن يعمل مع مجموعة من العمال فى بناء المساكن بالقرب من معبد الكرنك.

كان صاحب العمل قد تجاوز الخمسين من عمره، ويسير بعرج فى إحدى قدميه، أصيب به بعد سقوطه من فوق سطح أحد المنازل. كان أرملاً وله ابنة وحيدة، ولم يكن يعجب بالثرثارين أو بالمدّعين. لذلك أعجب بشخصية الصامت إعجابا لا مثيل له. كان الشاب يعمل بلا تظاهر، وكان يشخّص لزملائه النموذج الذى يحتذونه ، ولكن زملاءه كانوا يحسدونه؛ فقد كان دقيقا ومجتهدا ومنعزلا. وكان مجرد وجوده بينهم وبدون رغبة منه، يلقى الضوء على أخطائهم.

بفضل العامل الجديد استطاع صاحب العمل أن ينهى بناء منزل من طابقين قبل الموعد المحدد بشهر كامل. فكان من دواعى سعادة المشترى الذى لم يكف عن إطراء المهندس، وكلفه ببناء عملين آخرين.

بعد رحيل زملائه إلى منازلهم، جلس الصامت ينظف أدواته كما علمه أحد المثّالين فى ساحة الحقيقة. قال له صاحب العمل:

ـ لقد تلقيت لتوى قنّينة من الجعة، هل تريد أن تحتسى كوبا منها معى؟

ـ لا أريد أن أثقل عليك؟

ـ إننى أدعوك.

وجلس صاحب العمل ومرءوسه على الحصيرة فى الركن الذى يستخدمه العمال كمكان لراحتهم وقت الظهيرة. كانت الجعة من النوع الممتاز.

ـ إنك لا تشبه أقرانك، يا صامت. أين مسقط رأسك؟

ـ من المنطقة.

ـ ألديك عائلة؟

ـ صغيرة.

ـ أنت لا ترغب فى التحدث عنها. . كما تريد. كم تبلغ من العمر؟

ـ ٢٦ عاما.

ـ لقد حان الوقت لكى تستقر، أليس كذلك؟ أنا حكم جيد على الرجال: فأنت تعمل بشكل رائع، ولا تكف عن تحسين مستواك. لذا فأنت لديك ميزة نادرة: حب المهنة. هذه الميزة تجعلك تنسى كل شيء آخر، وذلك ليس منطقيّا، تماما. فيجب أن تفكر فى المستقبل. وأنا تقدمت فى العمر وبدأت أشيخ، أعانى من الأوردة، وأجد صعوبة متزايدة فى السير. قبل أن أعينك كنت قد قررت أن أعين رئيس عمال، يحل محلى بالتدريج فى مواقع العمل، ولكن أصعب شيء العثور على شخص موثوق به. هل تريد أن تكون هذا الشخص؟

ـ لا يا ريس. فأنا لم أولد لكى أقود.

ـ أنت مخطئ، يا صامت. ستكون رئيس عمال جيدا، أنا متأكد من هذا. ولكنى فاجأتك . . عدنى على الأقل أن تفكر فى اقتراحى.

هز الصامت رأسه موافقا.

ـ أريد أن أطلب منك خدمة. ابنتى تهتم بحديقة صغيرة، على بعد ساعة من هنا. إنها على ضفاف النيل، وهى فى حاجة إلى بعض الأوانى الفخارية لحماية البراعم الصغيرة. أتقبل أن تنقلها إليها على ظهر حمار؟

ـ بالطبع.

ـ ذلك سيعود عليك بمكافأة.

ـ تريدنى أن أذهب فى الحال؟

ـ إذا لم يضايقك . . ابنتى تدعى كلير. (ترجمة من الاسم المصرى أوبخيت).

وصف صاحب العمل الطريق بكل تفاصيله، الصامت لن يتوه.

تحرك الحمار، وتقدم بخطوات هادئة وواثقة. تأكد الصامت أن الحمولة ليست ثقيلة، وسار بجانبه. أخذ فى البداية الطرقات الصغيرة ثم توجه إلى طريق الطين الذى امتدت على جانبيه منازل صغيرة بيضاء تفصلها بساتين خضراء.

هبت نسمات رياح الشمال تنبئ بأمسية هادئة تجتمع فيها العائلات للسمر وتتبادل أطراف الحديث عن أحداث اليوم المتناثرة أو للاستماع إلى الراوى الذى يجعلهم يضحكون ويحلمون.

فكر الصامت فى اقتراح رئيسه، برغم أنه يعرف تماما أنه لن يقبله. فليس هناك إلا مكان واحد يرنو إليه ويتمنى الاستقرار فيه، ولكنه يعرف أنه مستحيل بدون أن يسمع النداء. خلال أسابيع قليلة سيرحل إلى الشمال، وسيعاود ترحاله فى البادية.

أحيانا كان يفكر فى أن يكذب، فيسرع إلى القرية ويؤكد لهم أنه أخيرا تلقى النداء الذى سيفتح له أبواب الجماعة. ولكن ساحة الحقيقة لا تحمل هذا الاسم من فراغ.. فهنا حكمت ماآت، وكان حكمها هو الغذاء اليومى للقلوب والنفوس. أما المخادعون فينتهى بهم الأمر دائما بكشفهم. «يجب أن تكره الكذب فى جميع الظروف، لأنه يدمر الكلمة»، هكذا تعلم. «إن الكذب هو الشىء الذى يكرهه الإله. عندما يبدأ الكذب رحلته، يضل طريقه، ولا يستطيع عبور القنوات ويفشل فى الرحلة. وهذا الذى يبحر مع الكذب لن يصل إلى المرفأ، وسفينته لن ترسو فى مينائها».

لا، الصامت لن يخل بعهده. حتى لو لم يستطع دخول ساحة الحقيقة، سيظل يحترم على الأقل التزامه نحوها. لم يكن ذلك إلا مجرد عزاء بسيط، هذا حقيقى، ولكن هذا العزاء كان يسمح له بأن يستمر فى الحياة.

تعالت أمواج النيل الأزرق بلون السماء. ألم يردد البعض أن من يغرق فى مياه النيل تمحو محكمة أوزيريس كل خطاياه ويبعث من جديد فى جنة العالم الآخر؟

أن يهبط على ضفة النيل، ثم يقفز فى مياهه ويرفض السباحة، ويشكر الموت الذى جاءه سريعا لكى ينسيه كل وجود له خلا من أى أمل.. ذلك هو النداء الوحيد الذى يسمعه الصامت. ولكن ما يمنعه عن التضحية بنفسه للنيل مسألة واحدة صغيرة: وهى أنه كلف بمهمة، وعليه أن يثبت أنه أهل للثقة التى أولوه بها. وعندما تنتهى مهمته، سيحرر نفسه أخيرا من القيود التى تكبله بفضل النيل الكريم الذى سيحمل روحه إلى العالم الآخر.

انعطف الحمار عن الطريق الرئيسى، وسار إلى يسار بئر ثم توجه نحو حديقة تحيط بها أسوار قصيرة. لم تكن المرة الأولى التى ذهب فيها الحمار إلى هذا المكان، ومنذ ذلك الوقت احتفظ بالطريق فى ذاكرته.

فى الحديقة فرشت أشجار الرمان والخروب وشجرة أخرى ـ لا يعرف الصامت اسمها ـ ظلالها الرحيمة على الحديقة، حيث تفتحت الأزهار المختلفة. ولكن جمال الأزهار لم

يكن يقارن بجمال هذه الفتاة الشابة فى ردائها الأبيض الناصع . والتى كانت تجلس على ركبتيها أمام حوض من الأزهار مشغولة بتقليب التربة .

انساب شعرها المائل إلى الاصفرار حرا طليقا على كتفيها . وبدت خطوط وجهها فى جمال ودقة وجه الإلهة حتحور التى رآها الصامت تمثالا ينحته أحد فنانى ساحة الحقيقة ، وجسدها كان رهيفا مثل الريشة التى تتخطفها نسمات الهواء .

كاد الصامت أن يفقد توازنه عندما التفتت الفتاة وتأملته بعينيها الزرقاوين فى لون سماء صيف .

* * *

الفصل السابع

تحدثت الفتاة ، فقالت مبتسمة :

ـ أنا أعرف هذا الحمار . أما أنت ، فإننى أراك للمرة الأولى .

ـ أنا . . أنا . . لقد أحضرت بعض الأوانى بعثنى بها والدك .

كان الصامت رجلا رشيق القوام متين البنية ، متوسط الطول ، شعره الكستنائى ينحسر عن جبهة عريضة ، وعيناه خضراوتان تضيئان وجهه الواضح والجاد فى الوقت نفسه .

ـ أشكرك على اهتمامك ، ولكنك . . تبدو مهموما .

أسرع الشاب إلى الحمار الذى لم يكف عن الحركة ، وبشىء من الاضطراب أخرج الأوانى من القفاف .

لم يستطع أبدا أن يرنو إليها مرة أخرى . فكم من السحر تستطيع أن تبعث به تلك الفتاة الجميلة! تقاطيعها النقية ، وبشرتها المشربة بضوء الشمس ، أطرافها الرقيقة والرهيفة ، النور الذى يسطع من كيانها ويجعلها مثل الرؤية ، مثل حلم جذاب أجمل من أن يستمر . إذا لمسها فقد تتلاشى .

ـ أكُلُّ الأوانى سليمة؟ سألت الفتاة .

كم هو ساحر هذا الصوت . . مثلها تماما! رقيق ومنغم ولكن لا تنقصه القوة ، والشفافية والحياة مثل مياه الينابيع .

ـ أعتقد ذلك . .

ـ هل تريدنى أن أساعدك؟

ـ لا ، لا . . سأحمل لك الأوانى .

بينما كان الصامت يعبر البوابة إلى الحديقة، نبح كلب أسود، ووقف على قدميه الخلفيتين ووضع الأماميتين على كتفى الزائر، ثم قام بمسح عينيه وأذنيه بلسانه.

لأن يدى الشاب كانتا مشغولتين، ترك الكلب يفعل ما يحلو له.

ـ لقد تبناك نوارو، قالت كلير فى دهشة ممزوجة بالفرحة ـ برغم أنه حذر ولا يمنح صداقاته إلا لأصدقاء قدامى.

ـ أنا ممتن.

ـ ما اسمك؟

ـ الصامت.

ـ هذا غريب..

ـ إنها قصة بلا أهمية.

ـ لم لا تقصها علىّ؟

ـ قد تثير فيك الملل.

ـ تعال نجلس هنا فى ركن الحديقة.

أعاد نوارو قدميه إلى الأرض، فاستطاع الشاب أن يتبع الفتاة إلى حيث قالت، وتبعهما الكلب وسار بجانب الزائر؛ رأسه طويل وقوى، وشعره قصير ونظيف، وذيله طويل وكثيف، وعيناه كبيرتان ومليئتان بالحيوية.

ـ معه، لا أخاف شيئا. قالت كلير. فهو شجاع وسريع.

وضع الصامت الأوانى على النجيلة، وجلس بجانب حوض ملىء بالأزهار ذات ألوان مثل ألوان الذهب.

ـ لم أر أبدا أزهارا مماثلة.

ـ إنها زهرة الأقحوان، أشكالها ليست جميلة إلا هنا. فبجانب شكلها الجميل، فإن تلك الأزهار الرائعة مفيدة أيضا. نحن نستخدم المادة التى تتكون فيها وعلاج الحروق وعلاج مشكلات الدورة الدموية وآلام المفاصل.

ـ هل أنت طبيبة؟

ـ لا ، ولكن كان لى الحظ أن تعالجنى نيفيريت ، وهى طبيبة ممتازة . فبعد وفاة والدتى ، اهتمت بى برغم مسئولياتها الجسام . وقبل أن تتقاعد مع زوجها بازاير ، الوزير السابق ، فى الكرنك ، علمتنى جزءا كبيرا من علمها . اليوم ، أنا أستغل هذا العلم لتخفيف الآلام عن كل الذين يعيشون حولى . وهنا ، تلك الحديقة هى مكانى المفضل لكى أتأمل وأتحدث مع الأشجار . قد تتصور أننى جننت ، ولكنى أتصور أن الزرع له لغة . ويجب أن نتواضع أمامه حتى نستطيع أن نسمعه .

ـ ساحرات النوبة يؤمن بذلك .

ـ هل عشت هناك؟

ـ بضعة أسابيع . ما اسم تلك الشجرة هناك ، ذات القشرة البنية الرمادية ، وذات الورق البيضاوى ، الأخضر والأبيض؟

ـ إنها شجرة اللبان . إنها تعطى ثمرة مكتنزة وبلسما فيما ينساب فى شكل صمغ أصفر عندما تشرط جذعها .

ـ أنا أفضل الخروب ، بأوراقه القاتمة وثمرته ذات مذاق العسل . ألا ترين أنها تجسد رقة الحياة ، تلك التى تتحمل الجفاف والرياح الساخنة؟

رقد نوارو عند أقدام الشاب الذى لم يعد يستطيع أن يتحرك بدون أن يوقظه .

ـ لم تقل لى لماذا تحمل اسم «الصامت»؟

ـ إذا كنت أحترمه ، فيجب ألا أقول لك شيئا .

ـ أذلك سر كبير إلى هذه الدرجة؟ سألت كلير بينما كانت تضع فى الأرض الطرية إحدى الأوانى بطريقة معكوسة حتى تحمى زراعتها . تحت الجذر ستتكسر الآنية وستختلط قطع الفخار مع التربة .

لم يكشف الشاب أبدا عن دخيلة نفسه لأى أحد من قبل ، ولكن كيف يمكنه رفض طلب كلير؟

ـ لقد ولدت فى قرية الحرفيين ، فى ساحة الحقيقة ، حيث كان والدى مثَّالا . عند

مولدى أعطانى والدى اسما سريا لن يكشف عنه لى إلا عندما أصبح أنا أيضا مثَّالا مثله. إلى أن يأتى هذا اليوم، علىَّ أن أظل صامتا، أتأمل وأسمع وأستمع.

ـ متى ستحدث تلك اللحظة العظيمة؟

ـ لن تحدث أبدا.

ـ ولكن.. لماذا؟

ـ لأننى لن أصبح أبدا مثَّالا: لقد قرر قدرى لى شيئا آخر.

ـ والآن ماذا تنوى أن تفعل؟

ـ لا أعرف.

شكلت كلير حدودا من الطين الطرى حول شجرة الخروب حتى تحتفظ حولها بالمياه عندما تقوم بسقيها.

ـ هل تنوى أن تعمل طويلا فى شركة والدى؟

ـ لقد طلب منى أن أكون رئيس عماله.

ـ هل تحدثت معه عن ساحة الحقيقة؟

ـ لا.. أنت الوحيدة التى تعرف ماضى. فى الوقت الحالى لقد مات، مات منذ زمن. فأنا لا أعرف أيا من أسرار الحرفيين، ولست سوى عامل مثل الآخرين.

ـ هذا يسبب لك ألما.. أليس كذلك؟

ـ لا تظنى أننى طموح. لقد كنت أريد فقط.. ولكن ذلك ليس له أهمية. التمرد على الحياة لا يجدى، يجب أن نتعلم أن نقبل ما تقدمه لنا.

ـ ألا ترى أنك لا تزال صغيرا للتحدث هكذا؟

ـ أنا.. أنا أخاف أن أسبب لك الملل.

ـ وماذا عن منصب رئيس العمال؟

ـ لقد كان والدك كريما معى إلى أقصى حد، ولكننى غير قادر على تولى تلك المسئولية، وسيؤلمنى أن أصيبه بخيبة الأمل.

ـ أتصور أنك تقلل من شأن نفسك. لماذا لا تحاول؟ والآن ساعدنى فى الحديقة.

نظرت الفتاة إلى كلبها، وفى الحال فتح عينيه ووقف على أقدامه. كان نوارو يشعر بكل ما تريده كلير، حتى إنها فى أغلب الأوقات لم تكن فى حاجة لتوجيه الكلام له.

بعد أن ابتعد نوارو استطاع الصامت أن يقف هو الآخر ليشارك فى أعمال الحديقة، فكان يقلد كلير فيما تفعل. لقد مضى وقت طويل منذ أن تذوق مثل هذا الهدوء والراحة بعيدا عن القلق. وكان مجرد تأمل الفتاة يبث فيه السعادة إلى حد أنه نسى شكوكه ومعاناته.

وعاد نوارو لينام فى الظل بعد أن استمتع بمداعبة كلير له على رأسه ورقبته.

قالت كلير:

ـ كل يوم يحاول الظلام التهام النور. ولكن لأن النور يحارب بشجاعة، فهو ينجح دائما فى إبعاده. حينما نتأمل شروق الشمس من ناحية الجبل الشرقى، نلاحظ أزهار الأكاسيا الخضراء تؤكد انتصار النور المبعوث. هذه الشجرة تعطى نفسها للجميع. ولكى تلحظ جمالها يكفى أن تعرف كيف تتأملها. إن تلك الأفكار هى التى كانت تقودنى عندما كنت أتعرض لتجارب قاسية. صحيح أن جمال الحياة لا يعتمد علينا، ولكنه أيضا موجود فى قدرتنا على الإمساك به.

كان الصامت معجبا بالطريقة التى كانت كلير تعمل بها، بهدوء ولكن بحركات ماهرة ودقيقة وأنيقة.

يا للأسف! سينتهى العمل وسيضطر للعودة إلى المدينة.

ـ هيا نغسل أيدينا فى القناة الصغيرة. قالت كلير.

لقد قام خبراء المساحة والرى والعمال بعمل جيد. فقد كانت الزراعات والحدائق محاطة بجداول وقنوات حيث كان ماء الحياة ينساب جاريا.

بجوار كلير، جلس الصامت على ركبتيه وتشرب من عبقها الذى اختلطت فيه رائحة الياسمين واللوتس. ولأنه لم يكن يخدع نفسه، عرف أنه أصبح ولهان فى حبها.

* * *

الفصل الثامن

كان سوبيك يكره حفلات الاستقبال، ولكنه كان مضطرا لحضور الحفل السنوى لشرطة البر الغربى لمدينة طيبة حيث يتم الإعلان عن الترقيات وحركة الشرطة وأسماء الذين أحيلوا إلى التقاعد. وبهذه المناسبة كان يتم طهى عدة ذبائح، ويحتسى الضيوف النبيذ الأحمر الذى يقدمه الوزير.

النوبى، بهيئته الضخمة كان يجذب انتباه الجميع، حتى زملائه فى العمل، الذين لم يمنع عملهم فى الشرطة أن يكون لديهم فضول قوى لمعرفة إن كان قد اكتشف أيا من أسرار ساحة الحقيقة. وبشىء من القدرية كانوا يسخرون من علاقاته المتوقعة مع نساء القرية اللاتى كن يقعن أسرى جاذبية هذا الأسود الرائع.

أما سوبيك فكان يشرب ويأكل ولا يعلق على ما يقال.

ـ من الواضح أنك سعيد بمنصبك الجديد. همس الكاتب المسئول عن أعمال السخرة، وهو رجل حاد يكرهه سوبيك.

ـ ليس هناك ما أشكو منه.

ـ يقولون إن أحد جنودك قتل..

ـ إنه جندى مستجد سقط من أعلى أحد التلال خلال الليل. ولقد أغلق التحقيق.

ـ رجل مسكين.. لن يتمتع أبدا بمتع طيبة. ولكن لكل مشكلاته.. أما أنا فلم أستطع أن أعثر على ابن مزارع حاول الهروب من عمل السخرة.

ـ هذه الحالة ليست نادرة الحدوث.

ـ أنت مخطئ يا سوبيك. إنه واجب على الجميع، والعقاب قاس على الجناة. ذلك بالإضافة إلى أن شكل الشاب الضخم، برغم أنه مازال فى السادسة عشرة من العمر، سيجعل استجوابه مشوبا بالتوتر.

وبدأ الكاتب يعطى مواصفات تتطابق تماما مع مواصفات الجاسوس الذى يحتجزه سوبيك. فسأله النوبى:

ـ هل ارتكب هذا الفتى جرائم أخرى؟

ـ آردون تعارك مع والده الذى أراد أن يعطيه درسا لكى يعود إلى المزرعة. للأسف لقد ارتكب جريمة الهرب.. وبالتأكيد ستحكم عليه المحكمة بعقاب قاسٍ.

ـ وأشقاؤه، ألم يعطوك أى معلومات مفيدة عنه؟

ـ ليس لآردون إلا شقيقة واحدة.

ـ هذا غريب.. كنت أعتقد أن الابن الوحيد يستثنى من العمل فى السخرة؟

ـ أنت على حق، وكان علىَّ أن أتلاعب قليلا فى الإجراءات حتى أخدم والده، أحد الأصدقاء القدامى. إننا جميعا نقوم بمثل هذه الأعمال فى وقت من الأوقات.

* * *

بضعة أيام من الحبس الانفرادى لم تكسر كبرياء آردون الذى وقف شامخا أمام سوبيك.

ـ والآن، أيها الفتى، ألم تقرر بعد أن تقول الحقيقة؟

ـ الحقيقة لم تتغير.

ـ من بين كل من يتسم بالعند، أنت تُعَدّ أستاذا. وفى العادة كنت سأقوم بالتحقيق معك بطريقتى، ولكنك محظوظ، محظوظ جدا.

ـ هل تصدقنى، أخيرا؟

ـ لقد عرفت حقيقتك: اسمك آردون وأنت هارب من العمل فى السخرة.

ـ ولكن هذا مستحيل! أبى مزارع، وأنا ابنه الوحيد!

ـ أعرف هذا أيضا. أنت فى مشكلة يا بنى، مشكلة كبيرة. ولكن يبدو أن كاتب السخرة ليس ودودا، وحالتك تلك لا تدخل فى اختصاصى. ليس لدى إلا نصيحة واحدة لك: ارحل عن المنطقة بأسرع ما يمكن واختفِ من الوجود.

* * *

عند موقع العمـل، جاء موعد القيلولة، بعد الغداء. وكالعادة جلس الصامت وحيدا، بعيدا عن كوخ القش الذى كان يتقاسمه مع زملائه فى العمل: سورى واحد وثلاثة مصريين.

ـ هل تعرف آخر الأنباء؟ سأل السورى.

ـ سنزيد عددا ـ أجاب أكبر المصريين سنا ـ سيعمل معنا رجل فى الخمسين من عمره، ذو كرش كبير امتلأ بشراب الجعة.

ـ العامل الجديد حمل الأوانى إلى ابنة الريس.

ـ أنت تمزح! إن الريس يقوم دائما بتلك المهمة بنفسه. فلا أحد من حقه الاقتراب من ابنته، ذات الجمال الأخاذ. لقد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها، ولم تتزوج بعد. يقولون إنها تقوم قليلا بأعمال السحر وإنها تعرف سر النباتات.

ـ أنا لا أمزح، فلقد قام العامل الجديد حقيقة بحمل الأوانى لها.

ـ إذن فهذا يعنى أن الريس يقدره كثيرا.

ـ هذا الإنسان، إنه لا يفتح فاه، ويعمل أسرع وأفضل منا، إنه يسيطر تماما على الريس. . الذى سيعينه رئيسا للعمال، أنا أؤكد لكم.

كشر المصرى عن أساريره، وقال:

ـ كان يجب أن أتولى أنا هذا المنصب، حسب الأقدمية.

ـ لقد فهمت أخيرا! هذا الخبيث سيختطف المنصب من تحت أنفك، وسيقوم هو بتوجيه الأوامر لنا.

ـ وسنضطر أن نتبع إيقاعه فى العمل. . سيهلكنا من التعب، هذا مؤكد! يجب ألا نتركه يفعل كما يشاء. ماذا تقترح أيها السورى؟

ـ يجب التخلص منه.

ـ كيف؟

ـ سنتعامل معه بلغة يفهمها جيدا، غدا، عندما يخرج من السوق حاملا مشترياته.

انتهى الصامت من صب نحو مائة طوبة فى قوالب، سيضعها أعلى مجموعة من الحجارة تمثل قاعدة فى أحد منازل عائلة ضابط. بالنسبة لابن مثال من ساحة الحقيقة، فإن

ما فعله ما هو إلا الخطوات الأولى للفن . فعندما كان شابا مراهقا ، كان الصامت يتسلى فى عمل الطوب بأشكال مختلفة ، وكان قد نجح فى تصنيع القوالب .

ـ أسلوبك فى العمل رائع . قال الريس .

ـ لدى المهارة ولا أتسرع .

ـ أنت تعرف أكثر مما تبدى ، أليس كذلك؟

ـ لا تصدق ذلك .

ـ لا يهم . . هل فكرت فى الاقتراح الذى قلته لك؟

ـ اتركنى أفكر بعض الوقت .

ـ أنا موافق ، يا بنى . وأتمنى ألا يحاول مهندس آخر أن يزيحك من هنا . .

ـ اطمئن .

ـ إننى أثق بك .

فهم الصامت خطة عمل رئيسه : فلقد جعله يقابل ابنته لكى ينجذب إليها ويطلب منها الزواج ، ويقبل منصب رئيس العمال ويؤسس عائلة . هكذا ، سيضطر للدخول فى إطار العائلة .

الريس رجل عاقل ، كان يتصور أنه يعمل لمصلحة ابنته . لم يكن الصامت يكن له أى كراهية . كان من الممكن أن تفشل الخطة فشلا ذريعا ، ولكن الشاب أحب بالفعل الفتاة كلير . حتى ولو كان المستقبل الذى خططه له حمو المستقبل يمثل بالنسبة له سجنا لا يريد أن يدخله ، إلا أنه لم يعد يرى حياته بدون هذه الفتاة .

إنه بفضلها ، بفضل جمالها ونورها ، تراجع عن إلقاء نفسه فى النيل ووضع نهاية لوجوده الهائم . ولكن لا شىء يشير إلى أنها تقاسمه مشاعره ، وهو لن يجبرها على الزواج منه لمجرد أن والدها أراد ذلك .

كيف يمكن الاعتراف لفتاة بحب طاغ كالذى يشعر به بدون أن يخيفها؟ تخيل الصامت ألف طريقة وطريقة للتعامل مع هذا الموضوع ، ولكنها بدت له كلها ساذجة الواحدة بعد الأخرى . كان عليه مواجهة الحقيقة : وهى أنه يحلم بسعادة مستحيلة وأفضل له الهروب من عشقه إلى أعماقه ، والرحيل إلى الشمال ، كما كان قد خطط .

جلس الصامت فى حجرته الصغيرة التى خصصها له رئيسه ، لا يستطيع النوم . كان يتصور أنه اتخذ القرار الأصوب ، ولكن قرار لم يبث فيه أى راحة . القرية ، طريق بلا نهاية ، عيون كلير الزرقاء ، النهر . . تشابكت كل هذه الأفكار فى رأسه وكأنه يهذى .

أن يعيش من أجلها ، وأن يكون خادمها ، وأن يبقى دائما بجانبها بدون أن يطالبها بأى شىء آخر . . قد يكون هذا هو الحل . ولكنها ستسأمه ، وينتهى بها الحال بالزواج . وسيمزقه ألم الفراق أكثر من أى شىء آخر .

لم يكن أمام الصامت الفرصة للاختيار .

ففى صباح الغد ، سينتهى من عمله المكلف به ، ثم يذهب إلى السوق لشراء لوازمه ، ثم يرحل عن طيبة إلى الأبد .

* * *

الفصل التاسع

أخذ آردون عبَّارة لينتقل إلى الضفة الأخرى، متصورا أنه من الأفضل الابتعاد بعض الوقت عن الضفة الغربية، ولكن بدون أن يبتعد كثيرا عن هدفه: وهو إقناع أحد حرفيي ساحة الحقيقة أن يكون كفيله. وبعد أسبوع يقضيه فى الضفة الشرقية سيعبر الشاب النهر سابحا، وسيحاول الاقتراب من القرية عبر التلال العليا.

اقتربت العبَّارة من السوق الذى أقيم على ضفاف النهر، حيث يمكن للمرء شراء اللحوم والنبيذ والزيوت والخضراوات والخبز والحلوى والفواكه والبهارات، والأسماك، والملابس والصنادل. كانت معظم البائعات من النساء الخبيرات فى البيع وفى فن التلاعب فى الميزان. كن يجلسن بثقة ويساومن فى الأسعار بحدة، ويحتسين من الجعة كلما شعرن بجفاف فى حلوقهن.

عندما شاهد آردون كل ذلك الطعام، شعر فجأة بالجوع. فلم يكن طعام السجن يشعره بالامتلاء، والآن يتوق إلى التهام بصل طازج، وقطعة من اللحم المجفف، والحلوى الدسمة. ولكن من أين له بالمقابل؟ فلم يكن يملك أى شىء يستطيع أن يقابضه به.

لم يكن أمامه إلا أن يسرق خبزا بدون أن يلحظ الخباز، ويهرب من مراقبة القردة التى تلاحق اللصوص وتعضهم فى ساقهم لتمنعهم من الهرب.

وقفت أرملة تحاول أن تقايض بقطعة قماش قفة قمح، ولكن البائع غير مقتنع بقيمة القماش. وبدأ بينهما جدال حول الصفقة، بدا أنه لن ينتهى. وهناك سيدة سمراء جميلة تحمل طفلها على صدرها، تريد قطعة خبز صغيرة مقابل سمك طازج، وفى مكان آخر بائع فلفل أخضر، يشيد بجمال خضراواته.

انسل آردون وسط الزحام ليحاول الالتفاف خلف الحوانيت، ثم ينتهز فرصة عدم انتباه بائع الحلوى، ولكن كان هناك قردة أخرى تجلس وراءه. عيناها تكشف المتلصصين.

ـ «أنت راض أيها البائع، وأنا أيضا» . صاح تابع لأحد النبلاء، جاء ليحصل على قارورة على شكل قرطاس مليئة بسائل المر .

ابتعد آردون من أمام قرد ذى فك ضخم ونشاط زائد، يفضل عدم الاقتراب منه، وخرج من السوق وقد قرصه الجوع، يتبع شابا أكبر منه سنا، وأقل منه فتولة ، يحمل قفة مليئة بالخضراوات والفواكه، وسار فى طريق ضيق يصطف على جانبيه النخيل .

فى الطريق لاحظ آردون ثلاثة رجال يسرعون لملاحقة خطوات الرجل ، فقام آردون بتتبعهم .

فى نهاية الطريق ، انقض الثلاثة المجهولون على ضحيتهم، السورى ضرب الصامت فى أسفل ظهره، وأمسك الاثنان الآخران بذراعيه وأجبراه على الانبطاح أرضا ووجهه فى التراب .

وضع السورى قدمه على رقبة الضحية . وقال :

ـ سنلقنك درسا لن تنساه، يا صديقى العزيز، وبعد ذلك سترحل عن المدينة . فإننا لسنا بحاجة إليك هنا .

حاول الصامت أن يلتفت وراءه ، ولكن ركلة فى جانبه جعلته يصرخ من الألم .

ـ إذا حاولت المقاومة فسنضرب بشدة .

ـ ألا تريدون أن تتعاملوا معى، أيها الجبناء؟ صاح فيهم آردون .

وانقض على السورى، وأمسكه من رقبته وقصف به إلى الحائط . حاول زميلاه دفع الشاب القوى عنه، ولكنه لَكَمَ رأس الأول بقبضته، وتفادى هجوم الثانى ثم ضربه بكوعه فى بطنه .

حاول الصامت الوقوف على قدميه ولكنه شعر بدوار شديد وسقط على ركبتيه، بينما كان آردون يكيل الضرب للسورى بقبضتيه معا . حاول زميلاه الهروب، ولكن وقف فى طريقهما بعض رجال الشرطة وقردة أخذت تكشر عن أنيابها الحادة .

ـ قفوا جميعا! لا أحد يتحرك! أمر أحدهم ـ أنتم جميعا مقبوض عليكم .

عندما استيقظ الصامت كانت الشمس قد أشرقت منذ وقت طويل . كان يرقد على وجهه، وذراعاه ملقاتان على جانبى فراش ضيق ، وشعر بإحساس جميل من الدفء عند أسفل الظهر .

كانت هناك يد غاية فى الرقة تمسح المنطقة المصابة ببعض زيت البلسم . وفجأة أفاق الشاب واكتشف أنه عارى الجسم ، وأن كلير تقوم بتدليك المنطقة المصابة .

ـ لا تتحرك ، قالت له كلير بشىء من الحزم ـ لكى تشفى يجب أن يتسرب هذا الزيت تماما إلى مكان الكدمة .

ـ أين أنا ؟

ـ فى بيت أبى . لقد هجم عليك ثلاثة من العمال وضربوك ، ففقدت الوعى . لقد ألقى القبض على المجرمين ، وجاءوا بك إلى هنا . حيث تمت أكثر من عشرين ساعة ؛ لأننى كنت أسقيك من سائل مهدئ . أما بالنسبة للزيت ، فهو مكون من مادة البنج ونبات الشيكران والمر . هذا الخليط سيساعدك على الشفاء السريع .

ـ لقد جاء شخص لإنقاذى . .

ـ شاب ألقى القبض عليه أيضا .

ـ ولكن هذا ليس عدلا ، لقد خاطر بحياته من أجلى ، إنه . .

ـ تقول الشرطة إن وضعه غير قانونى .

ـ يجب أن أنهض وأذهب لأشهد لصالحه .

ـ ستعقد المحاكمة ابتداء من الغد فى محكمة الوزير . لقد قدم أبى دعوة ضدهم ، وتم قبولها فى الحال ، نظرا لخطورة الحادث . ومن الضرورى أن تستطيع بسرعة التحرك . لذلك يجب أن تطيعنى لتشفى . والآن هل تستطيع أن ترقد على ظهرك ؟

ـ ولكنى . .

ـ لقد تجاوزنا سن الخجل .

أغلق الصامت عينيه . وقامت كلير بوضع الزيت على جبينه وكتفه اليسرى وركبته اليمنى .

ـ لقد أراد الجناة منى أن أغادر المدينة .

ـ لا تقلق من هذا : سيحكم عليهم بعقاب قاس ، وأبى سيعين عمالا آخرين . وأكثر من أى وقت مضى ، فهو يتمنى أن تقبل منصب رئيسً العمال .

ـ أخشى ألا أكون محبوبًا بين العمال . .

ـ إن أبى معجب جدا بقدراتك . وهو لا يعلم أنك تلقيت تعليمك فى ساحة الحقيقة ، وأنا لم أكشف سرك .

ـ أشكرك ، يا كلير .

ـ ولكننى أطلب منك خدمة . . عندما تأخذ قرارك ، أحب أن أكون أول من يعرف .

غطت كلير المصاب بملاءة من القطن ذات رائحة عطرة من ريف طيبة .

جلس الصامت ، وقال :

ـ كلير ، أريد أن أقول لك . .

نظرت إليه بعينيها الزرقاوين اللامعتين ، وهى تقطر رقة وعذوبة ، ولكنه لم يجرؤ على لمس يد الفتاة ولا على التعبير عن مشاعره نحوها .

ـ لقد عملت دائما تحت رئاسة شخص أكثر قدرة منى ، وأنا متأكد أننى لن أستطيع تنظيم أعمال الآخرين . . يجب أن تفهمينى .

ـ هل هذا يعنى أنك ترفض ؟

ـ يجب ألا أفكر الآن إلا فى إنقاذ الفتى الذى جاء لمساعدتى . فبدونه ، كان من الممكن أن أقتل .

ـ عندك حق . قالت كلير مستسلمة بصوت حزين . هو الذى يجب أن يحتل الأولوية فى تفكيرك .

ـ كلير !

ـ عن إذنك ، فلدى أعمال كثيرة .

خرجت كلير من الحجرة بكل خفة وتحفظ .

أراد الصامت أن يبقيها ، ويشرح لها كيف أنه كان غبيا ، غير قادر على البوح بمكنون نفسه . الباب الذى أغلق لتوه ، قد لا يفتح أبدا مرة أخرى . كان يجب عليه أن يأخذ كلير بين أحضانه ، وينهال عليها بالقبل ، ولكنها أدهشته كثيرا .

أدى الزيت مفعوله ، وشيئا فشيئا بدأت الآلام تنحسر . ولكنه شعر بالأسف لأن الجناة لم ينجحوا فى مهمتهم الشريرة . فما أهمية أن يحيا ، إن كان لا يسمع النداء ولا يستطيع أن يتزوج من محبوبته؟!

بعد تبرئة منقذه مباشرة ، سيختفى الصامت .

* * *

الفصل العاشر

القاضى الذى اختاره الوزير لرئاسة الجلسة اليوم، كان رجلا متوسط العمر، ذا تجارب طويلة. كان يرتدى لباسا واسعا يحيط به حزامان طويلان يلتفان ويعقدان خلف رقبته، وكان يرتدى سلسلة من الذهب يتدلى فيها تمثال يمثل الإلهة ماآت.

ماآت، سيدة تجلس وتحمل فى يدها مفتاح الحياة. على رأسها، الريشة التى توجه الطيور فى طيرانها دون أن تخطئ. كانت تمثل الحقيقة والعدل والتقويم، وكانت وحدها الرئيسة الحقيقية للمحكمة.

عند أقدام القاضى، فردت قطعة قماش حمراء، وضع عليها أربعون عصا للقيادة، رمزا لدولة القانون الأصيلة.

صاح القاضى معلنا:

ـ تحت حماية ماآت، وباسم الفرعون، افتتحت الجلسة. فلتكن الحقيقة هى نفخة الحياة فى أنفاس الناس، وهى التى تبعد شرور أجسادهم. سوف أحكم على البسيط كما أحكم على المسيطر. سوف أحمى الضعيف من القوى، وسوف أبعد عن كل منهم غضب الإنسان الشرير. دع المتنازعين فى المعركة التى وقعت فى طريق السوق يدخلون.

لم ينكر السورى وزميلاه الوقائع ،وطلبوا الرحمة من المحكمة. فقام المحلفون ـ الذين كانوا مكونين من أربعة كتبة، وسيدة أعمال، وعاملة نسيج، وضابط احتياطى ومترجمة ـ بالحكم عليهم بالسِّجن خمس سنوات مع العمل الاجتماعى النافع. وفى حالة تكرارهم الجريمة سيتم مضاعفة العقاب ثلاث مرات.

عندما ظهر آردون أمام القاضى، لم يطأطئ رأسه. فلم تترك الأجواء الصارمة للمحكمة ولا الوجوه العابسة للمحلفين أى تأثير فيه.

ـ اسمك آردون ، وتدعى أنك قمت بإنقاذ الضحية.

ـ هذه هى الحقيقة .

أكد رجال الشرطة أقوال آردون ، ثم قدم الصامت شهادته .

ـ قام أحدهم بضربى فى الظهر ، وأجبرنى المعتدون على الانبطاح أرضا . فلم أستطع أن أقاومهم ، وكنت سأقتل حتما لولا تدخل هذا الفتى ، الذى سارع لإنقاذى . واحد ضد ثلاثة ، إنه يحتاج إلى شجاعة خارقة .

فى الصفوف الأولى ، ابتسم الموظف ابتسامة رضا . ثم أكمل الصامت شهادته قائلا :

ـ إن شجاعة آردون تتطلب من المحلفين استخدام الرأفة معه . ألا يمكن مسامحته فى خطإ الشباب؟

ـ القانون هو القانون ، والسخرة عمل ضرورى من أجل رفاهة المجتمع .

تقدم سوبيك النوبى .

ـ بصفتى رئيس شرطة قطاع ساحة الحقيقة ، فأنا أشارك الصامت رأيه .

قطب القاضى بين حاجبيه .

ـ ما الذى يسوِّغ تدخلك هذا؟

ـ احترام قانون ماآت الذى نتمسك به جميعا . فلأن آردون هو الابن الوحيد للمزارع ، فهو قانونيا مستثنى من السخرة .

ـ ولكن تقرير الكاتب لم يشر إلى تلك النقطة الرئيسية . ألمح القاضى .

ـ إذن فهذا التقرير كاذب ، ويجب معاقبة كاتبه بشدة .

كاتب السخرة لم يعد يبتسم .

تفحص آردون النوبى بدهشة . فلم يتصور أبدا أن يأتى الشرطى لمساعدته .

ـ اقبض على هذا الموظف الحقير ـ أمر القاضى ـ وأطلق سراح آردون فى الحال .

لم يسمع الصامت الحكم ، فلقد تعلقت عيناه منذ فترة على صورة الإلهة ماآت التى تزين صدر القاضى .

ساحة الحقيقة ، مكان ماآت ، المكان المفضل لكل شخص حيث تهيمن الحكمة ، حيث

سرها يعلمه الحرفيون الذين تجمعوا فى مسكن الذهب . . ذلك ما لم يلاحظه الصامت حتى تلك اللحظة .

وبينما هو يثبت نظره إلى الإلهة ، انفتح قلبه .

التمثال الصغير بدأ يكبر ويتضخم ، ويملأ قاعة المحكمة ويثقب السقف ليصل إلى السماء . مآآت أصبحت أكبر من البشرية ، وامتدت لتغطى الكون كله ولتحيا بالنور .

أعاد الصامت النظر إلى بيوت القرية ، والمراسم والمعبد . وسمع النداء ، صوت مآآت تدعوه إلى العودة إلى ساحة الحقيقة وإنجاز العمل الذى قدر له .

ـ لن أكرر نفسى ـ صاح القاضى متوترا ـ أنا أسألك إن كنت راضيا يا صامت . هل سمعتنى؟

ـ نعم ، آه . . نعم ، لقد سمعت!

خرج الصامت بهدوء من المحكمة ، نظره يتجه صوب قمة الغرب ، حامية حمى ساحة الحقيقة .

ـ كنت أحب أن أتحدث معك ـ قال له آردون ـ ولكنك تبدو غريبا حقا .

مرة أخرى سيطر النداء على الصامت ، فلم يتعرف بالكاد على منقذه .

ـ أنا آسف ، كنت أريد أن أشكرك . فأنا حى الآن بفضلك .

ـ لا تهتم ، فلقد أسعدتنى بالتدخل .

ـ هل تحب العراك يا آردون؟

ـ فى الريف ، يجب أن يتعلم المرء أن يدافع عن نفسه . أحيانا ، ترتفع الأصوات بسرعة ، ثم يتعارك الناس على لا شىء .

ـ أين تعيش؟

ـ فى البر الغربى ، ولكنى تركت منزل عائلتى إلى الأبد . إننى أشعر بعطش شديد ، هل تشعر بذلك أنت أيضا؟

ـ أدعوك إلى تناول قدح من الجعة ، وهو أقل ما أستطيع أن أقدمه لك .

ـ أحضر الصامت القنينة ، وجلس الصديقان على دكة فى ظل نخلة .

ـ لماذا تركت عائلتك؟

ـ لأننى لا أريد أن أكون مزارعا خلفًا لأبى.

ـ وكيف ترى مستقبلك؟

ـ ليس لدى إلا شغف واحد: الرسم. وليس هناك إلا مكان واحد حيث يمكننى أن أثبت موهبتى وأن أتعلم ما ينقصنى: ساحة الحقيقة. لقد حاولت أن أقترب منه، بأمل أن أنجح فى الدخول، ولكن يبدو أن ذلك مستحيل. برغم ذلك، فإننى لن أتخلى عن حلمى.. إنه السبب الوحيد لوجودى!

ـ إنك صغير جدا يا آردون، ويمكنك أن تغير رأيك.

ـ هذا لن يحدث، أنا متأكد! فمنذ طفولتى، وأنا أتأمل الطبيعة والحيوانات والفلاحين والكتبة.. وأرسمهم. هل تريد أن ترى؟

ـ بكل سرور.

كسر آردون طرف سَعَفة نخيل جافة، وبدأ يرسم على الأرض وجه القاضى بدقة مدهشة، السلسلة والتمثال الذى يمثل الإلهة ماآت.

لأول مرة شعر بالقلق. هو الذى كان دائما متأكدا من موهبته، وكان يسخر من نقد الآخرين. انتظر بشىء من الخوف حكم صديقه الذى يكبره، والذى يبدو هادئا ومتزنا.

تأمل الصامت الرسم، ولم يتسرع فى الحكم. ثم قال:

ـ إنها مطابقة إلى حد كبير. فأنت تملك الحاسة الداخلية للمقاييس ويدك تعمل بثقة كبيرة.

ـ إذن.. فأنت ترى أننى موهوب حقا؟

ـ نعم، أتصور ذلك.

ـ هذا رائع! أنا رجل حر، وأستطيع أن أرسم!

ـ ولكن ينقصك الكثير الذى يجب أن تتعلمه.

ـ أنا لست فى حاجة إلى أحد! قال آردون مدَّعيا. لقد تعلمت وحدى حتى الآن، وسأستمر!

ـ فى هذه الحالة ، لماذا تريد الانضمام إلى جماعة خادمى ساحة الحقيقة؟

التناقض صدم الفنان صدمة قوية .

ـ لأنه . . لأن ذلك سيسمح لى أن أرسم اللوحات طوال اليوم بدون أن أنشغل بأى شىء آخر .

ـ هل تتصور أنها فى حاجة إليك؟

ـ سوف أثبت لها أننى الأفضل!

ـ الغرور ليس هو بالضرورة أفضل الوسائل لتدخل بالقوة .

ـ إنه ليس غرورا ، ولكنها رغبة أكثر إحراقا من النار! أنا أعرف أننى يجب أن أذهب إلى هناك ، وسأذهب ، مهما كانت العقبات .

ـ قد لا تكون الحماسة كافية .

نظر آردون إلى السماء .

ـ إنه ليس حماسة فقط ، بل إنه مثل النداء الذى سمعته ، نداء قوى ، مهيمن إلى حد أنه كان علىّ أن ألبيه . ساحة الحقيقة هى وطنى الحقيقى ، حيث يجب أن أكون وليس فى أى مكان آخر . . ولكنك لا تستطيع أن تفهم .

ـ أعتقد أننى أفهم .

فتح آردون عينين واسعتين من الدهشة .

ـ أتقول ذلك تعاطفا معى؟ ولكنك مسيطر تماما على نفسك وعلى مشاعرك ، فكيف تقاسمنى مشاعرى؟

ـ ساحة الحقيقة ـ قال الصامت كاشفا سره ـ هى قريتى .

* * *

الفصل الحادى عشر

أمسك آردون الصامت من أكتافه بعنف بشكل تصور معه أن عظامه سحقت.

ـ غير حقيقى، غير معقول. . إنك تسخر منى!

ـ عندما تعرفنى أكثر ستعرف أنه ليس من شخصيتى أن أسخر.

ـ ولكن معنى ذلك أنك تعرف كيف يمكن دخول ساحة الحقيقة!

ـ إنه أصعب مما تتصور. فلتعيين حرفى جديد يجب الحصول على موافقة كل أعضاء الجماعة، والفرعون والوزير. وهم يفضَلون من ينتمى إلى عائلة من المثَّالين أو الرسامين.

ـ ألا يقبلون أى شخص من الخارج؟

ـ فقط هؤلاء الذين تمت مراقبتهم لفترة طويلة فى موقع العمل فى خدمة المعابد، مثل معبد الكرنك.

ـ هل تحاول أن تفهمنى أنه ليس لدى أى فرصة؟! ولكنى لن أتنازل أبدا!

ـ لكى تستطيع أن تتقدم إلى محكمة الانتساب يجب أيضا ألا يكون عليك ديون، وأن تملك حقيبة من الجلد، ومقعدا مطويا وقطعًا من الخشب لكى تصنع مقعدا وثيرا.

ـ وثروة صغيرة!

ـ ما يعادل نحو أجر المبتدئ فى سبعة أشهر. إنه الدليل على أنك تعرف كيف تعمل.

ـ إننى رسام ولست نجارا!

ـ ساحة الحقيقة لديها متطلباتها، وأنت لن تغيرها.

ـ وماذا أيضا؟

ـ أنت تعرف كل شيء.

ـ وأنت، لماذا رحلت عن القرية؟

ـ كل شخص حر يخرج منها عندما يريد. أما أنا، فلم أكن قد دخلتها بالفعل.

ـ ماذا تعنى؟

ـ لقد تربيت هناك، وقابلت شخصيات رائعة، وكانت عائلتى تأمل فى أن أصبح مثالا.

ـ هل رفضت؟

ـ لا ـ أجاب الصامت ـ ولكنى لم أحاول أن أخدعهم. لقد حققت كل الشروط الضرورية، وتمنيت أن أبقى هناك، ولكن كان ينقصنى أهم شيء: لم أسمع النداء. لهذا السبب قررت الرحيل وسافرت بأمل أن تتفتح أذناى أخيرا.

ـ و.. هل تفتحت؟

ـ اليوم فقط، فى المحكمة، وبعد سنوات من التيه. إننى أدين لك بالكثير يا آردون، ولا أعرف كيف أشكرك. بدون تدخلك فى الطريق لما كنت اضطررت أن أمثل فى المحكمة أمام هذا القاضى، ولما كنت سمعت النداء. للأسف، لا أستطيع مساعدتك. فعلى كل مرشح أن يتصرف وحده. إذا تلقى مساعدة، فطلبه سيرفض.

ـ وأنت، هل أنت متأكد من أنك ستقبل؟

ـ أبدا. هؤلاء الذين يعرفوننى قد يشهدون لصالحى، ولكن رأيهم لن يكون له وزن كبير.

ـ قل لى كل ما تعرفه عن ساحة الحقيقة. طلب آردون.

ـ بالنسبة لى هى مجرد قرية مثل كل القرى الأخرى. فلم يعلمنى أحد أيا من أسرارها.

ـ متى ستعود إليها؟

ـ ابتداء من الغد.

ـ ولكن.. ماذا عن الحقيبة والمقعد والخشب؟

ـ لقد تركت كل أموالى لدى شخص ليحفظها .

ـ ولكنك ، لن تحتاج إلى بطاقة مرور !

ـ هذا حقيقى ، فهم سيسمحون لى بتجاوز القلاع الخمس والمثول أمام محكمة القبول . ولكنى قد لا أذهب إلى أبعد من ذلك .

ـ أنت وصلت لسن النضج ، وتبدو صبورا كالحجر وهادئا كالجبل . . والجماعة بالتأكيد تقدر المرشحين أمثالك ، وشخصية مثل شخصيتك .

ـ المهم ، هو أن تسمع النداء وتقنع الحرفيين الذين اختيروا ليحكموا على انضمامك .

ـ فى هذه الحالة سأنجح حتما .

وضع الصامت يده على كتفى آردون ، وقال له بصدق :

ـ أتمنى لك هذا من كل قلبى . حتى لو فرقنا القدر فلن أنسى أبدا ما أدين به لك .

* * *

استطاع الصامت العودة إلى حديقة كلير بفضل الحمار حامل الأوانى . كانت الرياح الجنوبية قد بدأت تشتد ، والأمواج الغاضبة تثير الاضطراب فى النيل ، وتتطاير الرمال لتهاجم الحيوانات والإنسان والمساكن .

قاد الصامت دابته إلى مكان آمن داخل إسطبل مع اثنتين من البقر الحلوب ثم عاد إلى الطريق هادئا ، ولكنه فى الوقت نفسه كان متوترا . كان هادئا لأن الاستماع إلى النداء حرر فيه القوى التى لم يشك فى وجودها أبدا . فهو مثل آردون ، كان قد قرر عبور بوابة ساحة الحقيقة ومعرفة أسرارها . أما توتره ، فكان لأن قبول محكمة الانتساب انضمامه سيعنى أنه سيفقد المرأة التى يحبها .

هبت الرياح الغاضبة على المكان ، وبدت الحديقة خالية . نظر الصامت إلى نباتات كلير التى ساعدها فى زرعها ، وشعر باضطراب داخلى . كان يتمنى أن يظل معها ويرى تلك النباتات وهى تنمو ، ويرعيانها معا يوما بعد يوم ، ويمتد بهما العمر على نفس إيقاع تفتحها . ولكن نداء مآت وساحة الحقيقة كان مسيطرا لدرجة أنه لم يترك له فرصة الاختيار : كان يريد العودة إلى وطنه الذى فقده والكشف عن غموضه .

انتهت سنوات الفراغ ، واختفت الشكوك . . شعر الصامت وكأنه عبر ليلة طويلة

وعميقة لم يتصور أنها ستنتهى. والآن يجب ألا يفشل وهو على أعتاب مغامرة عدّها مغامرة رائعة.

ـ هل كنت تبحث عنى؟

ظهرت كلير أمام الصامت، حول كتفيها شال من الصوف، وعلى وجهها علامات القلق.

ـ لقد احتميت فى أحد الأكواخ، متمنية أن تحضر.

ـ أردت أن تكونى أول من يعرف قرارى الأخير، وأنا على عهدى معك.

ـ سترفض منصب رئيس العمال، صحيح؟

ـ نعم، ولكن بسبب خاص جدا، أردت أن أكشفه لك.

اكتست عينا الفتاة الشابة بالحزن.

ـ لا يهم..

ـ اسمعينى، أرجوك!

واقترب منها، فلم تبتعد.

ـ هل ستوافقين على أن آخذك بين أحضانى؟

كلير لم ترد، وظلت فى مكانها. أحاطها الصامت بذراعيه بكل حنان، كما لو كان خائفا عليها من الكسر. وشعر بقلبها يدق بعنف مثل قلبه.

ـ إننى أحبك بكل كيانى، يا كلير. إنك أول امرأة فى حياتى، ولن يكون هناك غيرك. ولأننى أحبك بهذه القوة، فلا يجب أن أتسبب فى تعاستك.

استسلمت كلير بين أيدى الصامت، تتمتع بتلك الدقائق من السعادة.

ـ ما الذى يجب أن يخيفنى منك يا صامت؟

ـ لقد سمعت نداء ساحة الحقيقة ويجب أن ألبيه. إذا رفض طلب انضمامى إليها، فسأكون إنسانا محطما، لا يمكننى أن أحيا. وإذا تمت الموافقة علىّ، فسأبقى فى قرية الحرفيين، بعيدا عن هذا العالم.

ـ وقرارك، هل هو لا رجعة فيه؟

ـ لقد سمعت النداء، يا كلير، وفيه نفس قوة حبى لك. ولو كان فى استطاعتى أن أنساه لفعلت. ولكنى لا أريد أن أكذب ولا أن أخدع نفسى.

ـ هل ستتزوج فتاة من القرية؟

ـ لن أتزوج أبدا، وسأعيش فى مسكن للعزاب حيث سأفكر فيك كل يوم.

ـ ستظل داخل أسوار القرية دائما؟

ـ يمكننى الخروج من ساحة الحقيقة بين وقت وآخر لرؤيتك، ولكن ألا يتسبب ذلك فى تعذيبنا؟

ـ قبلنى.

تلاقى جسداهما فى شوق وحنان. ورقدا تحت شجرة الخروب ذات الأوراق السميكة تحميهما من عصف رياح الجنوب.

وبينما هما فى لحظات الحب تغطيهما أشعة شمس الغروب، وقف نوارو حارسا عليهما.

* * *

الفصل الثانى عشر

كان هناك ثلاثة حلول بسيطة قد تساعد آردون فى الحصول على المقعد المطوى والخشب والحقيبة الجلدية. الحل الأول هو أن يشتريها، ولكنه لا يملك ما يقايض به. والثانى هو أن يطلبها من والده، ولكنه أقسم ألا يرى هذا الرجل مرة أخرى بعدما فقد كل حب تجاهه. والثالث هو أن يسرقها مع المجازفة بأن يلقى القبض عليه. وحكم بالسجن سيعنى أن يبتعد نهائيا عن ساحة الحقيقة. ذلك بالإضافة إلى أنه خلال اللقاء الذى سيتم مع الحرفيين ليسألوه من أين حصل على ممتلكاته، سيضطر للكذب. وإذا اكتشف كذبه فإن أبواب القرية ستغلق فى وجهه إلى الأبد.

والنتيجة التى فرضت نفسها عليه فى النهاية هى: أن يعمل آردون من أجل أن يحصل على ما هو مطلوب منه. سبعة أشهر من العمل المضنى.. إنها كالدهر! سيحرم نفسه من النوم حتى يستطيع أن يختصر الوقت ويقدم نفسه إلى الجماعة فى أقرب وقت.

رأى آردون رجلا مسنا يجلس على مقعد صغير على وشك أن يغفو فى سبات.

ـ آسف على إيقاظك، أيها الشيخ.. هل لك أن تدلنى على الطريق الذى يذهب إلى حى الدباغين؟

ـ ماذا تريد أن تفعل هناك يا فتى؟

ـ أبحث عن عمل.

ـ إنها ليست مهنة مربحة.. ألا تفكر فى فكرة أفضل؟

ـ هذا شأنى وحدى.

ـ على رسلك، أيها الفتى.. اذهب فى اتجاه الشمال، واخرج من المدينة، سر وعلى يسارك حديقة صغيرة من النخيل، بعد ذلك سر رأسا فى الطريق وتحسس طريقك من الرائحة.

بفضل توجيه الشيخ، لم يجد آردون أى صعوبة فى العثور على حى الدباغين. كان هناك أحواض كبيرة تحمل البول والزبل والدباغ لتليين الجلود، وكانت ترسل روائح كريهة أزكمت أنف الشاب. وفى مكان آخر تراكمت كميات من جلود الخراف والماعز والأبقار والغزلان، وجلود حيوانات أخرى صحراوية. وعلى المنضدة الطويلة وضعت أحزمة وأحذية، وسلع أخرى سترسل إلى السوق.

وقع نظر آردون على حقيبة جلدية رائعة.

ـ أتبحث عن شىء؟ سأله رجل فى الخمسين من عمره، لم يحلق ذقنه منذ أيام.

ـ أبحث عن عمل.

ـ هل لديك خبرة؟

ـ كنت مزارعا.

ـ ولماذا تركت الحقول؟

ـ هذا شأنى وحدى.

ـ يا إلهى، إنك لست لطيفا على الإطلاق!

ـ أنت الريس؟

ـ من الممكن أن أكون.. ولا أحب الطريقة الجشعة التى تنظر بها إلى حقيبتى الجلدية. فى رأيى، أنت لا تبحث عن عمل، بل تريد سرقة بعض القطع الجميلة.

ابتسم آردون، وقال:

ـ إنك مخطىء.. أنا للأسف مضطر إلى أن أعمل موظفا لديك.

ـ سأعطيك شيئا آخر يريحك تماما.

وقام الدباغ بطرقعة أصابعه.

خرج عاملان من المكان الذى يقومان فيه بتليين الجلود بالملح والزيت. كانا ذوَا جبهة ضيقة وصدر كبير.

ـ أصلحا هذا الخائب، أيها الرجال.. لا أتصور أنه سيشكو إلى أحد، ولن يحاول سرقتنا.

ظهرت علامات الرضا على وجْهَى الرجلين الضخمين. وخلال الدقائق التى نظر فيها أحدهما إلى الآخر يهنئان أنفسهما بالمتعة التى منحها لهما الريس، كان آردون قد قفز على أحدهما وضربه بقدمه فى ذقنه؛ ليرسله حيث سقط يحلم بعالم أفضل. ألجمت الدهشة الآخر، وبينما هو يحاول أن يتحرك ليضربه كان آردون قد ابتعد، فطاشت اللكمة فى الهواء. أما لكمة آردون فقد سقطت على رقبة غريمه بالتحديد، فسقط مغشيا عليه.

ذهل الريس، وأخذ يتراجع خوفا إلى أن وصل إلى الحائط.

ـ خذ ما تريد وارحل من هنا!

ـ كل ما أريده هو أن أعمل لكى أستطيع أن أشترى حقيبة جلدية جميلة. وبعد ذلك سأرحل.

ـ تلك التى أعجبتك هى بالفعل قطعة غالية.. وسأقترح عليك قطعة أخرى أقل ثمنا.

ـ أنا أفضل الغالية. بشرط واحد يا ريس: لا أريد عطلات ولا ساعات محدودة من العمل. فليس لدى وقت أضيعه، فأنا فى حاجة إلى هذه الحقيبة وبسرعة. أين سأسكن؟

ـ اتبعنى..

دهش الدباغ من قوة آردون فى العمل. فلم يكن يتعب أبدا، وكان يستيقظ من الفجر، ولا يشكو من شىء، ويتجاوز ساعات عمل العديد من المبتدئين. وبسرعة استطاع أن يتعلم كيف يتعامل مع الجلود، ويصبح أفضل عامل يقوم بمد وتليين الجلد المفرود على مسند من الخشب من ثلاثة أرجل.

عندما لاحظ الريس السهولة التى يتعلم بها الشاب المهنة، بدأ يعلمه الطريقة المثلى لتشحيم وتزييت الجلود الدرجة الأولى، بحيث يتجنب أن يصيبه الجفاف الذى يقضى عليه.

فى إحدى الليالى، بينما غادر جميع العمال مكان العمل، اقترب الريس من آردون، وقال له:

ـ إنك لا تقيم علاقات مع زملائك فى العمل.

ـ ليبقى كل فى مكانه. فأنا لا أنوى أن أقضى بقية حياتى هنا وأكون صداقات.

ـ قد تكون على خطإ.. فهذه المهنة أقل سوءا مما تتصور. انظر إلى ذلك..

ـ ذلك قَص من زهرة السنط .

ـ إنها من أكثر المواد التى تساعد على الدباغة ، وأيضا قشرة الشجرة نفسها ، وهذه المادة تسمح بممارسة دباغة حقيقية ، إنها مادة لا يمكن الاستغناء عنها فى القطع الخاصة . مثل حقيبة رائعة من الجلد ، أو أيضا . .

ـ إن كل ما يهمنى هى الحقيبة .

ـ لقد وصلنى طلب لغلاف جلدى حيث يمكن لمؤهل فى أسرار معبد الكرنك أن يضع أوراقه البردية . إنها قطعة رائعة سوف أصنعها بنفسى . . إذا كنت تريد ، أستطيع أن أصنع لك أخرى طبق الأصل تدفع ثمنها من عملك .

ـ بالإضافة إلى الحقيبة؟

ـ بالطبع .

ـ لماذا تعرض على ذلك؟

ـ إذا كنت ترغب حقيقة فى الحصول على تلك الحقيبة ، فهى من أجل إثارة إعجاب شخص ما . مع الغلاف ، ستكون على ثقة بأن تحصل على كل الإعجاب . كما أنك تدهشنى . فلم أقابل بعد أى شخص فى مثل شخصيتك . سيكون لك حتما مستقبل عظيم إذا أصبحت ذراعى اليمنى . فأنا ليس لى ذرية من الأولاد . كلهم من البنات ، ويجب أن أجد شخصا يحل محلى .

ـ إن ما يهمنى هو الحقيبة ، بالإضافة إلى الغلاف ، فلن أرفضه . أما بالنسبة لكل شىء آخر فلن أتمناه .

ـ ستغير رأيك .

ـ لا تعول على هذا .

ـ سنرى ، يا بنى ، سنرى . .

لم يكن آردون فى حاجة لأكثر من ثلاث أو أربع ساعات للراحة . فكان أول من يصل إلى المدبغة ، وآخر من يغادرها ، كان يسكن فى أحد الأكشاك التى بناها بنفسه من البوص . ومع بدء فصل الصيف وتزايد حرارة الجو ، أعطاه الريس غطاء من القطن الخشن ، فتحمله آردون بضيق .

دخل آردون مسكنه بعد أن هبط الظلام على الكون منذ وقت طويل. وفى الحال، لاحظ وجود شخص ما.

ـ مَنْ هناك؟

تحرك كائن من تحت الغطاء.

رفع آردون الغطاء فوجد فتاة عارية، تحاول إخفاء جسدها بيديها. لم تكن جميلة، ولا قبيحة، وتبدو فى العشرينيات من عمرها.

ـ من أنت؟

ـ ابنة عم رئيسك. . لقد جذبت انتباهي وأنت فى العمل. وأعجبت بك جدا، ولم أستطع الصبر على الانتظار أكثر من ذلك.

ـ أنت على حق، يا جميلتى.

استلقت على ظهرها، ومدت ذراعاها إلى الشاب الذى خلع ملابسه.

ـ لقد بدأت أشعر بنقص، لقد حضرت فى الوقت المناسب.

استقبلت بين ذراعيها جسد الشاب القوى، وأخذت تموء مثل القطة.

مهنة جيدة ذات مستقبل، ورئيس عمل يشجعه، وعشيقة معجبة به بلا فظاظة. . ماذا يتمنى آردون أكثر من ذلك؟

* * *

الفصل الثالث عشر

عندما أبلغ الصامت والد كلير قراره بالرحيل، غضب غضبا شديدا، وهدده بمقاضاته أمام المحكمة إن لم ينته من بناء المنزل الذى أمره ببنائه.

ولأنه يشعر بالمسئولية تجاه العمل، فلقد وافق الصامت على ألا يغادر طيبة قبل أن ينتهى من عمله، حسب العقد الذى حتمه عليه ضميره.

هدأ المهندس قليلا، ثم دعاه إلى الجلوس.

ـ اعذرنى، لم أستطع أن أتحكم فى أعصابى.

ـ إنك على حق: حتى لو كنت سأعمل وحدى فى الموقع، فلن أغادر المكان قبل الانتهاء من العمل.

ـ لماذا ترفض أن تكون رئيس عمالى وتتزوج من ابنتى؟

ـ ألم تقل لك شيئا؟

ـ نعم، لم تقل شيئا، ولكننى أشعر بحزنها. من غيرك يمكن أن يكون السبب؟

ـ هذا حقيقى، فأنا أحب ابنتك.

ـ إذن، أنا لم أعد أفهم! إن كانت هى التى ترفضك، فسأقنعها.

ـ هل تتصور أنها مطيعة إلى هذا الحد؟

ـ يجب أن تكون!

ـ لا تعذبها، قرارى لا رجعة فيه.

ـ لماذا كل هذا التعنت؟

ـ لأننى أنوى أن أنضم إلى جماعة ساحة الحقيقة.

ـ ولكن، هذا مستحيل! من يدعمك فى هذا؟

ـ لقد تربيت فى قرية الحرفيين.

ـ هذا إذن هو السبب. . لذلك لم تكن تعمل مثل الآخرين! أتصور أنه ليس هناك أى وسيلة لإقناعك بتغيير قرارك.

ـ هذا حقيقى، لا يوجد.

ـ أنا حزين، أنا أيضا. . كان من الممكن أن نعيش أياما سعيدة، نحن الثلاثة. انته من هذا المنزل، يا صامت، وبعد ذلك يمكنك أن ترحل.

* * *

فى خلال خمسة عشر يوما، انتهى آردون من عمل ثلاثة أشهر. لم يكن هناك أى عامل فى مهارته فى تلوين الجلود، وكانت جلوده هى التى تباع أسرع وبأسعار أعلى. كان آردون ينجز كل خطوة بدقة متناهية، وكان يكشط الجلد قبل الدباغة بوقت طويل كما يحتاج الأمر. وبسرعة يزيل الزيوت من عليه قبل أن تلصق رائحتها فيه، فكان الشاب قد بدأ بتلقائية شديدة يتوجه إلى الجودة، وكان قد انتهى لتوه من صنع صندل، لا يرتديه إلا سيد.

وبسكّين ذات سن نصف دائرى، قطع آردون قطعة من جلد الماعز قطعا مستطيلة لدنة ووضعها على درع ضابط مركبات، وثبته بحلية من المعدن.

ـ أنت العامل الجديد؟

جاء الصوت حاسما ومستبدا. لم يلتفت آردون، وظل فى مكانه مركزا فى عمله.

ـ اللوفتنانت ميهى يتحدث إليك، وهو لا يحب أن يدير المرء له ظهره.

ـ أنا لا أتعامل مع العملاء. . تستطيع أن تقابل الريس.

ـ أنا أريدك أنت. يبدو أنك قوى مثل الثور المتوحش، وإنك استطعت أن تقضى على رجلين قويين تعودا على العراك.

ـ لم أكن مضطرا للتعامل معهما. . فلقد اصطدما بعضهما ببعض.

أمسك ميهى آردون من كتفه، وأجبره على النظر إليه.

ـ إنني أكره أن يسخر مني أحد، أيها الفتى !

ـ اتركني في الحال.

كان في عيني الفتى الرياضي السوداوين كمية من العنف أجبرت ميهي على نزع قبضته والتراجع خطوة.

نظر آردون ليجد أمامه رجلا صغير الحجم، دائري الوجه، شعره أسود سوادا قاتما ملتصقا في جمجمته. كانت شفتاه غليظتين، وقدماه وكفاه مفرطحتين، وصدره كبيرا وقويا. كان الضابط واثقا بنفسه، وعيناه البنيتان الغامقتان تملؤهما العجرفة.

ـ أتجرؤ على مهاجمتي؟

ـ كل ما أطلبه منك هو أن تحترمني.

ـ لا بأس، أيها الفتى. أين الدرع الخاصة بي؟

ـ إنني أشتغل فيها.

ـ أرني إياها.

قدمها آردون إليه.

ـ يجب إضافة بعض المسامير واللوحات المعدنية. يجب أن تكون الدرع قوية إلى حد إثارة إعجاب أفضل الجنود.

ـ سأفعل أفضل ما عندي.

ـ ألا ترغب في ترك الدباغة لتنضم إلى الجيش؟ فمع البنية الجسدية التي لك، يمكن أن تقبل في الحال.

ـ إنني لا أشعر بأي انجذاب إلى الحياة العسكرية.

ـ إنك مخطئ، فالحياة العسكرية تمنحك مميزات كثيرة.

ـ هذا حسن بالنسبة لك، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لي.

ـ إنك شاب مغرور أكثر قليلا مما ينبغي، أيها الصديق! إذا خدمت تحت قيادتي فستتعلم الليونة.

ـ الليونة ، إننى أنا الذى يعلمها للجلود .

ـ إذا أصبحت أكثر ذكاء ، فسلم نفسك فى المعسكر الرئيسى فى طيبة واطلب تقديمك إلى اللوفتنانت ميهى . و إلى أن يأتى هذا اليوم انتهِ من صنع درعى بأسرع ما يمكن . سأبعث بجندى صباح غد ليتسلمها .

بعد مغادرة الضابط المكان ، ظهر الريس فى الورشة .

ـ هل سارت الأمور كما يجب ، يا آردون؟

ـ لم نصبح أصدقاء .

ـ هذا الرجل ميهى ، إنه رجل ذو نفوذ . . فهو إنسان طموح ، ويتردد أنه سيحصل قريبا على ترقية مهمة . هل انتهيت من صنع درعه؟

ـ إذا أردت ، سأنتهى منه الليلة .

ـ الأفضل ألا تعارض ميهى .

ـ مساء الغد سأكون قد انتهيت من المهام الضرورية التى تؤهلنى لشراء الحقيبة الجلدية .

ـ أعرف ، أعرف . . سنتحدث فى هذا الموضوع .

عندما استيقظ آردون ، كانت ابنة عم الريس نائمة مستلقية على وجهها . لثوان ، نظر آردون بإعجاب إلى الجسد الرائع الذى منحه الكثير من النشوة ، ولكن أشعة الشمس جذبت نظره . فلقد تسللت عبر حاجز الخوص وأضاءت شيئين على الأرض : حقيبة وغلافا من الجلد .

نهض آردون ليتحسسهما :

كانا من أرقى الأنواع .

ـ هل أعجباك؟ سأله صوت ابنة العم الخشن ، وقد استيقظت لتوها .

ـ إنهما رائعان .

ـ مثل ثديى؟

ـ كما تريدين .

ـ الريس أهداهما لك .

ـ خطأ ، يا جميلتى ! إنه عملى الذى منحهما لى .

ـ متى سنتزوج؟

ـ أتريدين؟

ـ بالضرورة، فإن المدبغة ستعود إليك؟

شكرها آردون بصفعة صغيرة على مؤخرتها.

ـ لقد بدأ اليوم بداية جيدة!

ـ اذهب للقاء الريس ثم عد إليّ بسرعة. طلبت منه ثم عادت تستلقى بكسل على الفراش.

* * *

رحل الصامت من موقع العمل فى الفجر بعدما انتهى من بناء منزل طيبة الذى سيعيش فيه رجل يعمل حلوانيا، مع زوجته الثانية وابنيهما. فبعد تنفيذ العقد أصبح حرا ليغادر البر الشرقى، ويؤجر مركبا ويتجه إلى ساحة الحقيقة.

كم من المرات تدافعت فيه الرغبة فى العودة سريعا إلى الحديقة لرؤية كلير مرة أخيرة. ولكن إن فعل، ألن يعمق ذلك الجرح ويزيد من آلام الفراق؟

كان الصامت غارقا فى عمله حتى لا يفكر فيها، ولكن وجهها لم يتركه. كان قراره بعدم التحدث معها اختبارا لا يمكن تخطيه، وحان الوقت لمغادرة المدينة. بضعة أيام أخرى، ولن يجد الشجاعة لكى يرحل.

كانت نسمات الصباح معطرة وجميلة. وعبرت المركبة النيل محملة بالبضائع، وموجهة شراعها إلى الأمام لكى تستفيد من الرياح والتيارات معا. ونام الركاب فى تلك الساعات القليلة الباقية من الليل.

كان الصامت أول من قفز على الشاطئ، وتسلق التل القصير ثم وقف بلا حراك.

كانت كلير هناك، تجلس تحت نخلة.

أسرع نحوها ومد لها يده ليساعدها على النهوض.

وهنا قالت له كلير قرارها: سوف آتى معك.

* * *

الفصل الرابع عشر

ترك صانع الدباغة قطعة خبزه وجرى فى اتجاه آردون.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لقد أديت عملى جيدا، وأنت دفعت لى أجرى، والآن أنا راحل.

- إن ذلك من الجنون! ألا تعجبك ابنة عمى؟

- لها مؤخرة رائعة، وعقل العصفور.

- ألا تريد أن تحل محلى فى المدبغة؟

- فى سنك هذا يجب أن تحصل على أذنين لكى تسمع. لقد حصلت على ما جئت أبحث عنه، وكما قلت لك، سوف أعود إلى طريقى.

- فكر يا آردون!

- وداعا، يا ريس.

كان الشاب قد نسى بالفعل الدباغة، وبدأ يفكر فى كيفية الحصول على الخشب الذى يحتاج إليه كى يصنع المقعد. قد يفكر فى أن يبادله بالغلاف الجلدى الجميل، ولكنه لم يرغب فى فقده، ألن يكون إضافة تؤهله للدخول إلى ساحة الحقيقة؟

فى الوقت الحالى، عليه أن يجد نجارا، وألا يضيع المزيد من الوقت كما حدث عند الدباغ.

فى منتصف النهار، تقدم الشاب إلى ريس ورشة يعمل فيها نحو عشرين عاملا متدربا، ونفس العدد من الحرفيين المدربين، وقدم قطعة أثاث بسيطة ولكن قوية. كان الريس فى الستين من عمره، قوى البنية، ذا شارب صغير ولكنه لم يكن يبدو مريحا.

ـ اسمك؟

ـ آردون.

ـ خبرتك المهنية؟

ـ مزارع ودباغ.

ـ طردوك من العمل؟

ـ لا، تركت العمل طواعية.

ـ ما الأسباب؟

ـ هذا شأنى.

ـ هذا شأنى أنا أيضا، يا فتى. إذا رفضت أن تجيبنى فابحث عن عمل فى مكان آخر.

أعجب آردون باللهجة العدوانية التى تحدث بها الريس، فكان يريد أن يدخل فى معركة.

ـ كان أبى رجلا محدود الذكاء وضعيفا، والدباغ الذى عملت لديه كان انتهازيا بلا حياء. كان من الممكن أن أحل محل أى منهما فى العمل، ولكنى أبحث عن رئيس عمل أفضل.

لم يخف النجار دهشته.

ـ ما عمرك؟

ـ ١٦ عاما. وأبدو أكبر سنا بسبب حجمى الكبير. هل ستسمح لى بأن أعمل لديك، أم أبحث عن مكان آخر؟

ـ ماذا تريد بالضبط؟

ـ أن أعمل بسرعة عدد الأيام الضرورية لكى أستطيع أن أحصل على كمية من الخشب أصنع منها مقعدا، وأشترى مقعدا مطويا من الخشب.

ـ هل تعرف الثمن؟

ـ لشخص كسول، خمسة أشهر من العمل بدون أن يتعب. ولكن لى أنا شهر واحد فقط.

ـ ألا تنام أبدا؟

ـ أقل ما يمكن عندما يكون لدى عمل أريد الانتهاء منه .

ـ وبعد ذلك؟

ـ عندما أحصل على ما أريد ، سأرحل .

ـ تعلم المهنة جيدا ، هذا لا يهمك؟

ـ ليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك . . ولك أن تقرر .

ـ إنك غريب الأطوار . . هنا أنا الذى يأمر ، ولا أحب المعاندين . إذا قبلت أن تطيع ، فيمكن أن نجربك .

ـ هل أبدأ فى الحال؟

ـ بما أنك فى حاجة إلى الخشب ، فإنك ستكسره بنفسك . الحطاب سيعلمك استخدام الفأس .

* * *

تقدمت كلير والصامت ببطء فى اتجاه ساحة الحقيقة ، يسيران بحذاء مزارع القمح تقسمها أشجار النخيل والجميز .

ـ إنها ليست قرية مثل القرى الأخرى ـ قال لها موضحا ـ لن يسمحوا لك بالدخول .

ـ إلا إذا عشنا معا فى بيت واحد كزوج وزوجة .

وقف ليأخذها بين ذراعيه .

ـ هل تريدين . . هل تريدين حقا؟

ـ هل تشك فى ذلك؟

نسمات الهواء لم تكن أبدا منعشة مثلما كانت فى هذه اللحظة ، والسماء لم تكن أبدا صافية هكذا ، أو الشمس مضيئة هكذا . ولكن الصامت كان يعرف أن هذه السعادة ستكون قصيرة العمر .

ـ النساء الأخريات سيجعلن حياتك مستحيلة ، وسيجبرنك على الرحيل . سأحاول أن أجعلهم يقبلونك ، وسأقنعهم بأنك لست فقط زوجتى ، وأنك لست غريبة على العمل الذى يتم فى ساحة الحقيقة ، ولكن . .

ـ لن يكون ذلك ضروريا .

وهكذا استسلمت كلير . لقد فهمت أن رغبته كانت يوتوبية .

ـ لن يكون ذلك ضروريا ، قالت مرة أخرى ، باطمئنان ولكن أيضا بحسم ، لأننى أنا أيضا سمعت النداء .

ـ كيف؟

ـ عندما كنت أتأمل قمة الغرب حيث تقيم آلهة الصمت . أليست هى التى تحمى الوديان المحرمة حيث تقيم الأرواح الخالدة للفراعنة وزوجاتهم؟ أليست هى المعلمة السرية للفنانين فى ساحة الحقيقة؟ تسرب صوتها فى الرياح ، وفتحت لها قلبى . الآن ، أعرف أننى سأمضى حياتى فى اكتشافها ، والتعرف عليها وخدمتها . وليس هناك إلا مكان واحد أستطيع فيه أن أقوم بهذه المهمة .

ـ سوف أساعدك بكل قوتى يا كلير ، ولن أعبر بوابة القرية بدونك .

اليد فى اليد ، والنظرات تتركز على قمة الغرب ، سارا معا متجهين إلى ساحة الحقيقة . والحب الذى جمعهما ، جعلهما منذ تلك اللحظة ، كيانا واحدا لا ينفصل . أرادا أن يحييا نفس الحياة ، بكل أبعادها ، من أقصى المادية إلى أقصى الروحانية . ومهما تكن الصعوبات التى يجب تحملها ، لن يشتكيا ولن يندما . وإذا كان عليهما مواجهة حتى شبح الفشل ، فلن يتراجعا .

كان هناك طريقان إلى القرية . الأول يمضى بالقرب من الرمسيوم ، معبد ملايين السنين لرمسيس الأكبر ، ولكنه كان مغلقا بصفة دائمة والجنود لا يسمحون بالمرور منه إلا للفنانين القادمين من ساحة الحقيقة . أما الطريق الآخر فكان الوحيد المسموح المرور فيه لكل من يريد محاولة الذهاب إلى القرية .

كلير والصامت تركا على يمينهما معبد أمنحتب ، ابن هابو ، الحكيم الكبير الذى خدم الفرعون أمنحتب الثالث ، الذى كان يقع محرابه الضخم بالقرب منه ، وعلى يسارهما تقع هضبة جيمى حيث دفن الآلهة الأولون . وبعد أن تركا المنطقة الزراعية ، دخلا الصحراء .

ظهرت أولى القلاع الخمس لتحدد المنطقة المقدسة التى استمدت تلك الصفة من أهلية «المقبرة العظيمة والنبيلة لملايين السنين فى غربى طيبة» . هذه المنشأة ، التى يطلق عليها اختصارا كلمة «المقبرة» تجمع الفنانين المسئولين عن حفر وتزويق المقار الخالدة للفراعنة وزوجاتهم ، وتضم منطقتهم ، بجانب ساحة الحقيقة نفسها ، وادى الملوك والملكات .

كانت كلير مدركة تماما أنها تمضى فى مغامرة فى عالم آخر ، تشعر به قريبا جدا منها

وفى الوقت نفسه بعيدا جداً: عالم حيث البشر سيظلوان يحبون ويعانون ويكافحون المشكلات اليومية، ولكن حيث يقومون بتشكيل الخلود وكأنه مادة بناء.

منذ أن سمعت كلير النداء، ترى الصامت بصورة مختلفة. فمن كيانه امتدت تلك الرغبة فى الخلق التى سحرتها، ولكن فى الوقت نفسه ألا يجب أن يكون فى متناول يده الأدوات الضرورية لكى يحولها إلى حقيقة؟

لم تبدُ الشرطة أكثر ترحيبا من المعتاد.

ـ جواز مروركما.

ـ لا يوجد.

ـ إذن عودا من حيث أتيتما.

ـ أنا الصامت، ابن نيب المنجز، رئيس مجموعة ساحة الحقيقة. بلغ والدى أن رحلتى وصلت إلى نهايتها وأننى أرغب فى العودة إلى القرية مع زوجتى.

ـ آه.. يجب أن أبلغ الريس. وأنت ابق هنا.

نقل الشرطى الطلب إلى زميله الذى بدوره نقله إلى القلعة الثانية. الشىء نفسه تكرر من قلعة إلى أخرى، إلى أن وصل مكتب رئيس الشرطة سوبيك الذى سمح للزوجين بعبور «الجدران الخمسة» وبأن يتقدما إليه.

أمام نظرته العدوانية، شعر كلير والصامت أن المسألة لم تنته بعد.

ـ قصتك تبدو لى مزيفة ـ قال سوبيك بصوت خشن ـ إذا كنت تكذب على فستدفع الثمن غاليا.

* * *

الفصل الخامس عشر

لم يدْعُ سوبيك رئيس الشرطة، ضيوفه للجلوس. فهو لم ينم جيدا هذه الليلة، ولم يهضم طبقا من الفول جيدا، وضاق بالحر وضاق بمن يعارضه.

- هل تعرف جيدا رئيس المجموعة نيب المنجز؟ سأله الصامت بهدوء.

- هل تجدنى مغفلا؟ إنه أنت الذى لا أعرفه! نيب المنجز ليس لديه أبناء.

- هذا صحيح بالمعنى المجهل للكلمة.

- ما معنى هذا الكلام ؟ . .

- لقد مات والدى وتبنانى نيب المنجز. فى نظر الفنانين فى ساحة الحقيقة، أصبحت ابنه. وبما أنك توليت منصبك منذ فترة وجيزة، فإنك تسمع عنى لأول مرة.

ضرب سوبيك جبهته بكفه اليمنى، وقال:

- كل تلك الأقاصيص، كل ذلك الغموض. . كيف لى أن أتأكد منها؟ فليس من حقى الدخول إلى القرية!

- دعنى أتحدث مع حارس البوابة الكبيرة. هو سيدعو أبى.

- موافق. . وهذه هناك، من هى؟

- كلير، زوجتى.

- وهى ابنة من؟

- ابنة مهندس فى الضفة الشرقية.

- آه. . إذن هى لا تعيش فى القرية!

- ليس بعد، ولكنها ستعيش هناك معى.

وجه سوبيك إصبعه إلى الصامت متهما إياه .

ـ ما الذى يثبت لى أنكما متزوجان؟

ـ أنت تعرف تماما أنه ليس ضروريا الحصول على أى وثيقة إدارية .

ـ أنا أعرف أيضا أنكما يجب أن تعيشا سويا تحت سقف واحد . . فأين إذن هذا السقف؟

ـ إذا سمحت لنا بالخروج من هنا وبالتوجه إلى حى المساعدين ، فسوف أريه لك .

ـ هيا بنا .

خارج نطاق القرية سمح لبعض الحرفيين الذين ينتمون إلى العمالة الإضافية أو المساعدين للجماعة ، ببناء منازل بسيطة . فكان منهم عبيد ، الحداد ، وهو سورى الجنسية فى الأربعينيات من عمره . ذراعاه ضخمتان ، قصير القد . وملتح . كان عبيد يصنع ويصلح الأدوات المعدنية .

ساعة أن رأى الصامت ، خرج عبيد من ورشة الحدادة وأسرع إليه يستقبله بعناق كبير كاد يكفيه على الأرض .

ـ أخيرا عدت! أنا كنت متأكدا أنك لم تختف . الكاتب راموسى مرض ، ووالدك بدأ يفقد الأمل .

بعصبية شديدة ، تدخل سوبيك قائلا :

ـ إنك تسخر منى! فهذا منزل عبيد ، وليس منزلك .

تدخل عبيد فى الحديث وقال :

ـ ما مشكلتك أيها الرئيس؟

ـ هذا الرجل يدعى أنه متزوج بتلك السيدة ، ولكنهما ليس لديهما منزل .

تأمل عبيد كلير :

ـ يا آلهة السماء والأرض ، كم هى جميلة! إذا رغبت أن تتزوجنى فلن أتردد لحظة . معلوماتك غير كافية أيها الرئيس . لقد قمت لتوى بتأجير غرفتى إلى هذين الزوجين الشابين اللذين سيدخلانها تحت سمع وبصر الجميع . وسيكونان فى منزلهما ، وتتم الدخلة .

غضب سوبيك غضبا شديدا، وحاول أن يجادل:

ـ وإذا كانت تلك الفتاة غير موافقة، وإذا كان هذان الشابان شقيقين، وإذا . .

ـ خذنى بين أحضانك. طلبت كلير من الصامت الذى رفعها ليعبرا عتبة المنزل.

ـ أحييك يا ريس سوبيك، على ضميرك المهنى قال الابن الروحى لنيب المنجز ـ إننا متحابان، كلير وأنا، إننا زوجان، وسنعبد حتحور، إلهة الحب، من أجل السعادة التى منت بها علينا.

سأل الحداد رئيس الشرطة قائلا:

ـ ألا تريد، زيادة فى الاحتياط، أن تشهد الحدث، وتكتب محضرا رسميا بالواقعة؟

وضحك عبيد ضحكة ساخرة، عاد على أثرها سوبيك إلى مكتبه. أراد أن يعرف كل شىء عن الصامت. إذا كان هذا الأخير قد ارتكب أقل خطإ، فلن يرحمه.

كم كانت ليلة جميلة، ليلة الحب التى قضياها فى حجرة ليس بها إلا فراش قديم أعرج! كأن جسديهما قد صنعا الواحد للآخر، وحركاتهما نشرت فى الوقت نفسه سحر الرغبة والحنان.

ـ كم كانت سعيدة، تلك الساعة! قال الصامت عندما أشرقت الشمس. أى آلهة تستطيع أن تجعلها أبدية؟

ـ لقد نمت بجانبك، يا حبيبى، ويدك استلقت علىّ، أصبحت زوجتك. لا تبتعد عنى بعد الآن، ادع معى ألا يفرقنا شىء أو شخص.

احتضنها الصامت، عندما تنبه إلى ضوضاء.

ـ إذا كان العريسان قد استيقظا ـ قال صوت الحداد الخشن ـ فلقد أحضرت لهما الطعام.

بعض اللبن والعيش الساخن، والجبن الطازج، وبعض التين. . وليمة حقيقية!

ـ زوجتك جميلة مثل إلهة، يا صامت، وهى بالتأكيد تتحلى بالكثير من الخصال الجميلة، ولكن. . هل نبهتها إلى أنك لا تقودها إلى الجنة؟ القرية عالم مغلق، عدائى أمام كل وجه جديد، خاصة إن كان يهددهم بأن يفوق كل الآخرين.

ـ زوجى لم يخبىء عنى شيئا . أكدت كلير .

ـ آه . . وأنت ، ألا تخافين؟

ـ مثله ، أنا أيضا سمعت النداء .

ـ هذا جيد . . إذن تحذيراتى ليست لها أهمية . بالنسبة لى ، لو كنت مكانك لنسيت كل شىء عن ساحة الحقيقة ، ولذهبت لأعيش على الضفة الشرقية لكى أستمتع بالوجود . فى سنك هذه ، ستعزلين نفسك فى هذه القرية ، ولا يكون أمامك آفاق أخرى غير عمل غامض . . ليكن لكل مصيره .

ـ لقد تهتكت ملابسى ـ قال الصامت بأسى ـ أما أنت ، فمع ردائك الجديد ، ستعطين انطباعا أفضل .

ـ أتمنى ألا تأخذ محكمة الانتساب قراراها بناء على المظهر الخارجى .

ـ بصراحة ، أنا لا أعرف معاييرها ، ولا أعرف حتى من هم أعضاء المحكمة .

ـ هل ذلك يقلقك؟

ـ أخاف أن أفشل ، أن أخيب ظنك ، ألا أكون أهلا لوالدك . .

ـ أنا أيضا قلقة . ولكننى أعرف أنه ليس أمامنا خيار آخر ، وما علينا إلا أن نكون صريحين ، وأن نكون كما نحن .

ـ هناك تفصيلة أخرى تثير قلقى : لقد حققت الشروط المادية التى تؤهلنى للتقدم ، ولكن ما الذى سيطلبونه منك؟

ـ سنرى بعد قليل .

نادى الحداد الصامت .

ـ ها هى ذى الأشياء التى عهدت بها إلىّ قبل رحيلك ، قبل سنوات ـ قال له عبيد وأعاد له حقيبة من الجلد ، وقطعا من الخشب من أفضل الأنواع لكى يصنع المقعد ومقعدا مطويا من الخشب ـ ومع ذلك أود أن أفهم . . لماذا لم تتقدم إلى المحكمة بعدما حققت الشروط المفروضة عليك ؟ أنت ، الابن الروحى لحرفى مشهور؟

ـ لأننى لم أكن قد سمعت النداء .

ـ هذا ما دفعك إلى الرحيل كل تلك السنوات؛ لكى تسمعه؟

ـ نعم، ولاحظت أنه قريب جدا. قريب إلى حد أن قوته أصمت أذنىّ.

تنهد الحداد، وقال:

ـ أشكرك على صراحتك، ولكنى حقيقة لا أستوعب شيئا مما تقول.. حظ سعيد برغم كل شىء.

كان الصباح مشرقا، والحرارة غير محتملة. ذهب الزوجان إلى قسم الشرطة الرئيسى حيث جلس سوبيك، أكثر ابتهاجا، يتناول إفطاره.

ـ ليس لدى أدنى سبب لاعتقالك ـ قال له أسفا ـ اخرج من هنا، وقدم نفسك إلى البوابة الجنوبية.

أطاع الصامت وكلير الشرطى. بدت الأسوار التى تشكل نطاق المدينة، عالية لا يمكن اختراقها.

على يسار البوابة المغلقة، وقف أحد الحارسين، فى نوبة حراسته التى تمتد من الرابعة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر، وقد حمل عصا كبيرة، ويحتمى بكوخ من البوص من حرارة الشمس. هذا الحارس لا يسمح له بتخطى عتبة البوابة. وهو مثل زميله، يعيش فى المنطقة الزراعية، بعيدا عن ساحة الحقيقة. رأسه مربع، وأكتافه عريضة، وعلى استعداد لكل أنواع المعارك. كان يتلقى أدنى الأجور، يضاف إليها بعض العلاوات عندما كان يقوم بمراقبة العمليات التجارية التى تجرى أحيانا.

ـ إننى أدعى الصامت وأنا ابن نيب المنجز. زوجتى كلير سمعت النداء مثلى، ونحن نرجوك أن تفتح بوابة القرية.

ـ غير مسموح لكما بالدخول.

* * *

الفصل السادس عشر

كان وجه الحطاب مدبوغا مثل الجلود، وكان يمضغ بلا توقف بعضا من أوراق إحدى الزهور. أمامه، وقف آردون يرعى نحو عشر من المعاز تقودها الماعزة الأكبر سنا، والتى تبدو أنها تعرف طريقها.

ـ هل نقوم بقطع الأخشاب أم برعى القطيع؟

ـ لا تكن قليل الصبر، يا فتى. فحسب ما رأيت يبدو أنك لا تعرف شيئا عن المهنة. إن تلك الماعز تسمح لى بكسب وقت وطاقة.

وجدت الماعزة الأكبر سنا شجرة سنط، فى أقصى حدود الصحراء، وانهالت عليها تلتهم أوراقها القريبة. أمام تلك الوليمة لم تستطع المعاز الأخرى المقاومة، فقامت بهجوم على الشجرة تأكل من أوراقها.

ـ لنجلس فى ظل تلك النخلة هناك، وندع المعاز ترعى. لقد أحضرت معى بعض الخبز والبصل والماء.

ـ ليس لدى رغبة فى الراحة، ولكنى أريد أن أقوم بقطع الخشب، الكثير من الخشب.

ـ من أجل ماذا؟

ـ إننى فى حاجة إلى كمية معينة لكى أصنع مقعدا.

ـ هل عندك منزل تريد تأثيثه؟

ـ إننى فى حاجة لهذا الخشب.

ـ إن لديك أسرارا صغيرة، وهذا ليس خطأ. الإقلال من الحديث عنها يجعلنا أفضل حالا. أنا طلقت مرتين لأننى كنت أثق بزوجاتى أكثر مما يجب. وفى النهاية أفقرننى وانتهى بى الحال إلى العمل حطابا فى خدمة تجار.

ـ متى نبدأ ؟

ـ انظر إلى تلك الحيوانات الطيبة، واعترف بجميلها عليك.

وقفت المعاز على أقدامها الخلفية، وأخذت تجذب الشجرة بقوة. عندما انتهت من التهام ما تستطيع الوصول إليه، قام الحطاب يساعدها. فربط الأفرع العالية بحبل وجذبها إلى أسفل لتكون فى متناول المعاز، التى سعدت باستمرار الوليمة.

ـ انظر واشعر بالإعجاب بعمل المعاز، يا فتى! لقد أصبحت تلك الشجرة نظيفة تماما من الورق، وحان وقت عملنا نحن.

تلقى آردون فأسا بيد من الخشب وسن من البرونز المقوس. وبدأ يشذب الجذع بضربات قصيرة ومحددة. ثم، فى ضربة واحدة، قطع الشاب الجذع بقوة أذهلت الحطاب. لم يكن الشاب الصغير قويا لا يتعب فقط، بل بدا أيضا أنه يعمل كمحترف خبير.

ـ إنك تعمل أسرع كثيرا مما أستطيع أن ألاحقك.. بهذا الإيقاع، ستعمل على تسفيه المهنة.

ـ اطمئن، فأنا لا أنوى أن أبقى خطّابا. عندما أنتهى اطلب من معازك أن تختار شجرة أخرى.

ـ لقد قال الريس..

ـ أنا الذى يستعمل الفأس، وليس الريس.

رأى الحطاب أنه من الأفضل ألا يثير مشكلات فى الوقت الحالى. واتجهت المعاز لمهاجمة وليمة أخرى بعدما استراحت بضع دقائق، وقام آردون بكسر شجرة سنط ثانية.

* * *

صبر الصامت وكلير لمدة ثلاثة أيام. وكان عبيد الحداد يحضر إليهما طعاما كثيرا دون أن ينبس بكلمة، كما لو كان قد تلقى أوامر بالصمت التام. وكان الشرطى سوبيك يمر من أمامهما بدون أن يوجه إليهما أى كلمة.

وانتظرا، تمر أمامهما قوافل الحمير تحمل المؤن المختلفة والأدوات، ويتم إنزال الأحمال من عليها تحت رقابة حراس البوابة، وعمل المساعدين الذى يضمن راحة سكان ساحة الحقيقة.

سألت كلير:

ـ هل تلك الأعمال من الأمور العادية هنا؟

ـ لا أعرف. هؤلاء الذين يعيشون فى الداخل يتصرفون كما يحلو لهم.

ـ الصبر بجانبك ليس امتحانا، وهذا المكان سحرى إلى حد أن الوقت يمر فيه مثل العسل.

كان الصامت يشعر بنفس صفاء زوجته. معها، وبفضلها، لم يكن يخاف من الأقدار. وإذا تصورت محكمة الانتساب أنها بذلك تستطيع أن تخضعهما تحت وطأة القلق، فهى قد أخطأت الطريق. فإن وجودهما هنا فى الصحراء، فى قلب التلال الطبيعية التى تهيمن عليها القمة العظيمة للغرب، بالقرب من ذات المكان حيث يعمل البعض من أجل الأبدية ويعيشون أسرار تلك المهنة، أليس ذلك كله من أسباب السعادة؟

بعد انتهاء اليوم الثالث وغروب شمسه فى الأفق، جاء حارس البوابة لمقابلتهما.

ـ يا صامت، هل تصر على طلب انضمامك إلى جماعة ساحة الحقيقة؟

ـ رغباتى لم تتغير.

ـ وأنت يا كلير؟

ـ رغباتى أنا أيضا.

ـ إننى أقوم مع زميلى بخدمة توصيل الرسائل. هل تريد أن تبعث برسالة إلى قريب لك قبل أن تمثل أمام محكمة الانتساب؟

حرك الصامت رأسه بالنفى، وفعلت زوجته الشىء نفسه، مع تذكر والدها الذى قد لا يفهم قرارها.

ـ إذن اتبعانى.

هبط الليل بسرعة. خلد المساعدون إلى النوم فى مساكنهم، فى الخلاء. ويستطيع المرء أن يقسم بأن القرية، بعد أن لفها الظلام، باتت مهجورة.

برغم إصرار كلير، فإنها شعرت بقلبها يعتصر. واختفى السحر الرقيق الذى كان يميز المكان مع آخر أشعة غروب الشمس، ولم يعد هناك إلا شعور بخوف تغلغل وهيمن.

تبع الزوجان الحارس إلى أن وصلا إلى البوابة الشمالية، المدخل الرئيسى لساحة الحقيقة.

ـ انتظرا هنا.

ضغط الصامت يد زوجته.

جلس الحارس القرفصاء وأضاء شعلة بدون أن ينظر إلى الزوجين. وفى السماء كان صقران يحلقان معا وكأنهما يرقصان حيث خفت آخر ضوء برتقالى.

فتح الباب.

عند البوابة ظهر رجل مسن يرتدى شعرا مستعارا أسود اللون، ولباسا طويلا أبيض، ويحمل فى يمناه عصا ذات عقدة. تصور الصامت أنه تعرف على هذا الشخص، إنه الحجار صعب المراس الذى لم يزعجه فى عمله.

ـ من أنت، يا من تجرأ على إزعاج هدوء ساحة الحقيقة؟

ـ الصامت، ابن نيب المنجز، وزوجتى كلير.

ـ هل محكمة الانتساب تعرفك؟

ـ إننا نرغب فى تقديم طلبنا إليها.

ـ وما هذا الطلب؟

ـ الانضمام إلى جماعة الحرفيين والحياة فى ساحة الحقيقة.

ـ هل استوفيت الشروط المفروضة؟

قدم الصامت حقيبة الجلد والكرسى المطوى والخشب الذى سيصنع منه المقعد. نظر الرجل إليهم، ولكنه لم يتفوه بأى تعليق.

ـ وأنت يا كلير؟

ـ لقد سمعت نداء قمة الغرب.

فكر الرجل طويلا، كما لو أنه كان يوازن الإجابة.

ـ باسم فرعون، أقسما أنكما لن تكشفا إلى أى شخص مهما كان وفى أى ظروف ما ستريان وما ستسمعان.

أقسم الزوجان .

ـ إن حنثتما بالقسم ، فلتعذبكما شياطين الجحيم إلى الأبد! ضعا خطواتكما على خطواتى .

تتبع الصامت ثم كلير خطوات الرجل ذى العصا ، ودلفا من فتحة البوابة . فى الجانب الآخر تصورا أنهما أمام شارع ضيق على جانبيه مساكن ، ولكنهما لم يكن لديهما الوقت ليتأملا هذا العالم الغامض ، فلقد اضطرا للتوجه إلى اليسار حيث امتد دهليز يجلس أمامه اثنان من الحرفيين .

لم يستطيعا تمييز وجهيهما بسبب الظلام .

أحدهما تقدم وأمسك بيد كلير . وبسرعة تدخل الصامت قائلا :

ـ إلى أين ستأخذها؟

ـ إذا رفضت أن تخضع لقوانيننا فارحل فى الحال من القرية .

ـ كن على ثقة ! ، قالت كلير .

وابتعد الحرفى مع الفتاة الشابة .

استشعر الصامت قسوة الوحدة وشعر بالخوف من الاختبارات القادمة . كان يأمل ألا ينفصلا ، وأن يضما قواهما معا أمام القضاة ، ولكن أصبح عليه أن يواجههم وحده بدونها .

ـ لقد حان الوقت ، أعلن الرجل ذو العصا .

* * *

الفصل السابع عشر

أربع أشجار سنط.

قطع آردون أربع أشجار سنط في وقت قياسى تحت أنظار الحطاب المشدوه، والذى تمتم تقريرا غير مفهوم للنجار، الذى اضطر إلى أن يصدقه بعدما رأى كمية الخشب التى تكومت أمام ورشته. وتعلم الشاب استخدام المنشار من أجل نشر أجمل القطع بالطول والحصول على ألواح لا يستطيع أى محترف مدرب أن يرفضها.

تجاهل آردون المحادثة التى جرت بين الحطاب والنجار، وكان مهتما بالقطع التى أعدت للتسليم: ألواح المروحة، أمشاط، أكواب صغيرة وقطع أثاث صغيرة، خزانة ومقاعد.

اقترب النجار من الشاب.

ـ لقد أعطيت توجيهات محددة، وأنت ضربت بها عرض الحائط. هل تعرف أنك فى حاجة إلى الحصول على إذن لكى تقطع شجرة؟ على الآن أن أفسر حماستك الزائدة للإدارة!

ـ هذه مشكلتك أنت يا ريس. أما أنا، فلقد أعطيتك خشبا مقدما، وذلك فضلا عن أننى وفرت عليك الأجور. ثم كم من الأشجار على أن أشذبها إلى قطع صغيرة من أجل أن أحصل على الكمية التى أحتاج إليها؟

ـ إن عملك كحطاب انتهى.

ـ هل تطردنى؟

ـ هذا بلا شك أفضل حل، ولكن عليك أن تتعلم كيف تصنع مقعدا وكرسيا متحركا، كما أتذكر.

ـ إنك تتذكر جيدا .

ـ يجب ألا تدخل الورشة مثل الثور الذى يدخل مكانا مغلقا ، فتعمل لدى فنيين دقيقين يعملون هنا منذ سنوات طويلة . والمتدربون يعلمون أن عليهم الطاعة والتصرف كما يجب . وأخاف أنك لن تستطيع أن تفعل ذلك .

ـ لنجرب برغم كل شىء .

ـ إننى أحذرك : مع أول حماقة سوف أطردك من العمل .

تصافح الريس والمرءوس .

ـ هل أستطيع أن أبدأ الآن؟

ـ انتظر إلى الغد ، أنت . . .

ـ ليس لدى وقت أضيعه .

عندما قدم النجار آردون إلى العمال الآخرين فى الورشة ، سادت فجأة البرودة فى الجو . بعض الوجوه الكالحة توجهت إلى القادم تؤكد له أنه غير مرحب به .

ـ إننى أطلب منكم أن تقبلوا آردون كمتدرب . سيساعدكم على الانتهاء من الأعمال المتأخرة ، وسيكون على استعداد للتعاون مع من فى حاجة إليه .

ـ ماذا يعرف عن العمل؟ سأل رئيس الورشة .

ـ أريد أن أتعلم ـ أجاب الشاب ـ من منكم يريد أن يبدأ فى تعليمى؟

ـ خذ هذا .

قدم رئيس العمال فأسا إلى آردون ، أداة صغيرة ذات يد من الخشب ، أحد جوانبها مسطح ، ذو زوايا قائمة . ثبت عليه شفرة من البرونز بسير من الجلد .

ـ اعرض علينا قدراتك . أمره الريس بشىء من السخرية .

نظر آردون إلى الشفرة ، ومرر إصبعه على حدها ، ثم أخذ يتأمل الورشة طويلا ، كما لو كان يستعد للاستيلاء عليها . ولثوان ركز أنظاره على قاعدة السندان قبل أن يختار لوحا قام بتمهيد سطحه بالفأس .

ـ من الذى علمك؟ قال الريس مندهشا.

ـ إن أداة العمل تتكيف بالضرورة على المواد التى ستعمل عليها. هذه الأداة صنعت من اجل أن تقوم بالصقل، أليس كذلك؟

ـ إنك لست جديدا على العمل. .

ـ لم أحتج إلى أحد حتى الآن، وأتساءل إن كان ذلك سيستمر. هل لديك شىء آخر لتعلمنى إياه؟

أشار الريس للعمال بمغادرة المكان.

ـ من أنت حقا يا فتى؟

ـ شخص يريد أن يتعلم كيف يصنع مقعدا مطويا.

ـ هل تسعى إلى احتلال مكانى؟

ـ من هذه الناحية، كن مطمئنا! فإننى سوف أرحل بعد الحصول على ما أريد مباشرة.

ـ هذا جيد. . انظر إلى.

جلس النجار على مصطبة، وأخذ فى يمناه مطرقة خشبية ذات رأسين، وفى يسراه مقصا من الخشب. وعلى لوحة رفيعة من الخشب وضعها بين ركبتيه، قام بحركات منتظمة رائعة بحفر تجويفات للتعشيق.

ـ والآن دورك.

جلس آردون مكان الريس وقلد حركاته بلا خطإ.

ـ إننى لا أصدق أنك لم تعمل فى الخشب من قبل!

ـ صدق ما تريد ودعنا نكمل.

فى الورشة، كان هناك العديد من الأدوات والأصناف من الفئوس والمناشير والسكاكين والمقصات. وقام آردون بتجربتها جميعا بلا تردد. كانت يده ثابتة وحركته دقيقة.

قام النجار مدهوشا لقدرات آردون، بتعليم الشاب كيف يستخدم الألواح التى تم قطعها بعناية والتى قام بتجميعها معا فى شكل ذيل طائر السنونو، وثبتها بالأوتاد. وكشف له أسلوب عمل الأركان المزودة بتيجان، وعمل أوتاد خشبية، كما علمه فن

توصيل طرف الخشبة ونقرة التعشيق، وفن عمل غطاء الخزانات بحيث تحافظ على نظام محتوياتها فى حالة وقوعها، وأسلوب إنجاز الإحكام الكامل مما يساعده على صنع الصناديق والمقاعد.

كانت يد آردون تفهم كل شىء ولا تنسى شيئا. وكانت أحيانا تبدى تفوقا على أستاذها، الذى تابع آردون مشدوها ومعجبا.

ـ لقد ولدت لتكون نجارا، يا فتى. فلن تقف أمامك أى صعوبات، وستستطيع تكوين ثروة.

ـ كم مقعدا على أن أصنع حتى أستطيع ان أكتسب مقعدى المطوى؟

ـ يكفى أن تصنع نحو عشرة منها. . ولكنى متأكد أنك ستتذوق المهنة وتعجبك!

ـ أرنى كيف تقوم بحشو الكرسى بالقش.

ـ غدا سنرى ذلك.

ـ هل تعبت؟

أثارت تلك الكلمات غضب الريس، فقام فى الحال يستخدم الألياف النباتية المضفرة لكى يحشو بها مقعدا يتحمل وزنا ثقيلا.

مر الليل بسرعة، والأستاذ يختبر باستمرار القدرات العجيبة لتلميذه، الذى لم يخيب رجاءه ولو مرة واحدة.

عندما خلد النجار إلى النوم، أنهى آردون أول مقعد له.

كان يوم عطلة. وذهب العمال للراحة باستثناء آردون الذى كان يعمل تحت شجرة الجميز. كان يستمتع باستخدام المطرقة الخشبية والمقص، وكان يختبر نفسه فى التعامل مع الخشب. فاستطاع باستخدام قطعة حجر مصقولة ومهذبة جعل سطح المقعد أملس كما يجب. ومع التجارب، نجح آردون فى صنع قطعة صغيرة من الأثاث، جميلة وقوية.

ـ أنت، آردون؟ سألت شابة صغيرة طويلة ذات شعر أسود قصير.

ـ إنه أنا.

ـ هل أستطيع أن أجلس؟

ـ كما تحبين.

كانت ترتدى قميصا ذا أكمام قصيرة، وتنورة تصل إلى أول ركبتيها. وجهها لفحته أشعة الشمس، وعيناها جذابتان. وكانت تمص فرعا من البردى الحلو.

ـ هل تعرف ما يقولونه عنك يا آردون؟ إن همس أوراق الجميز مثل رائحة العسل، أوراقها فى لون التركواز، وقشرتها مثل الخزف، وفواكهها أكثر احمرارا من أحجار اليشب. إن ظلالها مرطبة، ولكنى أشعر بالحر، الحر الشديد.. ألا تساعدنى فى خلع قميصى؟

ـ إننى مشغول.

قامت الفتاة بخلع قميصها الرفيع، لتظهر من تحته ثديين مثل تفاحة الحب، ورقدت على فخذ الشاب القوية.

ـ ألا يعجبك وصفى لشجرة الجميز؟

ـ ما قرابتك لرئيسى فى العمل؟

تراجعت بقدها الصغير.

ـ أنا.. أنا ابنة أخته.

ـ لقد بدأت أتعود على ذلك: فكل ريس عملت معه كان يرسل لى فتاة جميلة من أجل أن تستثيرنى لكى أفضى أليها بأسرارى، ومن أجل أن تسيطر علىَّ كى أبقى لديهم.

ـ إنك مخطئ، أنا..

ـ لا تبدئى فى الأكاذيب. تستطيعين أن تؤكدى لخالك أننى قلت له الحقيقة، وأنه ليس لدى أية نية فى أن أصبح نجارا. وبفضله حققت تقدما سريعا، وخلال فترة قصيرة سأمتلك مقعدا مطويا جميلا.

ـ ألن تبقى هنا؟

ـ لدى ما هو أهم.

ـ برغم أن مستقبلك..

ـ دعينى أهتم بمستقبلى. أما حاضرى الآن، فهو هناك فتاة رائعة تريد أن تحب.

* * *

الفصل الثامن عشر

كل مدينة طيبة كانت فى حالة من التأثر الشديد، لأن الإشاعات تأكدت : وهى أن رمسيس الأكبر وصل إلى عاصمتهم فى الدلتا، بى ـ رمسيس، وأنه سيقيم بضعة أسابيع فى قصره بالكرنك. بعض المقربين منه يتصورون أنه ما جاء لمجرد الاصطياف، بل ليخلو بنفسه فى معبد مغلق، أما الآخرون فيرون أن الملك العجوز قد جاء ليعلن قرارات مهمة.

رمسيس الأكبر حكم مصر منذ أكثر من ٥٧ عاما، ولقد قارب عامه الثمانين. فى عامه الـ ٢١ وقع على اتفاقية سلام مع الحيثيين من أجل بدء عهد من السلام والازدهار يخلد فى ذاكرة البشرية. ولكن المآسى جاءت من كل حدب وصوب بعدما اختفى والده سيتى، ووالدته تويا، وزوجته المحبة التى كان يقدسها، الزوجة الملكة نفرتارى. ثم رحل عن الأرض العديد من أصدقائه المقربين. ثم قبل عامين، انتقل خاع، الابن المثقف والعالم، والذى كان يعده لكى يخلفه، إلى جنة العالم الآخر. وسيصبح على ابنه الثانى ميرينبتاح أن يتولى تلك المسئولية الثقيلة.

وبسبب تقدمه فى السن، وآلامه الروماتزمية، ترك رمسيس لابنه ميرينبتاح مهمة إدارة الأرضين، مصر العليا ومصر السفلى، ولكن يظل هو الذى يوقع على القوانين الملكية التى يكتبها كاتبه المخلص آمينى، الذى بات عابسا ومتذمرا يوما بعد يوم، ولكنه بقى دءوبا كما كان دائما.

فبفضل فرعون، كما يؤكد الشعب المصرى، الحقيقة تطرد الأكذوبة، ويقع المجرمون على وجوههم، وتأتى الفيضانات فى موعدها، وتتبدد الظلمات أمام النور. ألا يملك الملك ملايين الآذان التى يسمع من خلالها كلمات كل إنسان، حتى ولو كانوا مختبئين فى أعماق الكهوف؟ وألا تضىء عيناه بضوء أسطع من نور النجوم؟ إنه القناة التى تقوم بتنظيم منسوب النهر، والقاعة الكبيرة حيث يستطيع كل فرد أن يجد راحته، والمتراس القوى أمام جدران من المعدن الإلهى، هو المياه الجارية فى فترات الحرارة الشديدة، والملجأ

الجاف والدافئ خلال الشتاء. لقد توج الفرعون فى القلوب بعدما جعل مصر أكثر خضرة وازدهارا من النيل العظيم.

وصل رمسيس الأكبر إلى الكرنك، جالسا على مقعد محمول، حيث كان فى استقباله الكاهن الكبير للإله أمون، والوزير وعمدة طيبة وبعض المسئولين الآخرين الذين أصابهم التوتر الشديد لمجرد فكرة أنهم سيرون عن قرب من الملك الشهير الذى عبرت شهرته حدود مصر منذ زمن بعيد. وقام الضابط ميهى، لو فتنانت المركبات بتأمين سلامته، فهو الذى نظم كل شئ حتى يلاحظ الملك خدماته الجليلة والمخلصة.

ظل رمسيس الأكبر برغم عمره المديد، مؤثرا كما كان يوم تتويجه. أنفه الطويل، وأذناه ذواتا الشكل الدائرى والملتوى بدقة، فكاه القويتان ونظرته الثاقبة ـ كلها جعلت من وجهه، وجه ملك اعتاد أن يأمر.

القصر كان فتنة للرؤية. الدهاليز وجدران صالة الاستقبال ذات الأعمدة، زينت بتشكيلات من زهور اللوتس والبردى، ومن الأسماك والطيور التى تحلق فى الهواء لتتآلف مع هذا المشهد الرائع. وحول الشكل البيضاوى الذى يمثل دائرة الشمس، رسم اسم رمسيس بالأزرق على خلفية بيضاء. كما زينت أعلى الجدران بأزهار زرقاء وملتوية وأزهار الخشخاش.

دخل الملك يرتدى رداء أبيض وتنورة باللون الأبيض والذهبى، وحول معصميه سواران من الذهب الخالص، وفى قدميه صندل أبيض اللون، وجلس على العرش المصنوع من الخشب المذهب. وكل شخص سمح له بالدخول إلى هذا المجلس المهيب، شعر أن رمسيس الأكبر ما زال مسيطرا على مقاليد الحكم ومسيرة الدولة.

ـ مولاى ـ قال عمدة طيبة ـ إن مدينة الإله آمون تبتهج لقدومك. إنه بفضل توجيهاتك تعيش سعيدة، أنت يا من كنت الأب والأم لكل البشرية. ولتظل كلمتك دائما تغذى قلوبنا. أنت أساس البهجة، ومن يحاول التمرد على الفرعون يدمر نفسه.

ـ خلال رحلتى، قمت بدراسة العلاقات الخاصة بإدارة مدينتى الحبيبة طيبة. أنت عمدة جيد، ولكن يجب الاعتناء أكثر برفاهية سكان الحى الجديد. بعض أعمال شبكة الطرق تأخرت كثيرا.

ـ ستتم الأعمال فيها كما أردت يا مولاى، والتأخير سيتم التغلب عليه. هل لى أن أقترح عليك أن تسمح بمنح رتبة الطوق الذهبى لـ «لوفتنانت المركبات ميهى» الذى قام بتأمين سلامتكم فى طيبة، ويعجب به كل رؤسائه من الفرقة التى تضم الصفوة؟

وافق رمسيس بحركة بطيئة . فمنذ وقت طويل لم يعد يهتم بإعطاء النياشين ولا بلعبة الشرف الساذجة تلك ، حيث فقد الكثير من كبار القوم نفوسهم .

أما بالنسبة لميهى ، فتلك هى البداية الحقيقية لحياة عملية رائعة . فتلقيه القلادة الذهبية الرفيعة من يد الوزير ، يعنى الاعتراف بميزاته باسم الفرعون ، فإن الضابط لن يترقى فقط إلى رتبة الكابتن ولكنه سينتمى أيضا إلى الإدارة العليا لحى الأغنياء فى طيبة . شفتاه الغليظتان لمعتا من فرط سعادته . ولكن ميهى شعر برغم كل شيء ببعض الإحباط لأن رمسيس لم يطل النظر إليه ، ولأن الاحتفال كان قصيرا .

ـ لقد تلقيت رسالة من المدير العام بالبر الغربى لطيبة ـ تحدث الملك ـ ومحتوى تلك الرسالة هو السبب الحقيقى فى وجودى هنا . لندع كاتب تلك الوثيقة يكشف عن شكواه .

كبير الموظفين آبرى ، وقد ظهرت عليه النعمة ، تقدم أمام الملك وانحنى .

ـ مولاى ، لقد حرصت على أن أنبهك بشأن وضع غير طبيعى . فإن الحرفيين فى ساحة الحقيقة يكونون مجتمعا منفصلا منذ حكم جدك المعظم ، تحتمس الأول . وبقى الأمر على ما هو عليه منذ ثلاثة قرون تعمل القرية على حفر مسكن الأبدية فى وادى الملوك . . ألم يحن الوقت لكى يعاد تنظيم تلك المؤسسة؟

ـ ما الذى تلومهم عليه؟

السؤال المباشر أحرج الكاتب .

ـ مولاى ، إنه ليس لوما بالضبط ، ولكن تلك الجماعة تصر على أن تتلقى يوميا كمية من المؤن ، تعمل على اضطراب ميزانيتنا . وهناك العديد من المساعدين الذين يعملون فى خدمتهم ، وكما أن سكان ساحة الحقيقة ملتزمون بالسرية ، مما يجعل من المستحيل السيطرة على عملهم ، وبالتالى فرضه عليهم . هناك العديد من الموظفين الذين يتساءلون عن حقيقة الدور الذى تلعبه تلك المؤسسة التى تنتفع بمميزات عديدة يرى الجميع أنها مغالى فيها .

ـ وماذا تقترح؟

شعر كبير الموظفين بالتشجيع على المضى قدما . فمن الواضح أن الملك قدر القضية التى طرحها .

ـ إننى أقترح أن نلغى ساحة الحقيقة وتفريق الحرفيين الذين يعملون فيها . والقرية ، التى لا تحتل منطقة كبيرة ، تتحول إلى مخزن . بذلك سنستطيع أن نحقق ادخارات قيمة ،

بالإضافة إلى الضرائب التى ستفرض على العائلات والأفراد الذين كانوا حتى تلك اللحظة مستثنين منها. لهذا فإن اختفاء تلك المؤسسة العتيقة سيكون لها أفضل الأثر على الدولة.

لم يعد أمام رمسيس إلا أن يسن القانون الذى سيحول هذا المشروع إلى حقيقة.

-هل تدرك مهمة ساحة الحقيقة؟ سأل الملك.

انكمش كبير الموظفين فى مكانه.

-نعم يا مولاى.. فهى كما أتذكر، حفر سكن الأبدية للفرعون الحاكم، ولزوجته الملكية ولكل أقاربهما.

-مقبرتى بدأ العمل فيها منذ العام الثانى من حكمى، وأنت إذن ترى بلا شك أن الحرفيين فى الجماعة أصبحوا عاطلين عن العمل بعد انتهائهم من مهمتهم منذ وقت طويل بسبب طول عمرى.

-لا بالتأكيد، يا مولاى، إننى أعرف تماما أن لديهم مهام أخرى، وأنا لا أريد أن أقول إن..

-الفرعون يبنى على الأرض مدينة الله، حسب الواجب الذى فرض عليه، وهو يظهر رضاه من خلال الأعمال التى يقوم بها من أجل الآلهة عن طريق بناء معابدهم ونحت وجوههم. فى بوباستيس وأثريبيس وبى-رمسيس فى ممفيس وهليوبوليس وهيرموبوليس وأبيدوس، فى طيبة وإدفو وجزيرة فيلة، فى جنوبى وشمالى مصر، تنجز الأعمال وتستمر تحت أشكال عدة. فى قلب تلك الأعمال، هناك مسكن الأبدية للفرعون تقيمه ساحة الحقيقة. لهذا السبب، قرر والدى سيتى، توسيع القرية، لأن من الغموض الضرورى يأتى كل شىء، ومنه يولد، ما تَعُدّه النفوس الضيقة مثلك مقبرة، بينما هى فى الحقيقة موطن النور. إن الحرفيين يعملون كل يوم من أجل قهر الظلام، إنهم يشيدون من أجل كا، تلك الطاقة اللامادية التى تبث الحياة فى كل كيان حى بدون أن تثبت نفسها فيه أو تختفى معه. ومن أجل كا الملكية، التى تنتقل من فرعون إلى فرعون بدون أن تكون ملكية خاصة لأى منهم، هم يقومون باستمرار بتحسين مسكنى الأبدى. ولكن كيف يمكن لك أن تفهم تلك الأسرار بطبيعتك هذه، أيها الكاتب ذو القلب المغلق والذكاء المحدود؟ تأكد أن فترة وجودى فى طيبة ليس لها هدف آخر غير تجميل قرية البنائين، ومنحهم وسائل عمل إضافية ودعم استقرارهم. وهى تلك المهمة التى سأكرس لها السنوات الأخيرة من وجودى على الأرض، لأنه ليس هناك أهم من ساحة الحقيقة.

* * *

الفصل التاسع عشر

كان رمسيس الأكبر يستريح فى حديقة القصر التى تظللها أشجار النخيل والكرم والتمر الهندى، وشجرة صفصاف تمتد على ضفاف مجرى مائى. كانت الممرات الرملية تحيط بها الأزهار من كل الألوان، وتحدد مسارها بحبل رفيع، وتتمتع بعناية مستمرة. جلس الملك العجوز على مقعد مريح، رأسه مستند على مخدة، فى جناح بالحديقة مزين بالأعمدة الصغيرة خضراء اللون. وعلى مائدة منخفضة بالقرب منه، كانت هناك الجعة الخفيفة وبعض ثمار العنب والتين والتفاح. كان الملك يستمتع بريح الشمال العذبة التى بدأت تهب عليه ويتأمل طيور أبى قردان والبلبل وهى تمرح فى ضوء شمس الأصيل.

جاء وصول الضيف لينزعه من ذكرياته. كان الرجل الذى وقف أمامه ليحييه هو أحد النبلاء، أكثرهم رزانة وكتمانا، ولكنه ظل أكثرهم أهمية طوال فترة حكم الملك الطويلة. فقد كان راموسى، ابن ساعى البريد، قد اختير ليكون «كاتب مقبرة ساحة الحقيقة» فى العام الخامس من حكم رمسيس، فى الشهر الثالث من الفيضان، اليوم العاشر منه. كان الملك نفسه هو الذى اختار راموسى لكى يتولى هذا العمل الصعب، بعد حياة مهنية حافلة: فلقد تلقى تعليمه فى بيت الحياة، ثم تدرب كمساعد كاتب، ثم منصب كاتب حسابات للمواشى فى معبد آمون بالكرنك، ثم منصب كاتب الرسائل، والأرشيف الملكى وكنوز فرعون، وذلك قبل أن يقفز خطوة ليصبح «رجلا من الداخل».

ترك الملك الاختيار لراموسى، لأنه كان عليه إجراء تغيير جذرى فى التوجه العام. بعد أن قام فترة بزيارات متعددة لمعبد الكرنك الضخم ومعابد تحتمس الرابع وأمنحتب الحكيم ابن هابو، كان على النبيل أن يتخلى عن الحياة السهلة والمرفهة من أجل أن يدير من الداخل القرية السرية للحرفيين.

لم يتردد راموسى طويلا: فلقد كانت المغامرة استثنائية يجب أن يجربها. ومن لحظة تعيينه، طلب من خدام ساحة الحقيقة، بناء على طلب الملك، بناء محل إقامة لرمسيس فى

المنطقة المغلقة وتوسيع معبد حتحور، حامية الجماعة، مع الاستمرار فى الاهتمام بمسكن الأبدية للملك.

كان راموسى يبلغ من العمر ٨٧ عاما، ولقد تقاعد، بينما ظل مقيما فى القرية حيث كان محبوبا من الجميع. فلا يتخذ أى قرار مهم إلا بعد الرجوع إليه.

ارتدى راموسى ملابس الأعياد لكى يقابل مليكه: قميصا ذا أكمام طويلة ذات ثنيات، ووزرة ذات ثنيات أفقية وصندلا من الجلد. فبفضل رمسيس، عاش راموسى حياة مثيرة يرعى فيها رخاء ساحة الحقيقة، وكان سعيدا أنه سيستطيع أن يشكر الملك قبل أن يموت.

ـ هل تتذكر يا راموسى، الوثيقة الشهيرة التى كنت تحب أن تقرأها للمتدربين الكتّاب: «قلدوا آباءكم الذين عاشوا قبلكم، فإن النجاح يعتمد على مهارتكم فى المعرفة. لقد نقل الحكماء علومهم إلى كتاباتهم: ارجعوا إليها، ادرسوها، اقرءوها واقرءوها مرة أخرى بلا توقف!»؟

ـ رغم ضعف نظرى، يا مولاى، فإننى أنا نفسى ما زلت أتبع تلك الحكمة.

هل تتذكر العيد الكبير فى العام السابع عشر الذى قمت بتنظيمه مع بازاير، أفضل وزرائى؟ كنا مازلنا شبابا، وكنا نتصور أن طاقتنا لن تنتهى. اليوم أنت أصبحت شيخا، مثلى، ولكنك مازلت أكثر الرجال المحبوبين فى ساحة الحقيقة، والنبيل الوحيد الذى سمح له بحمل لقب «كاتب ماآت».

ـ كنت أنت يا مولاى الذى منحنى الفرصة لكى أخدم ماآت طوال حياتى، فى قلب الجماعة التى تعيش بأنفاسها كل يوم، ولكن ساعة الرحلة الكبيرة اقتربت.

ـ هل أعددت ثلاث مقابر بالقرب من القرية، كما خططت؟

ـ نعم يا مولاى. فى المقبرة الأولى، أقوم بتسبيح الآلهة وأجدادك الذين فعلوا الكثير من أجل الجماعة، أمنحتب الأول وزوجته، حور محب وتحتمس الرابع، فى هذا المكان وضعت المسلة حيث تظهر أنت يا مولاى. وفى المقبرة الثانية، استدعيت البقرتين اللتين أملكهما، «الغرب» و«الانسياب الجميل»، والراعى الذى تولى رعايتهما. أما فى المقبرة الثالثة فيظهر فيها الأشخاص الأقرب إلى قلبى.

ـ الصامت هل هو من بينهم؟

ـ إنه أكبر سعادة فى أيامى الأخيرة، يا مولاى. فأنت تعرف أن زوجتى موت وأنا لم ننجب أطفالا، بالرغم من التماثيل والمسلات والقرابين التى قدمتها إلى حتحور، وإلى تويريس الجدة وحتى إلى آلهة أخرى غريبة. كما أننى أعدت الحياة الآخرة بعناية بدون أن أنسى أن أعد خليفتى، الكاتب كنهير. ولكن الشخص الذى أكن له التقدير الأكبر هو الصامت. عندما غادر القرية ليقوم برحلة طويلة فى العالم الخارجى، كنت أشعر بالخوف من أن أموت قبل عودته، التى لم أشك فيها فى أى وقت. ولحسن الحظ، فلقد أقرت محكمة الانتساب التابعة للجماعة قبوله من بين هؤلاء الذين سمعوا النداء. وهو الآن خادم فى ساحة الحقيقة، وأنا متأكد أنه سيقوم بدور مهم فيه، ليس فقط كقاطع حجر ومثّال.

ـ ما الاسم الذى قررت منحه إياه؟

ـ نيفر ـ حتب يا مولاى.

ـ نيفر، «الإنجاز، الجمال، الخير»، و حتب، «السلام والكمال والقرابين». إنك تفرض عليه برنامجا صعبا!

ـ اكتمال السلام الداخلى، الحتب، قد لا تقدم إليه إلا بعد انتهاء وجوده، بشرط أن يكون حقيقة نيفر كحرفى. يجب ان أشير لك إلى أن الصامت لم يتقدم وحده إلى بوابة القرية.

ـ من الذى رافقه؟

ـ زوجته، كلير، التى يعنى اسمها أيضا أوبخيت، «المضيئة». لقد أثارت إعجاب المحكمة بتصميمها وإشعاعها. إنها جميلة وذكية، ليس لديها طموحات ولا تتصور للحظة حجم قدراتها. إن الزوجين متماسكان بشدة، والاختبارات الصعبة التى تنتظرهما لن تدمرهما. لقد قررت المحكمة الاحتفاظ بكلير كاسم لزوجة نيفر. بالنسبة لى، هما يمثلان الأمل للجماعة.

ـ من أين أتت هذه المرأة؟

ـ إنها من طيبة، الابنة الروحية لنيفيرت، كبيرة الأطباء الراحلة فى المملكة.

ـ نيفيرت.. لقد عالجتنى بشكل رائع. إذا كانت كلير قد ورثت مواهبها، فإن الجماعة محظوظة للغاية. ولكن قل لى بصراحة يا راموسى: هل تشك فى مؤهلات خليفتك كنهير؟

ـ لا يا مولاى، برغم أن شخصيته ليست سهلة، وأنه يقوم بمهامه بالكثير من الحزم، الذى يبدو أحيانا مغالى فيه. إننى لا أندم على اختياره، ولا على منحه ما أملك من أثاث، ومكتبة وأراض ومواش. ثم هو ليس إلا كاتب المقبرة. . رؤساء المجموعة، قاطعو الحجارة والمثّالون ليسوا أقل منه. قد لا يكون قد فهم كل شىء بعد، ولكن الزمن سيقوم بهذه المهمة.

ـ فى السنوات الأخيرة لم يعين حرفيون جدد مكان من رحل ـ قال رمسيس متذكرا، فهو، بصفته الرئيس الأكبر للجماعة، كان يتابع عن قرب تطورها ـ كانت المجموعة بكامل هيئتها تضم نحو ٤٠ عضوا، ولكن اليوم لم يعد هناك إلا ٣٠ فقط.

ـ ٣١ بإضافة نيفر، يا مولاى.

ـ هل هذا العدد كاف لكى يتم الانتهاء من كل المهام الموكلة إليهم؟

ـ إننى لا أملك إلا درسا واحدا أقدمه: الجودة أفضل من الكم. المهم، كما تعرف، العمل الجيد فى مسكن الذهب والقدرة على الخلق. من هذه الناحية ليس هناك أى قلق. وأنا على ثقة بأن وصول نيفر يتزامن مع مستقبل مشرق لنا.

ـ كلامك بمثابة البلسم، يا راموسى، لأن العداء ضد ساحة الحقيقة لا ينقطع. كبار الموظفين لا يفكرون إلا فى الإثراء، وهم يكونون طبقة تتزايد أضرارها، وتهتم بمستقبلها هى فقط وليس بمستقبل البلاد. بالنسبة لهم، جماعة الفنانين ليست إلا مسوخا إداريين يسعون إلى القضاء عليه.

ـ ولكن أنت الذى تحكم يا مولاى!

ـ طوال فترة حياتى فإن الجماعة ليس لديها ما تخافه من الحاقدين ومثيرى الشغب. وآمل أن يسير ابنى ميرنبتاح فى أثرى وأن يفهم أنه بدون عمل تلك الجماعة، فإن نور مصر الكبير سيحكم عليه بالخفوت ثم بالانطفاء. ولكن من يستطيع أن يتنبأ بتصرفات شخص عندما يتولى السلطة العليا؟

ـ إن لدى ثقة يا مولاى.

كان رمسيس الأكبر يعرف تماما أن راموسى هو دائما الكرم نفسه، وأن صفاء روحه أضاءت الجماعة، ولكنه كان يعلم أيضا أن الجماعة فى خطر. بعد إسكات صوت السلاح فى كل الشرق الأوسط، لم يستطع الملك أن يقضى على الكراهية ولا على الطموحات،

وهو يدرك تماما أن الإلهة ماآت الرقيقة، والتى تجسد سداد الرأى، هى وحدها التى تستطيع أن تمنع الكائنات البشرية من متابعة هبوطها الطبيعى الذى سيؤدى بها إلى الفساد، والظلم والدمار.

منذ عهد الأهرامات، اعتمدت المؤسسة الفرعونية على جماعة الحرفيين الذين تم تدريبهم على الحفاظ على غموض مسكن الذهب وعلى القدرة على أن يدونوا الأبدية على الحجارة. عندما رفع المؤسسون الأولون للإمبراطورية الجديدة مدينة طيبة إلى مستوى العاصمة، كان مجتمع ساحة الحقيقة هو الذى حمل الشعلة.

وهذه الشعلة تلك كانت أساسية فى الإبقاء على الحضارة.

ـ لقد نسيت تلك القصة الطريفة، يا مولاى. لقد سجلنا لتونا عضوية شخص غير منتظر على الإطلاق، ولكنى أخاف أن أثقل عليك بتلك الحادثة غير ذات الأهمية.

* * *

الفصل العشرون

ـ أنا منصت إليك يا راموسى.

ـ إن معظم طلبات الالتحاق بالجماعة رفضت، برغم أنها جاءت من فنانين ذوى خبرة أثبتوا قدراتهم. فى الوقت الحالى، هناك طلب من شاب ضخم البنية يبلغ السادسة عشرة من العمر بلا أى مؤهلات جادة. هو ابن لفلاح، عمل فى ورش دباغة ونجارة.. ولكنه عنيد إلى حد أن سوبيك، رئيس الأمن، اضطر إلى وضعه فى السجن مرة ثانية!

ـ هل استوفى الشروط الضرورية لكى يمثل أمام محكمة الانتساب؟

ـ نعم يا مولاى، ولكن..

ـ عدد من هؤلاء الذين يشكلون الجماعة اليوم جاءوا من الخارج، بدءا بك أنت يا راموسى. دع هذا الفتى يواجه قضاة ساحة الحقيقة.

ونظر رمسيس الأكبر بعيدا.

فى تلك اللحظة، شعر كاتب المقبرة العجوز أنه يشارك فى إحدى تلك اللحظات النادرة حين تتجاوز رؤية الملك رؤى كل البشر الآخرين. حدث كثيرا، خلال فترة حياته الطويلة، أن كان لرمسيس حدس اخترق جدران المستقبل وسمح له بأن يتخذ قرارات خارج كل الطرق المطروقة.

ـ مولاى، هل تعتقد أن هذا الفتى..

ـ دعه يحضر أمام الحرفيين، وليقرر هؤلاء بعيدا عن السطحية. إذا نجح هذا الفتى فى الاختبارات، فقد يؤدى دورا حاسما فى تاريخ ساحة الحقيقة.

ـ سوف أتدخل لدى سوبيك. هل تنوى رؤية مسكن الأبدية التابع لك يا مولاى؟

ـ بالتأكيد. ولكن هناك حقيقة أخرى تكشفت لدى: يجب توسيع خلوة كا الملكية. أنت ستكون مسئولا عن البناء، وستقرر تاريخ العمل وصورة البناء.

شعر راموسى بسعادة طاغية.

ـ إنه لشرف كبير للقرية! ومع المرأة الحكيمة، سنختار اللحظة المناسبة.

رمسيس تذكر أنه هو أيضا فى شبابه، سمع النداء. وكان يفضل أن يشارك حياة هؤلاء الرجال، الذين بفكرهم قاموا بتغييرها إلى أعمال مضيئة، ولكن والده، سيتى اختاره هو ليخلفه من أجل الاحتفاظ بمصر على طريق ماآت، والحفاظ على الروابط بين الأرض والسماء. ولم يحدث يوما أن تخلى عن واجباته. ولقد كان هذا الاختيار هو الأفضل.

* * *

فتح سوبيك بوابة الزنزانة.

ـ ألم تنته من الضوضاء؟

ـ إننى قررت أن أخترق جدران هذا السجن وسوف أفعل. أجابه آردون.

بقبضة يده وحدها، بدأ الشاب جديا فى كسر الجدار الطوبى.

ـ إن لم تقف حالا فسوف أقيدك بالسلاسل!

ـ ليـــس لديك أى سبب لاعتقالى، فقد قدمت كل ما هو ضرورى لكى أتقدم إلى بوابة القرية.

ـ هل تتصور أنك تعرف القانون أفضل منى؟

ـ فى تلك الحالة، نعم.

حك الريس سوبيك الجرح الذى يعلو عينه اليسرى، ذكرى من صراع حتى الموت مع فهد فى سهول النوبة العشبية.

ـ لقد بدأت تثير أعصابى حقيقة يا فتى. سوف أعتنى بك بنفسى، وأعدك بأنك لن تجد الرغبة حتى فى أن تفتح فمك أمام شرطى.

عبس آردون.

كان عناده أعنف من سوبيك، ولكن هذا الأخير كان أكبر حجما منه، كما كان يحمل عصا فى يمناه.

أسرع أحد الجنود إلى سوبيك يلهث وصاح:

ـ يا ريس، يا ريس! يجب أن أتحدث معك، فورا!

ـ ليس لدى وقت.

ـ إنه شيء بخصوص السجين.

سمات الرعب التى بدت على وجه مرءوسه، جعلت سوبيك يقتنع بضرورة الاستماع لما سيقوله. وأغلق باب الزنزانة وراءه.

فكر آردون فى الوسيلة التى سيستخدم بها معذبه العصا. إذا رفعها إلى أعلى، فسوف يوقف ذراعه ثم ينقض على صدره برأسه. ولكن سوبيك رجل محترف ولا يجب أن يصارعه بسذاجة. الشاب لن يكون سهل المراس، وقد لا يستطيع أن يتغلب عليه، ولكن النوبى لن يخرج من المعركة بلا جروح، لأن آردون سيلقى بكل قواه فى المعركة.

فتح الباب مرة أخرى.

ـ اخرج من هنا ـ أمر سوبيك ـ الذى كان يحمل عصاه.

ـ أنت تريد أن تضربنى من الظهر؟

ـ الرغبة لا تنقصنى، ولكنى تلقيت أوامر. هناك جندى سيرافقك حتى البوابة الرئيسية للقرية.

رفع آردون صدره فخرا، وقال:

ـ هناك إذن قانون فى هذه البلاد.

ـ اخرج من هنا وإلا فأنا غير مسئول عما تفعله أعصابى بك!

ـ إذا جاءت فرصة أن نرى بعضنا البعض مرة أخرى، يا سوبيك، فسنحل مشكلتنا رجلا لرجل.

ـ اخرج!

ـ لن أخرج بدون ممتلكاتى.

ضغط سوبيك على أسنانه، وقذف إلى آردون بحقيبته الجلدية والغلاف المصنوع من البردى، وقطع الخشب التى ربطها معا بعناية والمقعد المطوى الذى صنعه المتدرب لدى

النجار . خرج آردون من القلعة حاملا أشياءه الغالية ، ورافعا رأسه إلى الأعلى ، مثل الجنرال المنتصر قادما إلى البلاد المنهزمة .

النوبى الذى رافقه كان شابا قويا ومتكلما ، ولكن بجانب آردون بدا وكأنه ضعيف البنية .

ـ لم يكن يجب عليك أن تثير سوبيك ـ قال له موصيا ـ إنه رجل حقود ، وفى أول فرصة ، سينتقم منك .

ـ يجب عليه ألا يتأخر فى ذلك . . وإلا فسأنتقم أنا منه .

ـ إنه رئيس الشرطة المحلى !

ـ المهم هو قيمة الرجل ، وليس لقبه . إذا بحث هذا السوبيك عنى ، فسيجدنى .

لم يحاول الجندى مرة أخرى أن يقنع آردون بالتعقل ، وقد تزايدت حماسته كلما أقترب من الهدف . هذه المرة لم يكن الحارس هو الذى منعه من عبور عتبة القرية المحرمة .

لم يعرف آردون مسير الأحداث التالية ، ولكن ذلك لم يكن يهمه فى شىء . سيعرف كيف يقنع القضاة بأنه سمع النداء ، وبالتالى ، فإن كل الأبواب يجب أن تفتح أمامه .

كانت الشمس ساطعة ، وافترش نورها المكان ، وكانت حماسته عالية تعطى الشاب طاقة كبرى ، فهو لا يخاف أيام الصيف الأكثر حرارة . وبالنسبة له وجود قرية الحرفيين فى قلب الصحراء ميزة إضافية .

ـ أنا سأقف هنا ـ قال الجندى ـ وأنت استمر وحدك .

لم يتردد آردون . وبخطوات ثابتة عبر المنطقة التى تفصل القلعة الخامسة والأخيرة عن حدود القرية .

فى هذا الوقت من اليوم ، ترك المساعدون ورشهم ليتناولوا طعام الغداء فى الظل . وبنظرات فضولية ، تتبعوا خطوات الشاب وهو يمر أمامهم .

حارس البوابة الكبيرة وقف ومنعه من الدخول :

ـ إلى أين تنوى أن تذهب ؟

ـ اسمى آردون ، وأرغب فى الدخول إلى ساحة الحقيقة ! ولقد جمعت الأدوات اللازمة .

ـ هل أنت متأكد؟

ـ نعم، متأكد تماما.

ـ إن كنت مخطئا، فسيحرقونك. لو كنت مكانك لما جازفت وعدت من حيث أتيت.

ـ اهتم بشئونك أيها الحارس، ولا تتدخل فى شئونى.

ـ لقد حذرتك.

ـ لا تتحدث كثيرا، وافتح بوابة القرية.

قام الحارس بفتح البوابة ببطء.

ولثوان، وقف آردون مشدوها. أخيرا تحقق حلمه.

* * *

الفصل الواحد والعشرون

خرج اثنان من الحرفيين من القرية . وسار أحدهما خلف آردون والآخر أمامه .

ـ اتبعنى . أمر الأخير .

ـ ولكن . . ألن أدخل؟

ـ إذا استمررت تسأل أسئلة بلا أهمية ، فلن نقودك إلى محكمة الانتساب .

غضب آردون ، ولكنه استطاع أن يتحكم فى نفسه . ففى هذا المكان الغامض ، هو لا يعرف بعد قوانين اللعبة ، وعليه أن يتجنب أى خطإ قد يودى بآماله .

تحول ثلاثتهم عن البوابة الرئيسية ، وتوجهوا نحو حرم المعبد الأساسى بساحة الحقيقة ، حيث شُيد بجانبه مكان لعبادة الإلهة حتحور . حوله امتدت جدران عالية تحجب رؤية البناء عن العيون المتلصصة .

أمام بوابته المغلقة ، جلس تسعة رجال على مقاعد من الخشب ، يكونون نصف دائرة . كانوا يرتدون لباسا بسيطا ، باستثناء رجل مسن يرتدى جلبابا أبيض طويلا .

ـ أنا الكاتب راموسى ، وأنت الآن موجود فى المنطقة المقدسة للمقبرة الكبيرة النبيلة لملايين السنين غربى طيبة . هنا تهيمن ماآت ، فى بقعتها المضيئة . كن صريحا . لا تكذب وتحدث كما يمليه عليك قلبك ، وإلا ، ستنحيك عن ساحة الحقيقة .

لم يبد أعضاء محكمة الانتساب روحا لطيفة ، وفضل الشاب أن يركز على الكاتب العجوز راموسى الذى ينم وجهه عن الطيبة .

ـ من أنت ؟ وماذا تريد؟

ـ اسمى آردون ، وأريد أن أمضى بقية عمرى فى الرسم .

ـ والدك، هل هو من الفنانين؟ سأل أحد القضاة.

ـ لا، مزارع. إننا مشوشون إلى الأبد.

ـ ما المهن التى مارستها؟

ـ الدباغة والنجارة من أجل أن أحقق مطالبكم.

وبدون أن يطلب منه ذلك، وضع آردون حقيبته على الأرض.

ـ ها هى ذى الحقيبة الجلدية ـ قال آردون بفخر ـ ولقد أضفت إليها غلافا من البردى من أفضل الأنواع.

مرت الأدوات من يد إلى يد.

قال أحد القضاة بتذمر.

ـ لقد طلبنا حقيبة من الجلد، وليس ذلك الغلاف.

ـ هل من الخطإ أن أفعل أكثر مما هو مطلوب منى؟

ـ نعم إنه خطأ.

ـ ليس بالنسبة لى! ـ صاح الشاب ثائرا ـ فقط الكسالى والبسطاء هم الذين يلتزمون بالأوامر، لأنهم يخافون من الآخرين ومن أنفسهم. إن من يذعن ولا يقوم بأى مبادرة سيصبح جمادا مثل الحجر.

ـ أنت يا من تتكلم بتلك الثقة، لماذا لم تقدم إلا المقعد المطوى بدون أن تقدم المقعد الوثير؟ وبما أنك تحب أن تتجاوز ما هو مفروض عليك، لماذا اكتفيت بتقديم قطع الخشب بدلا من أن تصنعه فى الشكل المطلوب؟

ـ لقد وضعتم لى مصيدة ـ لاحظ آردون، وشعر بالثورة ضد القضاة وضد نفسه ـ لم أستطع أن أتجنبها.. هل من حقى فرصة ثانية؟

ـ اجلس على المقعد المتحرك. أمر الحرفى المتذمر.

فى اللحظة التى جلس فيها آردون على المقعد، سمع صوت كسر مخيف. المقعد لن يتحمل ثقله بلا أدنى شك.

ـ أفضل أن أقف.

ـ هكذا، أنت حتى لم تتحقق من جودة هذا الشيء. أنت لست فقط متكبرا، بل أضفت اللامبالاة وعدم الكفاءة.

ـ لقد طلبتم مقعدا مطويا، وهذا هو!

ـ إجابة تافهة، أيها الشاب. فأنت مجرد إنسان متشدق وجبان!

شد آردون على قبضتيه.

ـ إنك مخطئ! لقد حاولت أن ألبى طلباتكم، ولكن هدفى ليس صنع الأثاث. إننى أرسم، أستطيع أن أثبته.

قدم فنان آخر فرشاة إلى آردون، وقطعة من ورق البردى المستعملة ووعاء من الحبر الأسود.

ـ إذن أثبته لنا.

جلس الشاب على ركبتيه. وثبت أنظاره على الكاتب العجوز راموسى، ورسم وجهه. يده لم ترتعش ولكنه لم يعتد أن يرسم بمثل تلك الأدوات، التى بدا استخدامها أكثر دقة.

ـ أستطيع أن أرسم أفضل من ذلك ـ أكد لهم ـ ولكنها أول مرة استخدم فيها الفرشاة، وأرسم على ورق البردى بالحبر.. فى العادة، أرسم على الرمال.

وبسبب عصبيته وتسرعه، لم يرسم آردون أعلى الجبهة والأذنين. بدت صورة راموسى بشعة.

ـ دعونى أبدأ من جديد.

مر الرسم على القضاة. لم يتفوه أحد منهم بأى تعليق.

ـ ماذا تعرف عن ساحة الحقيقة؟ سأله راموسى.

ـ إنها تملك أسرار الرسم، وأنا أريد أن أعرفها.

ـ ماذا ستفعل بها؟

ـ سوف أفسر الحياة.. فلا تنتهى هذه الرحلة.

ـ إننا لسنا فى حاجة إلى مفكرين، ولكن إلى خبراء. قال أحد الفنانين.

ـ علمونى الرسم والتلوين ـ أصر آردون ـ وسترون ما أنا قادر عليه .

ـ هل أنت مرتبط بفتاة؟

ـ لا ، ولكنى عرفت فتيات كثيرات . بالنسبة لى هن يمثلن جزءا من ملذات الحياة ، ليس أكثر .

ـ ألا ترغب فى أن تتزوج؟

ـ لا بالتأكيد! فليس لى رغبة فى تحمل عبء سيدة بالبيت وفرقة من الأطفال . كم من المرات يجب أن أقولها لكم ، إن هدفى الوحيد هو أن أرسم الخلق ، وألون الحياة؟

ـ مطلب الكتمان ، هل يؤرقك؟

ـ تبا لمن لا ينجح فى اختراقه .

ـ هل تعرف أن عليك أن تخضع لقواعد متشددة .

ـ إن لم تمنعنى تلك القواعد من تحقيق تقدم ، فسوف أحاول أن أتحملها . ولكنى لن أخضع لأوامر غبية .

ـ هل ستكون من الذكاء بحيث تستطيع أن تقرر الفرق؟

ـ لن يحدد أى شخص طريقى بدلا منى .

بدأ القاضى المتذمر يهاجمه .

ـ هل تعتقد أنك بأسلوبك هذا فى الكلام ستكون أهلا لأن تنتمى إلى جماعتنا؟

ـ أنت الذى ستقرر ذلك . . لقد طلبت منى أن أكون صريحا ، ولقد كنت .

ـ هل أنت صبور؟

ـ لا ، ولا أنوى أن أكون .

ـ هل تتصور أن شخصيتك متكاملة بحيث لا يمكن تغيير أى من جوانبها؟

ـ لم أسأل نفسى هذا السؤال . إن الإنسان يصل إلى هدفه بالرغبة ، وليس بالشخصية . إنه من الطبيعى أن يكون للإنسان أعداء : إما أن ينتصروا علىّ لأننى ضعيف ، وإما أن أطرحهم أرضا . على كل حال ، سيكون هناك صراعات . لذلك فأنا على استعداد دائما للمواجهة .

ـ ألم تسمع أن ساحة الحقيقة ميناء سلام حيث الصراعات ممنوعة؟

ـ طالما هناك رجال ونساء، فإن ذلك من المستحيل. ليس هناك سلام على تلك الأرض.

ـ هل أنت متأكد أنك بحاجة إلينا؟

ـ إنكم الوحيدون الذين تملكون المعرفة التى لا أستطيع أن أصل إليها وحدى.

ـ هل لديك شىء آخر تقوله لكى تقنعنا؟ سأله راموسى.

ـ لا شىء.

ـ سنتشاور معا، وأنت ستنتظر قرارنا. سيكون بلا رجعة.

وأعطى الكاتب العجوز علامة إلى الحرفيين اللذين رافقاه لكى يعيدا آردون إلى البوابة الشمالية من القرية.

ـ هل ستأخذ المداولة وقتا طويلا؟ سأل آردون.

ولكن لم يرد عليه أحد.

* * *

الفصل الثانى والعشرون

كان راموسى مازال تحت تأثير الصدمة. فقد رأس كثيرا محكمة الانتساب، ولكنها المرة الأولى التى واجه فيها مثل هذا المرشح. من الواضح أن آردون لم يعجب بتاتا الحرفيين الذين مثلوا كمحلفين، ومنهم كنهير المتذمر، خليفة راموسى وكاتب المقبرة التى يجرى العمل فيها حاليا.

المحاورات على الأقل لن تستغرق وقتا طويلا، ولن تشهد نفس المناقشات المثيرة التى شهدتها محاكمة الصامت. فأظهر كنهير عداء خاصا، وادعى أن الشاب يملك مميزات عديدة وأن هناك الكثير من المهن التى يمكن أن يعمل فيها مما يجعل ساحة الحقيقة تبدو مساحة أضيق مما يتحمل. لم يشاركه الرأى الأغلبية من الحرفيين، الذين أعجبوا بالشخصية القوية للطالب.

كان يجب تدخل سلطة راموسى حتى يمنع اثنين من الحرفيين أن يتحيزوا إلى رأى كنهير، فيتم بذلك رفض طلب التحاق الابن الروحى لنيب المنجز. ولأن الإجماع كان ضروريا، فقد قاد الكاتب العجوز معركة طويلة وصعبة من أجل أن يتوصل إلى تغيير الرؤية السلبية لكنهير.

أما بالنسبة لكلير، فلقد كانت المداولات قصيرة. حينما ذكرت نداء قمة الغرب، اجتاحت المحكمة ـ التى كانت مكونة من كاهنات نساء للإلهة حتحور يقمن فى القرية ـ مشاعر قوية. وبسعادة بالغة قبلت رئيسة المحلفات، والتى أطلق عليها لقب «السيدة الحكيمة» دخول زوجة نيفر الصامت.

ـ من يريد أن يبدأ بالكلام؟ سأل راموسى.

رفع مثّال يده.

ـ هذا الآردون، رجل مغرور وعدوانى وليس لديه أى فكرة عن الدبلوماسية، ولكنى

متأكد أنه سمع النداء . لذا فإننا يجب أن نتخذ قرارنا على أساس هذه النقطة ، وهذه النقطة فقط .

ثم أعطيت الكلمة إلى رسام .

ـ أنا غير متفق معك . كون الطالب سمع النداء ، فهذا شيء لا أناقشه ، ولكن نداء من أى نوع؟ إن ما يريده هو تحقيق إنجاز له هو ، ولا يريد الاندماج فى جماعتنا . نحن لن نستطيع أن نعطيه إلا التقنية ، أما هو فلن يعطينا شيئا . لندع الشاب يتبع طريقه هو ، وهو طريق بعيد تماما عن طريقنا .

تدخل كنهير المتذمر فى الحديث بحدة .

ـ إن هناك نارا غريبة تشتعل فى هذا الفتى ، إنه يثير فيك الاضطراب ، أنت يا من تكره الفتور ! آه ، إنه ليس فنانا اعتياديا ، يذعن لرئيس غير قادر على أن يفكر بنفسه ، شخصيته باهتة إلى حد أن لا أحد يلاحظه ! قبوله بيننا ينذر بأن تجتاح العواصف القرية ويقلب الأوضاع والتقاليد المتفق عليها . هل الحرفيون فى ساحة الحقيقة أصبحوا جبناء إلى حد أنهم يرفضون موهبة رائعة؟ لأنه يملك تلك الموهبة ، كما لاحظتم ! صحيح أن رسمه فشل ، وذلك بسبب قلة خبرته ، ولكن ما أجمل البورتريه ! اذكروا لى رساما واحدا استطاع أن يثبت قدرات كهذه قبل أن يتلقى التعليم الصحيح .

ـ رغم كل ذلك ـ قال المثال معترضا ـ كن على ثقة بأن هذا الثرثار سيرفض الطاعة وسيلقى بقوانيننا عرض الحائط .

ـ إذا حدث هذا فسيطرد من القرية . ولكنى على ثقة بأنه سيعرف كيف يحنى الحديد من أجل أن يصل إلى هدفه .

ـ لنناقش أهدافه تلك ! أليس هو مجرد فضولى يريد اختراق أسرار جماعتنا؟

ـ لن يكون الأول ! ولكنك تعلم جيدا أن كل الفضوليين لم يكن لديهم الفرصة كى يبقوا معنا وقتا طويلا .

دهش راموسى من موقف زميله كنهير الذى كان يدحض كل الاعتراضات الواحدة بعد الأخرى ضد آردون . فعادة ، لم يكن كاتب المقبرة يأخذ جانبا بكل تلك الحماسة .

وبدأ الحرفيون المعترضون على آردون يترددون فى موقفهم .

ـ إننا فى حاجة إلى أشخاص سويين وسلميين مثل نيفر ـ قال كنهير ـ ولكننا أيضا فى حاجة إلى قلوب مشتعلة مثل هذا الرسام المقبل. إذا أدرك جيدا معنى العمل الذى يتم هنا، فكم من الأشكال الرائعة سيستطيع أن يخطها على جدران مسكن الخلود! صدقونى، يجب أن نجرب تلك المغامرة.

تدخل نيب المنجز، رئيس المجموعة، فقال:

ـ إن مهمة جماعتنا ليست أن تجرب المغامرات بل أن تعمل على استمرار تقاليد مسكن الذهب وأن تحافظ على أسرار ساحة الحقيقة. هذا الفتى لا يشاركنا اهتماماتنا وسيُعَدُّ نفسه من المختلسين.

شعر راموسى أن معارضة رئيس المجموعة ستكون قوية. كما شعر أن ليس من حقه أن يظل صامتا.

ـ كان لى الحظ أن أتحدث مع مولاى الملك ـ كشف الكاتب العجوز ـ وتحدثنا عن قضية هذا الفتى. إذا كنت فهمت جيدا فكر رمسيس الأكبر، فإن آردون بدا له حاملا لطاقة خاصة لا يجب تجاهلها، وذلك من أجل المصلحة الخاصة للجماعة.

ـ هل تلك هى.. طاقة ست؟ سأل رئيس المجموعة.

ـ لم يحددها مولاى.

ـ ولكنها هى تلك الطاقة، أليس كذلك؟

سارت رعشة فى جسد القضاة. قاتل أوزيريس، مجسد فى كائن فوق الطبيعى يقارنه البعض بفصيلة الكلاب، وآخرون بفصيلة الزرافة، إنه الإله ست حامل قوة الكون التى تشعر البشرية أحيانا بخيرها، وأحيانا بقوتها المدمرة. بدونها من المستحيل محاربة الظلمات وإعادة الحياة إلى النور فى كل صباح. ولكن يجب أن يكون المرء فرعونا بحجم الأب رمسيس من أجل أن يجرؤ على حمل اسم سيت. لم يحدث من قبل أن تحمل أى ملك مثل هذا الحمل الثقيل الذى قاده إلى أن يبنى فى آبيدوس، أكبر وأروع محراب للإله أوزيريس.

فى العادة، هؤلاء الذين يمرون على طاقة سيت يصبحون عرضة للتصرف بعنف زائد لايستطيع ترويضه سوى مجتمع قوى البنية مثل معبد ماآت. ولكن أليس من الأفضل استبعاد هذا النوع من الأفراد من مجتمع الحرفيين الذى مهمته أن يخلق الجمال والتجانس؟

ـ هل مولاى أعطاك أمرا بخصوص آردون؟ سأل رئيس المجموعة راموسى.

ـ لا، ولكنه ترك الأمر إلى رؤيتنا الثاقبة.

ـ هل من الضرورى أن نقول المزيد؟ ـ قال كنهير باعتزاز ـ دعونا نفسر رغبة فرعون السيد الأكبر لساحة الحقيقة.

اقتنع أكثرهم تشككا، ولكن نيب المنجز لم يتنازل بعد.

ـ إن تعييني رئيس مجموعة، تمت الموافقة عليها من قبل فرعون، إذن فلقد وثق فى تقييمى لمؤهلات هؤلاء الذين يرغبون الانضمام إلى الجماعة. لذلك فإن أى ضعف من جهتى سيُعَدّ جريمة. لماذا نطلب من هذا الفتى أقل مما نطلب من الحرفيين الآخرين؟

ـ إنك القاضى الوحيد الذى يعترض على انضمام آردون، ألمح كنهير، ويجب أن نحصل على الإجماع. هذه العزلة ألا تدعوك إلى إعادة نظر فى موقفك؟

ـ جماعتنا يجب ألا تتعرض لأى خطر.

ـ الخطر جزء من الحياة، والتراجع أمامه سيدفعنا إلى الجمود ثم الموت.

كان رئيس المجموعة، برغم أنه عرف بهدوئه، على وشك أن ينفجر غضبا.

ـ إنه من الواضح أن هذا الفتى تمكن من أن يؤدى إلى انقسامنا! أليست تلك النتيجة سببا إضافيا يدفعنا إلى الحذر؟

ـ لا تبالغ يا نيب! فإن مناقشاتنا بخصوص مرشحين آخرين كانت حادة أيضا.

ـ بالتأكيد، ولكننا استطعنا دائما الوصول إلى الإجماع.

ـ يجب الخروج من هذا الموقف ـ قال راموسى بحسم ـ هل تقبل أن تقتنع؟

ـ لا ـ أجاب نيب المنجز ـ فإننى فى ريبة من أن هذا الفتى سوف يعمل على اضطراب التجانس الذى يعم القرية ويعارض أعمالنا.

ـ ألا تملك قوة كافية لكى تمنع حدوث كارثة مثل تلك؟ تساءل كنهير.

ـ إننى لا أفرط فى تقدير قدراتى.

راموسى فهم أن فرض القوة لن يكسر إصرار رئيس المجموعة.

ـ الاعتراض ليس موقفا بناء يا نيب. ماذا تقترح للخروج من هذا المأزق؟

ـ لنختبر آردون أكثر من ذلك. إذا كان قد سمع النداء حقا وإذا كان يملك القوة الضرورية لكى يبنى طريقه، فإن البوابة ستفتح له.

وقدم رئيس المجموعة خطته.

وافق الجميع عليها، بما فيهم كنهير الذى برغم ذلك، أكد متذمرا أنهم يتخذون احتياطات غير ضرورية.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

ـ هل سيستمر ذلك وقتا أطول؟ سأل آردون أحد الحرفيين الجالسين بجانبه .

ـ لا أعرف .

ـ ولكنهم لن يناقشوا المسألة لعدة أيام!

ـ لقد حدث ذلك من قبل .

ـ عندما يمتد النقاش ، هل يُعَدّ ذلك علامة جيدة أم سيئة؟

ـ هذا يعتمد على أشياء أخرى .

ـ كم مرشحا تقبلون كل عام؟

ـ ليس هناك قياس .

ـ هل هناك حد أدنى أم أقصى للعدد؟

ـ لا يجب أن تعرف .

ـ كم عددكم الآن؟

ـ اسأل الفرعون .

ـ هناك العديد من الرسامين بينكم؟

ـ كل شخص يقوم بعمله .

فهم آردون أنه من العبث الاستمرار فى سؤال الحرفى . أما بالنسبة لزميله ، فقد كان صامتا . وبرغم ذلك ، لم يشعر الشاب باليأس . إن كان القضاة الذين واجههم رجالا يتمتعون بالنزاهة فسيفهمون حجم رغبته .

مر أحدهم عند الزاوية الغربية للحرم. آردون عرفه فى الحال، ووقف ليعانقه.

ـ الصامت! هل قبلت؟

ـ كان لى هذا الحظ.

ـ أنت على الأقل ستحدثنى عن القرية!

ـ هذا مستحيل يا آردون. لقد أقسمت أن أحافظ على السرية، وليس هناك أهم من كلمة الشرف.

ـ إذن أنت لست صديقى!

ـ بلى، بالتأكيد، وأنا متأكد أنك ستنجح.

ـ هل تستطيع أن تتحدث إليهم من أجلى؟

ـ للأسف لا أستطيع. إن محكمة الانتساب هى وحدها التى تقرر.

ـ إنك كما توقعت، لم تعد صديقى.. وبرغم ذلك فلقد أنقذتك من الموت.

ـ لن أنسى هذا أبدا.

ـ لقد نسيته بالفعل، فأنت تعيش فى عالم آخر.. وترفض أن تساعدنى.

ـ أنا لا أستطيع أن أساعدك. هذا الاختبار عليك أن تواجهه وحدك.

ـ أشكرك على النصيحة يا صامت.

ـ لقد أعطتنى الجماعة اسما جديدا: نيفر. ويجب أن أخبرك أيضا أننى تزوجت.

ـ آه.. هل هى جميلة؟

ـ كلير زوجة عظيمة. وافقت المحكمة على انضمامها إلى ساحة الحقيقة.

ـ إنك محظوظ من جميع الجوانب! جنيات حتحور الست، كانت حاضرة بالتأكيد كلهن حول مهدك، ولم يبخلن فى هداياهن. ما نوع العمل الذى كلفت به؟

ـ هذا أيضا لا أستطيع أن أقوله لك.

ـ آه نعم، لقد نسيت.. فأنا غير موجود بالنسبة لك.

ـ آردون..

ـ اذهب من هنا، يا نيفر الصامت. أفضل أن أكون وحدى مع حارسىّ. فهما ليسا أكثر ثرثرة منك، ولكنهما، ليسا صديقىّ.

ـ تحلّ بالثقة. لكونك سمعت النداء، فإن القضاة لن يستبعدوك.

وضع نيفر يده على كتف آردون.

ـ إننى أثق بك يا صديقى. وأعرف أن النار التى تشتعل داخلك ستحرق كل العوائق.

عندما ابتعد نيفر، شعر آردون برغبة في تتبعه والدخول معه إلى القرية. ولكنه إن فعل ذلك فسيرفض طلبه إلى الأبد.

قبل غروب الشمس بقليل، ظهر أحد قضاة المحكمة. وتقلصت كل عضلات آردون، وكأنه سيخوض معركته الأخيرة.

ـ لقد اتخذنا قرارنا ـ أعلن القاضى ـ سنقبلك فى المجموعة الخارجية، وستكون تحت مسئولية الخزاف بيكين، رئيس المساعدين. اذهب إليه لتعرف المهمة التى أوكلت إليك.

ـ مجموعة الخارج . . ولكن ماذا يعنى ذلك؟

خرج القاضى يتبعه الحرفيون.

ـ انتظر . . إننى أطالبك بالمزيد من التفاصيل!

تدخل حارس البوابة :ـ

ـ اهدأ! لقد عرفت القرار، وعليك أن تقبله. وإلا، فاختف ولا تعد مرة أخرى إلى هنا. مجموعة الخارج، إنها ليست بهذا السوء. ستجد مكانك فى الخزف، كحطاب، مبيض، حامل المياه، خولى الحديقة، صياد، خباز، جزار، صانع الجعة أو إسكافى. هؤلاء الأشخاص يعملون من أجل راحة الحرفيين فى ساحة الحقيقة، وهم يعملون جيدا. أنا نفسى، والحارس الآخر للبوابة، من رجال الخارج.

ـ إنك لم تذكر رسامين ولا حرفيين.

ـ هؤلاء يعلمون الأسرار . . ولكن ما الفائدة؟ هم ليسوا أكثر سعادة ولا أكثر ثراء، ويمضون معظم حياتهم فى الكد والتعب. ستكون أحسن حالا، صدقنى. حاول أن تتفاهم مع بيكين الخزاف، وستعيش حياة جميلة.

ـ أين يعيش؟

ـ عند أطراف الأرض الزراعية ، فى منزل صغير ملحق به إسطبل . ليس لديه شىء يشتكى منه ، ولكنه شرير ، مقتنع أن كل شخص من المساعدين يتطلع إلى منصبه . قد لا يكون مخطئا تماما ، . . ابتعد عن ضرباته المفاجئة . بيكين شخص حقود . لم يصل إلى هنا بالصدفة . إذا لم تعجبه ، سيقضى عليك .

ـ إذا كنت من مجموعة الخارج ، هل تستطيع أن تدخل الجماعة مرة أخرى؟

ـ الخارج هو الخارج . فلا تبحث أبعد من ذلك ، واكتف بما منح لك . الآن تستطيع أن تنام فى ورشة أحد المساعدين . من الآن ولفترة قادمة ، ستسكن منزلا فى المنطقة الزراعية ، ستتزوج فتاة جميلة وسيكون لك أطفال يتصفون بالجمال . ابتعد عن الغسيل . . فعمله مؤلم . الأفضل أن تكون إما صيادا وإما خبازا . إن كنت ذكيا ، ستبيع السمك أو الخبز بدون أن تسجله لدى المحاسب .

ـ سأذهب لأرى بيكين فورا .

ـ لا أنصحك بهذا .

ـ لماذا؟

ـ بعد يوم عمل ، فهو يفضل أن يخلد إلى الراحة . أما أن يرى لديه غريبا فهذا يضعه فى مزاج قاتل ، وسيكرهك . اذهب لتنام ، ستراه صباح الغد .

اجتاحت آردون رغبة فى أن يقتل الحارس ثم يدمر حرم القرية المحرمة . الصامت ، هذا الجبان ، أصبح نيفر ، وهو ، الذى كان نداؤه قويا ، قذف به إلى مجموعة الخارج حيث سيتعفن كأنه من المعوقين!

لقد أهين ، فهل يملك حلا آخر غير أن يدمر ما لن ينتمى إليه أبدا؟

كان الحارس يجلس على حصيرته ، وعيناه منخفضتين . سمع آردون ضحك أطفال ، وصوت نساء ، وصدى محادثات . لقد بدأت الحياة تعود داخل القرية ، حياة لن يكون له أى مكان فيها .

من هؤلاء الأشخاص الذين قبلوا لكى يعرفوا أسرار ساحة الحقيقة ، ما مواهبهم التى أقنعت المحكمة بقبولهم؟ آردون لا يعرف منهم إلا نيفر الصامت ، وهو لا يشبهه فى شىء .

يجب عليه أن يحارب بأسلحته هو . لن يأتى أحد لمساعدته ، والنصائح ليست إلا سما . ولكنه لن ييأس .

توجه إلى الورش التى تركها المساعدون ، وهو يعلم أن الحارس يراقبه من ركن عينه . وتظاهر أنه يدخل إحداها ولكنه دار حولها لكى يبعد عن محيط نظر الحارس ، ثم تسلق التل فى صمت تام ، مثل ثعلب الصحراء .

إن كانت الجماعة قد نحّته إلى المساعدين ، فهو سوف يريها ما هو قادر على أن يفعله .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

ميهى، كابتن المركبات، ظل يفرك بين أصابعه البضة القلادة الذهبية التى جعلت منه أحد الشخصيات المرشحة إلى أعلى الطبقات فى مجتمع طيبة. وبفضل هذا النيشان، ستتم دعوته إلى كبرى السهرات، وسيكون محل ثقة هؤلاء الذين لهم وزن حقيقى. ورويدا رويدا، سيقوم ميهى بنشر شباكه لكى يصبح السيد الخفى لمدينة الإله آمون الثرية.

أول قرار يتخذه هو: الإبقاء على عمدة طيبة فى مكانه، عمدة مستبد صغير ومستأنس، تورط فى صراعات بين الجماعات وليس له أى رؤية طويلة الأمد. بينما يستهلك نفسه فى صراعات عقيمة ويستعرض فى مقدمة المسرح، سيضع ميهى أصدقاءه فى المكان المناسب لكى يسيطر رويدا رويدا على القطاعات المختلفة فى الإدارة.

إنها آمال جميلة حقا، ولكنها مع ذلك لا ترضيه تماما، فإن أهم شىء فى حياته الآن هو سر ساحة الحقيقة، هذا السر الذى يراوده دائما ويأمل أن يملكه يوما ما. عندما يصبح حجر النور بين أيدى ميهى، سيصبح أقوى من فرعون نفسه، وقد يدعى أنه يحكم مصر بطريقته.

منذ فترة طويلة كان ميهى يشك فى أن الحرفيين فى ساحة الحقيقة يخفون بعض الاكتشافات العلمية، ويحتفظون بها للاستخدام الخاص بالملك. مميزات كتلك يجب أن تختفى. مصر ستحصل على أسلحة حديثة، وستقضى على أعدائها، وستنتهج أخيرا سياسة توسعية لم يستطع رمسيس أن يقوم بها.

لو كان مكانه، لما وقع ميهى السلام مع الحيثيين. يجب الاستفادة من ضعفهم لتدميرهم وتكوين جيش حديث وقوى، قادر على السيطرة على الشرق الأوسط وآسيا. بدلا من تلك السياسة الكبيرة للغزو، اكتفى فرعون بالسلام، والضباط الكبار لم يعودوا يفكرون إلا فى الوقت الذى سيتقاعدون فيه ويقضونه فى مزرعة صغيرة منحها لهم الملك. كم من الدموع يسكبها عندما يدرك حجم هذا التبذير!

ـ هل تريد أن تشرب شيئا طازجا؟ سأل ساقى ميهى.

ـ بعض النبيذ الأبيض من الواحة.

وعرض ساقى آخر على كابتن المركبات أن يروح عنه بينما هو يتذوق هذا الشراب المتميز. لم يكن سهلا الحصول على أفضل الأنواع، ولكن ميهى استطاع بلا صعوبة إفساد أحد العاملين فى معمل النبيذ، يزود القصر بإنتاجه، ويحيد جزءا صغيرا منه إليه.

أليس الفن الأعلى هو تجميع الملفات التى تدين كل شخص، والاستفادة منها فى الوقت المناسب، مع بعض الإضافات المناسبة؟ بهذه الطريقة استطاع ميهى استبعاد بعض الضباط الشبان، أفضل منه مهنيا ولكن لا يملكون دهاءه.

ـ السيدة سيركيتا تريد مقابلتك. أعلن حارس بوابة المسكن الجميل الذى يملكه ميهى فى وسط مدينة طيبة.

سيركيتا، خطيبته التى لا تتمتع بذكاء شديد، ولكنه مضطر إلى الزواج منها بسبب ثروة والدها والوضع الاجتماعى الذى يتمتع به، فهو كبير المسئولين عن الخزانة فى طيبة.. ولكنه لا ينتظرها هى.

توجه برغم ذلك إلى صالة الاستقبال فى الدور الأرضى وهى الصالة التى يشعر بفخر خاص بها، لنوافذها الكبيرة الملونة باللون الأصفر، وأثاثها الفاخر من خشب الأبنوس.

ـ ميهى، يا عزيزى! كنت أتصور أننى لن أجدك فى المنزل.. ما رأيك فى؟

«بدينة أكثر من اللازم»، كما أراد أن يجيبها كابتن المركبات، ولكنه احتفظ برأيه لنفسه، لأن السيدة سيركيتا، لم تعد تفكر إلا فى وزنها، الذى لا يبدو أنه ينخفض بسبب التهامها كل تلك الحلويات.

ـ أنت أجمل من ذى قبل، يا عزيزتى. وهذا الرداء الأخضر يظهر كل محاسنك.

ـ كنت أعرف أنه سيعجبك ـ قالت وهى تتمايل بإغراء.

ـ هناك مشكلة صغيرة جدا: إننى على وشك استقبال إحدى الشخصيات الكبيرة ذات المزاج الصعب. هل لك أن تنتظرينى قليلا ثم تتناولى العشاء معى؟

ابتسمت ابتسامة بلهاء، ولكن تحمل الكثير من الوعود.

ـ لم أكن أحلم بكل هذا يا عزيزى.

جذبها إليه بقسوة، ولم تعترض سيركيتا.

كانت المرأة بصدرها الكبير وشعرها الكثيف المصبوغ باللون الأصفر، وعينيها الزرقاوين الباهتتين، تحب أن تتدلل وتتصرف كالفتيات الصغيرات.

في حقيقة الأمر، فهي تشعر بالملل. بفضل والدها، الأرمل الذي يحب الفتيات الأصغر سنا، كانت تستطيع تحقيق كل نزواتها وأن تشترى كل ما يحلو لها. ولكن مع الوقت، أصبحت حياتها مملة وباتت تبحث عن أي شيء يثيرها ويضع حدا لأمراضها العصبية. في فترة ما، كانت تجد ملهاها في النبيذ، ولكنه لم يملأ وحدتها. كانت سيركيتا تحلم بالعودة إلى الطفولة، تدللها والدتها ومربيتها، وتحميها من العالم الخارجي.

عندما قابلت ميهي أول مرة، في إحدى حفلات الاستقبال، كان فظا ومغرورا، ولكنه أثار فيها إحساسا لم تشعر به من قبل: الخوف. كان بداخله كم من الوحشية المندفعة، التي فتنتها، والتي هي بحاجة إليها.

مثل شخص لا يستطيع إخفاء طموحاته، وعلى استعداد لأن يسحق تحت عجلات مركبته أي شخص يحاول أن يقف في طريقها، قررت سيركيتا الزواج منه. قد يمنحها ميهي كل تلك المشاعر التي تخرجها من الملل الذي تعيش فيها.

ـ إلى متى ستطول خطبتنا تلك؟

ـ هذا يعتمد عليك أنت فقط، يا عزيزي. فمنذ حصلت على القلادة الذهبية في حضرة الملك رمسيس الأكبر، يَعُدُّك والدي أحد كبار صفوة المستقبل في طيبة.

ـ أنا لا أريد أن أخيب ظنه فيّ.

بأسنانها الصغيرة عضعضت سيركيتا أذن ميهي اليمنى.

ـ وأنت يا حبي، ألن تخيب ظني فيك؟ قل لي.

ـ لا تخافي أبدا.

في تلك اللحظة تقدم رسول من الباب الذي ظل مفتوحا، ومحرجا من تصرفات الاثنين، أعلن عن وجوده بطرق الباب.

ـ ماذا هناك؟ سأل ميهي.

ـ الضيف وصل.

ـ أطلب منه الانتظار، وأغلق هذا الباب!

سيركيتا التهمت الضابط بعينيها.

ـ إذن، ما قولك بخصوص الزواج؟

ـ فى أقرب فرصة، يلزمنا فقط الوقت لكى نقيم حفل استقبال كبير وتثير سعادتنا غيرة كل مجتمع النبلاء فى طيبة.

ـ هل تريد أن أتولى أنا تلك المسألة؟

ـ ستنظمين حفلة رائعة يا عزيزتى.

قرص الضابط ثدى زوجته القادمة، فتأوهت من النشوة.

ـ ماذا عن عقد زواجنا، فإن أبى مصر على موقفه.

ـ أى عقد؟ سأل ميهى بدهشة.

ـ يتصور والدى أن ذلك أفضل، بسبب ثروته. فهو على يقين بأننا سنكون سعداء وسيكون لنا أطفال كثيرون، ولكنه يرى برغم ذلك أنه من الضرورى أن يكون هناك عقد للفصل بين الممتلكات. ولكن ما أهمية ذلك، يا حبى؟ دعنا لا نخلط بين القانون والمشاعر.. قبلنى مرة أخرى.

قبلها ميهى، ولكن هذه المرة ليس بنفس الحماسة. هذه الأنباء بالنسبة له كارثة حقيقية، لأن إحدى أهم مرحلة من مراحل استيلائه على السلطة فى طيبة، هى الاستيلاء على ثروة والد سيركيتا.

ـ تبدو مستاء، يا أسدى المتوحش.. أرجو ألا يكون ذلك بسبب هذه التفصيلة القانونية؟

ـ لا، بالطبع لا.. ستأتين لتعيشى هنا، أليس كذلك؟

ـ عندما نقيم فى طيبة، بلا أدنى شك. هذا المنزل رائع وفى موقع ممتاز، ولقد قرر والدى أن يسدد فورا ديونك لتكون مالكا له.

ـ هذا كرم كبير.. كيف يمكننى أن أرد له الجميل؟

ـ بأن تجعل ابنته مجنونة بحبك!

وقبلها على فمها قبلة طويلة .

ـ سيكون لدينا أيضا منزل كبير فى ريف طيبة ، وآخر فى مصر الوسطى ومنزل جميل فى ممفيس . . هذه الممتلكات ستظل باسمى ، ولكن ذلك ما هو إلا تفصيلة أخرى .

كان ميهى على استعداد لاغتصابها بطريقة فظة ، هى كانت راغبة فى ذلك بشدة ، ولكنه كان عليه استقبال زائره . بسرعة استطاع ميهى أن يتغلب على الضربات السفلى التى تلقاها لتوه . فلقد فهم الضابط منذ وقت طويل ، أن النفاق والكذب سلاحان مخيفان ، بفضلهما يستطيع المرء قلب الأوضاع المشبوهة لصالحه . سيدعى أنه يقبل هذه القرارات ، من أجل أن يعد نفسه لهجوم مضاد حاسم . والد سيركيتا كان مخطئا عندما تصور أنه يستطيع أن يلجم رجلا من رقبته .

ـ اعذرينى ، يا مهجة مشاعرى ، ولكن هذا الميعاد مهم للغاية .

ـ إننى أفهم تماما . . سوف أبدأ فى تنظيم حفل زواجنا . أراك فى المساء على العشاء .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

كان ميهى فخورا بمنزله الواسع . فلقد تمكن من الحصول عليه بعد أن أقنع رجلا مسنا من نبلاء طيبة ، بالتنازل له عنه بعد أن ماتت زوجته ، بثمن بخس . ثم وافقت الإدارة العسكرية على منحه قرضا بتسهيلات كبيرة ، وهكذا فاز الضابط على جميع الجبهات . وبفضل الكرم المتصنع لحميه القادم ، أصبح مالكا للمنزل قبل الموعد المحدد! فى حقيقة الأمر أراد والد سيركيتا أن يقدم إلى المجتمع الرفيع ، نسيبا محظوظا كما يبدو ، لا يعانى من أى مشكلات مالية ، بينما هو ، الوجيه ، هو فقط الذى يسيطر على الموقف . وميهى سيجعله يدفع الثمن غاليا على تلك الإهانة .

تم بناء الدورين فى المنزل على أرضية مرتفعة قليلا عن سطح الأرض لكى يتجنب الرطوبة . فى الدور الأرضى ، تقع حجرات الخدم تحت مسئولية مدير منزل . فلم يكن ميهى يأكل إلا خبزا صنعه خبازه الخاص ، كما كان يهتم بشكل خاص بنظافة ملابسه ، فكان المسئول عن الملابس يقوم بغسلها وتنظيفها بعناية فائقة . فوق درجات السلم الذى يؤدى إلى الأدوار العليا ، تم وضع آنية تمتلئ بالأزهار وتتغير قبل أن تذبل .

فى الدور الأول حجرات الاستقبال ، وفى الثانى مكتب رب البيت ، وحجرات النوم ، والحمامات ومكان الاسترخاء . وقد أمر الضابط بوضع نظام جديد للمواسير يقوم بتفريغ المياه المستخدمة ، فكان يتمتع برفاهية كادت أن تماثل تلك التى فى قصر فرعون .

كان ميهى يكره الحدائق والتربة ؛ فهناك فلاحون كثيرون ليقوموا برعايتها . فالرجال الذين فى مثل قيمته يستحقون الأفضل ، وفقط فى وسط مدينة مثل طيبة يمكن العثور على مسكن أهل لذلك الاسم .

عندما دخل ميهى غرفة الاستقبال ذات السقف العالى ، تذوق الهواء المنعش فى المكان ، الذى يستمر طوال الصيف بفضل نظام تهوية جيد . فليس هناك أسوأ من الحر .

الرجل الذى كان يتطلع للقائه منذ وقت طويل كان يجلس فى مقعد وثير مغطى بقطعة

قماش ذات ألوان زاهية. وفى آنية من الفخار الأزرق وضعت مياه ذات رائحة جميلة لكى يغسل يديه وقدميه.

ـ أهلا بك، داكتير. ما رأيك فى منزلى؟

ـ مدهش يا كابتن ميهى! لم أر أجمل منه.

داكتير كان قصيرا، بدينا وملتحيا. عيناه السوداوان بثتا الحياة فى وجهه الخبيث. ساقاه القصيرتان أكثر من اللازم، ساعدتا على إعطائه مظهرا سمجا، ولكنه كان يعرف كيف يكون حاد الذهن مثل الحية عندما تكون على وشك أن يلدغ عدوا.

ولد داكتير ابنا لأستاذ رياضيات يونانى، وكيميائية إيرانية، فى ممفيس حيث اشتهر منذ كان شابا بسبب عبقريته فى الأبحاث العلمية. ولكن لأنه كان بلا أخلاق، فقد فهم بسرعة منذ كان طالبا، أن سرقة الأفكار من الآخرين ستسمح له بأن يتقدم بخطوات عملاقة بأقل مجهود ممكن. ولكن تلك لم تكن إلا استراتيجية وضعها لخدمة هدفه الكبير: أن يجعل من مصر الأرض المختارة للعلوم البحتة، فتتخلص من كل الخرافات، ويهيمن فيها العلم الذى يجعل الإنسان يسيطر على الطبيعة.

وأصبح داكتير بفضل مواهبه كمهندس ومبدع، إنسانا لا غنى عنه بالنسبة لعمدة ممفيس، ثم أصبح المقرب لعمدة طيبة حيث حاول أن يفسر الغاز الحكمة القديمة. أما حساباته التقديرية حول طمى النيل فقد بدت فريدة من نوعها، كما جدد فى أسلوب مراقبة الكواكب والفضاء. وبالرغم من ذلك فإن كل هذا لم يكن بالنسبة له إلا نطفة؛ وغدا، سوف يفرض رؤية جديدة للعالم الذى سينطلق بمصر من سكونها وتقاليدها البالية، لتدخل عصرا من التقدم. فكم من العجائب تستطيع دولة بمثل هذا الثراء وهذه القوة أن تفعل، عندما تتخلى عن معتقداتها القديمة!

ـ أهنئك على حصولك على القلادة الذهبية، يا كابتن. إنها مكافأة تستحقها وستعمل منك رجلا مهما، يعتد بآرائه.

ـ ليس مثلك، يا داكتير. لقد سمعت أن عمدة طيبة لم يعد يستطيع أن يستغنى عن نصائحك.

ـ إنها أقوال مغالى فيها، ولكنه رجل ذو فطنة، لأنه مثلى يهتم بالمستقبل أكثر مما يهتم بالماضى.

ـ وسمعت أيضا ما يتردد عن أن أفكارك يعترض عليها شخصيات عالية .

داعب داكتير لحيته الكثيفة .

ـ من الصعب أن أنفى ذلك ، يا كابتن . فكبير الكهان فى الكرنك ، والخبراء الذين يعملون تحت رئاسته لا يقدرون البتة تحرياتى ، ولكنى لا أخافهم .

ـ إنك تبدو واثقا بنفسك!

ـ إن معارضىَّ سيغرقهم قريبا نهر أقوى من نهر النيل : إنه الفضول الطبيعى للإنسان . إننا جميعا فى حاجة إلى المزيد من المعرفة ، وهذا الاحتياج هو ما أنوى أن ألبيه بأفضل ما يكون . فى دولة تقليدية إلى أبعد حد مثل هذه ، فإن الطريق يبدو طويلا . وبرغم ذلك ، سيكون من الممكن كسب وقت ، وقت كثير . .

ـ كيف؟

ـ عن طريق الاستيلاء على أسرار ساحة الحقيقة .

احتسى ميهى جرعة من النبيذ الأبيض ليخفى اضطرابه . هل هو على وشك أن يضع يده على حليف ذى شأن؟!

ـ إننى لا أستطيع فهمك . . أليس هذا المكان مجرد كيان بسيط من البنائين؟!

قام داكتير بترطيب جبهته بقطعة قماش مبللة بمياه ذات رائحة عطرة . ثم قال :

ـ هذا ما كنت أتصوره دائما . . ولكنى كنت مخطئا . فهذا المكان لايضم فقط الحرفيين ذوى المواهب الخاصة ، بل أيضا يضم أسرارا ذات أهمية حيوية .

ـ أسرارا . . من أى نوع؟

ـ إن لم أكن ثرثارا ، فسأقول إنها تخص حياة الخلود . الجماعة فى ساحة الحقيقة ، أليس من مهامها إعداد مسكن البعث للفرعون؟ فى رأيى : البعض من أعضاء الجماعة يعرفون العملية الكيمياوية التى تقوم بتحويل الرصاص إلى ذهب ، هذا بالإضافة إلى معجزات أخرى .

ـ هل حاولت أن تخترق هذا الغموض؟

ـ أكثر من مرة ، يا كابتن ، ولكن بلا نتيجة . فساحة الحقيقة لا تعتمد إلا على الفرعون

والوزير . فى كل مرة طلبت الإذن لزيارتها ، أجابت الإدارة بالرفض . وبرغم أن لدى أصدقاء كثيرين فى الإدارة العليا ، فإن القرية ظلت مكانا مغلقا .

ـ ولكن ألا تعتقد أن أسلوبك . . متهور؟

ـ لقد قلت الشيء نفسه أكثر من مرة ، ولكن كان الآخرون يسخرون منى .

ـ نعم ، هذا ما قاله لى البعض ، ولكنى مهتم بأن أسمعه منك . لأنى بعكس الآخرين ، أصدق كلامك .

دهش داكتير .

ـ أنا ممتن ، يا كابتن ، ولكن لماذا استطعت أن أقنعك؟

ـ لأن ساحة الحقيقة هى أيضا أحد اهتماماتى الأساسية . لقد حاولت مثلك أن أعرف ما تخبئه الجدران العالية التى تحيط بتلك القرية ، ولكنى لم أنجح أبدا . فإن سرا محفوظا بدقة لابد أن يكون سرا مهما .

ـ تحليل ممتاز ، كابتن!

نظر ميهى إلى ضيفه بتركيز شديد .

ـ إن ذلك ليس تحليلا .

ـ ماذا؟ ! . . ماذا يجب على أن أفهم؟

ـ لقد رأيت سر ساحة الحقيقة .

وقف العالم ، ويداه مرتعشتان .

ـ ما هو؟

ـ لا تكن متعجلا . فأنا أؤكد لك أن السر موجود . وأنا فى حاجة إلى مساعدتك لكى ننجح فى الاستيلاء عليه واستغلاله . هل أنت مستعد لأن تعقد معى صفقة؟ !

* * *

الفصل السادس والعشرون

بدت عينا داكتير السوداوان ثاقبتين وكأنهما قادرتان على استشراف نوايا ميهى الخافية.

ـ تقول صفقة؟ . . ولكن أى نوع من الصفقات؟

ـ أنت عالم عبقرى ولكن أبحاثك تصطدم بجدران لا يمكن اختراقها، جدران ساحة الحقيقة. ولأسباب شخصية، فلقد قررت أن أفعل كل شىء لكى أهدم هذه المؤسسة العتيقة، ولكن بعدما أسرق منهم كنوزهم ومعارفهم السرية. هيا نوحد جهودنا لكى ننجح فى تلك المهمة.

بدا العالم مشوشا.

ـ إنك تملك الذكاء والمقدرة ـ أكمل ميهى ـ ولكن ينقصك الوسائل المادية. قريبا سوف أتحكم فى واحدة من أكبر ثروات طيبة وأنوى استغلالها من أجل توسيع محيط سطوتى.

ـ أنت تستهدف الحصول على منصب كبير فى الجيش، على ما أتصور؟

ـ بالطبع، ولكن هذا مجرد خطوة. مصر شاخت وضعفت يا داكتير. فقد عاشت سنوات طويلة تحت حكم رمسيس الأكبر، الذى لم يعد إلا حاكما مستبدا عجوزا غير قادر على استشراف المستقبل واتخاذ القرارات الصائبة. إن هذا الحكم الطويل يهدد البلاد بالجمود الخطير.

شحب وجه الضيف.

ـ أنت. . أنت لا تؤمن بما تقول!

ـ أنا واضح، وتلك صفة مهمة عندما يسعى المرء إلى مهام عالية.

ـ إنه هو وحده، رمسيس الأكبر، الصرح العظيم! لم أسمع أبدا انتقادا ضده. . أليس بفضله بدأنا عصرا من السلام؟

ـ هذا العصر ليس إلا تمهيدا لصراعات جديدة، مصر ليست مستعدة لمواجهتها. رمسيس الأكبر سيختفى قريبا، وليس هناك من يخلفه. معه سينطفئ شكل من أشكال الحضارة المنتهية. أنا فهمت ذلك. وأنت أيضا يا داكتير. اهتم بتطوير الأفكار؛ أما أنا فسأكون مسئولا عن المؤسسات. ها هى ذى أسس الصفقة. ولكى تتحول إلى حقيقة، يجب علينا أن نصبح سادة العناصر المهمة التى تكوّن قوة مصر. وأهم تلك العناصر هو ساحة الحقيقة.

ـ إنك تنسى الجيش والشرطة، و. .

ـ سوف أتولى أنا أمرهم، قلت لك. إن ثروة فرعون لا تعتمد على قواته المتميزة التى توصلت إلى السيطرة عليها، ولكن على العلوم الغامضة التى يقوم بها فنانوه الذين يعرفون كيف يخلقون مسكن الأبدية ويمولونه بأطنان من الذهب.

انفعل داكتير بكلام ميهى.

ـ أنت تعرف الكثير عن ساحة الحقيقة. .

ـ ما رأيته أكد لى أننا لم نخطئ، لا أنا ولا أنت، فى تصور اتساع علمهم.

ـ إنك لا تريد أن تستفيض فى الكلام معى، أليس كذلك؟

ـ هل تقبل أن تكون شريكى؟

ـ هذا خطر، يا كابتن، خطر جدا.

ـ بالضبط. يجب أن نتقدم بحذر شديد وأيضا بإصرار شديد. إن كنت تفتقد الشجاعة، فلا تتورط!

إذا رفض داكتير التعاون معه، فإن ميهى سوف يزيله من الوجود! فهو لا يستطيع أن يبقى شخصا على قيد الحياة بعدما كشف له عن جزء من مخططه.

تردد العالم. إن ميهى يمنحه الفرصة لكى يحقق أكثر أحلامه جنونا، ولكن عن طريق اتخاذ طريق خطر. نسى داكتير فى اقتناعه بسمو العلم؛ أن الدولة الفرعونية وقوتها العسكرية، لن تهمل انفلاتات مثل هذه. أما ميهى فخلف ابتسامته وحسن تصرفاته، تكمن روح قاتل. فى حقيقة الأمر لم يترك ميهى لداكتير الفرصة للاختيار: إما أن يتعاون بدون أفكار مسبقة، وإما أن يختفى بطريقة عنيفة.

ـ أوافق، يا كابتن. هيا نوحد قوتنا ورغباتنا.

وجّه الضابط القمرى أضاء متفتحا.

ـ إنها لحظة عظيمة، يا داكتير! وبفضلنا مصر سيكون لها مستقبل. هيا نختم ميثاقنا بالشرب من نبيذ رائع يرجع تاريخه إلى العام الخامس من حكم رمسيس.

ـ اسف، ولكنى لا أشرب إلا الماء.

ـ حتى فى تلك المناسبة الخاصة؟

ـ أفضل أن أحتفظ برأسى صافيا فى جميع الأوقات.

ـ أنا أقدّر الرجال ذوى الشخصية. ابتداء من الغد، سأبدأ سلسلة من الزيارات الرسمية من أجل تقديم اقتراح بخطة تحسين عمل القوات المسلحة فى طيبة. لن أجد أى صعوبة فى فرضها، وذلك سيمنحنى ترقية. بعد زواجى، سأحصل على تقدير عدد كبير من كبار القوم، ثم سأتسلل تدريجيا إلى الطبقات الحاكمة حتى أجعل من نفسى شخصا ضروريا.

ـ من ناحيتى ـ أوضح داكتير ـ فأنا لدى أمل أن أعين مساعد رئيس المعمل المركزى فى طيبة.

ـ وكلمة من حمى المستقبل، ستعين فى ذلك المنصب. يجب أن تمضى فترة من الوقت قبل أن تستطيع أن تكون وحدك المسئول هناك.

ـ تلك ستكون خطوة مهمة، ستسمح لى أن أبدأ الأبحاث التى ظلت إلى الآن فى الظلام واستخدام مصادر فنية جديدة.

فكر ميهى فى الحال فى تصنيع أسلحة جديدة تجعل من القوات التى تقع تحت قيادته قوات لا تقهر.

ـ يجب علينا أن نحدد الوضع بخصوص ساحة الحقيقة، طلب الضابط، من أجل التفريق بين الخيال والحقيقة. إننا نعرف أن هناك كاتبا ذا خبرة، عينه الفرعون لإدارة رية. ولسنوات طويلة كان راموسى هو الذى يتولى تلك المهمة، ولذلك لم يستطع أحد ن يحصل منه على أى كلمة. ولا أعرف إلا اسم خليفته، لأنه يوقع على الأوراق الرسمية: كنهير. علينا أن نجمع معلومات كاملة عن هذا الشخص. إن كان قابلا للتطويع، فسنضرب على الرأس.

ـ بشرط أن يكون هو الريس الحقيقى للجماعة . اعترض العالم .

ـ هناك بالتأكيد كبير الحرفيين ، أو حتى عدد منهم ، وتسلسل طبقى كامل . . من المهم أن نعرف أسماء القادة ودورهم بالضبط .

ـ الحرفيون لن يتكلموا بالتأكيد ، ولكن بالنسبة للمساعدين فهذا شىء آخر .

ـ لن أضيع وقتى معهم ، فهم لا يدخلون إلى القرية .

ـ هذا صحيح يا كابتن ، ولكنهم يشاركون فى بعض المناسبات .

ـ إحضار الطعام والملابس والماء؟ أنا أعرف . . ما أهميتهم .

ابتسم داكتير ابتسامة رضا :

ـ دراسة تلك المواد دراسة وافية ستساعدنا على معرفة مستوى معيشة الجماعة وعدد أعضائها بالتقريب .

ـ جميل ـ أكد ميهى ـ إن لك بالفعل بعض الجواسيس؟

ـ واحد فقط ، يقوم بمهمة الغسيل ، ولقد أعطيته مادة معجزة للغسل جعلته يغسل أسرع وأفضل من الآخرين . إنها البداية فقط . . حينما نضع الثمن ، فسنجد مساندين لنا آخرين . لقد قص لى الغسال عن فترة استثنائية فى حياة الجماعة .

داكتير ترك ميهى فى اشتياقه لحظات .

ـ كان قد مضى وقت طويل على قبول فنان جديد . ثم جاء شاب يدعى نيفر الصامت ، الذى رأت محكمة ساحة الحقيقة أنه أهل للثقة . كان طريقه مدهشا بعض الشىء ، فلقد ترك القرية حيث تربى وكبر لكى يمضى فى رحلة طويلة استغرقت عدة سنوات قبل أن يعود .

ـ هذا مشوق حقيقة . . هل كان هناك ما يدينه؟

ـ علينا أن نكتشف ذلك . بالإضافة إلى أنه كانت سيدة ترافقه جاءت من الخارج ، من المتوقع أن تكون ابنة رجل غنى من طيبة .

ـ هل تزوجا؟

ـ تلك نقطة أخرى يجب التأكد منها .

وبدأ ميهى يتخيل عدة طرق لكى يضع ساحة الحقيقة فى وضع صعب ويجبر زعماءها على الخروج من مكانهم المصون. وفى اللحظة التى سيحدث فيها شرخ فى جدارها، فإن أسوار القرية ستنهار فى أقرب وقت.

ـ لم أتصور يا عزيزى داكتير أن أول لقاء لنا سيكون بهذا الثراء.

ـ ولا أنا أيضا، يا كابتن.

ـ إن مهمتنا صعبة، والصبر ليس من أهم خصالى. ولكن على أن أمارسه رغم كل شىء. والآن إلى العمل.

* * *

الفصل السابع والعشرون

كان بيكين الخزاف سعيدا بنفسه . فبصفته رئيس المساعدين فى ساحة الحقيقة ، كان يغش بمهارة حول ساعات العمل الحقيقية ، واستغل منصبه من أجل الحصول على بعض المميزات التى من شأنها التخفيف من شدة الحياة . لهذا السبب جاء إلى فراشه بابنة إسكافى ، اهتم بالحفاظ على عمله أكثر من اهتمامه بشرف ابنته . لم تكن جميلة ولا ذكية ، ولكنها كانت تصغره بخمسة وعشرين عاما .

ـ اقتربى منى يا عصفورتى . . لن ألتهمك .

ظلت الفتاة مسمرة بالقرب من باب الحجرة .

ـ إننى رجل طيب وكريم . إذا كنت لطيفة معى فسأعطيك وجبة ممتازة ، ووالدك سيظل يعمل بدون أى منغصات .

بقلب مرتجف ، تقدمت الفتاة خطوة .

ـ قليلا من الجهد يا بلبلتى المترددة ، ولن تندمى . لنبدأ بخلع ردائك . .

ببطء شديد بدأت ابنة الإسكافى تفعل كما أمرها .

فى اللحظة التى كان بيكين يمد فيها يده لينقض على فريسته ، فتح باب المنزل على مصراعيه ، وصدمه بشدة فى كتفيه وأوقعه أرضا .

اجتاح الرعب الشابة عندما رأت أمامها شابا عملاقا يشبه الثور الهائج ، وحاولت باضطراب أن تخفى جسدها بردائها .

ـ اخرجى من هنا ، صاح فيها آمرا .

هربت الفتاة وهى تصرخ ، بينما قام العملاق بجذب فريسته من شعره إلى أعلى .

ـ أنت بيكين الخزاف ، رئيس المساعدين فى ساحة الحقيقة ، أليس كذلك؟

ـ بلى ، بلى ، أنا هو ، ولكن . . ماذا تريد منى؟

ـ اسمى آردون ، وعلىّ أن أراك بأسرع ما يكون لكى تعطينى عملا .

ـ اتركنى ، فإنك تؤلمنى!
قذف الشاب الخزاف على الفراش .
ـ إننا سنتفاهم معا جيدا يا بيكين ، ولكنى أحذرك : الصبر ليس من خصالى القوية .
قام رئيس المساعدين غاضبا يعدل نفسه .
ـ هل تعرف جيدا مع من تتكلم؟ بدونى ، لن تحصل على أى شىء على الإطلاق!
لصق آردون بيكين إلى الحائط .
ـ إن تسببت لى فى مشكلات فسوف أغضب . . وعندما أغضب لا أستطيع أن أتحكم فى نفسى .
لم يتجاهل بيكين الغضب الذى أشعل نظرة العملاق .
ـ بالتأكيد ، بالتأكيد ، ولكن اهدأ!
ـ إن من دواعى استيائى أن أتلقى أوامر من بنى آدم مثلك .
حاول الخزاف أن يستعيد بعضا من كبريائه .
ـ عليك برغم كل شىء أن تطيعنى . فأنا رئيس المساعدين وأحب أن يتم العمل على أحسن ما يكون .
ـ إذن سأكون يدك اليمنى ، ولن أخيب ظنك! بما أن أعمالك متعبة ، فأنت فى حاجة إلى مساعد نشط .
ـ إنها ليست بهذه السهولة . .
ـ لا تثرثر . وبما أننا اتفقنا ، فأنا سأبقى هنا . المكان يعجبنى وأنا أريد أن أنام .
ـ ولكن . . هذا منزلى!
ـ إننى أكره تكرار نفسى ، يا بيكين . لا تنس أن تحضر لى بعض الخبز الساخن ، وجبنا وحليبا طازجا ، قبل الفجر بقليل . يبدو أن يومنا سيكون صعبا .
لم يكن آردون فى حاجة إلى أكثر من ثلاث ساعات من النوم واستيقظ عندما قرر ذلك ، قبل شروق الشمس بوقت طويل ، وتغذى على خبز ناشف وبعض التمر ، ثم خرج من منزل بيكين متوجها إلى الإسطبل حيث رمقته بقرة كبيرة بعينيها الهادئتين . كل شخص يعرف تماما أن هذا الحيوان الهادئ كان أحد الأشكال التى تجسد حتحور ، إلهة الحب ، وأن لنظرتها جمالا ليس له مثيل .
ما توقعه آردون تحقق : تقدم الخزاف منه ، يرافقه رجلان قويان يحمل كل منهما

هراوة. لم يكن بيكين على استعداد للاستسلام، وتوقع أن يؤدى عقاب المشاكس عقابا عنيفا إلى منعه من إزعاجه مرة أخرى.

شهد آردون الثلاثة يدلفون إلى داخل المنزل وخرج هو من الإسطبل ليسمع صوت الهراوات تتهاوى على الفراش حيث كان يجب أن يكون نائما. دخل آردون فى اللحظة التى انتهى فيها شريكا بيكين من مهمتهما.

ـ أتبحثان عنى؟

وقف الخزاف مرعوبا وراء تابعيه. انقض الأول على آردون الذى ضربه بمقعد أرداه أرضا. والثانى نجح فى ضرب الشاب العملاق بالهراوة على كتفه اليسرى، لكنه تلقى لكمة قوية على وجهه جعلت أنفه ينفجر ويسقط على الأرض وذراعاه ممددتان بجانبه.

ـ لم يعد هناك غيرك، يا بيكين.

دارت أنظار بيكين من الخوف.

ـ أنت مدين لى بالكثير. فأنت لست فقط جبانا، ولكنك أيضا غبى. إن أعدت الكرة، فسأكسر ذراعك.. وستقول وداعا للخزف. هل نفهم بعضنا بعضا جيدا الآن؟

حرك بيكين رأسه بالإيجاب فى حركات سريعة.

ـ أخل المكان من هذين التافهين وأحضر لى طعاما. فإننى جوعان.

بفخر ظاهر عبر آردون القلاع الخمسة برفقة بيكين الذى قدمه إلى الحراس على أنه مساعده. كان كنهير كاتب المقابر، قد أبلغهم بتعيين الشاب، ولكن لم يتصور أحد أن يترقى بهذه السرعة.

لم يحدث منذ زمن طويل أن وصل الخزاف مبكرا هكذا إلى الموقع المخصص للمساعدين. حتى عبيد الحداد، الذى كان يُعَدّ من الطيور المبكرة، كان ما يزال نائما بعد.

ـ انهضوا جميعا! أمر آردون بصوت جهورى أيقظ بضعة المساعدين المسموح لهم بالنوم بالقرب من القرية.

استيقظوا جميعا، وقد انتابهم القلق والاضطراب. ترى أى كارثة ألمت بساحة الحقيقة؟!

ـ لاحظ بيكين أنكم جميعا من الكسالى ـ أعلن آردون ـ وهو لم يعد يتحمل ذلك . فليركز كل واحد فى عمله الصغير ولا يهتم بأى شىء آخر . يجب أن يتغير كل شىء هنا . ابتداء من اليوم سنشارك جميعا فى تجهيز ونقل الإمدادات الضرورية التى أصبحت بطيئة للغاية وتسودها الفوضى . بعد ذلك ، سأمر عليكم لكى أتأكد من عمل كل واحد منكم ، وأنه ليس هناك تأخير .

احتج الحداد ، الذى لم يكن قد استيقظ تماما بعد .

ـ ما هذا الذى تقوله . . تلك ليست أوامر بيكين !

ـ إنها الأوامر التى أعطاها لى ، وسوف أنفذها بكل حزم .

نفخ الخزاف صدره . برغم كل شىء ، لقد استعاد سلطته التى كانت أحيانا تضعف ، بسبب تدخل آردون .

ـ لقد لاحظت بعض التسيب ـ أكد بيكين ـ لهذا اتخذت إجراءات جديدة وعينت مساعدا لى حتى تنفذ بدقة .

أشار آردون بسبابته إلى رجل قوى ساقاه صلبتان .

ـ أنت ، ستجرى إلى السهل وتجمع كل هؤلاء الذين كان يجب أن يكونوا هنا . إننا لسنا موظفين يحصلون على أجورهم ليناموا فى مكاتبهم ، ولكننا مساعدون لساحة الحقيقة . إذا اجتاحنا الروتين ، فسيقومون بطردنا فى الحال .

فرض آردون فكرته ، ولم يعترض عليه أحد .

ـ بيكين هو أول من يعطى المثل الأعلى ، أكد آردون . فهو سيقوم بصنع عدد من الآنية فى يوم واحد يفوق ما قام به فى الشهرين الأخيرين .

ـ نعم ، نعم . . سوف أبدأ حالا .

ـ إذا أدركنا أهمية عملنا ، فلن نهمل فيه . وسأبدأ باختبار عملك أنت أيها الحداد .

ـ هل تتصور أنك قادر على ذلك؟

ـ أنت ستعلمنى .

* * *

الفصل الثامن والعشرون

كان حفل زواج ميهى وسيركيتا فاخرا. خمسمائة مدعو من علية شخصيات طبقة النبلاء فى طيبة، وكل كبار القوم. . لم يتغيب إلا رمسيس الأكبر، ولكن الملك العجوز لم يعد يخرج من قصر الكرنك حيث يعمل مع المخلص آمينى الذى خفض إلى أدنى حد مقابلاته.

تمددت سيركيتا على الوسائد بعد أن احتست الخمر حتى السكر. غادر جميع الضيوف الفيللا الواسعة التى يملكها والدها موسى، وزير الخزانة فى طيبة، الذى جلس يحتسى حساء من الخضراوات ليعالج الصداع النصفى الذى أصابه، بينما كان ميهى، الذى بدا هادئا بشكل غريب، يتأمل الحوض الذى امتلأ بأزهار اللوتس.

كان موسى فى الخمسينيات من عمره، ولكنه يقظ، وكان فى حالة قلق دائم. بدا موسى بصلعته الكاملة مثل «الكهنة الطاهرين» فى المعابد برغم أنه لا يشبههم فى شىء. كان موسى منذ طفولته يتعامل مع الأرقام وكأنها لعبة، وكان يهتم بالإدارة؛ فقام بإسناد خدمة الآلهة للآخرين وركز هو على الإثراء، وبعد موت زوجته زادت فيه حدة التعطش للتملك. هذا التعطش وجده أيضا لدى ميهى، ولهذا السبب اقتنع برأى ابنته بضرورة أن تتزوجه.

ـ هل أنت سعيد يا ميهى؟

ـ لقد كان حفل استقبال لا ينسى. سيركيتا سيدة مجتمع رائعة.

ـ هكذا أصبحت تنتمى إلى أفضل المجتمعات. . ألا تريد أن نتحدث عن مستقبلك؟

ـ الجيش، بلا شك. . ولكنه فى سبات.

ـ هذا طبيعى، أوضح موسى. فبفضل رمسيس الأكبر، ساد السلام الدائم البلاد، وانشغل كبار الضباط بالعمل فى الإدارة أكثر من انشغالهم بمحاربة أعداء غير موجودين. هل لديك طموحات محددة؟

ـ أريد أن أعيد تنظيم قوات الصفوة بحيث يضمن أمن المدينة بشكل كامل.

ـ إنها مهمة تستحق عليها الثناء، ولكن عليك أن تنظر إلى أبعد من ذلك. ما رأيك فى منصب مساعد وزير الخزانة فى إقليم طيبة؟ سيكون فى خدمتك عدد كبير من الكتاب الذين يقومون بحل المشكلات الكبيرة، وأنا سأعطيك النصائح الضرورية لكى تستطيع أن تحصل على أكبر كمية من الأرباح الشخصية من إدارتك، وبكل شرعية.

ـ أنت كريم للغاية، ولكنى لا أعرف إن كانت خبرتى..

ـ لا تدعى التواضع. إنك رجل الأرقام، مثلى، وستستطيع أن تدبّر أمورك بشكل رائع.

ـ لا أرغب فى ترك الجيش.

ـ من يطلب منك ترك الجيش؟ ستحصل بسرعة على مركز متميز فيه، وستلعب على الجانبين العسكرى والمدنى، مثل العديد من كبار الضباط الآخرين. إن رمسيس كبر فى السن جدا، وأعد خليفته، ولكن من يمكنه أن يعرف كيف سيتصرف ميرنبتاح، ابنه الذى أراد له أن يحكم من بعده؟

ـ هل اقتربت منه؟

ـ ليس بالقدر الكافى. إنه رجل مستقيم، صلب، شخصيته ليست متساهلة تماما مثل والده، ويرفض التجديد. يجب أن نستعد لفترة حكم محافظة، بلا إثارة، وخلالها ستحتفظ مدينتنا العزيزة طيبة بمكانتها العالية. ولكن قد يفاجئنا رمسيس بحياة أطول، وقد يموت ميرنبتاح قبله، فمن عساه أن يتولى العرش؟

ـ هل تفكر فى مرشح بعينه؟

ـ بالطبع لا! إننى أهتم بالمالية، وليس بالألعاب الخطرة الخاصة بالسلطة، والتى لا يجب أن يكون نسيبى أحد ضحاياها. لذا يجب أن تكون فى مكان إستراتيجى حتى تستطيع أن تواجه أى متغيرات: تكون مستعدا إن احتاجوا لك بصفتك ضابطا، أو بصفتك

إداريا. وفى حالة وقوع اضطرابات، فلا يتغير وضعك، وبالتالى لا يتغير وضع ابنتى أيضا.

ـ لقد قابلت رجلا غريب الأطوار، عالما أجنبيا يدعى داكتير.

ـ لقد أعجب به عمدة طيبة. إنه نوع من المخترعين، الذين لا يكف عقلهم عن العمل.

ـ لقد بدا لى لطيفا، وأحب أن أخدمه. هل يمكننا أن نساعده لكى يكون أحد المسئولين عن المعمل المركزى فى طيبة؟

ـ بلا أى صعوبة، وهذه فكرة ممتازة. هذا الأجنبى سيوقظ بعض الباحثين الذين يعيشون فى سبات عميق، وسيكون مدينا لنا بمنصبه هذا. وفى يوم ما قد يكون مفيدا لنا. حاول أن تحيط نفسك بأشخاص مدينين لك، يا ميهى، احتفظ بملفات عنهم، سيكرهونك ولكنهم سيضطرون إلى طاعتك طاعة عمياء.

ـ هناك نقطة تؤرقنى، يا حماى العزيز.

ـ ما هى؟

ـ لماذا لا تثق بى؟

ـ سؤالك يدهشنى، بعد كل تلك الاقتراحات لمستقبلك!

ـ إن كنت تثق بى حقا، فلماذا تطلب عقدا يفصل بين الممتلكات؟

أفرغ موسى حساءه.

ـ أنت لا تعرف ما هى الثروة، يا ميهى، ولا أعرف بعد كيف ستتعامل مع ابنتى. قد تخونها، أو قد ترغب فى تطليقها.. فمع أول خطإ ترتكبه ستفقد كل شىء. إننى أنوى بهذه الطريقة أن أحمى سيركيتا، ولن يغير أحد من رأيى. بعد حل تلك المشكلة، سوف أساعدك لتصبح رجلا مهما، لأن نسيبى يجب ألا يكون تافها. ستتمتع بكل ملذات الحياة، والنبلاء سيحسدونك.. فماذا تريد أكثر من ذلك؟ حاول أن تستفيد من حظك هذا، يا ميهى، ولا تطلب أكثر.

ـ تلك نصائح حكيمة، يا حماى العزيز.

* * *

حلق زوجان من طائر المنجل بجناحيهما الكبيرين فى السماء التى تلونت باللون البرتقالى مع غروب الشمس. وفى النيل، تمايلت زوارق من مختلف الأحجام على الأمواج التى أثارتها رياح الشمال. وفى مؤخرة زورق من ست مجاديف، وقُلوع بيضاء جديدة، جلس ميهى وداكتير يعدان أرباحهما.

ـ لقد قام عمدة طيبة بتعيينى مساعد مدير المعمل المركزى ـ قال داكتير معلنا ـ أتصور أن تدخلك هو السبب فى هذه الترقية.

ـ إن حماى يقدرك وليس لديه أدنى فكرة عن شخصيتك الحقيقية. كيف استقبل المدير الخبر؟

ـ باستياء. إنه رجل ذو خبرة، تعلم فى الكرنك على يد علماء من المدرسة القديمة، ويكتفى بالمعلومات التى اكتسبها. ولقد دعانى بشدة إلى أن أقصر نفسى على التجارب التى يسمح بها، ولا أحاول أن أقوم بأى مبادرة. إننى تحت المراقبة، ولن أجد فرصة للتحرك بحرية.

ـ الصبر، يا داكتير. فإن رئيسك ليس خالدا.

ـ يبدو لى فى صحة ممتازة!

ـ يوجد طرق عديدة لاستبعاد العوائق!

ـ إننى لا أجرؤ حتى على فهم ما تقصد، يا كابتن. .

ـ إننى لست ساذجا، يا داكتير. لن نثير الأمواج فى الوقت الحالى؛ وأكتفى بطاعة اللوائح. لماذا كنت تريد أن ترانى بسرعة؟

ـ معارفى داخل القصر أبلغونى أن رمسيس الأكبر التقى طويلا مع راموسى، كاتب المقبرة السابق الذى لم يخرج من القرية منذ سنوات. راموسى ليس رجلا حذرا؛ ولقد كشف لأحد أصدقائه، كان يعرفه منذ سنوات، أن الملك يعد لمشروعات كبيرة فى ساحة الحقيقة.

ـ هذا ليس جديدا! فخلال ظهور رمسيس الأخير فى طيبة، قام رمسيس بتوبيخ مدير البر الغربى الذى طلب إغلاق القرية وتسريح الفنانين.

ـ إننى لا أرغب فى محاربة رمسيس. . فالصراع لن يكون متساويا!

ـ إنه لم يعد إلا شيخا .

ـ هل أنا الذى سيذكرك بأنه الفرعون وسيد ساحة الحقيقة؟ إننا لسنا على نفس مستواه ، ياميهى ؛ دعنا نتخلى عن المشروع قبل أن يصبح الوقت متأخرا .

ـ هل تنسى الأسرار الحيوية التى تتوق إلى معرفتها؟

ـ لا ، بالطبع ، ولكنها بعيدة المنال .

ـ إنك مخطئ ، يا داكتير ، وسأثبت لك . تذكر أنك ارتبطت بطريق لا تستطيع الخروج منه . ماذا تعرف اكثر؟

ـ إن راموسى الكاتب أعرب عن سعادته بقبول نيفر الصامت داخل الجماعة ، لأنه مقتنع بأنه سيقوم بالحفاظ على مستوى القرية .

ـ فى قول آخر ، إنه يَعُدُّه أحد قادة المستقبل .

ـ هذا رأى راموسى فقط ـ قال العالم ـ ولكنه يحمل لقب «كاتب مآت» ويحظى بتقدير عام . الإشاعة الأخرى الأكيدة : إن نيفر تزوج من كلير ، ولقد تم قبولها فى الجماعة فى الوقت نفسه معه .

نظر ميهى إلى مياه النيل مفكرا . ثم قال :

ـ لكى نضعف ساحة الحقيقة ، يجب أولا أن نقضى على سمعتها . وعندما تتشوّه سمعتها إلى الأبد لن يستطيع أحد الدفاع عنها ولا حتى الملك . وفى هذه الحالة تصبح فرصتنا للنجاح كبيرة .

* * *

الفصل التاسع والعشرون

ـ يجب أن تستسلم، يا آردون، يجب أن تستسلم!

ـ استمر فى الكلام، يا عبيد.

كان الحداد والمساعد الجديد للخزاف مشتبكين فى مباراة الساعد القوى فى ورشة الحدادة، بعيدا عن أنظار المساعدين الآخرين.

ـ إننى أقوى رجل فى ساحة الحقيقة وسأظل كذلك. أكد عبيد.

ـ إنك تبذر طاقتك.

كان ذراع آردون صلبا كقطعة صخر، وعبيد لم يتمكن من تحريكها. ثم ببطء، ببطء شديد بدأت ذراع الحداد تتراجع، واستطاع لثوان أن يمنع السقوط المحتوم. ولكن الضغط كان شديدا جدا، وبصرخة ذئب جريح استسلم عبيد أخيرا.

مسح عبيد بظهر قبضته اليسرى قطرات العرق التى ظهرت على جبهته. بينما العملاق الشاب لم تظهر عليه نقطة عرق واحدة.

ـ حتى الآن لم يحدث أن هزمنى أحد. ما تلك الطاقة التى تجرى فى عروقك؟

ـ أنت فقدت القدرة على التركيز ـ قال له آردون ـ أما أنا فإن القوة التى أحتاج إليها، أفرزها فى نفس وقت احتياجى إليها.

ـ إنك أحيانا تخيفنى!

ـ طالما ستظل صديقى، فلا يجب أن تخاف من شىء.

كان آردون يمضى وقتا طويلا فى ورشة الحدادة حيث يقوم عبيد بتعليمه صناعة وإصلاح الأدوات المعدنية. الحرفى لم يكن يحصى ساعات عمله بعكس معظم المساعدين الآخرين الذين كان الشاب يقوم بتوبيخهم باستمرار.

ـ يبدو أنه ليس لك أصدقاء كثيرون ـ قال عبيد معلقا ـ فى العادة يقوم رئيس المساعدين بمراعاة حساسية البعض، ويسعى إلى خفض إيقاع العمل إلى أدنى حد. ولقد نجح بيكين الخزاف فى ذلك نجاحا كبيرا. . ولكن منذ تعيينك، تحول المكان إلى خلية نحل! ولكن يبدو أن كاتب المقبرة، هذا المتذمر كنهير، راضٍ بذلك.

ـ إذن فسوف يساندنى.

ـ لا بالتأكيد! إنه رجل قمىء، شرس ومستبد. حاول أن تتجنبه إلى أقصى حد.

ـ لماذا عين إذن فى هذا المنصب؟

ـ لا أعرف شيئا، أنا. . تلك كانت رغبة الفرعون. ولكننا جميعا نفضل راموسى. إنه رجل إنسانى وكريم! لقد جعلنا نستفيد من كرمه بدون أن يطلب منا المقابل، وعمت السعادة بالتساوى، فى الفترة التى كان يعمل فيها ككاتب المقبرة. ولكن مع كنهير، تغير المناخ تماما.

ـ لماذا لا تطلب انضمامك إلى الجماعة؟

ـ لقد تقدمت كثيرا فى العمر، وأنا أحب مهنتى. والحداد يجب أن يظل بين المساعدين.

ـ أليس ذلك ظلما؟

ـ إنها قوانين ساحة الحقيقة، وأنا أتصور أننى راض عن قدرى. إن كنت عاقلا لفعلت مثلى.

خرج آردون من ورشة الحدادة ليتأكد أن توجيهات بيكين الخزاف تنفذ. كان يقوم بذلك منذ ثلاثة أسابيع، وبدأ الشاب يعجب بتلك المهمة الكئيبة، فعليه أن يتأكد من جودة المياه والسمك واللحم والخضراوات والخشب من أجل التدفئة، والملابس التى تم غسلها.

وحسب التقاليد، فإن الأعمال المختلفة التى يقوم بها المساعدون، تختلف أهميتها حسب الأحياء القمرية، و«هؤلاء من الخارج» الذين يطلق عليهم أيضا تعبير «هؤلاء الذين يحملون»، فهموا أن الشاب لا يسامح المهمشين ولا الغشاشين. النساء اللائى كن يقمن بجمع الفواكه لم يعدن يضيعن الوقت فى الثرثرة، والسائقون لم يعودوا يقفون كثيرا على الطريق ليتناولوا الشراب وتبادل الحديث. كان آردون يطلب الكثير من الصيادين ومسئولى الحدائق، الذين كانوا يكتفون بأقل الأعمال، وكان يتذوق بنفسه خبز الخبازين.

فى البداية كان يرفض مبررات إنتاج خبز أقل جودة بسبب سوء نوعية الدقيق؛ ومنذ أن أوضح آردون موقفه للخباز، لم يعد هذا الأخير يرتكب أخطاء من ذلك القبيل، بل وراح يصنع حلوى بالعسل واللوز لاقت استحسان الحرفيين.

كان آردون يرافق الرعاة فى بقاع الأرض الرطبة، عند حدود المراعى حيث تنبت الحشائش بكثرة وحيث تسعد الماشية؛ وبدأت تطيب له رفقة هؤلاء الرجال الذين يتميزون بالخشونة، فكان ينام فى كوخ من الخوص، ويستمع لشكواهم، ويتفهم مخاوفهم من التماسيح والناموس، ولكنه لم يكن يحيد عن مواقفه. فبرغم مشكلاتهم، لم يكن من حقهم أن يقضوا اليوم فى العزف على الناى والنوم بجانب كلابهم، ولكن كان عليهم إمداد ساحة الحقيقة بالمؤن حسب التعهدات التى أمليت عليهم. بعد الصدام الأول، الذى كان قاسيا، بدأ التعاطف يسود بينهم وفرض آردون وجوده بينهم.

برغم كل ذلك، فقد كان الشاب يعرف وهو يتجه نحو مكان الجزارة فى الهواء الطلق، أنه قد يصدم بالفشل.

فى مكان الجزارة كان كبير القصابين ديز، قصير الشعر، ويرتدى لباسا من الجلد ويحمل حول وسطه سكينا وحجرا لسن السكين. فى ذلك الوقت توقف ديز عن العمل فى حين كان مساعدوه يقومون بنتف ريش الإوز والبط وبتنظيفها وتمليحها وتعليقها على الخطاف الطويل أو وضعها للتخزين فى الأوانى الكبيرة.

ـ سلام يا ديز، هل أنت مريض؟

ـ إننى أستريح. هل هذا يضايقك؟

ـ لقد أحضر لك اليوم غزال وبقرة. والأوانى معدة، لم يعد إلا انتظار قطع اللحم التى يجب عليك أن تقطعها.

ـ يداى تؤلمانى.

ـ أرنى إياهما.

ـ هل أنت طبيب؟

ـ أرنى إياهما، مع ذلك.

ـ إن كنت تريد بعض اللحم، فاقطعها بنفسك.

أخذ آردون سكينا من أحد المساعدين وشق الحافر الأيسر الخلفى من البقرة، بالطريقة المثلى حسب التقليد. فبهذه الطريقة كانت الضحية تمنح كل طاقتها إلى هؤلاء الذين يطعمون من لحمها.

وكانت الدماء التى سالت فى الآنية دماء نقية. ثم قام آردون بتمرير سن السكين بين مفاصل الحيوان وقطع الأوردة واختار أفضل قطعة وأعطاها إلى الطهاة. ويُعَدّ كبد البقرة أيضا من المأكولات المفضلة.

ـ إننى لست فى مهارتك يا ديز، ولكن منضدة طعام الحرفيين ستكون مليئة بالأطعمة المختلفة.

ـ يا بختهم.

أخذ الجزار يمضغ قطعة لحم نيئة.

ـ هناك سؤال يلح علىَّ: ما فائدتك أنت؟

ألقى الجزار نظرة كراهية على آردون.

ـ هل تعتقد أنك تثير دهشتى، يا صبى؟ أنا رئيس الجزارين وسأظل هكذا. أوامرك، وأوامر الخزاف، لا تهمنى.

ـ لماذا تستحق معاملة خاصة، يا ديز؟ إنك تعيش كما تهوى منذ سنوات طويلة. بيكين أبلغنى أن محرك المساعدين هو أنت. ولكنك ستدخل إلى الصف وستخدم ساحة الحقيقة كما يجب.

هرب المساعدون والطهاة إلى الخارج. فهم يعرفون شخصية كبير الجزارين، وتوقعوا الأسوأ، وقرروا ألا يكونوا شهودا على مأساة قادمة لا محالة. بعد ذلك، سيشهدون لصالح ديز ويُعدون الأسباب.

وقف الجزار. لم يكن فى حجم آردون ولا فى قوته، ولكن كانت ذراعه تخيف أعداءه مهما كانوا. قبض على سكينه.

ـ إننا سننهى هذا الخلاف بطريقة شريفة، أيها الصبى. فسأقطع بعض أوصالك، ولن تستطيع أن تسير على أقدامك مرة أخرى. ورجل معوق لن يقلق راحتنا بعد اليوم.

قذف آردون بعيدا سكينه.

ـ هل تتصور أنك تستطيع أن تدافع عن نفسك بلا سلاح؟! يا لك من غبى مسكين!

انقض الجزار بكل ثائرته على آردون، وفى يده السكين موجها إياها إلى بطن الشاب الذى تفادى الهجوم فى آخر لحظة. وفى الفراغ الذى أمامه اندفع الجزار بقوة فلم يستطع أن يدير نفسه قبل أن يهاجمه آردون الذى أمسك ذراعه ولواها إلى الخلف وأجبره على إلقاء السكين، ثم ضغط على رقبته إلى حد أن قطع عنه أنفاسه.

ـ لك الخيار يا ديز: إما أن تحترم مسئولياتك مثل الآخرين، وإما أن أكسر عنقك. وستُعَدّ مجرد إصابة عمل أنت مسئول عنها تماما.

ـ لن.. لن تجرؤ!

ضغط آردون أكثر على الرقبة.

ـ موافق، موافق!

ـ كلمة شرف؟

ـ نعم!

تحرر الجزار من قبضة آردون وسقط على ركبتيه يلهث من أجل الهواء الذى فقده.

ـ أنا جوعان، صاح آردون فى اتجاه الطهاة. ليقدم لى أحدكم قطعة لحم جميلة.

* * *

الفصل الثلاثون

صفع آبرى ابنته التى صرخت من الألم وجرت لتحتمى فى حجرة والدتها. فمنذ أن وبخه رمسيس الأكبر بقسوة فى اجتماع عام، بدأت أعصاب كبير الإداريين فى البر الغربى من طيبة، تتدهور يوما بعد يوم. لم يعد يتحمل موظفيه، ولا خدمه ولا حتى عائلته. وكانت أقل مضايقات تفجر لجام غضبه، وبات ينتظر بقلق بالغ قرار طرده الذى سيهبط به إلى منصب كاتب بسيط بلا مخصصات مثل المنزل وحاملى المقعد والخدم النشيطين. كما أنه سيكون عليه أن يواجه نظرات السخرية أو الانتقام فى عيون هؤلاء الذين استبعدهم، بدون مراعاة ظروفهم فى أغلب الأحيان. أما زوجته، فعندما ترى التغيير الذى سيحدث فى أسلوب حياتها فستطلب بالتأكيد الطلاق منه، وتحتفظ بحضانة الطفلين.

لم يكن آبرى يمتلك الشجاعة الكافية لكى يتنازل عن مناصبه. وبالنسبة له فإن أفضل حل سيكون الهروب وبدء عمل جديد فى الخارج، ولكن كيف يتخلى عن جنة طيبة؟ إن ذلك يتجاوز حدود قواه. لم يعد أمامه إلا أن يتحمل انهياره المحتوم.

ـ سيدى، الكابتن ميهى يرغب فى مقابلتك. نبهه الموظف.

ـ إننى لا أقابل أحدا.

ـ إنه يصر.

وافق آبرى منهكا.

ـ سأقابله فى ردهة الاستقبال.

كان مدير البر الغربى ينوى إعادة بياض الحجرة، ولكنه قرر ألا يورط نفسه فى نفقات إضافية. اضطربت جفناه، واتجه متثاقلا نحو حجرة الاستقبال.

كان الكابتن ميهى يرتدى زيا آخر صيحة، وكان معصماه محليين بسلاسل، وتفوح منه رائحة عطر جذابة، فى هذه الصورة تقدم ميهى من آبرى فى أبهى زينة.

ـ أشكرك على استقبالك لى ، يا آبرى . إن منزلك يبدو رائعا .

ـ هل تأتى مثل الجوارح ، لكى تقتات على جثتى ؟

ـ بينى وبينك ، لم يعجبنى توبيخ الملك لك .

اندهش آبرى .

ـ هل تعنى . . أنك تقدر موقفى ؟

ـ بالطبع ، يا عزيزى . إن مناقشتك بدت لى منطقية تماما .

بعد مضى وقع المفاجأة الأول ، بدأ المدير يشعر ببعض التخوف . ألم يكن هذا الضابط الشاب من مثيرى الشغب ؟

ـ إن كلمات الملك لها قوة القانون ، يجب علينا جميعا أن نذعن لها !

ـ بالطبع ـ أكد ميهى ـ ولكن جل من لا يخطىء ، ومليكنا المحبوب أصبح اليوم شيخا مرتبطا بمخلفات الماضى . فى الوقت الذى نمجد فيه عظمته ، ألا يجب علينا أن نمارس الحد الأدنى من الفكر الانتقادى لكى نعد أنفسنا بأفضل ما يمكن للمستقبل ؟

آبرى تجمد مكانه .

ـ إن كلماتك خطيرة للغاية ، يا كابتن .

ـ بصفتى ضابطا يجب أن أكون نقيا . وفى حالة حرب ، فإن جيشنا لن يكون مستعدا للمواجهة ، وستصبح مصر مهددة بالدمار . لهذا السبب أقترح بعض الإصلاحات التى يدرسها رؤسائى بالكثير من رحابة الصدر . أنت ترى جيدا أننى لا أسعى إلى التدمير .

تأكد آبرى قليلا من نوايا ميهى ، وجلس على مصطبة من الحجر .

ـ أتحب شراب النبيذ من التمر والعرقسوس ؟

ـ بالطبع .

قدم كبير الموظفين كأسا إلى ضيفه الذى جلس قبالته .

ـ لماذا علىّ أن أثق بك ، يا ميهى ؟

ـ لأننى الوحيد الذى يساندك فى مشكلتك تلك . أنت تعرف أننى تزوجت من ابنة

وزير الخزانة فى طيبة وأن نفوذى سيعلو بالتأكيد. لماذا أهتم بمساندة إنسان مدمر إن لم أكن أشاركه آراءه!.

تعود آبرى أن يوجه ضربات قوية إلى خصومه. ولكن اليوم، فإنه هو الذى يتلقى تلك الضربات.

ـ إن أيامى معدودة.. لم أعد مفيدا لأى شخص.

ـ إنك مخطئ، يا آبرى. إن حماى يدعمك إلى حد ما، ولقد قام بتسريب رسائل تدعم الاحتفاظ بك كمدير البر الغربى. وصدى تلك الرسائل يبدو مريحا.

ـ إنه رمسيس، وهو فقط الذى يتخذ القرارات!

ـ بما أنه يعلم رأيك، لماذا يستبدل بك موظفا آخر لازالت آراؤه غير مؤكدة؟ وبما أن الملك يعترض على برنامجك فلن تستطيع تطبيقه، وستكتفى بإدارة منطقتك كما كنت تفعل فى الماضى، بدون أن تمس مميزات الحرفيين.

ـ هل أنت.. أنت جاد؟

ـ إن رمسيس رجل ماهر، لا أحد يستطيع أن يشكك فى سلطاته. والأمر الذى أصدره لن يتساهل فيه، وبما أنك تخاف أن تفقد منصبك فستكون أول من يعمل على تطبيقه بحذافيره. ألست أنت الآن يا آبرى، أكثر المدافعين المؤثرين عن ساحة الحقيقة؟

فى دخيلة نفسه اضطر المدير إلى أن يعترف أن ميهى لم يكن مخطئا.

ـ أنت ستظل فى منصبك ـ تعهد الكابتن ـ وسأساعدك على تقوية موقفك.

ـ الإنسان لا يحصل على شىء بدون مقابل.. ماذا تريد فى المقابل؟

ـ نفس الشىء مثلك: تدمير ساحة الحقيقة.

ـ إننى لا أفهمك.. فى رأيى، يجب أن نفرض الضرائب على الجميع بدون استثناء. ولكن أنت.. ما اعتراضك؟

ـ فى مواجهة التطور الضرورى لتحديث البلاد، فإن تلك الجماعة ما هى إلا شكل شاذ يجب أن يختفى.

شعر آبرى أن محدثه يخفى عنه أسبابه الحقيقية ولكن، فى حقيقة الأمر، ذلك لا يهم. ميهى، ألم يكن رسول خير؟ إنه قدم له الأمل ومنحه مستقبلا.

ـ أنا لا أرى كيف أستطيع أن أساعدك. لقد شرحت لى لتوك أن دورى يتضمن من الآن المحافظة على قرية الفنانين ضد كل هجوم!

ـ فى الظاهر فقط يا عزيزى، فى الظاهر! لا ضرائب محددة فى الوقت الحالى، مجرد موقف من الرضا المزيف، والتزام شكلى برغبة الملك، ذلك هو الخط الرسمى الذى عليك أن تسير عليه.

ـ و. . وماذا سيكون الآخر؟

ـ أن تهدم شيئا فشيئا أسس الجماعة.

ـ إن ذلك مخاطرة كبيرة!

ـ أقل مما تتصور، يا آبرى. اطمئن: أنا رجل حريص للغاية، يعرف كيف يتحرك فى الظل. أنت نفسك تعلمت أنه من المفضل أن تضرب عدوك من الظهر وليس مواجهته بوجه مكشوف. طلباتى الحالية بسيطة: هل تقبل أن تقول لى عما تعرفه عن ساحة الحقيقة؟

ـ القليل، ولكنها برغم كل شىء معلومات سرية. إذا أفشيتها فسأكون شريكك.

ـ ليس شريكى، بل تكون حليفا لى.

ـ إلى أى مدى تنوى الذهاب، يا ميهى؟

ـ هل تريد حقا أن تعرف؟

أدى ظهور زوجة المدير إلى قطع المحادثة. كانت الزوجة طويلة وسمراء وعصبية إلى أقصى حد.

ـ لماذا صفعت ابنتك؟

ـ أقدم لك الكابتن ميهى. ليس ضروريا أن نقحمه فى مشكلاتنا العائلية.

ـ هل قلت له إنك حولت حياتنا إلى جحيم، بسبب نوبات غضبك التى تتزايد يوما بعد يوم؟

ـ سيطرى على نفسك يا عزيزتى!

ـ لم أعد أستطيع السيطرة على نفسى! إلى متى يجب على أن أستمر فى تحمل تصرفاتك العصبية؟ دع الكابتن ميهى يعينك فى فرقته لنتخلص من وجودك!

ـ الوضع سيتحسن، أعدك بذلك.

ـ من الذى سينقذ روحك؟ ضابط ؟

ـ ولما لا؟ سأل ميهى.

تأملت زوجة آبرى ضيفها بكراهية.

ـ من تتصور نفسك؟! عد إلى معسكرك!

أمسك المدير بذراع زوجته ودفعها نحو الباب.

ـ اذهبى وهدئى من روع ابنتك، ولا تزعجينا بعد الآن.

شعرت المرأة بالإهانة، واختفت.

ـ بسبب رمسيس الأكبر ـ قال الموظف الكبير معترفا ـ أصبحت حياتى جحيما. لا أستحق كل هذا.

ـ رجل بمواهبك يجب ألا يصمت على ظلم كهذا بدون أن يقاوم. قال ميهى.

تقدم آبرى مرة أخرى ببطء شديد، فريسة لتفكير عميق إلى حد أن الكابتن فضل عدم قطع تفكيره.

ـ أنا لا أرغب حقيقة فى معرفة إلى أى مدى تريد أن تذهب، يا ميهى، وليس لى هدف آخر بجانب الاحتفاظ بمنصبى. فى إطار الممكن، فإننى أقبل أن أبلغك بالمعلومات التى لدى. ولكن لا تطلب منى أكثر من ذلك.

* * *

الفصل الواحد والثلاثون

شعر الكابتن بالرضا الكامل. فلقد اتخذ آبرى الخطوة الأولى، والآخرون سيتبعونه.

ـ أخاف أن تحبط ـ أوضح مدير البر الغربى ـ فبرغم أننى كبير الموظفين وأفضلهم معرفة بساحة الحقيقة، فإننى غير قادر على إبلاغك عما يحدث حقيقة هناك.

ـ من الذى يديره؟

ـ فيما يخصنى هو كاتب المقبرة كنهير الذى خلف راموسى، الذى قرر أن يقضى بقية أيام عمره فى القرية.

ـ لماذا تقول: "فيما يخصنى"؟

ـ لأننى أتعامل معهم من الناحية الإدارية فقط. وفى حالة الضرورة فهو كاتب المقبرة الذى أكتب إليه، وهو الذى يرد على. ولكن هناك بالتأكيد مجموعة من المسئولين عن الحرفيين أنفسهم، متدرجين حسب أهميتهم ويرأسهم بالتأكيد رئيس عمل.

ـ وأنت لا تعرف اسمه؟

ـ فقط الفرعون والوزير هما اللذان يعرفانه. فبرغم عدة محاولات من جانبى، لم أنجح قط فى الوصول إليه.

ـ كم عدد الحرفيين فى الجماعة؟

ـ لمعرفة ذلك يجب الدخول فى القرية أو الحصول على الإجابة من كاتب المقبرة.

ـ ماذا تعرف عن أنشطة ساحة الحقيقة بالضبط؟

ـ مهمتها الرسمية تتضمن حفر وتزيين المسكن الأبدى للفرعون الحاكم. وبناء على أوامر منه، يمكن أن يطلب من أحد أو عدد من الحرفيين مهام محددة عند مواقع مختلفة.

ـ هل ذلك يحدث بشكل متكرر؟

ـ مرة أخرى، فقط الكاتب هو الذى لديه الإجابة.

ـ يقولون إن ساحة الحقيقة قادرة على صنع الذهب..

ـ تلك أسطورة قديمة، نعم، ولكن لا تصدقها على الإطلاق. فى الواقع، تلك الجماعة تتمتع بمميزات غير مقبولة. إنها تملك قرية بكاملها، ولا تدفع أعمالها إلا إلى الملك أو الوزير، كما لديها محكمتها الخاصة، ويخدمها جيش من المساعدين! هذا الوضع غير محتمل. وكما أوضحت مرة بعد مرة، الإدارة الجيدة تتضمن رفع الضرائب كل عام!

شعر ميهى بالإحباط. فكبير الموظفين كسول. آبرى لا يهتم إلا بالمنافع التى يمكن أن يحصل عليها ولا يتخذ أى مبادرة. ولكنه يبقى منطقة قابلة للاستكشاف.

ـ ماذا تعرف عن كنهير؟

ـ لم يتمكن راموسى من أن يكون له أطفال برغم كل القرابين التى قدمها إلى الآلهة. وعندما أقر بسوء حظه، قرر تبنى طفل يكون خليفته، ويورثه ممتلكاته. وقع اختياره على كنهير الذى عينه رمسيس كاتب المقبرة فى عام ٣٨ من حكمه. يرى الكثيرون أن هذا كان اختياراً سيئا. فراموسى رجل كريم ومحبوب، صارم ولكنه مبتسم؛ بينما كنهير شخصية كريهة، عبوس، مغرور بتفوقه الثقافى، ولكنه يحمل قدرات كبيرة. منذ تعيينه، لم يحدث أن تقدمت أى شكوى ضده.

ـ كم يبلغ من العمر؟

ـ اثنين وخمسين عاما.

ـ إذن هو فى نهاية حياته العملية.. أتصور أنه لن يمانع فى أن يرى معاشه يتزايد بشكل كبير.

ـ أنا أشك فى ذلك! فهو مثل راموسى، يكتفى بإنهاء حياته بسلام فى القرية.

ـ لا يوجد رجل يشبه آخر، يا عزيزى آبرى؛ قد يكون لكنهير رغبات لم يفصح عنها، ونستطيع نحن أن نلبيها. هل هو متزوج؟

ـ ليس فى حدود علمى.

ـ قبل دخوله ساحة الحقيقة، أين كان يعمل؟

ـ فى صيدلية مجهولة عند البر الغربى حيث لاحظه راموسى .

ـ هل تستطيع أن تقترب منه؟

ـ إن المسألة ليست بتلك البساطة . . فكنهير لا يخرج إلا نادرا من القرية .

ـ ستجد حتما مبررا لكى تتحدث إليه .

ـ ماذا عساى أن أقوله له؟

ـ اكسب صداقته واقترح عليه أن ينضم إليك فى إدارتك فى مقابل مكافأة كبيرة، مثل مكافأته على سبيل المثال ببقرتين حلوبتين، وبضعة أمتار من قماش القطن الفاخر ونحو عشرة آنية من النبيذ من أفضل الأنواع . بعد ذلك، أعد نفسك لكى تقدم له المزيد، بينما تقوم باستقاء أكبر كمية من المعلومات منه .

ـ إنك تطلب الكثير!

ـ إنك لن تتعرض لأى خطر، يا آبرى . إما أن كنهير رجل غير قابل للفساد، وإما أنه سيلتهم الطعم .

عبس وجه المدير، وقال :

ـ السخاء الذى تتحدث عنه . . سيكون من الصعب عليه أن أقدمه من أموالى الخاصة .

ـ اطمئن، يا عزيزى : سأتولى أنا هذه المهمة .

شعر آبرى بالراحة .

ـ فى هذه الحالة، فأنا على استعداد لأن أجرب تلك المحاولة، ولكنى لا أضمن نجاحها .

شعر الكابتن ببعض اليأس . فمع حلفاء بهذا الضعف، لن يكون سهلا عليه اختراق أسرار ساحة الحقيقة؛ ولكنه ما زال فى بداية الطريق، ورويدا رويدا سيزيل من طريقه العاجزين . آبرى على الأقل يمكن التحكم فيه .

ـ هل تمارس أى سلطة على الأعمال التى يقوم بها فنانو ساحة الحقيقة للخارج؟

ـ على الإطلاق ـ قال آبرى أسفا ـ لقد قدمت عدة اعتراضات، ولكن الوزير لم يعرها أى اهتمام .

ـ هل تعرف طبيعة وكمية الإمدادات التى ترسل إلى القرية؟

ـ الحرفيون لا ينقصهم شيء! فهم يحصلون على المياه بكميات كبيرة كل يوم، كما يحصلون على اللحوم والخضراوات والزيوت والمراهم، والملابس، وأشياء أخرى لا أعرفها! ويشكو كاتب المقبرة إن تأخر إرسال الإمدادات أو إن انخفض مستوى الجودة. من حسن الحظ أن كنهير لم يعد يتقدم بشكاوى منذ وقت قصير.

ـ ولماذا؟

ـ عين رئيس المساعدين مساعدا له شابا عملاقا يدعى آردون، قام بزعزعة مجموعة الخارج المسئولة عن رعاية شئون الجماعة. يبدو أن للفتى قوة حقيقية، فهو قد نجح فى فرض طاعته.

ـ ألم يعمل من قبل فى الدباغة؟

ـ نعم هذا حقيقى. فحسب ما قاله لى سوبيك، رئيس الأمن، هذا الآردون تقدم إلى محكمة ساحة الحقيقة، ولكنها رفضته. إلا أنهم قاموا بتعيينه مساعدا، وأتصور أنه يتقم من زملائه.

تذكر الكابتن الفتى الذى صنع له درعا ثمينة. هذا الرأس العنيد لم يتقدم إلى المعسكر لكى يعين فى الجيش. اليوم، هو بلا شك يشعر بالمرارة والإحباط.

ـ من الذى يعين المساعدين؟

ـ نظريا، كاتب المقبرة، ولكنه لا يهتم بكل سقاء، بعكس الريس سوبيك والجنود الذين لا يدعون أحدا يمر إلا من يعرفونهم.

ـ هذا السوبيك.. من أى نوع من الرجال؟

ـ يؤخذ عليه ميله إلى العنف، وافتقاده إلى الدبلوماسية، ولكنه يعمل بكفاءة عالية قد تجعله يظل فى مكانه وقتا طويلا.

ـ إن حصل على ترقية، فذلك قد يبعده عن ساحة الحقيقة..

ـ الوزير متمسك به بشدة.

ـ أعد لى ملفا كاملا عن هذا الرجل سوبيك؛ فله بالتأكيد نقاط ضعف.

ـ إن تلك محاولة فى غاية الخطورة يا كابتن!

ـ ستحصل على مكاسب كبيرة منها، يا عزيزى. أنا متأكد أن بعض الأوانى من جزيرة كريت ذات القيمة الكبيرة ستزين مسكنك الجميل هذا.

ـ إننى أحلم بذلك منذ وقت طويل..

ـ ها هو حلمك على وشك التحقق، وسيكون هناك أحلام أخرى إن أثبت فاعلية تعاونك معى. بقى لى سؤال: عندما لا الحرفيون فى مهمة رسمية، هل هم مجبرون على البقاء داخل أسوار القرية؟

ـ لا، فمن حقهم الخروج منها عندما يرغبون فى ذلك والذهاب إلى أى مكان يحلو لهم. بعضهم عنده عائلة على البر الشرقى، ويقومون بزيارتهم.

ـ فى اللحظة التى يخرج فيها أحدهم من هناك، أعطنى الإشارة.

ـ لن يكون هذا سهلا! فعندما يتنقلون، لا يقدم أعضاء الجماعة أى أوراق إدارية. ولكنى سأفعل ما أستطيع.

* * *

الفصل الثانى والثلاثون

عندما رأى الخباز آردون قادما نحوه، سارع إليه يقدم له خبزا مستديرا، طريا وناعما ذهبى اللون.

ـ ممتاز، صاح الشاب راضيا؛ إنك تتقدم. ماذا أعددت اليوم؟

ـ خبز طويل، وآخر فى شكل مثلث، بعض الحلوى والفطائر.

ـ هل أنت راض عن الدقيق؟

ـ لم يكن أبدا بهذه الجودة!

ابتعد آردون راضيا عن الاختبار الذى يقوم به وتاركا وراءه خبازا قد ساده الشعور بالراحة. ثم دخل معمل صناعة الجعة حيث الخبز المصنوع من الشعير، نقع فى نبيذ التمر، وبعد هذا يرشح السائل فى مصفاة ويصبح جعة قوية لأيام الأعياد.

ـ القدر المعدنية التى أمرت بإحضارها، هل وصلت أخيرا؟ سأل آردون أحد العاملين فى المعمل.

بدا العامل مضطربا. فقد كان يكره أن يشى بزميل له من المساعدين قد يضطر لأن يتعرض لغضب آردون.

ـ نعم.. أقصد تقريبا. هناك تأخير بسيط، الأمر ليس خطيرا لهذا الحد.

بخطوة غاضبة، سار الشاب من أمام ورشة الإسكافى الذى خفض رأسه، ودلف إلى ممر ضيق حجرى واتجه نحو قاعة فى واد صغير منعزل، حيث كان فنِّىُّ النحاس يعمل، وقد جلس مقرفصا أمام موقد فيه قطع حجارة صغيرة، ويغذى ناره بالفحم والخشب.

كان المساعد جلده خشنا مثل جلد التمساح، ورائحته كريهة مثل السمك المعفن، وكان يعمل على منفاخ من جلد الماعز وضع طرفه المعدنى داخل النار.

ـ هل نسيت مطلبى؟ سأل آردون.

ـ أنت لست السيد هنا. لقد أبلغت بيكين الخزاف أن لدى قدرتين من النحاس علىّ أن أسوى سطحهما، وأخرى علىّ أن أقوم بتبييضها. ومساعدى مريض، و لا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا.

ـ من النظر إلى النار، يبدو أنك لم تشعلها منذ وقت طويل. إنك تستغل عزلتك لكى تستغرق فى الأحلام.

ـ اذهب وابحث عن شخص آخر لتزعجه! أما أنا، فإننى لا يهمنى لومك لى.

أمسك آردون قدرة مثقوبة من أسفل وقذف بها إلى الحجارة. انتفض فنى النحاس.

ـ أنت مجنون! إنها ستأخذ منى وقتا طويلا لكى أعيد تشكيلها.

ـ إن كنت ترفض الالتزام بالتوجيهات، فلن أترك أيا من القدر سليمة، وسيبقى عليك أن تعمل إلى أن تنهك لإصلاحها.

فى ثورة عارمة هاجم المساعد آردون حاملا منفاخه. ولكن الشاب استطاع بسهولة أن يأخذه من يده، ودفعه فتدحرج على الرمال.

وقف فنىّ النحاس متألما مذهولا.

ـ هل أنت الآن على استعداد أن تطيعنى؟!

ـ كما تريد يا آردون.. لقد انتصرت.

* * *

ـ تهنئتى لك يا آردون.

اقترب سوبيك من آردون الذى كان يتذوق طبقا من الفول بالبهارات.

ـ لم تحظ بشعبية كبيرة بين المساعدين، ولكنهم تعلموا أن يحترموك.

ـ إنه بيكين الخزاف الذى يعطى الأوامر.

ـ إلى الآخرين، يا آردون! لكنه مجرد لعبة فى يديك. فى سنك هذه، أنت يرجى منك.. ستكون ممتازا كشرطى.

ـ إنك مخطئ يا سوبيك. أن أكون حارسا للمساجين، هذه مسألة مخيفة.

ـ انظر من يتكلم. . من تظن نفسك؟ إنك تعطى الأوامر وتفرض القوانين وتعاقب. . لم يتعرض المساعدون أبدا لسلطة مثل هذه! كاتب المقبرة سعيد جدا بك، وأنا أيضا. أريد حتى أن أنسى الخلاف الصغير الذى كان بيننا. يجب ألا نفسد رجلا قويا على شاكلتك. . لقد أصبحت إنسانا ثمينا للغاية. وفكرة أننى أنا الذى أنزلت بك أول عقاب، تطربنى. ولكن يجب أن يعرف المرء كيف يتأقلم مع الظروف. فى أقرب وقت ستصبح رئيس المساعدين، وسيكون علينا أن نتعاون. تهنئتى الخالصة: فأنت تسير على الطريق الصحيح.

ابتعد سوبيك، أما آردون فأعطى ما تبقى من طبقه إلى الإسكافى.

ـ هذا. . هذا لى أنا؟!

ـ كُلْ، فلم أعد جوعان.

ـ هل هناك ما تلومونى عليه؟

ـ لا شىء ألبتة.

ـ زوج الصنادل الذى وعدتك به سيكون جاهزا هذا المساء!

ـ هذا جيد.

دخل آردون إلى ورشة بيكين الخزاف الذى استيقظ منتفضا.

ـ لقد شعرت فجأة بتعب ـ قال شارحا ـ الآن أشعر بتحسن. . سأعود إلى العمل.

ـ إذا كنت منهكا، فاسترح.

ـ ماذا تقول؟!

ـ إنه أنت رئيس المساعدين، وأنت الذى تقرر.

لم يصدق بيكين أذنيه.

ـ أنت تسخر منى؟

ـ إننى أقول الحقيقة فحسب. باشر مهامك التى أوليت إليك، ولن تحدث مشكلات. ولكن لا تطلب منى شيئا بعد الآن.

ـ ألا تريد أن تتولى شئون المساعدين بعد الآن؟!

ـ كل شخص له دوره.

ـ ولكن . . ماذا ستفعل أنت؟

خرج آردون من الورشة بدون أن يرد عليه. لقد كشف له الرئيس سوبيك عن الواقع بصراحة قاسية: من أجل أن يثبت قيمته أمام محكمة ساحة الحقيقة، وقع فى مصيدة. منذ أن كرس نفسه فى تنظيم عمل المساعدين، نسى آردون الرسم، وأضاع وقته فى أعمال ثانوية لم تكن ترضى إلا غروره. وبالتحول إلى مستبد صغير، حكم على نفسه بالعقم. لو كان استمر بضعة أسابيع أخرى فى هذا النظام، لتوقفت يده عن الرسم تماما.

جرى بيكين خلفه.

ـ هل غضبت من أحد؟!

ـ فقط من نفسى.

ـ لا تفقد أعصابك . . سوف أتكلم مع كاتب المقبرة لكى يمنحك منصب رئيس المساعدين. هذا ما تريده، أليس كذلك؟

ـ لم أعد أريده.

ـ إننى لا افهم . .

ـ عد إلى ورشتك، يا بيكين. فليس هناك ما تخافه منى بعد الآن.

ـ هل . . هل ستتركنى وشأنى؟

ـ عد إلى مهامك.

شعر الخزاف بسعادة طاغية فلم يصر على موقفه.

اشتعلت النيران داخله، وتوجه آردون إلى بوابة القرية. منذ أن هرب من سجن العائلة، لم يحقق أى تقدم. وبإذعانه لمطالب ساحة الحقيقة، ضل عن طريقه الحقيقى، وسار فى طريق مسدود، ولم يبحث عن مسيرته هو. وبصفته رجلا من الخارج لم يعد يأمل فى أى شىء إلا حكم المساعدين بدون أن يكشف أبدا أسرار الرسم والتلوين.

هذا المصير التافه، آردون يرفضه.

عندما رآه حارس البوابة الشمالية يقترب، جذب عصاه. ترى هل سيحاول الشاب العملاق، أن يدخل بالقوة؟

ولكن آردون جلس على بعد عشرة أمتار من البوابة، وبعناية فائقة، قام بتنظيف الأرض لكى يحصل على مسطح مستو. وبالسكين ذات السن المدبب، بدأ يرسم فى الرمال أسوار القرية والمنطقة المحيطة بها. عندما انتهى من الرسم، بدأ يجود فى الخطوط بقطعة من الخشب المدبب، وانشغل بعمله بشغف.

جلس الحارس مطمئنا مرة أخرى بدون أن تحيد عيناه عن الرسام الذى كان يعمل بهدوء غريب. وعندما لا تعجبه تفصيلة من الرسم، كان يزيلها ثم يعيد الرسم.

فى موعد تغيير الحراسة، فى الساعة الرابعة عصرا، كان آردون مستمرا فى الرسم. واستمر بعد ذلك أيضا حتى موعد تغيير الحرس التالى، فى الرابعة صباحا.

وعندما جاء المساعدون ليحملوا المؤن من على ظهر الحمير، ألقوا بنظرة إلى الرسم الرائع الذى توسع بشكل كبير، ولكن بغير أن يخلو من الدقة والرسوم الصغيرة. لم يجرؤ أحد على الاقتراب من الشاب، الذى بدا غير مهتم بالعالم من حوله.

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

اجتمعت المحكمة أمام بوابة المعبد الرئيسى لساحة الحقيقة. وتم وضع مظلة كبيرة لوقاية الكاتب العجوز راموسى من الشمس الحارقة.

ـ لقد انتهت التجربة، أعلن كنهير ـ متذمرا مثل عادته ـ ورأينا النتيجة. نيب المنجز اعتقد أن آردون لن يقبل أن يكون مساعدا مطيعا، ووديعا، وكان عنده حق؛ وتوقع أن يفرض آردون نفسه بطريقة أو بأخرى، وكان مرة أخرى عنده حق. فلقد قام هذا المحارب بطرد بضعة كسالى من مواقعهم، وأعطى زملاءه بعض الحماسة؛ ولكن نيب المنجز لم يكن على حق عندما تصور أن الطالب سينسى النداء وسيكتفى بممارسة سلطته على رجال الخارج. لقد مر عليه الآن يومان بليلتيهما وهو يرسم بلا انقطاع، مكتفيا برشف بعض المياه التى يقدمها له الحارس. كان من الممكن أن يكون رد فعله عنيفا، ولكن بدلا من ذلك، حرص على أن يظهر لنا مواهبه بالوسائل القليلة التى حصل عليها. ألا يجب أن يسمع المجلس هذه المرة نداء آردون؟

وافق راموسى، ولكن رئيس المجموعة لم ييأس.

ـ إننى أعترف أننى أخطأت فيما يخص تلك النقطة الأخيرة. ولكن برغم ذلك، فإنه من الواضح أن هناك قوة شيطانية تكمن داخل هذا الفتى، ولن يذعن أمام أى قوانين. ولذلك فأنا مازلت أعُدُّه خطرا على الجماعة وأفضل أن يمارس مواهبه بعيدا عنا.

ـ لقد اقترحت خطة، ونحن وافقنا عليها ـ قال كنهير معترضا ـ آردون لم يقع فى المصيدة التى وضعتها له، فيجب عليك أن تذعن. ولا تنس أنه ليس هناك أى انتساب نهائى، وأى تصرفات غير مقبولة ستقود صاحبها إلى العقاب، بل وإلى الطرد. عندما نقبل هذا الطالب بيننا، فنحن فعليا لا نجازف إلا بأقل القليل.

ـ قبل أن أعلن رأيى بشكل نهائى ـ قال نيب المنجز ـ أطالب بإقامة جلسة استماع أخرى لآردون أمام هذه المحكمة.

ـ هل لك أن تتبعنى؟ قال الحرفى للشاب الذى للمرة العاشرة أعاد رسم بوابة القرية محاولا فى كل مرة أن يصل إلى الدقة التى ينشدها.

وقف آردون.

لم يكن يشعر بأى تعب، ولكنه لم يعد يعرف فى أى عالم هو. فعالم المساعدين لم يعد يهمه، وعالم ساحة الحقيقة ظل مغلقا أمامه. لذا، انعزل داخل نفسه، وأخذ يحرق نفسه بشعلته هو. فلم يعد هناك ما يخافه أسوأ مما هو فيه.

بدون أن ينبس ببنت شفة، تبع الحرفى الذى قاده إلى المحكمة. جلس آردون القرفصاء مثل الكاتب، ولم ينظر إلى قضاته.

ـ ألم تستغل سلطاتك بإساءة معاملة المساعدين؟ سأله نيب المنجز.

ـ هل هناك مبرر للكسل؟

ـ لم يطلب منك أحد أن تتخذ مبادرات جذرية كما فعلت.

ـ إن كنت تقبل النفاق، فهذا ليس من شيمتى. فلم أتعود أن أعمل فى الخفاء.

ـ هل الخزاف هو الذى أمرك بالتصرف كما فعلت؟ سأله راموسى.

ـ إنه رجل قمىء يخاف على مميزاته ولا ينوى توبيخ مرءوسيه. أنا وحدى المسئول عن أفعالى.

ـ هل تريد أن تكون رئيس المساعدين مكان الخزاف؟

ـ إنه أسوأ مصير! أن أكون بالقرب من ساحة الحقيقة، قريبا للغاية، ولكن لا أستطيع أن أدخل..

ـ برغم ذلك يبدو أنك كنت مستمتعا بالعمل.

ـ هذا صحيح، لقد خدعت نفسى، مثل أى إنسان غبى يمارس سلطات. لقد غرقت فى حالة سكر قاتلة، ولكنى استيقظت منها فى النهاية.

ـ هل هذا يعنى أنك ترفض العمل مساعدا؟ سأل نيب المنجز.

ـ لقد أتيت هنا لأتعلم الرسم. كل أمر ما عدا ذلك لا يهمنى فى شىء.

ـ ألا تعتقد أن هذا الطريق يبدأ بالطاعة؟

ـ المهم هو أن يفتح الباب .

ـ هل تصرفاتك تبرر استعمالنا الرأفة معك؟

ابتسم آردون ابتسامة ضعيفة .

ـ إننى لا أتمنى أى شىء من هذا القبيل ، ولكن ليس من حقكم أن تبقونى فى الشك! إما أن ترفضونى ، وإما أن تقبلونى .

ـ ماذا سيكون رد فعلك فى حالة الرفض؟

فكر الشاب كثيرا قبل أن يرد .

ـ على أى حال ، ستسخرون منى .

ـ هل لديك أى شىء جديد تريد أن تقوله لنا ليقنعنا بضرورة قبولك بيننا؟

ـ لا يوجد إلا شىء واحد : وهو أننى سمعت النداء .

أعاد أحد الفنانين آردون أمام البوابة الرئيسية لساحة الحقيقة . وبقدمه ، أزال الشاب الرسم الضخم . هذه المرة ، مصيره سيتحدد . إذا رفضته الجماعة ، فلن يكون له أى فرصة أخرى لتحقيق أحلامه . إنه ليس خائفا ، ولكنه يلعن القدر الذى وضعه بين يدى حفنة من القضاة يتمتع أغلبيتهم بفكر ضيق . إنه لا يهمه كثيرا إن أبدوا تصلبا أو عدم إنسانية ، ولكن هل هم فعلا قادرون على استشفاف رغباته؟ منذ اللحظة التى استطاع آردون أن يخرج فيها من مصيدة المساعدين ، شعر آردون مرة أخرى بالنار التى اشتعلت داخله وقادته إلى عتبة القرية . إنه هنا ، وليس فى أى مكان آخر يمكن لوجوده أن يتألق . إن رفضوا مستقبله كله ، إن رفضوا أن يعبر الساحة التى يكمن وراءها السر الذى يريد أن يكشفه ، سيفقد كل أمل .

ما فائدة إرهاق نفسه بكل تلك التوقعات القاتمة . فقط الحقيقة تستحق أن يواجهها ، وفى تلك اللحظة الحقيقية هى الانتظار ، الذى قد يطول لساعات ، وربما لأيام ، ولكنه لا يجب أن يقلل من إصراره . كان آردون مقتنعا أن عليه ، ولو عن بعد ، أن يفرض رغبته على المحكمة . وإذا ظلت هذه الرغبة سليمة وكاملة برغم كل الاختبارات التى تعرض لها ، فإن القضاة سيدركون بالتأكيد قوتها .

بدأ كنهير المداولات التى مضى عليها ساعتان . طالب كنهير أن يكون القرار الذى سيتخذ نهائيا وأن يتحمل كل قاض المسئولية الكاملة فى تبرير القرار الذى اتخذه .

ـ هذا الشاب لا يثير فِىّ أى ثقة . أعلن نيب المنجز .

ـ ناره الشيطانية ، هل تخيفك؟ قال كاتب المقبرة ساخرا .

ـ من لا يخافه سيكون غير واع لوضعه . وبصفتى رئيس المجموعة ، فليس من حقى أن أخاطر بالتجانس الذى يميز الجماعة . إننى متمسك بموقفى : لندع آردون يبحث عن حظه فى مكان آخر .

ـ ليس هناك مكان آخر باستثناء ساحة الحقيقة ، يسمح له بممارسة مواهبه ، وأنت تعرف هذا جيدا! أنت يا من تُدعى نيب المنجز ، هل ترفض لشخص ما سمع النداء أن يثبت نفسه؟

بدا رئيس المجموعة مهتزا ، ولكنه لم يستسلم .

ـ أنت الذى تبدو فظا مع أعضاء الجماعة ، لماذا تبدى كل هذا الاهتمام تجاه آردون؟

رد كنهير بغضب :

ـ لم تفهم يا نيب! إن الأمر ليس له دخل بالاهتمام ولا بالرضا ، ولكن بالمصلحة العليا لساحة الحقيقة! أليس من حقى ، أنا الكاتب البسيط للمقبرة ، أن أحثك على أن تقبل شخصا يتمتع بكل تلك القوة؟ هل أصبحت غير قادر على تحويلها إلى قوة إبداعية وتضمها إلى أعمالك؟

صمت رئيس المجموعة ، ولم يعد يظهر على وجهه أى تعبير .

ـ أنت ذهبت إلى بعيد ، يا كنهير! الحرفيون يدركون سلطتك الإدارية ، ولكنك لا تملك القدرة على التدخل فى عملنا .

ـ ذلك لم يكن فى نيتى ، يا نيب . أبى وأستاذى ، الكاتب راموسى ، أفهمنى طبيعة وحدود مهامى . أنت بالتأكيد على حق ، لقد تخطيت حدودى . فالأمر يعتمد عليك وعلى الحرفيين الآخرين الذين يمثلون تلك المحكمة كى تتخذوا القرار النهائى . إن كان بالرفض ، فسوف أنضم إلى قراركم .

راموسى ، كاتب ماآت ، تكلم بهدوء :

ـ إن الحب الذى أشعر به تجاه تلك الجماعة يمنعنى من التأثير عليها عن طريق تذكيرهم بسنى وخبرتى؛ ولكن علىّ أن أذكركم أن مولاى الملك أوصانى بدراسة وضع آردون بالكثير من الفكر الصافى . وليعبر كل منكم عن رأيه بهدوء .

بدأ الفنانون عملية التصويت.

برغم بعض التحفظ، رأى كل منهم أنه يجب إعطاء آردون الفرصة ليصبح رساما، بشرط أن يحترم بدقة قوانين الجماعة وأن يخضع لمطالب التعليم.

بقى نيب المنجز ليقول رأيه، بعد أن استمع إلى كل مرءوسيه باهتمام بالغ.

ـ هذا المجلس قدم رأيه بحكمة، قال نيب، وكل قاض فتح قلبه بدون أن يتنازل عن مشاعره. إننى لا أحبذ شخصية آردون، ولا أعتقد أنه قادر على إدراك أهمية عملنا، ولكن علينا أن نلبى نداءه.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

شرب الرئيس سوبيك ثلاثة أقداح من الحليب الطازج، والتهم عشر قطع من الكعك الساخن. فبعد أن قضى ليلة كاملة فى تفتيش منطقة التلال التى تطل على وادى الملوك، شعر بالإنهاك، ولكنه لن يخلد إلى النوم قبل أن يتلقى تقارير رجاله.

مر عليه الجنود الواحد بعد الآخر، بدون أن يكون هناك شيء غامض يبلغون عنه. بالرغم من ذلك، كان سوبيك يشعر بالقلق. لم يخدعه حدسه إلا نادرا. ومنذ أيام، حذره حدسه من خطر داهم. لذا، ضاعف المسئول عن أمن ساحة الحقيقة الدوريات، مما أثار استياء رجاله الذين لم يقدروا أبدا هذا العمل الإضافى.

القلق جعله تقريبا ينسى الحدث المهم الذى تستعد القرية له: تدشين تلميذ جديد، وليس أى تلميذ! لماذا فتحت محكمة الانتساب أبواب الجماعة لهذا الآردون الذى من الواضح أنه سيشيع فيها الاضطرابات؟ فهذا الشاب القوى مع كل تلك الطاقة الطاغية التى تعتمل فيه، لا يمكن أن يكون إلا مجرما أو شرطيا. ولن يتحمل أن يظل مغلقا داخل القرية مدة طويلة، وسيرفض طاعة أوامر رؤسائه الذين سيضطرون إلى إبعاده إلى صفوف المساعدين أو طرده نهائيا من القرية. آردون سينتهى به الحال إلى الطريق السيئ، ولن يكون مصيره إلا الموت بقسوة خلال معركة أو فى السجن فى عقوبة طويلة المدى.

دخل شرطى إلى المكتب حيث كان سوبيك يستعد للاستلقاء على الحصيرة ليتلقى بعض الراحة التى يستحقها حقا.

ـ إنه ساعى البريد، يا ريس. يريد أن يراك شخصيا.

كان الموظف يحضر يوميا إلى مكتب بريد الحرس الرئيسى فى ساحة الحقيقة، حاملا البريد الموجه إلى الجماعة ويأخذ معه الرسائل التى يبعث بها الحرفيون وعائلاتهم الذين يتصلون بطريقة سهلة مع العالم الخارجى، ولا ينسى البريد الرسمى لكاتب المقبرة الموجه

إلى الوزير . وفى حالة الضرورة أو الطوارئ، تتولى خدمة خاصة توصيل الرسائل بأسرع ما يكون .

ـ ألا تستطيع أن تتولى أنت أمره؟

ـ إنه يريد أن يراك أنت ، يا ريس، ولا أحد آخر .

ـ لا مانع . . أدخله .

دخل ساعى البريد أوبوتى ، رجل طويل ورفيع يبلغ الثلاثين من عمره ، حاملا حقيبة تضم عددا من أوراق البردى البالية إلى حد ما ، بعدما استخدمت مرات ومرات فى كتابه الرسائل . ومن فوق كتفيه القويتين أخرج شطفة من الفخار المكسور ، لفها فى قطعة من القماش القطن ووضعها على مكتب الريس سوبيك .

ـ حسب المكتوب على قطعة القماش بالحبر الأحمر ، هذه الرسالة موجهة إليك ، يا سوبيك .

ـ هل قرأتها؟

ـ أنت تعرف جيدا أن ذلك ليس من حقى .

أوبوتى ساعى بريد نزيه ويتلقى أجرا كبيرا . فى حيازته عصا توت التى تجسد الاستقامة والدقة فى العمل ، واجبه أن يتأكد أن الرسائل تصل وجهتها ، فى حالة جيدة ، وأن يضمن أن المرسل إليه وحده هو الذى يتلقاها . كانت مهنته صعبة ، لأن القصر وخدمات الوزير تتطلب منه أن يؤدى مهمته بأشد سرعة ، كما أنه كانت هناك فترات عمل مكثفة . كان أوبوتى على دراية بأهمية عمله ، وكان يشعر بالفخر من أجل الثقة التى كان يوليها له كبار المسئولين .

ـ هل يجب أن أنتظر ردك؟

ـ لحظة .

نزع سوبيك الشريط القطنى وقرأ بضعة السطور التى كانت مكتوبة ، بالحبر الأحمر أيضا ، على قطعة من الجير المسطح ، والذى تمت صنفرته بعناية .

الشرطى النوبى ، قرأ الرسالة ، مذهولا مرة أخرى . لا ، ذلك مستحيل . . !!

ـ سوبيك ، ماذا تقول؟

ـ تستطيع أن تذهب، يا أوبوتى . . لن يكون هناك رد .

هرب النوم من عينى رئيس الأمن . ومرة أخرى صح حدسه : فهناك كارثة على وشك الوقوع، وتهدد بحجمها أن تطيح بقرية الفنانين بكل العنف الذى تحمله أقوى الأعاصير الرملية .

* * *

كان نيفر الصامت يعيش كل أنواع السعادة، إلى حد أنه أصبح يشعر بالدوار من كل تلك السعادة . بعدما سمع النداء، تم قبوله بين جماعة ساحة الحقيقة برفقة زوجته التى أحبها، كلير . وتم تأقلمهما على عادات القرية المغلقة بدون أى مصادمات كثيرة، خاصة بفضل الحنان الجارف الذى كانت زوجته الشابة تقابل به مشاعر العداء التى كانت تقابل عادة القادمين الجدد .

ثم، وخلال بضع ساعات سيحقق آردون حلمه! هذا الذى أنقذ حياته، هذا الذى بفضله استطاع أن يقابل مآآت وأن يدرك كل عظمتها، سيصبح أخا يشاركه المغامرة الرائعة التى بدأ هو نفسه يكتشف حجمها الضخم . ومع حماسته وعشقه للإبداع، سيؤكد آردون أنه على مستوى المهمة التى أوليت إليه .

كان نيفر الصامت مع حياته التى استقرت تحت علامة العمل العظيم، وحب يضىء له حياته، وصداقة مثيرة . . يشعر بأن الآلهة أعطته أكثر مما يمكن، وأنه لن يتوقف أبدا عن شكرها . فى مقابل كل تلك الهبات التى أغدقتها عليه الآلهة، يجب أن يؤدى واجبه بكل الحماسة الممكنة، ولا يتأخر ألبتة فى إنجاز عمله . لأنه سمع النداء ولأنه لبى النداء . فإن السماء والأرض تغدقان عليه بالسعادة؛ وعليه هو فقط أن يعرف كيف يستغلها، وذلك بأن يكون أهلا للطريق الذى يجب عليه أن يسير فيه .

بينما كان يستعد للخروج إلى ورشة المثَّال، قدمت له كلير الرسالة التى تلقتها لتوها . من نظرة عينيها الحزينتين فهم نيفر أنها تحمل أخبارا سيئة .

ـ والدى مريض جدا ـ قالت كلير ـ والطبيب يتوقع النهاية . وحسب الرسالة التى كتبها، والدى يتمنى أن يرانا نحن الاثنين، بأسرع ما يكون .

توجه نيفر فى الحال إلى رئيس الفرقة ليبلغه بأسباب تغيبه التى ستسجل فى السجل الذى يحتفظ به كاتب المقبرة .

لم يحمل الزوجان أى حقائب، وخرجا من القرية من الباب الثانوى، ليسيرا فى الطريق الذى ينتهى بالقرب من معبد ملايين السنين لرمسيس الأكبر.

ـ أشعر أنك تضايقت ـ قالت كلير لزوجها ـ هل تخاف ألا تعود فى الوقت المناسب للاشتراك فى عملية تدشين آردون، أليس كذلك؟

ـ هذا حقيقى.

ـ عندما ترى والدى، يمكنك أن ترحل مباشرة لتعود إلى القرية، وأنا سأبقى إلى جانبه أطول فترة ممكنة.

ـ وأنا أيضا يا كلير.

ـ لا، يجب أن تكون موجودا عندما يصبح صديقك خادم ساحة الحقيقة.

فى موقع حراسة راماسيوم، سألتهما الشرطة عن اسميهما وتركتهما يرحلان بدون أى رسميات أخرى. كان نيفر وكلير معروفين لدى السلطات كعضوين فى الجماعة، فكانا يستطيعان التحرك بحرية فى منطقة ساحة الحقيقة، ويخرجان منها كما يحلو لهما.

سار الزوجان بسرعة إلى المنطقة الزراعية، وعبرا حقل البرسيم، ومرا بسوق صغيرة، ثم اتجها نحو الشاطئ حيث كانت مركبة على وشك أن تعبر إلى الضفة الأخرى. انضما الزوجان إلى الركاب الآخرين، فلاحين يتوجهون إلى طيبة من أجل بيع الخضراوات هناك، وتبادلا معهم الأحاديث عن استقرار الأسعار، وازدهار البلاد وكرم النيل. لم يفطن أحد منهم إلى أن الزوجين قادمان من القرية التى تغلفها الأسرار أكثر من أى قرية أخرى فى مصر.

كانت كلير، رغم قلقها، تتحدث بلطف مع الجميع، واستطاعت حتى أن تطمئن ربة عائلة كانت قلقة على ابنتها المريضة.

لحظة وقوف المركبة عند الضفة الشرقية، قفز نيفر وزوجته على اليابسة واتجها إلى منزل المهندس. قبل اقترابهما من المنزل كان الكلب نوارو يجرى نحوهما. ويقفز من واحد إلى الآخر، ويلحس وجهيهما. وفى عينيه البيضاوين فرحة كبيرة.

ـ تعال بسرعة يا نوارو ـ صاحت كلير ـ إننا فى عجلة.

فجأة كشر الكلب عن أنيابه عند ظهور اثنين من رجال الشرطة واقتربا من الزوجين.

كان على رأسهما سوبيك .

ـ ماذا حدث؟ سألت الشابة .

ـ اطمئنى ، والدك بصحة جيدة . الخطاب الذى وصلك ، أنا الذى كتبته وليس الطبيب .

ـ ولكن . . لماذا؟

ـ لم يكن لدى وسيلة أخرى لكى أخرج زوجك من القرية . وهناك الكثير من الشهود الذين سيشهدون أنه خرج طواعية إلى الضفة الشرقية .

ـ ما الهدف من هذه المؤامرة ، يا سوبيك؟

ـ العدالة .

ـ فسر ما تقوله ، أرجوك .

ـ نيفر مقبوض عليه . إنه متهم بقتل أحد رجالى الذين ينتمون إلى فرقة التفتيش الليلى بوادى الملوك .

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

أصبح ميهى طاووس طيبة . فكان يدعى لكل سهرة فى المجتمعات الراقية ويحضر كل حفل استقبال رسمى ، ويشارك فى كل اجتماع عمل كبير . كان ميهى متحدثا لبقا ، ولم يكن يفتقد أبدا الرد المناسب المتميز ، ولا مديحا يستحق ولا اقتراحًا جديرا بالاهتمام .

وهنأ كل شخص وزير المالية موسى ، لاختياره نسيبا رائعا كهذا ، ينتظر أن يكون له مستقبل بارز ، بالإضافة إلى أن مشروعاته لإصلاح الجيش فى طيبة قوبلت بترحيب كبير فى أعلى المناصب .

أقام عمدة طيبة بمناسبة عيد ميلاده ، حفل استقبال مهيب فى حديقة فيللته حضره كبار القوم من مدينة الإله آمون . استقبل ضيوفه بوجه مشرق ، وكلمات راقية ، وقد اكتسب ثقة المهنى الذى استطاع أن يقضى على بؤرة خطيرة .

ـ ما كل هذه الأناقة ، يا عزيزى ميهى ! هذا القميص ذو الثنيات والكم الطويل ، وهذا الرداء ناصع البياض ، والصندل ذو القالب الممتاز . . إن لم تكن متزوجا ، فالعديد من الفتيات الصغيرات سيحاولن إغراءك بالتأكيد .

ـ سوف أقاوم الإغراء .

ـ بينى وبينك ، سيركيتا تعرف كيف تسعد الرجل ، أليس كذلك؟

ـ لن أستطيع أن أكذب على عمدة طيبة الذى يعرف الجميع تجاربه .

ـ أنت تعجبنى يا ميهى ! أتصور أن الجيش بالنسبة لك الجيش ما هو إلا مرحلة؟

ـ عندما أنتهى من الإصلاحات التى بدأتها فيه ، سوف أهتم بالاشتراك عن قرب فى إدارة مدينتنا الجميلة .

ـ طموح مشروع يستحق الثناء عليه ـ قال العمدة ـ ولكن لا تنس أن طيبة ليست إلا

المدينة الثالثة فى البلاد، بعد ممفيس والعاصمة الجديدة بى ـ رمسيس. هنا، نحن نفضل الهدوء والالتزام بالتقاليد.

ـ أليس ذلك من السياسات الحكيمة؟

ـ ممتاز، يا ميهى! مع آرائك تلك ستصل إلى بعيد.

ـ إننى أدين بالكثير إلى حماى العزيز، الذى يُعَدّ أحد أكبر مصادر قلقى.

دهش العمدة.

ـ هل موسى يعانى من مشكلات؟

ـ كلمة سر، إن صحته فى هبوط.

ـ إنه يبدو لى مع ذلك، فى صحة ممتازة!

ـ نشاطه لم يتأثر، هذا حقيقى، ولكن عقله هو الذى أصيب. . خلال تلك الأيام الأخيرة رجوته بالكثير من الحكمة أن يعود فى بعض قراراته الشاذة. إنه يوافق فى الوقت الحالى، ويعترف بأخطائه حائرا أى شيطان يعذبه، ولكن ترى ما الذى سيكون عليه الموقف غدا؟ إن غيابه عن الإدراك يزداد . . ولكن لم يكن يجب علىّ أن أتحدث معك عن ذلك.

ـ ولكن بالعكس، يا ميهى، بالعكس! بلغنى دائما عن التطورات وتدخل كل مرة لتمنع كارثة. إذا تحول الوضع إلى الأسوإ، نبهنى فى الحال. هذه السهرة ناجحة تماما، ولكن ها هو ذا ثانى خبر سيئ أسمعه اليوم.

ـ هل أجرؤ على أن أسألك ما هو الخبر الأول؟

ـ إنها مسألة مقلقة . . حرفى شاب، نيفر، الذى انضم لتوه إلى جماعة ساحة الحقيقة، اتهم فى جريمة قتل شرطى تحت قيادة الرئيس سوبيك. لقد تصور سوبيك نفسه أنها مجرد حادثة، ولكن ظهرت وقائع جديدة أقنعته أنها جريمة.

ـ هذا النيفر، هل تمت محاكمته أمام محكمة ساحة الحقيقة؟

ـ لا، لأنه ألقى القبض عليه على الضفة الشرقية حيث كان متوجها لزيارة حميه. لو كان بقى فى القرية، ما استطعنا أن نحقق معه. القضية ستثير حتما ضجة كبيرة.

ـ ذلك من شأنه النيل من سمعة الحرفيين ، أليس كذلك؟

ـ إن مصير القرية كلها أصبح مهددا! إن كانت الجماعة تحمى المجرمين ، فيجب حلها . مدير البر الغربى سيسعده الخبر . . فإن إدانة نيفر ستثبت لرمسيس أن ساحة الحقيقة خطرها أكبر من فائدتها . المكان سيدافع عن نفسه بكل قوة ، هذا مؤكد . . وسأكون ملزما بالتأكيد باستعمال الجيش ، أى أنت ، من أجل بدء عملية الإجلاء حسب القوانين .

ـ إننى رهن إشارتك .

ـ سوف أتذكر ذلك . . سنعود لهذا الموضوع لاحقا . استمتع بوقتك يا ميهى .

انتقل العمدة للحديث مع أحد ملاك الأراضى الأغنياء ، تاركا الضابط الكبير يستمتع بأول انتصار كبير له .

إن الرسالة التى أرسلها إلى سوبيك بلا توقيع ، بهدف الإيقاع بنيفر ، أتت بنتائج حاسمة . وهكذا ، فإن الجريمة التى ارتكبها بنفسه خدمته خدمة جليلة . فالشاب سيلقى بالتأكيد حكما بالإعدام ، والجماعة ستتشتت . وسيحتل ميهى القرية حيث سيأمر بتفتيشها رأسا على عقب وسيستولى على كنوزها . وبما أنه سيعمل فى إطار المهمة الرسمية ، فسيتم كل شىء حسب القانون الذى سيطبقه بحذافيره .

* * *

جلس آردون على أرض من الطين فى حجرة ذات جدران من الجير الأبيض . ولأنه لم يكن هناك نوافذ ، فلم يعرف إن كان الوقت ليلا أم نهارا . أحضر له البعض الماء والطعام ، بدون أن يتفوهوا ببنت شفة .

باب الحجرة لم يكن مغلقا ، وكان يستطيع أن يخرج إن أراد . ولكنه كان يشعر أن تلك الحرية المزيفة تخبئ مصيدة جديدة ، ولم يكن أمامه إلا أن ينتظر حكم المحكمة .

من الغريب أن يتحمل ، هو الذى عرف بالثورة وقلة الصبر ، هذا الاختبار ولا يتمرد عليه ، لأنه كان يشعر بمدى أهميته . لقد سمح له هذا الاختبار أن يعيش بعض الوقت خارج الزمن . أن يعرف سكون النفس والجسد اللذين كان يتصور أنهما لا يمكن اختراقهما . وكما أنه لم يعد يملك مصيره ، انفصل عن نفسه وتغذى على هذا الفراغ الهادئ حيث لا شىء يؤرقه .

وطالما أن القرار النهائى لم يعلن بعد، فسيظل هو غير ميت وغير حى. هنا، على الأرض السرية لساحة الحقيقة، لم يعد خاطئا، ولكنه قد لا يكون أبدا عضوا من الجماعة. ماضيه اختفى، ولكن مستقبله لم يتحدد بعد.

لقد اكتشف آردون الآن، وبغض النظر عن نتائج المعركة التى يخوضها بدون أعداء، عالما أدهشه. فلقد اختفت نقاط الاستدلال التى كان قد تعود عليها، وأزيلت الحدود، وتشكل أفق آخر. ولكنه ما زال ظلالا بلا تماسك، مثله، حيث القوة والرغبة لم تعودا مفيدتين.

كان الشاب متأكدا أن كل أعضاء الجماعة قضوا وقتا فى هذا المكان، وانتظروا مثله الحكم الذى لا يأتى. لم يحصل أى منهم على أى مميزات، مهما كانت مواهبه وقدراته، وفكرة أن يمروا بنفس الاختبار فى نفس الظروف، يقربهم بعضهم من بعض مثل الأخوة الذين يشاركون فى نفس المبادئ.

فتح الباب.

الحرفى لم يكن يحمل طعاما ولا شرابا.

ـ تعال معى يا آردون.

كان الشاب العملاق يفضل أن يظل أياما أخرى لا تنتهى، فى هذا المكان الساكن، حيث لن يصيبه فيه شىء. وقف ببطء، كما لو كان مترددا فى أن يتبع دليله.

ـ هل تتنازل عن طلبك بالانضمام إلى الجماعة؟ سأله الحرفى.

ـ قدنى إلى حيث يجب أن أذهب.

أخذا طريق المعبد حيث أقيمت محكمة الانتساب. كان وجه القضاة لا ينم عن دخيلتهم، باستثناء وجه الكاتب العجوز راموسى الذى كان يبدو مبتسما.

ولكن آردون، الذى كان قلبه يدق بعنف، فضل تجاهله، ووقف بلا حراك أمام كنهير، كاتب المقبرة.

لأول مرة فى حياته، منعه القلق الشديد من التنفس. فكر فى أن يجرى إلى آخر حدود الأرض حتى لا يسمع الكلمات التى سينطق بها.

ـ هذه المحكمة اتخذت قرارها ـ قال كنهير بجدية ـ وقرارها لا رجعة فيه. مولاى

الفرعون، السيد الأكبر لساحة الحقيقة، وافق عليه، وسيسجل فى مكتب الوزير. أنت، آردون، لقد سمعت حقا النداء، ولهذا ستنضم إلى تلك الجماعة.

هل كان الكاتب يوجه حقا الكلام إليه هو؟ فجأة، تفجرت نيران جديدة فى عروقه، وشعر برغبة طاغية فى أن يقبل كنهير المتذمر.

ـ ولكن للأسف ـ قال الأخير مرة أخرى ـ نحن ملزمون بتأجيل تدشينك. والسبب لا علاقة له بك، ولكن بالجماعة كلها، بسبب كارثة حلت بها.

ـ أى كارثة؟

ـ اتهام بالقتل موجه إلى نيفر الصامت.

ـ الصامت، قاتل؟! هذا محال!

ـ هذا هو رأينا نحن أيضا، ولكن علينا أن نكرس كل طاقتنا لتبرئته. وعندما يعود السلام بيننا، ستتلقى اسمك الجديد وستكتشف أولى أسرار ساحة الحقيقة.

* * *

الفصل السادس والثلاثون

بعد يوم عمل مضن، انقض ميهى على سيركيتا فى الفراش بكل العنف وكل الحماسة اللذين تعود عليهما معها. لم تعد سيركيتا تستطيع أن تستغنى عنه بعد الآن، وظلت فى نفس المكان الذى يمكن للمرأة أن تكون فيه: خادمة متفانية ومطيعة. كان ميهى منذ طفولته يكره الأنثى، ولن تستطيع سيركيتا أن تغير من ذلك. كانت مثل الأخريات، كل واحدة تبحث عن السيد الذى يمارس عليها سلطة لا تناقش. هى، على الأقل كانت محظوظة أن وجدتها.

منذ إلقاء القبض على نيفر الصامت، اتصل ميهى بعشرات الأشخاص لنشر استراتيجية تكون دقيقة إلى أقصى حد: الإشاعة الكاذبة. كان هناك من هم أشرار بالطبيعة، هؤلاء التقطوا الفكرة بنهم شديد ونشروها بسرعة الريح. كما كان هناك الأغبياء الذين رددوا الكلام بدون فهم، والثرثارون الذين كانوا سعداء بنشر معلومات يدعون أنهم الوحيدون الذين يعرفونها.

بفضل تلك الخطة، توصل ميهى إلى تشكيل فكر الآخرين كما يحلو له وتحولت الإشاعات إلى حقيقة. بالنسبة للرأى العام، نيفر الصامت بدا بالفعل وكأنه مجرم عتيق فى الإجرام، وساحة الحقيقة بدت كبؤرة للعصابات التى تتمتع بحماية لا يمكن قبولها.

فقط رمسيس الأكبر كان الوحيد الذى يستطيع أن يقلب الوضع. ولكن الفرعون لم يكن يضع نفسه فوق ماآت، ولم يكن من حقه أن يتدخل فى العملية القضائية. كان هذا هو الثمن للحفاظ على السعادة والتجانس فى مصر. طالما أنه وجهت إلى نيفر تهمة، فيجب أن يحاكم.

ولأن الروابط بين ساحة الحقيقة والوزير وثيقة للغاية، فإنه لن يستطيع أن يرأس جلسة الاستماع الابتدائية التى من شأنها تحديد الاتهام. ولكن رئيس محكمة العدل، كان شيخا

ملتزما بدقة الإجراءات. ولم يكن ميهى فى حاجة لأن يشترى ذمته، فأمام الوقائع الخطيرة، سيقرر ضرورة امتثال نيفر أمام محلفين.

فى هذه اللحظة يصبح تدخل ميهى مهما وحاسما. فأولا، يجب أن يفرض آبرى، مدير الضفة الغربية، كأحد المحلفين، وأن يجعله ينشر أخبارا عن الفساد بين أفراد الجماعة من أجل أن يلوث سمعتهم أكثر ويجعلهم يبدون فى شكل قمىء أمام الشعب. بعد ذلك، سيتأكد من تصويت أغلبية المحلفين لصالح توقيع عقوبة الإعدام على نيفر، بعد أن يظهر فى صورة قاتل عتيق، حيوان حقيقى تخلى عن كل مشاعر الإنسانية، تعلم على يد حرفيين أشد منه قسوة.

هكذا ستضيق الحلقات حول القرية.

قبض ميهى على أرداف سيركيتا.

ـ هذه الدجاجة ملكى أنا، أليس كذلك؟

التصقت المرأة به.

ـ نعم أنا ملكك.. أحبنى مرة أخرى.

ـ إنك لا تكتفين!

ـ أليس ذلك طبيعيا، بما أن لى زوجا لا يتعب؟

ـ والدك يثير ضدى المشكلات، يا سيركيتا.

ـ حقيقى.. ولماذا؟

ـ إنه يفقد صوابه.

ـ لم ألاحظ شيئا.

ـ لأنك لا تعملين معه. إن عمدة طيبة نفسه هو الذى نبهنى إلى ذلك. فى اجتماع مهم، تمتم والدك بكلمات غير مفهومة، وأخطأ فى تقرير الحسابات، ثم سكت لدقائق طويلة خائر القوى. أما من ناحيتى فلقد كنت حاضرا خلال الأيام الأخيرة فى ظروف مماثلة وأخطر منها. بالطبع لم أقل شيئا للعمدة، وحاولت أن أنفى مخاوفه. للأسف والدك يرفض أن يعترف بالحقيقة. عندما يخرج من أزمته لا يتذكر شيئا، ويرفض أن يعترف بأنه كان غائبا عن الإدراك.

ـ ماذا يجب علينا أن نفعل؟

ـ بلغى طبيبه، اطلبى منه أن يخصص له علاجا، إن كان يوجد، بدون أن تعترضى على أبيك. وإن لم يكن يعانى إلا من ذلك المرض المقلق . .

جلست سيركيتا عند حافة الفراش :

ـ ماذا يحدث؟

ـ إننى متردد فى إخبارك.

ـ إننى زوجتك، يا ميهى. ويجب أن أعرف كل شىء!

ـ إنها مسألة مرعبة . .

ـ تكلم، إننى أطالبك بهذا!

ـ ستشعرين بالإحباط والألم، يا عزيزتى.

قال ميهى فى صوت هامس، كما لو كان يخاف أن يسمعه أحد.

ـ إن والدك زار مكانا لكى يعيد النظر فى ضرائبه، وأخذنى معه لكى أعرف بعض تفاصيل العملية. وفجأة انقض على فتاة وحاول أن يعتدى عليها. وبرغم أننى أقوى منه إلا أننى وجدت صعوبة كبيرة فى السيطرة عليه. وكان من حظه أنى استطعت أن أمنع حدوث الأسوإ. بعد ذلك، عندما عاد إلى وعيه، لم يتذكر شيئا من ذلك الحادث الفظيع.

ـ هل رآه أحد؟

ـ أم الفتاة الصغيرة.

ـ هل سترفع دعوى ضده!

ـ اطمئنى، فلقد أقنعتها بعكس ذلك وشرحت لها الموقف وعرضت عليها بقرة حلوب و أربعة أكياس من الحبوب حتى تنسى تلك المأساة. ولكننى لست دائما بالقرب من والدك، وأخاف أن يكرر المحاولة.

كانت سيركيتا على وشك أن تصاب بصدمة عصبية.

ـ إننا سنفقد سمعتنا وأملاكنا . .

ـ إننى أحبك لنفسك ، يا عزيزتى . لا تشغلى نفسك إلا بصحة والدك .

بالنسبة لسيركيتا كان الطريق واضحا : يجب أن تحول ثروة العائلة إليها هى وزوجها ولا تسمح لمريض عقليا بإدارتها . عندما تزيد عنده حدة الجنون ، فإن والدها سيقوم بالتوقيع على أى وثيقة وسيبدد إرثها . ولكن المرأة الشابة لن تتحمل فكرة أن تعيش فى فقر . من حسن حظها أنها تزوجت من ميهى الذى استطاع من خلال رؤيته الثاقبة أن ينقذها من هذا المصير .

ـ هل تستطيع أن تراقب والدى بصفة دائمة؟

ـ لا ، أنا . .

ـ إذن مُرْ أحد جنودك أن يراقبه فى السر من أجل أمنه . إذا ارتكب عملا مشينا ، يتدخل فى الحال ، ولكن يجب ألا ينقل ما يحدث إلا إليك .

ـ إن ذلك يتجاوز حدود مهامى ، و . .

ـ افعل ذلك من أجلنا ، يا ميهى ! إن مستقبلنا فى خطر .

تظاهر الضابط بأنه يفكر فى المسألة ، بينما كان قد اقترح هذا الحل على العمدة الذى وافق فى الحال .

ـ إن عرف رؤسائى بهذا ، فإننى سأتعرض للعقاب الصارم بتهمة استغلال المناصب ، ولكنى سأجازف من أجلك أنت يا حبى .

سيركيتا قبلت وجه زوجها .

ـ لن تندم على ذلك أبدا . . وأنا سأقوم بعمل شىء ما .

ـ قبل كل شىء تكلمى مع طبيبك .

ـ بالطبع . . ولكنى سأتحدث أيضا مع محام . بما أننى ابنته الوحيدة ، يجب على أن أحمى ثروة العائلة . وعائلتى الحقيقية اليوم هى أنتَ وأطفالنا فى المستقبل .

دفعها ميهى لتستلقى على ظهرها ، ثم رقد فوقها بكل ثقله .

ـ كم طفلا تريدين؟

ـ أربعة ، خمسة . .

ـ هذا كثير، بالنسبة لامرأة فى شخصيتك، أليس كذلك؟

ـ أريد الكثير من الأولاد، إنهم سيشبهونك، وبذلك سأراك بجانبى فى كل الأوقات.

ـ إنك لا تستطيعين الاستغناء عن ميهى، أيتها الجميلة . .

لم تكن سيركيتا قادرة على إبداء أى نوع من النشوة، وكانت تسخر من مديح زوجها، لذى تَعُدّه حبيبا تافها. ولكنه كان زوجا مثاليا، طموحا ومتعطشا للسلطة. وبفضله، ستحافظ على ثروتها وستقوم بمضاعفتها أيضا، بشرط أن تتخلص من والد، يثقل عليها أصبح خطيرا.

من أجل التحكم فى ميهى، يكفى الإطراء عليه وجعله يتصور أنه السيد الحاكم. ولقد كانت سيركيتا، فى تصرفاتها كأنثى تسعى إلى الدفء. وكامرأة جميلة ـ لكن غبية ـ تخذت الشكل المثالى الذى تظهر به فى الحفلات، تلف ذراع زوجها السيد الرائع، وذلك طمئنه بشأن رأيه العالى فى نفسه. أما هى فستنشغل، فى الظلام، فى جمع أكبر كمية كنة من الممتلكات. أن تمتلك أكثر وأكثر، أليس ذلك هو الهدف من الوجود؟

* * *

الفصل السابع والثلاثون

كان «داكتير» لايزال غاضبًا.

ـ لقد جعلتنى أحصل، يا «ميهمى»، على المنصب الذى كنت أتمناه: ولكن غير مصرح لى بأن أقوم إلا بالمهام الثانوية. فمدير المعمل المركزى كاهن مسن وغبى، عاجز عن فهم الآفاق المستقبلية التى يقدمها لنا العلم. هو رافض لكل تجديد أو تجريب ويقصر عملى على ترتيب الملفات!

ـ لم لا تتناول المزيد من الإوز المشوى يا عزيزى؟ أليس طباخى فنانًا حقًا؟

ـ بلى! ولكن...

ـ ظننت أن عالمًا فى مثل علمك سيكون متحليًا بمزيد من الصبر.

ـ افهمنى... إن فى رأسى مئات من المشروعات، ولكنى مغلوب على أمرى!

ـ لن يستمر هذا الوضع طويلا يا «داكتير».

وهنا تحسس العالم لحيته بأطراف أصابعه.

ـ لا أستشعر تحسن الأوضاع فى صالحى.

ـ أنت مخطئ. إن علاقاتى الطيبة بعمدة طيبة تتوطد يومًا بعد يوم، ونفوذى فى ازدياد مستمر. أما مديرك الحالى فلن يظل فى منصبه طويلاً وأنت الذى سوف تخلفه.

التهم «داكتير» بنهم شديد لحم الفخذ المشوى.

ـ هذه القضية التى تدين ساحة الحقيقة، هل هى خطيرة فعلا؟

ـ تمامًا يا عزيزى! بفضل الجريمة البشعة التى ارتكبها «نيفر»، سوف نتمكن من التخلص بأسرع مما هو متوقع، من هذه الجماعة اللعينة. سيتفرق الحرفيون فى كل مكان، وسوف أكلف أنا بتفتيش القرية من شرقيها إلى غربيها.

لمعت عينا «داكتير» الصغيرتان من فرط الإثارة.

ـ ولكن . . . الحكم لم يصدر بعد .

ـ إن القضاء المصرى صارم للغاية ، وسوف يصدر أحكامه بعقوبات قاسية ، سواء ضد القاتل أو ضد من قدموا له الحماية . أليست هذه الجماعة عصابة أشقياء؟ وفرض الحظر عليها سوف يثبت أنه أفضل الحلول .

* * *

استقبل «عبيد» الحداد «آردون» الذى بدا منفعلا بشدة لدرجة أنه ظل يعمل بلا انقطاع ثمانى ساعات متواصلة . كان الرجل الشاب قد اقترح على كاتب المقبرة تكوين جماعة من اثنين أو ثلاثة من الحرفيين أقوياء البنية لتتوجه لإطلاق سراح «نيفر» والعودة به إلى القرية بعيداً عن سطوة رجال الشرطة إلا أن «كنهير» رفض الاقتراح بطريقة قاطعة . كان يتعين على «آردون» أن يعود للعمل لدى المساعدين ، فى انتظار بدء تدريبه .

وسأله الحداد وهو يتفحص بعين الرضا المقص النحاسى الذى صنعه رفيق اليوم الواحد :

ـ إذن ، هذا يعنى أنهم قبلوك؟

ـ آمل ألا يغيروا رأيهم .

ـ هذا ليس من طبعهم . . . إلا أن هذا العمل الإجرامى يمثل ضربة سيئة موجهة للجماعة .

ـ إن «الصامت» برىء!

ـ وعلى الرغم من ذلك ، ستتم إدانته بجريمة قتل . والرئيس «سوبيك» يمتلك قطعاً «دليلا» على ذلك .

ـ إننى لا أتساءل إلا عن شىء واحد : من ذا الذى يمقت صديقى إلى حد تلطيخه بالوحل هكذا وتدمير حياته .

ـ عليك نسيان تلك الحكاية القذرة يا «آردون» والعمل معى . إن عمل الحدادة يحلو لك وأنت موهوب . لا تنعزل فى هذه القرية فأيامها معدودة .

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ إذا أدين «نيفر» فستدان الجماعة أيضًا . وهذا معناه أن تجرى تحقيقات مكثفة عن كل فرد فيها للتأكد من وجود شركاء محتملين، ويتوقف العمل فى الورش ويتشتت الحرفيون فى مختلف معابد طيبة . إنها نهاية «ساحة الحقيقة» .

ـ وماذا عن تدريبى ؟

ـ لن يتم أبدًا .

قبض الشاب على يديه .

ـ كل ذلك بسبب شيطان شرير يختبئ فى الظلمات . . .

وهنا سأل الحداد :

ـ هل تعرف «نيفر» جيدًا ؟

ـ إنه صديقى .

ـ هذا غير كاف لتبرئته! ففى الحقيقة، أنت لا تعرف شيئًا تقريبًا عنه وعن ماضيه، وماذا أصبح فى أثناء سفره الطويل؟ لقد تعرض بالتأكيد إلى العنف فى أثناء وجوده فى النوبة وتعلم بالتأكيد كيف يقتل . ألم يعد إلى طيبة رغبة فى الثراء؟ وفى القرية، سمعهم يتحدثون عن الكنوز التى أودعت فى قبور الفراعنة حين تشييع جنازتهم؟ ألا تعتقد أنه فكر فى الاستيلاء عليها ؟

ـ إن هذا أمر فظيع .

ـ إنه ليس أول من طرأت له هذه الفكرة ولن يكون الأخير . وهو بالذات، كان أقدر على تنفيذها من أى شخص آخر! وهو ما يفسر سيره ليلا بين التلال المشرفة على وادى الملوك . إلا أنه كان يجهل أن «سوبيك» قد أصبح رئيس الأمن وأنه قد أرسى نظامًا جديدًا للمراقبة . وقد فاجأه أحد الحراس فقتله «الصامت» . وللفرار من قبضة الشرطة لم يجد ملجأ أفضل من القرية . لقد أساء تقدير ضراوة وبراعة «سوبيك» الذى استمر فى تحقيقه وبحثه حتى تمكن أخيرًا من الوصول إليه .

ـ روايتك سخيفة يا «عبيد» .

ـ سوف ترى أنها هى نفسها ستتردد فى قاعة المحكمة . فالوقائع متآلفة جيدًا بعضها مع البعض بشكل لا يمكن معه التشكيك فيها .

ـ هذا ليس سببًا لحسبانها حقيقة !

ـ هذه القضية تفوح منها رائحة عطنة . فلا «نيفر» ولا الجماعة سيخرجان سالمين منها . اتبع نصائحى وكن حذراً .

ـ الحرفيون متورطون حتى خماص أقدامهم فى تلك القضية ، برغم أنهم لا يد لهم فيها ، ولكن لا أنا ولا أنت ننتمى إلى هذه الجماعة . إذا حاولت القيام بعملية عنيفة .

هل أنت على استعداد لمساعدتى؟

ـ بالطبع لا ! فلن تكون لدينا أدنى فرصة ، كما أنى حريص على عملى . إن «نيفر» فى السجن ولن يستطيع أحد إطلاق سراحه .

ـ هل والدا «كلير» ما زالا على قيد الحياة؟

ـ والدها فقط

ـ هل تعرف مهنته ؟

ـ مقاول مبان . إنه رجل كفء ذو سمعة ممتازة .

لم يجد «آردون» أى صعوبة فى العثور على منزل والد «كلير» بفضل الإرشادات التى أعطاها له «عبيد» الحداد . كان الشاب مقتنعًا بشىء واحد : المذنب هو أبو كلير . فهو عندما لم يقو على إعاقة رحيل ابنته انتقم من «نيفر» بإعطاء أدلة كاذبة للرئيس «سوبيك» حتى يتهم هذا الشاب الفنان . فلاشك فى أن المقاول قرر ، لإحساسه بالهجر والخيانة ، أن يدمر هذين الزوجين اللذين ؛ بانعزالهما فى القرية ، أفلتا من قبضته .

وسواء رضى أم لم يرض فإن «آردون» سيقوده أمام المحكمة ليعترف بجرمه ويبرئ «نيفر» من التهمة . وبذلك تتم تسوية المسألة سريعًا ! .

كان النهار يوشك على الانتهاء ، والجميع عائدون من السوق . دلف الشاب إلى المنزل المطل على الطريق من بابه المفتوح .

اعترض طريقه الكلب الأسود .

ـ أهدأ . . . يا صديقى . . أنا لا أريد إيذاءك .

وقف الكلب مكانه فى صلابة ، وزمجر مكشراً عن أنيابه . إذا تقدم «آردون» فسوف يهاجمه .

كان بإمكان «آردون» القوى البنية أن يدق عنقه ، ولكن الحارس الشجاع بدا له ظريفًا .

وركع «آردون» على ركبتيه ـ لينظر إليه مباشرة فى عينيه .

ـ انظر إلىّ . . أنا لست عدوا لك .

لاح الشك فى عينى الكلب الأسود، ومال برأسه كأنه يريد تفحص هذا الدخيل من زاوية أخرى .

ـ اقترب ، لن أعقرك!

وظهرت «كلير» عند رأس السلم المؤدى إلى الدور الأعلى .

ـ «آردون» . . ماذا تريد ؟

نهض الشاب وسألها :

ـ هل أستطيع أن أربت ظهره؟

ـ إنه صديق يا «نوارو» يمكنك استقباله دون خوف .

وهنا، توقف الكلب عن زمجرته ، وقبل من الضيف تربيته على أعلى جبهته .

ـ كلير . . . إنى أعرف كل شىء . . إنه أبوك، أليس كذلك ؟

ـ أبى؟! إنى لا أفهم شيئا !

ـ لم يوافق على زواجك ، وأبلغ الشرطة عن «الصامت» . عليه الاعتراف بذلك .

علا وجه الشابة ابتسامة حزينة .

ـ أنت مخطىء يا «آردون» إن المصيبة التى ألمت بنا أمرضت أبى ، أمرضته جدًا . وعلى الرغم من أن رحيلى قد آلمه ، فإنه قد شعر بفخر شديد لرؤيتى متزوجة من خادم فى ساحة الحقيقة حيث يُكْشَف النقاب عن أسرار مهنية ، هو نفسه لم يصل إليها . وعندما أعلمته بإلقاء القبض على «نيفر» وهن قلبه .

ـ إنه . . .

ـ لايزال على قيد الحياة ولكنى أشعر بأن الموت قد اقترب منه كثيرا!

* * *

الفصل الثامن والثلاثون

كانت كلير على حق .

فقبل ساعة واحدة من انعقاد الجلسة التمهيدية ، أسلم أبوها الروح . وكانت ابنته قد طمأنته بأن «نيفر» لم يقترف أى ذنب ، وأن الأمر سينتهى بانتصار العدالة .

وقالت لآردون :

ـ علىَّ الاهتمام بالجنازة .

ـ لا ، اذهبى إلى المحكمة . زوجك سيحتاج إليك إلى جانبه . سوف أحل محلك فى الجنازة .

ـ لا يمكننى قبول ذلك ، إننى . . .

ـ أولينى ثقتك يا كلير . إن مكانك بالقرب من زوجك .

ـ إنك لاتعرف كيف تتصرف فى مثل هذه الأمور . . أنت . . .

ـ لا تقلقى . فالمرء لا يعرف الأصدقاء الحقيقيين إلا فى مثل هذه الشدائد . وددت لو أنقذت «الصامت» بتحطيم جدران سجنه . ولكنه أمر مستحيل . أنت فقط بوسعك أن تسانديه ، وأنا علىَّ أن أعاونك . وإذا كان أبوك عادلا ، فليس هناك ما يخشاه من محكمة «أوزيس» ، فى حين أن زوجك قد يتعرض للجحيم بسبب محكمة الأحياء .

ـ كانت كلمات الشاب الضخم قاسية ولكنها بثت الشجاعة من جديد فى نفس «كلير» . لم يكن لديها الوقت لتشفق على نفسها ، وكان الحل الوحيد الماثل أمامها هو الاستمرار فى القتال حتى وإن كانت أسلحتها مثار سخرية .

* * *

ـ أنا، محلف ؟!

رد عليه عمدة طيبة قائلا :

ـ يا عزيزى «ميهى» ، لقد وافق الوزير على ترشيحك . ولما كان شغل هذا المنصب مقصورا على من يحمل رتبة ، فقد فكرت فيك فى الحال .

ـ إنها مسئولية ضخمة .

ـ أعلم . . أعلم . . ولكنها ليست آخر المسئوليات التى تتولاها! فعند انتهاء هذه القضية المملة، أود لو، كلفتك ببعض المهام الجسام. فالمديرون العاملون معى قد أصبحوا طاعنين فى السن ويلزمنى دم جديد .

ـ كما قلت من قبل ، أنا تحت أمرك .

ـ ممتاز يا «ميهى» . . وماذا عن حميك ؟

ـ صحته فى تدهور .

ـ هذا أمر مقلق. هل أرسيت نظام مراقبة ؟

ـ نعم ، كما اتفقنا، رجال على درجة عالية من الكتمان، لن يتدخلوا إلا فى حالة الضرورة القصوى .

ـ ماذا يقول الطبيب ؟

ـ مرضه يعرفه ، ولكنه يعجز عن علاجه .

ـ أمر مؤسف . حقيقة مؤسف . . بالنسبة للجلسة التمهيدية . لقد أمر الوزير بأن تعقد على البر الغربى، أمام باب معبد آلاف الأعوام الخاص «بسيتى» والد «رمسيس» . فلقد كان يخشى توافد المتسكعين بأعداد كبيرة على البر الشرقى، هنا ،ووضع عددا كبيرا من قوات الشرطة لمنع اقتراب الفضوليبن وضمان هدوء ساحة العدالة .

لم يَرُق لـ«ميهى» هذا التعديل الذى تم إدخاله فى اللحظة الأخيرة، وإن كان من غير المتوقع أن يغير شيئًا من نتيجة المحاكمة . «فنيفر الصامت» سوف يكون كبش فداء ، وسقوطه سوف يطيح بالجماعة بأكملها .

كان وفد «ساحة الحقيقة» يتألف من الكاتب العجوز «راموسى»، وكاتب المقبرة «كنهير» ورئيس المجموعة «نيب المنجز» . وكان سكان القرية بأكملهم قد أعربوا عن

رغبتهم فى الخروج فى موكب يتوجه للمحكمة، ولكن «راموسى» قد أثناهم عن تنفيذ تلك الفكرة الطائشة التى قد تثير غضب القضاة ولا تخدم المتهم .

وسأل رئيس المجموعة «راموسى» قائلا :

ـ ألا تستطيع طلب مقابلة رمسيس ؟

ـ لا جدوى من ذلك . يتعين على فرعون أن يترك العدالة تأخذ مجراها . وبوصفى كاتب «ماآت» فإننى أضمن استقامة الجماعة .

ـ يمكننا أن نطلب لقاء الوزير !

ـ وهذا أيضا قد يكون بلا جدوى . فمصير «نيفر» الآن بين أيدى المحكمة .

ـ وإذا أخطأت ؟

ـ إذا لم يكن هناك دليل أو كانت الأدلة واهية ، فسوف أطالب أنا وكنهير بإطلاق سراحه .

لم يكن «نيب المنجز» يشارك راموسى تفاؤله . لم يكن يثق إلا بمحكمة «ساحة الحقيقة» حيث لا يوجد مجال للفساد . وقال «كنهير» مؤكداً :

ـ إننى واثق أن «نيفر» برىء ، وأنهم يسعون لإيقاع الضرر بنا .

وأجاب «راموسى» قائلا :

ـ إن رمسيس العظيم يحمينا . إن عمل «ساحة الحقيقة» حيوى لبقاء مصر .

ـ على كل حال، هناك شىء غير طبيعى يحدث . كما لو كان هناك وحش قابع فى الظلام قرر الخروج ليعيث فى الأرض فساداً .

ـ إذا كان ذلك حقيقيا، فسوف نستطيع مقاومته .

ـ زد على ذلك ، أنه علينا معرفة شخصيته ! فهو لو أصابنا بطعنة فى الظهر ، فسوف نلقى حتفنا حتى قبل مقاتلته .

أعلن رئيس قضاة طيبة عن فتح الجلسة التمهيدية الخاصة بـ «نيفر» خادم ساحة الحقيقة، المتهم بقتل أحد رجال الشرطة التابعين لفريق الليل المكلف بمراقبة وادى الملوك . وبدأ الرئيس حديثه قائلا :

ـ تحت رعاية «ماآت» وباسمها أطلب من هذا المجلس ألا ينظر إلا فى الوقائع ولا شىء إلا الوقائع .

حضر الجلسة المحلفون ، المقرر أن يصدروا حكمهم فى القضية ، ووفد من ساحة الحقيقة وكلير زوجة المتهم التى اتخذت مجلسها إلى يسار الرئيس .

كان «نيفر» محاطًا بجنديين كلاهما مسلح بهراوة وخنجر .

كان يبدو هادئا ، لا مباليًا تقريبًا . وعندما التقت عيناه بعينى زوجته ، شعر بأنه مستعد لمواجهة تلك المحنة . فوجودها ، كان يمنحه قوة سحرية تعزز من صموده .

وسأل رئيس المحكمة :

ـ هل أنت «نيفر» الصامت؟

ـ نعم ، إنه أنا فعلا .

ـ هل تعترف بأنك مرتكب الجريمة ؟

ـ أنا برىء من التهمة المنسوبة إلىّ .

ـ هل تجرؤ على القسم بذلك ؟

ـ باسم الفرعون ، أقسم بذلك .

ساد الصمت الطويل بعد هذا القسم الذى أدرك الجميع أهميته . بينما اجتاحت «ميهى» سعادة غامرة . فبعد هذا القسم من جانب «نيفر» سوف يوجه إليه تهمة الحنث باليمين ، وعندئذ لن يفلت من عقوبة الإعدام .

ـ ممثّل الاتهام يتفضل .

تقدم الرئيس «سوبيك» وأعاد ذكر الوقائع . وأعرب عن أسفه إزاء السرعة التى أتم بها التحقيق ، والنتائج المتعجلة التى توصل إليها . وأعطى للمحكمة الخطاب الصادر من مجهول ـ وإن كان معززًا بالمعلومات الدقيقة ـ والذى يدين «نيفر» . وأوضح «سوبيك» أنه بعد حصوله على تلك المعلومات قد فكر مليا ، وخلص إلى أن «نيفر» يُحتمل فى الواقع أن يكون هو الجانى ، ولاسيما أنه ليس لديه أى دليل على وجوده فى مكان آخر تلك الليلة عندما وقعت الجريمة . فهو ، وقد نشأ فى قرية الحرفيين ، قد سمع بالتأكيد الناس يتحدثون عن كنوز وادى الملوك ، وعقد النية على تنفيذ خطته الجنونية بالاستيلاء عليه . وعندما فاجأه الحارس وقت بحثه عن طريق يسلكه للدخول إلى هذه الأراضى المحظورة ، لم يجد أمامه اختيارا آخر سوى قتله . وبعد ذلك اتخذ «نيفر» من القرية مأوى له حيث لم يكن لقوات الشرطة حق دخولها .

لاحظ رئيس المحكمة قائلا :

ـ ولكن هذا الاتهام الخطير لا يقوم إلا على وثيقة مجهولة .

أجاب سوبيك قائلا :

ـ من الواضح أن كاتب هذه الرسالة حرفى نادم يتمنى لو ظهرت الحقيقة . وعلاوة على ذلك ، فإن الأحداث تترابط بشكل حتمى .

وهنا وجه رئيس المحكمة حديثه إلى «نيفر» :

ـ أين كنت موجودا ليلة وقوع الجريمة ؟

ـ لم أعد أتذكر .

ـ لماذا عدت إلى القرية ؟

ـ لأننى سمعت النداء .

طلب مدير البر الغربى الكلمة وقال :

ـ إن الدفاع عن نفير أمر مثير للسخرية ! هذا الشاب إنسان مغامر ، يتمتع ببرودة الأعصاب ، ورهيب ، وقادرٌ على القيام بما هو أسوأ من ذلك . فليمثل أمام هيئة محلفين تدينه بالقتل والحنث باليمين .

أعرب رئيس المحكمة عن رأيه قائلا :

ـ ولكن ينقصنا دليل قاطع .

قال سوبيك معترضًا :

ـ ربما لا . يتذكر واحد من رجالى كان يقوم بدوريته ذاك المساء فى موقع الجريمة ، أنه لمح أحدًا يتجول فى المكان .

فتم استدعاء رجل الشرطة للمثول أمام هيئة المحكمة . وفى البداية وجد صعوبة كبيرة فى التحدث من شدة الانفعال الذى أصابه من جراء وجوده ـ أمام رئيس المحكمة والمحلفين ، ولكن فى النهاية قرر أنه تعرف على المتهم .

لم يكن أمام الرئيس أى اختيار .

ـ إذن ، فإننى أقرر . . .

ـ لحظة !

ـ من هذا الذى يجرؤ مقاطعتى ؟!

وهنا تقدمت أمام رئيس المحكمة سيدة مسنة ونحيفة ذات شعر أبيض رائع .

ـ «نيفر» الصامت برىء!!

ـ من أنت ؟!

ـ المرأة الحكيمة فى « ساحة الحقيقة » .

* * *

الفصل التاسع والثلاثون

سادت همهمة بين الجلوس فى قاعة المحكمة، وتملكهم الذهول من ظهور هذه المرأة الغريبة التى كانت كالملكة فى مظهرها. وكان الكثيرون يعتقدون أن المرأة الحكيمة فى «ساحة الحقيقة» ما هى إلا شخصية أسطورية تملك قدرات خارقة. ولأنها لم تكن تبرح القرية قط، فقد كان وجودها نفسه مشكوكا فيه.

وجد رئيس المحكمة صعوبة فى العثور على كلماته:

ـ كيف.. كيف تتحدثين بمثل هذه الدرجة من الثقة؟

ـ منذ أن سكن «نيفر» الصامت القرية وأنا أراقبه. إنه ليس مجرما.

قال رئيس المحكمة فى لهجة حذرة:

ـ رأيك لا يستهان به، ولكنى أريد دليلا واحدًا...

ـ لو ثبت أن «نيفر» لم يكن ممكنا أن يكون موجودا فى البر الغربى ليلة الجريمة، ألا يعنى ذلك تبرئة ساحته تمامًا؟

ـ بلى، بالطبع، ولكنه هو نفسه عاجز عن تذكر أين كان فى هذا الوقت بالذات.

اقتربت المرأة الحكيمة من الرجل الشاب الذى أسرته بنظرتها العميقة الجميلة.

ـ أعطنى يدك اليسرى!

أخذتها وضغطت عليها بين كفيها. فسرت فى راحة يد «نيفر» حرارة ناعمة قوية، تسللت إلى ذراعه حتى ارتفعت إلى رأسه واجتاحته.

ـ اغمضْ عينيك وتذكر.

حلقت روح العصفور المصاحبة لـ«نيفر» فى رحلة رائعة، فوق النيل والقوارب التى

تدفعها الرياح ، ثم انجذبت بلا مقاومة إلى بستان نخيل تقبع فيه قرية صغيرة على مقربة من أسوان (البر السعيد)، حيث الأطفال يلهون مع قرد داكن صغير.

همهم قائلا :

ـ نعم ، لقد نمت فى تلك الليلة عند أطراف هذه القرية ، وكنت متدثراً فى حصيرتى ، مرهقًا وحزينًا وأسير ترحالى. كنت فاقدا للرغبة فى العيش . . ولكننى فعلا كنت هناك فى «البر السعيد»، وكان القمر بدراً وساطع الضياء.

فتح «نيفر» عينيه ، فابتعدت المرأة الحكيمة ، ووجهت حديثها من جديد إلى رئيس المحكمة .

ـ اطلب الآن من الرئيس «سوبيك» التوجه فوراً إلى هذا المكان واستجواب السكان.

* * *

كان «نيفر» ينتظر بصبر تام فى إحدى زنزانات القلعة الصغيرة المسجون بها . وكان رجال الشرطة يتوددون إليه بسبب تدخل المرأة الحكيمة لصالحه وخشيتهم من أن يصابوا برُقية سحر شريرة : يقدمون له الغذاء الجيد، ويسمحون له فى الصباح وفى المساء بالتنزه قليلا خارج الزنزانة، مما أتاح له الفرصة كى يرى «كلير» كل يوم.

ولبعث الطمأنينة فى نفسه ، كانت كلير تؤكد له أن كل شىء على ما يرام فى القرية ، أما هو فكان مقتنعا بأن البعض ممن لايزالوا يشكّون فى براءته ينغصون عليها حياتها .

وأخيراً ، وفى نهاية أسبوعين من الترحال والتحقيق ، فتح «سوبيك» باب الزنزانة . ثم قال :

ـ نيفر . لقد أصبحت الآن حرًّا وبريئًا من كل الظنون . لقد رآك العديد من الشهود ـ رؤى اليقين ـ فى البر السعيد ليلة وقوع الجريمة . لست أنت الذى قتل رجل الشرطة . وعلى سبيل التعويض عن الضرر الذى لحق بك ، منحتك المحكمة صندوقًا كبيراً من الخشب ووزرتين جديدتين ولفافة جيدة من ورق البردى . أما أنا ، فأقدم لك اعتذارى.

ـ لقد أديت واجبك.

ـ ولكنك لن تغفر لى أبداً.

ـ لماذا اعتقدت أننى المذنب يا سوبيك ؟

ـ إننى تصرفت مرتين بلا ترو : المرة الأولى عندما افترضت أن رجل الشرطة قد تعرض لحادث والثانية عندما اعتقدت أن كاتب الرسالة المجهولة كشف لى عن اسم الجانى، مما يسمح لى بتصحيح خطئى . أنا الآن على استعداد لأن أطلب استبعادى من منصبى، إذا طالبت أنت بذلك .

ـ لن أطالب بذلك.

وهنا تجمد النوبى فى مكانه.

ـ لم أعتد إشفاق الآخرين على حالى . .

ـ إن ذلك ليس من الإشفاق فى شيء . لقد ارتكبت خطأين جسيمين فى الواقع . ومما لا شك فيه أنك قد تعلمت منهما أكثر مما تعلمت من كل نجاحاتك السابقة . فالآن ، سوف تكون أكثر حذراً وسوف تسهر على أمن القرية بمزيد من اليقظة .

شعر «سوبيك» أن «نيفر » الصامت إنسان مخلوق من طينة مختلفة عن تلك التى خلق منها سائر الحرفيين العاملين فى الجماعة . فلم يرفع صوته ولو للحظة واحدة، ولا يبدو أن الضغينة قد عرفت يومًا طريقها إلى قلبه.

وهنا ذكَّرَ رجل الشرطة الآخرين بلب القضية :

ـ لا يزال هناك مشكلة جسيمة؛ من كتب هذه الرسالة ؟!

ـ هل لديك أثر تقتفيه ؟

ـ لا ، ليس هناك أثر واحد. ولكنى كنت موضع سخرية ، وهذا يثير حنَقى. لقد وقعت جريمة ، هذا شيء مؤكد. ومن المرجح أن الجانى هو كاتب هذه الرسالة . ولكن ما دافعه إلى تدميرك؟

ـ ليس لدى أدنى فكرة.

وإذا بسوبيك يقطع على نفسه عهدا :

ـ سوف أستغرق ما أستغرق من الوقت الذى يكفينى ، ولكنى لن أترك أبدا هذا اللغز بلا حل .

ـ هل بإمكانى العودة إلى القرية وإلى زوجتى ؟

ـ أنت إنسان حر ، كما قلت لك ، ولكن أنصت إليّ للحظة أخرى : ألا تعتقد أنك فى خطر ؟

ـ ألن تؤمّن حياتى ؟

ـ ليس مسموحا لى أن أدخل القرية .

ـ ما الذى علىّ أن أخشاه فيها ؟

ـ افرض أن كاتب الرسالة المجهولة عضو فى الجماعة . . . . إذن ، فهو لن يتوانى عن إيذائك ، بل والقضاء عليك . وسوف تكون فى القرية أكثر عرضة للخطر منها فى أى مكان آخر .

ـ استمر فى تحقيقاتك يا سوبيك وحدد شخصية هذا الشيطان المختبئ فى الظلمات .

شعر النوبى أن الحرفى لا يأخذ تحذيراته مأخذ الجد ، ولكنه لم يستبقه أكثر من ذلك لفرط السعادة التى غمرته عندما علم أنه لن يتقدم ضده بشكوى كان يمكنها أن تضع حدًا لحياته العملية .

وما كاد «نيفر» يخرج من القلعة الصغيرة حتى قفز عليه الكلب الأسود قفزة هائلة أوشكت أن تطيح به أرضًا . وبعد أن وضع نوارو قوائمه على كتفيه ولعق وجنته ، بدأ سباقًا محمومًا حول سيده ، وأخيراً توقف وهو يلهث حتى يربت ظهره .

تقدمت كلير نحو زوجها الذى احتضنها .

ـ لقد أراد نوارو أن يكون أول المحتفين بإطلاق سراحك . . . . . ما أسعدنى بلقائى بك !

ـ طوال هذه المحنة ، لم أفكر إلا فيك . كنت أرى وجهك الذى كان يبدد القلق ، وتتلاشى معه جدران الزنزانة . لو لم تكونى حاضرة فى الجلسة لربما كنت انهرت .

ـ إن المرأة الحكيمة هى التى أنقذتك .

ـ لا ، إنه أنت . ما أن رأيتك حتى أدركت أن الأكاذيب لن تصيبنى بضرر .

ـ لقد توفى والدى . و«آردون» هو الذى تحمل مسئولية الجنازة ليمكننى من حضور الجلسة . إن لهذا الشاب قلبا من ذهب .

ـ هل رأيت المرأة الحكيمة مرة أخرى ؟

ـ لا ، وقد حذرونى من أن أزعجها. كان الوقت قد آن لعودتك .

ـ فرضت عليك العزلة ، أليس كذلك ؟

ـ لم أعد أتذكر شيئًا . حياتنا فى القرية تبدأ اليوم .

كانت «كلير» على صواب . ففى هذه اللحظة ، أدرك «نيفر» أن السعادة فى رقة أجنحة الفراشات، وأيضًا فى قوة صخر الجرانيت . وعلى الإنسان الاستمتاع بكل لحظة وكأنها معجزة .

توجه الزوجان برفقة «نوارو» إلى الباب الرئيسى .

ـ إنى آسف لعدم استطاعتى حضور جنازة أبيك .

ـ كان يكن لك إعجابا كبيراً ، وأرجو أن أكون قد هدأت قليلا من روعه قبل الرحيل الأكبر . لقد طمأنته بأن العدالة ستأخذ مجراها ، وهذا ما حدث .

ـ ألا تملكين قدرات غريبة؟

ـ لا ، إنه حبك الذى مكننى من الاحتفاظ بشجاعتى .

* * *

قام الحارس بتحيتهما بحرارة .

ـ أنا سعيد برؤيتك مرة أخرى يا «نيفر» . أنا وزميلى كنا نعرف دائما أنك برىء . يبدو أنهم يعدون العدة للاحتفال فى القرية . استمتعا جيداً .

انفتح الباب ودخل «نيفر» و«كلير» إلى موطنهما الجديد .

كان الحرفيون قد تجمعوا ـ وعلى رأسهم رئيسا المجموعة ـ عند مدخل الشارع الرئيسى لاستقبال الزوجين ومعانقتهما .

كان اللقاء بهيجًا ، وصبت كئوس البيرة العذبة ،وهم يمجدون المرأة الحكيمة .

قال «نيب » المنجز :

ـ طالما أن «نيفر» عاد ، فلقد حانت ساعة البدء فى تدريب آردون .

* * *

الفصل الأربعون

قال «عبيد» الحداد «لآردون»:

ـ استيقظ .

ـ ما الذى يحدث ؟

ـ صديقك «نيفر» أطلقوا سراحه، وهناك اثنان من الحرفيين جاءا لاصطحابك .

نهض «آردون» فى قفزة واحدة، وهو الذى كان قد خلد إلى النوم منذ ساعتين فقط، بعد يوم من العمل الشاق فى مصهر الحديد .

وسأل عبيد :

ـ هل فكرت جيداً فى الموضوع ؟

ـ جاء وقت تدريبى !

لم يلح الحداد . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه كان واثقًا من أن الشاب الضخم يسعى إلى حتفه .

سأل آردون:

ـ إلى أين نحن ذاهبون ؟

كان العداء باديًا على وجهى هذين الحرفيين .

فأجاب أحدهما :

ـ إن الصمت هو أعظم الفضائل . اتبعنا إذا أردت .

كان الظلام قد حل ،ولم يكن هناك وميض ضوء واحد فى القرية أو فى الأماكن المحيطة بها . وبخطى ثابتة ، كما لو كانا على دراية بكل تضاريس الأرض ، قاد الحرفيان «آردون» حتى أعتاب مصلى مقبرة محفورة فى التلال الممتدة بطول الجانب الغربى للقرية .

تراجع المريد . فلم يكن يبحث عن الموت ، بل عن حياة جديدة! وعلى الرغم من أنه رغب فى طرح عشرة أسئلة ، فإنه تمكن من ضبط لسانه .

تنحى الحرفيان واختفيا فى جنح الظلام ، تاركين «آردون» وحده أمام الباب الخشبى المذهب المحاط بدعامتين من الحجر الكلسى والذى يعلوه هرم صغير .

كم مدة من الوقت سيطول انتظاره ؟ إذا ما كانت الجماعة تعتقد أنها تفقده صبره ، فقد أخطأت . الآن وقد أصبح آردون المتأجج أمام الباب الأول ، فإنه أبدًا لن يتراجع .

كان على استعداد لمنازلة أى خصم ، ولكن هذا الخصم الذى شق ظلمات الليل قد جعل بدنه يقشعر خوفًا : جسده جسد إنسان ورأسه رأس ابن آوى ، له خطم عدوانى طويل وأذنان مدببتان ! وفى يده اليسرى ، كان المسخ يحمل صولجانًا؛ طرفه الأعلى على شكل وجه كلب مستعد للعقر .

توقف الرجل ذو رأس ابن آوى على بعد متر أو أقل من آردون ، ومد له يده اليمنى . إن طريقه لن يعوقه أى شىء مهما كان ، حتى ولو كان مسخا بشعا كهذا . وهكذا لم يتردد آردون ولو قليلا وهو يتذكر الأساطير التى تؤكد أن ابن آوى الليل لايظهر إلا للأموات !

قال الكائن الغريب :

ـ إذا تبعت «أنيبوس» فسوف يقودك إلى السر ، أما إذا كان الخوف يعتريك فلا تذهب أبعد من ذلك .

ـ أيّا كنت ، أدِّ مهمتك .

ـ لن يفتح هذا الباب إلا إذا تليت كلمات القوة .

وهنا ترك الرجل ذو رأس ابن آوى يد «آردون» الذى تساءل عن السلوك الواجب اتباعه . فهو لايعرف هذه الكلمات! فهل يتعين عليه تحطيم الباب بلكماته حتى يعرف ماذا يخبىء وراءه ؟

وقبل أن يتخذ قرارًا حاسما ، عاد «أنيبوس» للظهور مرة أخرى وهو يحمل تمثالا لساق بقرة .

وأمر آردون قائلا :

ـ قدمه للباب ، فهو وحده يملك كلمات القوة ، كلمات القربان .

وهنا رفع الشاب الضخم التمثال .

انفتح الباب بهدوء وظهر رجل برأس صقر ، يرتدى درعًا من الذهب ويحمل تمثالا صغيراً من الخشب الأحمر ، يمثل شخصًا منزوع الرأس ، أقدامه مرفوعة إلى السماء .

ـ حذار يا آردون من السير ورأسك مقلوب وإلا فسوف تفقده . الاستقامة وحدها سوف تجنبك هذا المصير التعس . والآن اعبر العتبة .

ولج «آردون» مصلى صغيرا يحمل رسوما جدرانية لأعضاء الجماعة وهم يقدمون القرابين للآلهة . وفى وسط القاعة ، بداية السلم الغائر فى بطن التل .

وهنا أمره الرجل ذو رأس الصقر :

ـ اذهب لمركز الأرض وافتح الإناء الكبير الموجود به ، واشرب من مائه الصافى حتى لا تفنيك النار . فهذا الماء هو الذى سيكشف لك طاقة الخلق .

هبط «آردون» السلم ، درجة درجة حتى تعتاد عيناه الظلام .

انتهى به المطاف إلى قبو به إبريق ضخم رفعه من عروتيه . كانت مياهه باردة ومعطرة باليانسون .

شعر الرجل الشاب بقوة جديدة تسرى فى جسده كما فى أوانى الفيضان المقدس عندما كان يصرح له بشرب ماء الفيضان .

هبط الرجل ذو رأس ابن آوى ورفيقه ذو رأس الصقر بدوريهما إلى القبو مضيئين بالمشاعل كتلة من الفضة وحوضا من المعدن نفسه ملآن بالمياه التى استخدماها لغسل قدمى «آردون» قبل أن يتخذا موقعيهما عن يمين ويسار المريد ، يصبان المياه المطهرة فوق رأسه وكتفيه ويديه .

وقالا له :

ـ الآن ، تتفتح لك حياة جديدة ، وسوف تجوب محيطًا من الطاقات .

فى نهاية القبو ، كان هناك ممر يؤدى إلى قبو صغير به تابوت حجرى بشكل السمكة ، نفس السمكة التى كانت قد ابتلعت عضو أوزيريس التناسلى بعد بعثرة أجزاء جسد الإله المقتول فى النيل . رفع القائمان على الطقوس الغطاء وأعطيا الإشارة لآردون ليستلقى داخل السمكة الضخمة المرصعة بحجر اللازورد .

هنا عاش أولى مراحل تحوله وأدرك أنه ليس إنسانًا فقط، بل إنه ينتمى إلى الخليقة بأسرها، ومرتبط هكذا بكل أشكال الوجود. وبفضل سمكة الضوء، اعتقد لحظة أن بوسعه العودة إلى منبع الحياة.

انتزعه ابن آوى والصقر من تأملاته، وعادا به إلى السطح. أخرجاه من هذا المصلى ليدخلاه فى آخر أكثر اتساعًا تضيئه أربعة مشاعل وضعت على شكل مستطيل. وعند أقدامهم، كانت هناك أربعة أحواض من الفخار المختلط بالبخور يملؤها لبن عجلة بيضاء.

كان هناك العديد من الحرفيين. وتكلم «نيب» المنجز رئيس المجموعة.

ـ إنها عين حورس التى تمكننا من رؤية تلك الأسرار الخفية، ومن إقامة نوع من التقارب مع السعداء الذين يسكنون السماء. إذا ما كنت تريد حقا أن تصبح أخانا، فعليك أن تصلى بعيدًا عن الأعين والآذان، وأن تحترم قانوننا الذى هو خبزنا وجعتنا. إنه قانون «الرأس والساق» ـ باللغة العصرية «تب رد» ـ هو وحى أفكارنا وأعمالنا، وهو دفة سفينتنا الجماعية.

هذا القانون هو روح «ماآت» ابنة النور الإلهى وأساس كل تجانس، رمز كلام الخالق. ما زلت مصرا على طلب قبولك فى صفوفنا، وهل ترغب فى معرفة مدى واجباتك؟ فأجاب آردون:

ـ بلى، ما زلت مصرا وراغبا.

وقال «نيب» المنجز:

ـ كن يقظًا لإنجاز المهام التى سنعهد بها إليك. لا تكن أبدًا مهملا. ابحث عن كل ما هو صحيح، كن مترابط الفكر وانقل إلى الآخرين ما ستتعلمه بتجسيده فى المادة دون الإخلال بالفكر. وليظل السر الخفى للأثر الفنى محتجبًا ومنكشفًا فى آن واحد. الزم الصمت واحفظ السر. أقم فى المعبد إذا ما دعيت إليه. قدم القرابين للآلهة وللفرعون وللأسلاف، شارك فى الطواف وفى حفلات إخوتك وجنازاتهم. ادفع حصتك فى صناديق التضامن. اخضع لقرارات محكمتنا ولا تسمح بأى عمل عدوانى. لا تدخل المعبد إذا كنت قد أديت عملا يتنافى مع تعاليم «ماآت»، أو إذا كنت على حال من عدم الطهارة أو الكذب. لاتزد فى الميزان ولا المقياس. لا تضر عينيك بالنور، ولا تكن نهمًا. هل أنت على استعداد للقسم على الحجر بأنك سوف تلتزم بقانوننا؟

ـ أنا مستعد .

وتقدم نيفر الصامت للكشف عن حجر منحوت على شكل مكعب بدا وكأن ضوءا خافتا ينبعث منه .

ـ تقسم بحياتك وحياة الفرعون أن تتعهد باحترام الواجبات التى ذكرتها لتروى؟

قال «آردون» :

ـ أتعهد بذلك .

وهنا أعلن رئيس المجموعة :

اليوم أصبحت خادمًا بساحة الحقيقة ، من مواليد المقبرة ، ويطلق عليك اسم جديد هو «بانيب» ليستمر كنجوم الليل ولا ينساه أحد إلى الأبد ، ويحفظ قوتك صباحًا ومساءً . ولتجعلك الآلهة ثابتًا كثبوت الحقيقة نفسها .

ثم قام نيفر ـ حاملًا فى يده اليسرى عصا برأس فحل رمزًا للإله آمون ـ بكتابة الاسم الجديد لآردون على كتفه اليمنى مستعينًا بريشة رسم دقيقة غُمست فى مداد أحمر .

واستأنف رئيس المجموعة حديثه قائلا :

ـ أنت الذى ستكون حرفيا ، اعرف دائمًا كيف تلبى النداء ، اعمل من أجل الحصول على وصفات «توت» ، وحل صعابها حتى تصبح خبيرًا فى فك رموزها . فهكذا، ستدخل مدينة النور .

ضُمخ «بانيب المتأجج» بالزيوت العطرية والدهانات ، وألْبس ثوبًا أبيض وزوجين من النعال البيضاء . ورسم نيفر على لسانه رمزًا لصورة «ماآت» حتى لا تصدر عنه بعد اليوم أقوال مذمومة .

حجب رئيس المجموعة الحجر من جديد ، وأطفأ المشاعل الأربعة بإغراقها فى أحواض اللبن . وبعد ذلك ، خرج الحرفيون من المصلى لتأمل النجوم .

* * *

الفصل الواحد والأربعون

عندما أشرقت الشمس، كان «بانيب» المتأجج ونيفر الصامت لايزالان جالسين أمام باب المصلى، حيث كان الأول قد حصل لتوه على تدريبه. كان قد انتهيا من تأمل النجوم حيث تنعم بالحياة الأبدية أرواح الفراعنة والحكماء الذين أسهموا فى بناء الحضارة المصرية منذ نشأتها.

قال بانيب لصديقه :

ـ هل مررت بهذه الطقوس نفسها ؟

ـ هى نفسها.

ـ وزوجتك ؟

ـ هى أيضًا ، مثل غيرها من نساء القرية . جميعهن منتميات لجماعة كاهنات حتحور، إلا أن غالبيتهن لا يتجاوزن المرتبة الأولى.

ـ هناك كثيرات ؟

ـ من المحتمل...

ـ وعند الحرفيين أيضًا ؟

ـ بالطبع، ولكن الأساس هو أن نشكل فريقًا. أيّا كانت وظيفتنا ، فنحن نبحر جميعًا على مركب واحد، وكل فرد بيننا يؤدى عملا محددًا.

ـ وماذا سيكون دورى؟

ـ أولا ، أن تجعل من نفسك شخصًا نافعًا .

ـ للآخرين ؟

ـ نافعًا للعمل، وعلاوة على ذلك لأفراد المجموعة .

ـ ما حقيقة هذا العمل يا نيفر ؟

ـ بناء المقبرة الملكية بكل ما يتطلب هذا من عمل . فبفضلها يكون اللامرئى كائنًا فوق هذه الأرض وتتحقق عملية البعث . ولكن مازال أمامنا الكثير لتتعلمه قبل المشاركة الكاملة فى هذا العمل .

ـ أخيرًا ، سوف أستطيع أن أرسم وألون !

ـ أكثر الأمور إلحاحًا الآن ـ بالنسبة إليك ـ هو تعلم القراءة والكتابة مع أطفال القرية .
فقال «بانيب» محتجًا .

ـ لم أعد طفلا .

ـ الكتابة هى أساس فنك . ولم يعد أمامك وقت لتضيعه . فكنهير معلم صارم، وأحيانًا يكون دقيقًا فى حزمه، ولكن تلاميذه يحصلون على تعليم جيد .

ـ لابأس، طالما لابد من الخضوع لذلك . . . هل تعرف معنى اسمى الجديد؟

ـ «بانيب» معناه «المعلم» . إن «نيب» المنجز رئيس المجموعة هو الذى أطلقه عليك ليضع نصب عينيك هدفًا يستحيل بلوغه . فهو على يقين من أنك لن تتنازل عن أن تصبح معلما، وأنك سوف تستنفد طاقتك مع إخفاقاتك المتوالية . حتى يأتى اليوم الذى تهدأ فيه .

ـ سوف يصاب رئيس المجموعة بخيبة أمل! نعم سوف أصبح معلما فى مهنتى وأستحق اسمى بجدارة . لقد اعتقد أنه سيجعلنى أرزح تحت وطأة عبء ثقيل، ولكنه يمنحنى نارًا لن تنطفئ جذوتها إلا بموتى .

خارج هذا الحرم ، كان الأتباع منكبين على عملهم ، يرفعون الأحمال عن الحمير ويسلمون المياه الضرورية لوضوء الصباح .

اشرقت الشمس على «ساحة الحقيقة»، تلك الأرض التى سيبدأ «بانيب المتأجج» فيها حياة المغامرة التى طالما حلم بها .

أخيرًا ، اكتشف القرية ، التى تقبع فى مأمنها خلف الجدران العالية! هناك جدران أخرى أقل ارتفاعًا بنيت فوق قاعدة من كتلة واحدة مصممة لصد طوفان الطمى والحجارة الذى تحمله السيول الضعيفة رغم ندرتها .

كانت القرية الواقعة على بعد خمسمائة متر من تدفق الفيضانات الهائلة دون أن تهددها ، تشغل كل الوادى الصغير المهجور ـ والذى كان المجرى القديم للفيضان ـ تحف على جانبيه التلال التى تحجب الرؤية وتعزل هذا التجمع المقدس بعيداً عن أعين المتطفلين . كانت «المدينة» ـ كما يطلق عليها أحيانًا الحرفيون ـ كائنة على بعد مسافة متساوية من معبد ملايين الأعوام لرمسيس الأكبر ، ومن الأكمة المقدسة حيث ترقد الآلهة الأولى وتبدو كموقع خارج هذا العالم ، معزول عن وادى النيل . يحدها من الغرب ، الشاطئ الصخرى الليبى ، ومن الجنوب نتوء صخرى بنى على جانبه المعبد الرئيسى . أما ناحية الشمال فيوجد مخرج الوادى ومنحدر طفيف يتوجه جنوب الأراضى الزراعية .

كان قد تم إنشاء مقبرتين كبيرتين على جانبى القرية : الأولى ناحية الشرق ، صممت على ثلاثة طوابق : الأول للأطفال والثانى للمراهقين ، أما الأخير فللبالغين . أما الأخرى ، ناحية الغرب ، المصممة أيضًا على عدة طوابق ، فكانت تواجه الشمس وتضم أجمل المصليات .

هنا ، تترابط الحياة والموت والأبدية فى تجانس طبيعى وما وراء الطبيعى . وفوق أرض القرية ، تقبع أيضًا مقابر ومصليات الجماعة وزوايا وصهاريج ومخازن غلال ، ومبان أخرى مقدسة ودنيوية .

قال «نيفر» لـ «بانيب» :

ـ تعال ، سوف أصطحبك إلى منزل .

ـ هل تعنى . . . أن لى منزلا ؟

ـ إنه منزل صغير لعازب . . فلا تتوقع أن يكون إحدى العجائب .

ـ هل لك منزل أنت أيضًا ؟

ـ كان حظى أفضل من حظك . فمنزلى فى حالة أفضل من منزلك . لا أحد يختار . إن كاتب المقبرة هو الذى يمنحنا بيتًا ، ورئيس المجموعة يقدم لنا مكانًا فى مصلى المجموعة الذى نجتمع فيه .

ـ من الذى يرأسها فعلا ؟

ـ كاتب المقبرة كنهير ورئيسا المجموعة ، وإن كان من الأفضل أن أقول الطاقم ؛ لأن مجموعتنا أشبه بالقارب .

«نيب» المنجز يهيمن على الجانب الأيمن وكاها على الجانب الأيسر . أنا وأنت تم تعييننا فى مجموعة الجانب الأيمن كمتمرنين . ونحن ندين بالاحترام للرفقاء والخبراء المقيمين هنا منذ سنوات طويلة والذين أمسكوا بمقاليد المعرفة .

ـ كما عددنا ؟

ـ اليوم ، اثنان وثلاثون حرفيا . ستة عشر حرفيا فى مجموعة الجانب الأيمن ومثلهم فى الجانب الأيسر . فى الماضى ، زاد عددهم عن ذلك حتى وصل إلى نحو الخمسين . إلا أن الوفيات والسفريات إلى آفاق جديدة قد قلصت هذا العدد . والفرعون يفضل فريقًا متلاحمًا وقليل العدد . إن انضمامك ، مثل انضمامى ، أشبه بالمعجزة! ونحن كمتمرنين، ملزمون بالصمت حتى تكون بحق «من سمعوا النداء » .

ـ فى أى مجموعة عمل تم تعيينك ؟

ـ فى مجموعة ناحتى الأحجار الذين تتمثل مهمتهم فى معرفة كيفية استخدام الإزميل الكبير القادر على شق أقوى الأحجار وأيضًا نحتها بدقة بمعاونة القدوم .

ـ هل تركوا لك حرية الاختيار؟

ـ أنا ليس لدىّ مواهبك فى الرسم ، وقد أحببت دائمًا أن أوجه حديثى للحجر .

ـ بالنسبة لى : الرسم ولا شىء إلا الرسم .

ـ وإذا ما عهد إليك رئيس المجموعة بمهام أخرى؟

أخفى الشاب الضخم استياءه بصعوبة .

ـ إن هدفى محدد ولن يثنينى أحدٌ عن عزمى .

فأوضح نيفر قائلا :

ـ إن نيب المنجز ليس مريحًا ، وهو لا يحب مناقشة أوامره . وبما أنك آخر المعينين فعليك الخضوع .

ـ بما أنك صديقى ، فأنت تعرف أنه مستحيل! ومهما يكن رئيس المجموعة فهو لا يخيفنى ، وعليه أن يفسر لى ما الذى ينتظره منى . فى مصر ، ليس هناك أسرى ولن أكون أولهم .

لم يلح «نيفر» خوفًا من إشعال الحريق. فلقد كانت أولى خطوات «بانيب» تنبئ بصعوبتها.

اكتشف هذا الأخير، بفضول كبير، القرية نفسها التى يخترقها شارع رئيسى من شماليها إلى جنوبيها، وهذا فضلا عن محور ثان عمودى، أقل أهمية. وفى داخل الحرم، سبعون منزلا أبيض يعيش فيها أعضاء المجموعة وعائلاتهم وكاتب المقبرة. وفى الشمال، تقع أقدم المناطق السكنية التى يرجع تاريخها لعهد تحتمس الأول.

مر الصديقان أمام محل إقامة راموسى الرائع، حيث كان قد استقبل فيه خليفته وابنه الروحى كنهير، الذى أصبح بذلك يمتلك قاعة ذات أعمدة لاستقبال الحرفيين، ومكتبا مجهزا بالكامل.

شعر «بانيب» بملاحقة نظرات زملائه من مجموعة اليمين الذين كانوا يأخذون قسطًا من الراحة، ونحو عشرة أطفال تتراوح أعمارهم ما بين أربعة أعوام واثنى عشر عامًا، يتبعون خطاه.

كان الشارع الرئيسى يفضى إلى ما هو أشبه بمفترق للطرق، فعرج الرجلان ناحية اليمين ثم عادا إلى المحور مرة أخرى لبلوغ الطرف الجنوبى للقرية حيث المنزل المخصص لـ «بانيب» المتأجج.

تأمله الأخير طويلا، ثم صاح قائلا: ولكنه . . . أطلال!

* * *

الفصل الثانى والأربعون

كانت الجدران توشك على الانهيار ، ونجارة المنزل متآكلة ، وطلاؤه متشققا .

وأقر «نيفر» بالواقع قائلا :

ـ إن حالة المنزل ليست ممتازة ، ولكن له ميزة يتعذر تقديرها ، وهى أنه قد تم بناؤه فى القرية .

لم تهدئ تلك الحجة من روع «بانيب» .

ـ أريد أن أرى فوراً كاتب المقبرة .

ودون أن يعبأ بنتائج تصرفه ، صعد الشاب الضخم الشارع بسرعة فائقة ، وولج قاعة اجتماعات «كنهير» حيث كان هذا الأخير جالسًا على حصيرة ، باسطا ورقة بردى تحمل بعض الحسابات .

ـ هل أنت الذى خصصت لى منزلا غير صالح للسكنى؟

لم يرفع كاتب المقبرة عينيه واستمر فى قراءته .

ـ هل أنت المتدرب «بانيب» ؟

ـ إنه أنا ، وأطالب بأن يخصص لى سكن لائق .

ـ هنا ، أيها الفتى ، لا يطالب المتدرب بشىء . هو ينصت ويطيع . وبالنظر لطبعك ، فأتصور أنك ستجد صعوبة كبيرة فى النجاح ، ولن يلبث رئيس المجموعة أن يطالب استبعادك . وسوف أكون أول من يعطيه الحق فى ذلك .

ـ ألا يتحتم معاملتى مثل غيرى من الحرفيين؟ وأن أمتلك مثلهم مسكنًا لائقًا ؟ !

ـ أنت فى الوقت الحالى لا شىء . لقد قامت الجماعة بتقديمك إلى أولى الواجبات المفروضة عليك ، ولكن ماذا فهمت من الاحتفال؟ لم يمض عليك يوم واحد فى القرية

وتريد أن تسكن كأحد الشرفاء! من تظن نفسك؟! ، ربما كنت تعتقد أنه بمجرد رؤية جمال محياك ، فإننا سنمنحك سكنا رائعًا ، فاخر الرياش ، قبوه مليء بالطعام . أتجهل أن كل زملائك قد بنوا منازلهم أو أصلحوها دون تذمر أو احتجاج ؟ أن تنعم بمكان ذى جدران ، حتى وإن كانت متزعزعة ، هو فى حد ذاته فرصة هائلة يحلم بها مئات من المرشحين اليائسين . وأنت ، تجرؤ على الشكوى؟! ، إنك لست فقط تافهًا ، بل غبيًا أيضا !!

واستمر «كنهير» فى بسط ورقة البردى فى حذر وهو يرمق بعينيه الأرقام المدونة عليها .

كان «بانيب» قد استشاط غضبًا ، وظل مترددًا فى الأخذ بتلابيب الكاتب والإلقاء به خارج عرينه وسلب أدواته .

ـ أما زلت هنا أيها المتدرب ؟! من الأفضل لك أن تجعل مسكنك صالحا للسكنى ، فلن يساعدك أحد . ففى جماعة مثل جماعتنا ، لا مكان لمن لايعرف الاستقلال بذاته .

ولّى «بانيب» ظهره ، وتنفس «كنهير» الصعداء . فلو كان الشاب الضخم قد أذعن لثورته ، فكيف كان سيقاومه؟

* * *

كانت درجات السلم الحجرى الصغير المؤدى من الشارع إلى عتبة القاعة الأولى متآكلة . فباستثناء المصاطب الحجرية الداخلية التى كانت قد قاومت الزمن ، كان يستلزم إعادة بناء المبنى المصنوع من الطوب اللبن . أما الأعمدة فيستحسن تغييرها لسوء حالتها . وقد بات واضحًا أن المنزل لم يسكن منذ سنوات عديدة وأنه ينبغى تنظيفه أولا تنظيفا كاملا .

لكن «بانيب المتأجج» كان قد استساغ حديث الكاتب ، وأدرك أن هذه الأطلال هى أول سكن له . وفجأة بدت له أجمل من أى قصر .

قال له «نيفر» :

ـ أنا على استعداد لمساعدتك .

ـ وفقا لما قاله كنهير ، هذا محظور!

ـ هناك العرف ، ولكن هناك أيضًا الصداقة .

ـ سوف أحترم العرف وأتكفل أنا وحدى بالتجديد .

ـ هناك بعض الجوانب الفنية التى قد تفوت عليك .

ـ سوف أرتكب بعض الأخطاء، ولكنه سيكون عملى. فى المقابل، إذا ما دعوتنى لتناول طعام الغداء، فلن أرفض دعوتك.

ـ هل ظننت لحظة واحدة «كلير» قد نسيتك؟

كانت واجهة السكن المخصص «لنيفر» خادعة، فلقد كان يستلزم إصلاحًا كاملا من الداخل، ولم يكن قد أتيح له من الوقت إلا ما يكفى لإعداد مطبخ صغير كانت كلير تعد فيه لحمًا مسلوقًا وحساء عدس بالكمون. كانت الأبخرة تتصاعد لتخرج من كوة مستديرة فى السقف.

ومرة أخرى، انبهر «بانيب» بالجمال الأخاذ لهذه المرأة الشابة التى كانت ابتسامتها المضيئة ترغم أشد الناس فظاظة على إظهار الود.

ـ بالرغم من أننا لا نمتلك بعد مقاعد، أننا سوف نرحب بك فى منزلنا. أنا متأكدة أن منزلك الرائع قد جعلك تهيم به.

انفجر «بانيب» ضاحكًا

ـ أنت تعرفيننى جيدًا يا كلير! بالأمس كنت أنام فى العراء، واليوم أوشك أن أموت منسحقًا تحت وطأة الحجارة القديمة التى ستنهار من فوقى وتحت أقدامى. ولكنى أخيرًا، هنا معكم، أتضور جوعًا!

تناول «بانيب المتأجج» أطيب طعام تذوقه فى حياته.

قال الشاب:

خبز قضيم ولحم لذيذ وعدس لين وجعة عذبة وجبن ماعز، لتكتمل الوليمة.

وقالت كلير:

ـ ستذهب صباح الغد للحصول على حصتك من التموين.

ـ أهذا ما نأكله يوميًا.

ـ إنه أفضل كثيرًا فى أيام الأعياد.

ـ أفهم الآن لماذا يصعب جدا دخول هذه الجماعة! سكن مجانى وطعام وافر ومهنة مثيرة!!... لقد اكتشفت الجنة فوق الأرض!

وهنا أوصاه «نيفر» قائلا :

ـ كن حذرًا على أى حال . الواقع ، أن الدخول عسير للغاية ولكن الخروج يسير جدا . إذا ما غضب منك رئيس المجموعة ، فلن يساندك كنهير . بسببهما ، يمكن أن تطرد فورًا .

ـ كيف تتفاهم مع « نيب المنجز»؟

ـ إنه رجل قاس ومتسلط ، لا يسمح بأى تهاون فى العمل . وإحقاقًا للحق ، أنت لا تروق له كثيرًا ، ولن يفوت أى هفوة من جانبك .

ـ هل من الممكن أن أتحول إلى المجموعة الأخرى ؟

ـ لا أنصحك باتخاذ تلك الخطوة . سوف تثير استياء رئيسى المجموعتين ، وسوف يكون «كاها» أكثر تعنتًا من «نيب المنجز» .

ـ مفهوم ، إذن سوف أخوض المعركة .

سألته كلير :

ـ لماذا تَعُدّ علاقات التدرج الوظيفى حربًا ؟

فاجأ السؤال المتأجج :

ـ القتال مفروض فى كل وقت ، هنا وهناك . سوف يحاول رئيس المجموعة أن يحطمنى ولكنه سيفشل .

ـ وإذا ما كان يبغى تدريبك حتى تتمكن من إنجاز أعمال عظيمة ؟

ـ أنا شاب يا كلير ، ولكنى لم أعد أعيش فى الوهم . فبين البشر لا تسود إلا علاقات القوة .

ـ أتنسى الحب ؟

نظر إليها بانيب طويلا :

ـ أنت ونيفر تمثلان زوجًا استثنائيا ولكن لا يمكن اتخاذكما قدوة . أنت كاهنة «حتحور» أليس كذلك؟

وقالت المرأة الشابة :

ـ منذ أن تم تعيينى وأنا أذهب يوميًا للزاوية أعد القرابين الواجب وضعها فوق المذابح فى مصلى المقابر كما فى كل بيت . فى القرية ، الحياة مختلفة . هناك متزوجون وعزاب

وأطفال، ولكن مساكننا تستخدم أيضًا كمحراب ولايوجد كهنة أو كاهنات غير الحرفيين وزوجاتهم . ففى إطار الوظيفة التى يقوم بها كل منا، لايتم الفصل بين الحياة اليومية والحياة المقدسة . وهذا هو السبب الذى من أجله جاءنى انطباع بأن أحد القلوب الخفية لمصر يخفق بين جدران تلك القرية . ففيها نعايش السر الخفى ونستسيغه ونستمع إلى موسيقاه؛ هذا القدر نملكه .

ـ بشرط أن يرغب رؤساء المجموعات فى ذلك .

وأردفت كلير قائلة :

ـ أنا أقطن هنا منذ أمد قصير ، ولكنى عرفت أن المثابرة فضيلة أساسية لإدراك القوانين الخفية «لساحة الحقيقة». إنها مثل الأم الكريمة تمنح بلا حساب ولكن هل قلبنا متفتح بقدر كاف لاستقبالها؟

أثارت أقوال المرأة الشابة الاضطراب فى نفس المتأجج ، ومزقت ستارا كان يحجب النور عن نظرته التى أبقاها التلقين سليمة . وعلى الرغم من أن «المتأجج» كان قد استمع إلى النداء ، فإنه لم يكن يتوقع أن هذه القرية المتواضعة عالم بمثل هذه الرحابة يضم هذا الكم من الكنوز التى لم يكن يدرك بعد طبيعتها الحقيقية .

وسأله نيفر :

ـ هل تريد أن تنام هنا هذه الليلة؟

ـ لا ، يجب أن أهتم بمنزلى وإلا فسوف تخجل منى أنت وكلير .

ـ أكرر عليك مرة أخرى عرضى بالمساعدة .

ـ إذا لم أفلح وحدى ، فسوف أخجل ، من حقارتى، أعترف بأننى أحيانا معتوهًا ولكنى ، على كل حال ، فهمت أن إعادة تهيئة هذا المسكن هو أول اختبار لى .

* * *

الفصل الثالث والأربعون

كان عمل «ميهى» المتعمق يثمر نتائجه المرجوة . فلم يكن فى حاجة لأكثر من ثلاثة أشهر لبلوغ رتبة القائد العام لقوات طيبة التى عهد إليه بإعادة تنظيمها إداريا وعسكريا . ورويداً رويداً ، تمكن من إبعاد كبار الضباط الآخرين باستخدام سلاحه المفضل : النميمة التى يقرنها بمجموعة من الوعود كانت تشنف آذان الجنود مثل : زيادة الرواتب ، إمكانية الإحالة إلى التقاعد المبكر ، تحسين الأوضاع وتحديث الثكنات . وعند عدم الوفاء بتلك الوعود ، كان «ميهى» يتهم التدرج الوظيفى بالإهمال والنفاق ، ويرثى لحال هؤلاء البائسين المخدوعين ويؤكد أنه لن يتوانى أبدا عن الدفاع عنهم أمام السلطات المختصة . والواقع ، أنه ما أن يواجهها حتى يعامل أولئك الجنود معاملة الرعاع ، ويتهمهم بالتمتع بظروف معيشية مواتية للغاية .

قوبل تعيين القائد العام الجديد باستحسان بالغ ، سواء من القمة أو من القاعدة ، وكان «ميهى» يرعى سمعته الممتازة بدعوة مجموعة من أشراف طيبة للعشاء كل ليلة بعد أن يكون قد درس ملفهم جيداً حتى يستطيع أن ينافقهم بأقصى قدر من الفاعلية . فيرحل ضيوفه وكل واحد منهم لى ثقة بأنه كائن استثنائى وأن القائد رجل متفان ويستحق الثناء .

علاوة على ذلك ، كانت «سيركيتا» تتفانى فى أداء دورها كربة بيت ممتازة ، متألقة وبشوشة وسطحية بالقدر الذى لا تثير معه ضيق الآخرين ، قادرة على أن تلعب دور الفتاة الشابة التى تأسر ألباب كبار الموظفين المتشددين وتبهج قلوبهم بظرافتها ؛ وهى التى حين تهيمن على زمرة من الخدم ، تكشف لهم عن وجهها الآخر ، وجه مخدومة عدوانية بلا قلب .

كان «ميهى» و«سيركيتا» قد أصبحا أشهر زوجين عصريين . وكل أشراف طيبة كانوا ينتظرون منهما ـ وبفارغ الصبر ـ دعوتهما لهم فى منزلهما . إلا أن القائد كان يأخذ حذره حتى لا يثير حفيظة عمدة طيبة الذى كان لايزال يمتلك من القوة والمكر ما يمكنه من

القضاء على مستقبله . وعند لقائهما ، كان «ميهى» يميل إلى التواضع وعدم الكشف إلا عن طموحات معقولة ومحدودة . فهو مثلا لم يكن لديه النية لأن يحل محل القاضى البلدى الذى تعوقه خلافات قبلية . فكان يرى أنه من الأفضل مناورته مع ترك الفرصة له للظهور والتفاخر . والسلطة الدائمة لايمكن الاستحواذ عليها إلا بقدر كبير من المواربة وبإلصاق مسئولية الإخفاقات بالأغبياء الذين يظنون أنهم يمسكون بمقاليدها .

وكالعادة ، نجحت المأدبة . وكان الكاتب الرئيسى لمخازن الغلال وزوجته ـ سيدة ثرية من طيبة ، دميمة ومتكلفة ـ قد اكتظا باللحم والحلوى ، ونبيذ الواحات الأبيض المنعش ، الذى لعب برأسيهما فجعلهما يثرثران . وبذلك حصل «ميهى» على بعض ا لمعلومات السرية حول إدارة مخازن الحبوب والتى سيحسن استغلالها عند الحاجة .

* * *

قال القائد لزوجته وهو يضمها بقسوة إلى صدره :

ـ أخيرًا ، رحلوا . هؤلاء كانوا أكثر من رأيناهم هذا الأسبوع إثارة للضيق . ولكنهم من الآن فصاعدًا لن يقسموا إلا بحياتنا .

ـ حبيبى . . لك عندى خبر عظيم .

ـ طفل منى ؟

ـ لقد أصبت التخمين .

ـ ولد! . . . سوف أرزق بولد ؟! هل أجريت اختبارات البول؟

ـ ليس بعد . إذا ما كان المولود بنتا ، هل ستصاب بخيبة أمل ؟

ـ بالتأكيد . ولكنك ستمنحيننى ولدًا . أنا متأكد!

وفجأة ، زالت الحماسة عن ميهى واكفهر وجهه .

ـ لكم وددت أن يشاركنا أبوك فرحتنا . . . للأسف إن حالته فى تدهور مستمر . لقد اضطررت لتعديل تقاريره الأخيرة لكثرة ما بها من أمور شاذة . هل وصف له طبيبه علاجًا؟

ـ بناء على توصياتى ، هو لا يجرؤ على التحدث لوالدى عن مرضه الذى يعجز هو نفسه عن علاجه . فهو يكتفى بعلاج قلبه الذى يرى أنه ضعيف للغاية . ومحظور عليه الانفعالات الشديدة .

ـ إننى خائف يا «سيركيتا» . خائف من أن يرتكب كارثة تقضى على كل جهودنا ، وخاصة أننا سوف نرزق بوريث يجب التفكير فى مستقبله يا حبيبتى .

ـ اطمئن ، لقد اتصلت بأحد رجال القانون وعرضت عليه المشكلة ، على شرط أن يكتم السر ، بالطبع .

ـ وماذا يرى ؟

ـ لقد اتخذنا بالفعل عدداً من الإجراءات القانونية التى ستحظر على أبى تبديد ثروتى إذا فقد عقله تمامًا . ولكن ذلك غير كافٍ . فلن أصبح الشخص الوحيد المكلف بإدارة أملاكنا ، إلا فى حالة ظهور جنونه .

ـ وهل ستبقين على العقد الخاص بفصل الأملاك؟

ـ كانت هذه أفضل الحلول طالما لم يكن لدينا وريث . أما الآن ، فالوضع مختلف . فنحن نؤلف زوجين رائعين وأنا حامل منك وأنت مدير متميز . فبمجرد أن يتوفى أبى أو تثبت عدم أهليته ، ألغى هذا العقد ونتقاسم كل شىء .

وهنا قبل «ميهى» «سيركيتا» قبلة نهمة .

ـ أنت رائعة ! وأنا لن أكتفِى بولد واحد . . .

كانت «سيركيتا» قد حللت الوضع طويلا : أبوها يشيخ ويستخدم أساليب عتيقة ولم يعد لديه الديناميكية الضرورية لتحقيق مزيد من الثراء . وكان «ميهى» هو السيد الجديد المسيطر على الأمور . ولأنه متلاعب وكاذب وفظ وماهر ، كان لا يكف عن إحراز التقدم والتفوق على الآخرين . أن ترزق بأطفال منه أو من غيره ، ما الأهمية فى ذلك . فـ «سيركيتا» ليست من سيتولى تربيتهم . أما «ميهى» ، فسوف يكون لديه الدليل الذى يراه رؤية العين على قدرته الذكرية التى يعلق عليها أهمية كبرى .

وفى حالة الطلاق . سوق تحتفظ «سيركيتا» بثلث الثروة على الأقل وتقاضى زوجها فى المحاكم من أجل استعادة الباقى . إن إلغاء عقد فصل الأملاك سوف يولد لديه الاقتناع بأن زوجته المحبة تثق به فيخفف من مراقبته لها .

مع رؤية «ميهى» ينمو وينمو ، ثم جنى ثمار مناوراته وأخيراً التهامه مثلما تفعل المفترسات . . . مع مستقبل ملىء بكل تلك الإثارة كيف يمكن لسيركيتا أن تشعر بالملل .

أسر لها القائد قائلا : ؟

ـ إننى أدعو الآلهة كل يوم حتى يشفى والدك. فلو حدث له مكروه فسوف أنهار.

ـ إننى لا أشك فى ذلك يا حبيبى ، ولكنى سأكون إلى جانبك لتجاوز هذه المحنة .

كان القائد «ميهى» قد دعا أعوانه المقربين وبعضا من علية القوم إلى رحلة صيد فى غابة أوراق البردى المغمورة فى شمالى طيبة . كان «آبرى» المدير العام للبر الغربى لطيبة قد بلغ به الخوف مبلغه . كان يعلم أن المكان قد يكون شديد الخطورة! وأن فرص بقائه على قيد الحياة قد تكون شبه معدومة. ففيها ، يستطيع فرس نهر غاضب أن يطيح بيسر بالقارب، أو ينقض تمساح على فريسته بسرعة جنونية، علاوة على وجود أعداد كبيرة من ثعابين الماء !

كان الموظف الكبير قد اتخذ مكانه على مقربة من «ميهى» الذى كان قد انتهى من شق رأس بط برى بعصا قاذفة . كان قتل الطيور يجعله يشعر بسعادة غامرة . وكان يتباهى بمهارته التى لا مثيل لها .

وقال «أبرى»

ـ بوسعنا التحدث فى مكان آخر .

بادره ميهى قائلا :ـ أشك فى أعوانك وفى زوجتك . فمنذ تبرئة «نيفر» و« ساحة الحقيقة» قد استعادت كل بهائها . والتعرض لها أصبحت مسألة خطرة جدا .

ـ هذا هو رأيى تمامًا ! لذا ، فأنا أقترح عليك التخلى عن كل ذلك، والاكتفاء بأنشطتنا الرسمية .

ـ هذا غير وارد ياعزيزى

ـ ولكن ، لماذا التمسك بهذا الأمر ؟

ـ تأمل هذا المكان يا «آبرى» . إن الطبيعة هنا تعبر عن نفسها بكل وحشيتها، ولا تخضع إلا لقانون واحد : إما أن تَقْتل وإما أن تُقْتل . والأقوى هو الفائز دائما .

ـ إن سياسة «ماآت» تتمثل بحق فى مكافحة هذا القانون .

وتعجب «ميهى» وهو يلقى بعصاه القاذفة فى اتجاه طائر القاوند .

ـ إن «ماآت» لست مخلدة.

أخطأه بفارق سنتيمترات . فأعرب عن أسفه قائلا :

ـ لقد غضبت ، فلم أكن دقيقا. فى الصيد ، ثبات الأعصاب هو أفضل الأسلحة . أتريد أن تجرب؟

ـ لا ، أنا غير قادر على ذلك .

ـ سنستمر يا «أبرى» وأنت ستعاوننى . إن هذا الفشل القضائى البسيط لم يوهن عزيمتى . ولدى أسباب عديدة تجعلنى أؤمن بنجاحنا .

ـ إن «ساحة الحقيقة» مثلها مثل معاقل النوبة لا يمكن الاستيلاء عليها .

ـ لا يوجد معقل لا يمكن الاستيلاء عليه . يكفى وضع إستراتيچية جيدة . اليوم تعتقد الجماعة أنها فى منأى عن أى اعتداء وتواصل أعمالها فى هدوء تام . وهنا تكمن نقطة ضعفها .

قفزت زريقاء من مظلة ورق بردى إلى أخرى هربًا من الصيادين . بينما كان البط يصيح مذعوراً منذراً بالخطر .

ـ صبراً . بضربة منظمة محكمة ، لن يفلت منا أى منها .

ـ هل هذه هى إستراتيچيتك ضد ساحة الحقيقة؟

ـ جزئيا يا عزيزى . . وسوف أزيد عليها بعض الإضافات . هل عرفت معلومات جديدة؟

ـ لا شىء منذ انضمام نيفر الصامت و بانيب المتأجج إلى الجماعة .

ـ بانيب (المعلم)، إن زملاءه . . . قد خططوا له مستقبلا رائعًا .

ـ لا أعتقد أن لمثل هذا اللقب أهمية حقيقية .

ـ أنت لا تعرف الحرفيين جيدًا يا آبرى . أنا متأكد أنهم لا يتركون شيئًا للصدفة وأنه ينبغى علينا أن نأخذ فى اعتبارنا أقل مؤشر . هل أرسيت نظام مراقبة ينذرك بمجرد خروج أحد أعضاء الجماعة من القرية فى رحلة؟

ـ لقد تم ذلك بالفعل . ولكنى لم أتوصل إلى أى نتيجة حتى الآن .

ـ بمجرد وقوع هذا الحدث ، أخبرنى فى الحال .

ـ الوقت يمر . ألا ينبغى علينا العودة إلى المدينة؟

ـ لم أقتل بعد عددًا كافيا من الطيور .

* * *

الفصل الرابع والأربعون

ـ الإنصات هو أفضل شيء ـ هكذا كان يقول « بتاح حوتيب» العجوز الحكيم الذى كان يعيش فى زمن الأهرامات ـ إنكم جميعا تعرفون العدْو والسباحة والثرثرة ولكن تمرينات خطكم الأخيرة سيئة جداً لأنكم لاتنصتون إلىّ .

كان مزاج كاتب المقبرة ـ كحاله كل يوم ـ لا يحتمل . وكثيراً ما كان ينيب أفضل رسامى الجماعة للعمل مكانه كمعلم ، فيتباهى عندئذ بلقب «كاتب » ؛ ولكن منذ وصول «بانيب» أصبح «كنهير» هو الذى يتولى بنفسه التدريس، مما سبب إحباطا شديدا للأولاد والبنات لكثرة ما كان يفرض عليهم من عمل ويوجه لهم من توبيخ .

ـ أنتم تعرفون بالكاد الحروف الهجائية وتسيئون رسمها للغاية ! أما الحروف الهيروغليفية التى تتكون من مقطعين، فيجب إعادتها جميعها. هذا غير حركة الطيور التى ترسمونها، وبصفة خاصة البومة والطير الذى يرفرف بجناحيه وهو يخرج لسانه! كيف يمكن تعليم من لايريد الإنصات؟ ينبغى أن أوجه إليكم مئات من الضربات بالعصا حتى تفتحوا آذانكم التى تحتفظون بها وراء ظهوركم.

وهنا ، تدخل «بانيب المتأجج».

ـ حيث إننى أكبر التلاميذ سنا ، فأنا المسئول عن أخطاء الفصل . فأنا ظهرى عريض بما يكفى لتلقى مجموع ضربات العصى .

ـ طيب . . . طيب ، سوف نرى ذلك لاحقًا . اتخذوا جلسة الكاتب ، واغمسوا أطراف البوص فى المداد الأسود المخفف، واكتبوا الحروف الرئيسية على اللوحات الخاصة بكم.

كانت اللوحات تلك عبارة عن قطع صغيرة من الحجر الجيرى، وتنتشر فى أطراف القرية بأعداد كبيرة، والبعض منها الأكثر قيمة عبارة عن بقايا نحت المقابر . وهى تستخدم

كمسودة للتلاميذ المبتدئين فى تعلم الرسم والذين يُعَدّون غير مؤهلين بعد لاستخدام أوراق البردى ، حتى البالية منها أو رديئة النوع .

تلك الأدوات البدائية كانت بالنسبة لبانيب أدوات رائعة . أخيرًا ، أصبح يمتلك الدعامة والأداة اللتين تمكنانه من ممارسة فنه . وكان يجد لذة فى رسم كل حرف من الحروف الهيروغليفية بدقة وجمال تثيران دهشة «كنهير» . كان الشاب الضخم يتعلم بسرعة كبيرة حتى إن المرء قد يتصور أن يده عرفت هذه الرموز منذ زمن طويل .

فحص كنهير اللوحات وخَلُصَ إلى أن البنات يتمتعن فعلا بموهبة تفوق موهبة الصبيان .

ـ أنتم لستم إلا كأعواد عوجاء يلقى بها المرء على الأرض حيث يفترشها الضوء والظلال . فإذا ما مر نجار ـ كما يقول الحكماء ـ فسوف يهتم بتلك العيدان الحقيرة ويصلح اعوجاجها ويصنع منها عصيا للنبلاء . هذا النجار هو أنا . فأيا كان مصيركم ، فسوف تخرجون من هذه المدرسة وأنتم تعرفون القراءة والكتابة .

واستؤنف التمرين حتى ساعة الغداء .

ثم أعلن كنهير عليهم :

ـ غدا ، سوف نرسم السمك . أما الآن ، فاذهبوا للأكل والتزموا بآداب المائدة . فطريق الحكمة يبدأ بالأدب وباحترام الآخرين . أما أنت يا بانيب فابق فى مكانك .

وتفرق التلاميذ وهم يصيحون بلا انقطاع .

ـ هل أنت جوعان ؟

ـ نعم

ـ وأنا أيضًا ، ولكن هناك أمورا أكثر إلحاحًا .

عهد «كنهير» إلى «بانيب» بقطعة كبيرة من حجر الجير ، مصقولة بعض الشيء ، وريشة جديرة بكاتب . ووضع عند أقدامه وعاءً مليئًا بمداد كامل السواد .

تحمس الشاب وقال :

ـ ذلك . . ذلك رائع ! لن أجرؤ أبدًا على الرسم عليه .

ـ هل ستصير خائفًا ؟

غلت الدماء فى عروق «بانيب» عند سماع هذه الإهانة ، لكنه نجح فى عدم إبراز رد فعله .

ـ ارسم خمس مرات الرمزين المؤلفين لاسمك .

«با» أى البط الذى ينطلق فى الفضاء ، «نيب» أى السلة المهيأة لاستقبال القرابين والتى تصبح سيدة ما تحتويه .

وبلا تسرع ، بدأ «بانيب» العمل . لم ترتعد يده . وبدأ الرمزان يتشكلان بدقة وبإتقان .

ـ لقد نجحت ، أليس كذلك ؟

ـ ليس لك أن تحكم على ذلك . أتفهم لماذا أعطيناك هذا الاسم ؟

ـ لأنه لا يجب علىّ أبدًا أن أتوقف عن التحليق فى السماء ، وأن أسلوب سيطرتى على عملى يعتمد على ما أدركته وتلقيته .

قال «كنهير» متذمرًا :

ـ السيطرة . . . أمامك طريق طويل لبلوغها . ارسم عينا ورأسًا من الأمام وآخر من جانبه ، وارسم صقرا وابن آوى ومركبا .

استغرق «بانيب» وقتًا طويلا ، كما لو كان يعيش كل رمز فى ذاته من قبل أن يخطه بثقة مذهلة فى التنفيذ بالنسبة لمتدرب .

ـ امسح كل ذلك بكشط الجير .

ـ ويتساءل كنهير :

ـ كيف يمكن لعقل تؤججه نار «ست» أن ينجح فى إظهار كل هذا الصبر وتلك الدقة؟ إن هذا الشخص الجرىء لهو سر خفى أصيل .

ـ ها هو ذا .

ـ أعد نقل النص من ورقة البردى هذه .

بسط «كنهير» وثيقة رائعة ، كتابتها دقيقة ورفيعة ، ليس من السهل نسخها .

ـ هل ينبغى علىّ أن أرسمها طبق الأصل ، أم يمكن أن أفسرها بطريقتى؟

ـ كما يحلو لك

اختار «بانيب» الحل الثانى .

أنجز بانيب عمله بلا خطإ واحد، كما استطاع أن يجعل النص مقروءًا بشكل أفضل . مما لا شك فيه أن هذا الشاب يملك يد كاتب تتميز ليس فقط بالسرعة ولكن أيضًا بالوضوح . ولما كان خط كنهير ـ لإنشغاله برسم الرموز طوال اليوم ـ قد أصبح لا يُقرأ تقريبا ، فقد شعر بشىء من التوتر .

ـ اقرأ لى هذا النص .

ـ «إذا تسربت عملية الإنصات الدائم فى نفس المنصت ، فيصبح من ينصت هو نفسه من يستمع . عندما يكون الإنصات جيداً ، يكون القول نفسه جيدا . والله يحب من يحسن الاستماع ويكره من لا يستمع . إن من يحب الاستماع هو من ينجز ما يقال . أما الجاهل الذ لا ينصت لشىء فهو لن ينجز شيئًا . هو يَعّدّ المعرفة كالجهل والمفيد كالضار . يفعل كل ما هو مقيت ويستمد حياته مما يميت . لا تضع شيئًا مكان آخر . واحرص على القضاء على العوائق فى داخلك، وانتبه إلى ما يقوله من يعرف الشعائر . . »

ـ أنت تعرف القراءة يا «بانيب» ولا تتلعثم عند قراءة أى كلمة . ولكن أتفهم ما تقرأ ؟

ـ أعتقد أنك لم تختر هذا النص بمحض الصدفة . . أتعتقد أنى لا أنصت جيدًا إلى تعاليمك ؟

ـ سوف نرى ذلك لاحقًا . اذهب لتأكل، ولا تأخذ معك قطعة الجير ، فهى ليست ملكك .

ابتعد «بانيب »، وتوجه «كنهير» إلى منزل «راموسى» حيث اختار الإقامة . وكانت القروية التى عينها هذا الأخير طاهية قد أعدت سلطة من بعض الخضراوات وكُلى عجل .

ـ آسف لتأخرى . لقد طالت محاضراتى لأكثر مما توقعت .

قال «راموسى» لكنهير آسفًا :

ـ إن زوجتى مريضة ولن تتناول الغداء معنا .

ـ هل الأمر خطير؟

ـ إننى أنتظر تشخيص المرأة الحكيمة . هل استطعت ترويض بانيب ؟

ـ إنه شاب متميز ، أتمنى أن أجعل منه كاتبًا .

ـ أنت تعرف أن مجاله المهنى مختلف .

ـ إذا ما خضع لما يفرضه عليه علم «توت»، فسوف يصبح «بانيب» رسامًا لا مثيل له . ولكن هل سيكون لديه الصبر على التعلم واجتياز المراحل الواحدة تلو الأخرى؟

ـ أنت تميل إليه ، أليس كذلك ؟

ـ إن القوة التى تحركه ، تحتاج إليها الجماعة . من يستطيع تخيل الأعمال الكامنة فى نفسه ؟

ـ إننى أثق بك يا كنهير ، أنت و نيب المنجز رئيس المجموعة حتى تصلا به إلى حد النضج .

ـ علينا أن نتوقع الكثير من المصادمات بل والإخفاق. . . إن بانيب المتأجج ، شخص متشدد ومتطرف وعنيف ، يجنح دائما إلى سرعة الغضب . فنار «ست» التى تسكنه عنيفة للغاية حتى إننا ربما لن نستطيع السيطرة عليه.

ـ هل يعرف القراءة والكتابة ؟

ـ بنفس درجة إتقاننا أنا وأنت لها . ففى أقل من عام ، تمكن من إجادة تعلم ما يحتاج الغالبية لاستيعابه إلى عشر سنوات كاملة !

ـ كيف يتصرف مع الأطفال؟

ـ كأخ كبير مثالى . فهو يحميهم ويطمئنهم ولا يرفض أبدًا اللعب معهم . سلطته طبيعية ولا يحتاج لرفع صوته حتى يطاع . أسوأ ما فيه أنه يساعد الكسالى على أداء واجباتهم ، ضاربًا عرض الحائط بتحذيراتى . يلزم إذن معاقبته وتهديده بالإبعاد و . . .

ـ ألا تتذكر شعار المعلم ومن يلقنون كتّاب المستقبل: « أن يكون لطلبته معلمًا صبورًا ، هادئ الأقوال وأن يكتسب احترامهم باستثارة مشاعرهم ، وأن يباشر التعليم فى جو من الحب»؟ فلتستمر فى تعليم هذا الشاب الضخم يا كنهير ؛ اقض بلا تراخ على كل عيوبه ، لا تسمح له بأى من انحرافاته وأكشف له تدريجيا عما يستوجب الإعجاب ولا يفنى أبدًا.

* * *

الفصل الخامس والأربعون

دهن «موسى»، المسئول الرئيسى عن الخزانة فى طيبة ، قمة رأسه بزيت الموريخا حتى يضع حدًا لصلعه . وكانت آخر عشيقاته قد وجهت له ملحوظة فظة فهم منها أنه يشيخ وتتناقص جاذبيته . وقد أثار ذلك غضب موسى وأصابه بتوعك . فتم استدعاء الطبيب على وجه السرعة ونصحه بالراحة وبمراعاة قلبه المريض .

كيف له أن يستجيب لتلك النصائح وهو الذى يرزح تحت وطأة المسئوليات ؟ لم تكن طيبة ، تحتل إلا المرتبة الثالثة فى مدن البلاد، ولكنها كانت تعج بالثروات ، وكان الوزير يطالب بإدارة واضحة وفعالة . أحيانًا ، كان «موسى» يتوق إلى اعتزال العمل والإقامة فى الريف برفقة ابنته «سيركيتا» ، وممارسة متعة الفلاحة التى لم يعد لديه الوقت لممارستها .

وها هى ذى تبلغه لتوها بميلاد حفيد! ياله من خبر رائع! وما أجملهما من زوجين ، هى «وميهى» ! وسوف ينعم «موسى» بشيخوخة سعيدة وهو محاط بالكثير من الحفدة الذين سيُعَلمهم المحاسبة والإدارة ، يحدوه الأمل فى أن يصبحوا بنفس موهبته ، هو الذى لم تعد الأرقام تخفى عنه سرًا . لكن «ميهى» كان على درجة من المهارة الذهنية التى تثير قلق «موسى» . ألا تهدد أن تجعله لامباليا بكل ما لا يمس مهنته ؟

لو تريث «موسى» لأدرك أن عليه أن يأخذ حذره من القائد العام الجديد لقوات طيبة ، فهو إذا كان أحيانًا يتظاهر بالتواضع خاصة أمام العمدة ، فهذا فى إطار خطة محسوبة . كثيرون من الرجال لهم هذا الطبع ، ولكن «ميهى» كان يجمع إلى طموحه قسوة ، وكان لايعرف الشفقة . وعلى الرغم من أنه كان يضع قناعا سميكا فإن موسى سوف يكشفه وقد كان يخشى أن يكتشف أن رجلا وصوليًا تزوج من «سيركيتا» الرقيقة والهادئة فقط من أجل الاستيلاء على ثروتها ، وحينئذ ستصبح مهمته هو - بوصفه أباها - أن يحميها بإقناعها بصفة خاصة بعدم تعديل عقد الفصل بين الممتلكات وبالتفكير أيضًا فى حماية أطفالها .

كان حديث موسى الأخير مع عمدة طيبة ـ وهو صديق قديم ـ قد أثار الاضطراب فى نفسه. كان العمدة قد بدا له متحفظًا ومائلا للتشكك ، ولم يُشر إلى مشروعاته القريبة إلا بشكل مبهم ، كما لو كان يتحدث إلى شخص غريب . كان «موسى» يشك فى أن يكون زوج ابنته قد تدخل بمهارة لزعزعة موقفه ولتقديم نفسه على أنه خليفة حميه الذى لا يمكن تجاوزه. إذا ما صح ذلك ، فإن «ميهى» يصبح منافسًا يخشى بأسه ومناوراً من أسوإ نوع ، كان يستلزم كفه عن الأذى.

أعلن أمين الصندوق التابع لموسى نبأ وصول الزوجين المدعوين على الغداء.

كانت «سيركيتا» أنيقة و«ميهى» واثقا بنفسه.

ـ كيف حالك يا ابنتى الغالية؟

ـ صحتى ممتازة! وكيف حال صحتك أنت يا أبى الذى أعبده؟

ـ ليس لدى الوقت للاعتناء بها. فالوزير يطالبنى بأن أقدم له فى الأسبوع القادم صورة للوضع المالى فى إقليم طيبة. وكما هو الحال فى كل عام، تنقصنى التقارير.

واقترح ميهى قائلا :

ـ أأستطع مساعدتك. . . ؟

ـ لن يكون ذلك ضروريا. سوف يقوم الفنيون العاملون معى بالعمل ساعات إضافية.

لأول مرة ، لاحظ «ميهى» بعض التشكك، بل والعداء فى موقف حميه. هل كان موسى يتمتع بصفاء ذهن أكثر مما توقع ؟

وقالت «سيركيتا» فى إعجاب :

ـ أخيراً ، لحظات من الهدوء. سوف نتناول عشاءنا الليلة مع قائد أسراب آمون. هو شخص مرهق لا يتحدث إلا عن الأبقار والثيران؟ ألا تستطيع القيام بحيلة ما لتستبدل به آخر أقل إثارة للملل؟

كان موسى يراقب رد فعل زوج ابنته ، فلم يستمع إلى ما قالته ابنته. واقتنعت «سيركيتا» على الفور بأن أباها يعانى من إحدى حالات الغياب الذهنى المخيفة التى كشف «ميهى» عن وجودها.

ـ أبى ، هل تسمعنى ؟

ـ نعم . . أقصد لا ، ماذا هناك ؟

ـ هذا ليس مهما .

وقال ميهى بتعطف :

ـ إن الجميع يشيدون بفاعلية مجموعاتك . إلا أنه ، فى حالة الضرورة ، يمكنك الاعتماد علىَّ .

وقالت «سيركيتا» مضطربة :

ـ سوف أذهب لأرى ماذا أعد لنا طاهيك .

ـ فكرة ممتازة ! وسوف ننتظرك أنا وميهى ونحن نحتسى النبيذ تحت عريش الكرم .

كان المكان رائعًا ويصلح لأن يطلق فيه المرء العنان لتفكير هادئ ومتكاسل، إلا أن القائد لم يكن يريد إضاعة الوقت أكثر من ذلك .

ـ يا حماى العزيز ، عندى لك خبر سرى وددت لو بحت لك به .

ـ هل هو يخصنى بصورة مباشرة؟

ـ هو يخص وظيفتك بشكل مباشر . أنت تعلم بلاشك أن الكثير من التجار السوريين قد أصبحوا يقيمون فى طيبة منذ بداية العام .

ـ الواقع ، أنه قد تم التصريح لهم بذلك . لم يشك أحد من سلوكهم وهم يدفعون الضرائب المستحقة عليهم وهى تدخل فى إيرادات الولايَة .

ـ ما تقوله هو الظاهر ، إلا أن الحقيقة مخالفة لذلك تمامًا .

ـ ماذا اكتشفت؟

ـ فى خلال إحدى مهام المراقبة ، أثار فضول أحد رجالنا مخزن مغلق . وقد أجرى تحقيقا سريًا أقدم لك ما خلص إليه من نتائج : لقد نظم السوريون عملية تهريب للحبوب مع فلاحين من البر الغربى .

ـ هل لديك دليل على ذلك ؟

ـ أقوى الأدلة التى لا يمكن دحضها : حساباتهم السرية المخبأة فى هذا المخزن

ـ هل استوليت عليها ؟

ـ تمنيت أن أخصك بهذه المزية .

انتهى الغداء بسرعة ، وعادت «سيركيتا» إلى منزلها لتعد العدة لمأدبة المساء . وكان «ميهى» و«موسى» قد أخذا طريقهما تجاه منطقة المخازن . وبدأ «موسى» يشعر بعصبية متزايدة عندما فكر فى أنه سوف يقضى على عملية تهريب واسعة النطاق كهذه .

كان التردد باديًا على القائد .

ـ ألا تتذكر المكان ؟

ـ بلى ، إنه هو هذا المبنى المواجه للشارع الصغير . ولكنى حذر . فهؤلاء السوريون يمكن أن يكونوا خطرين .

ـ هل يرجح أن يكونوا فى المكان؟

ـ سوف أتأكد من ذلك

ـ لا تجازف هكذا يا ميهى! أنسيت أنك زوج ابنتى وأبو طفلها؟ إذهب لإحضار بعض الجنود .

ـ مفهوم ولكن لا تتحرك من هنا وانتظرنى

ثبت «موسى» عينيه على المخزن الذى عينه له زوج ابنته . كانت مراقبة الحبوب من أكثر المراقبات تشددا فى المدينة ، لذا ، فقد كان المسئول الرئيسى عن خزانة طيبة لا يفهم كيف نجح السوريون فى التسلل من وراء ظهر المراقبة . إن فحص الحسابات السرية من شأنه أن يثبت بلاشك وجود بعض التواطؤات ومن ثم تكون العقوبات قاسية .

كان المكان خاليا ، وبدا المخزن مهجوراً . مخبأ مثالى لوثائق مثيرة للشبهات .

تملك الفضول ونفاد الصبر من «موسى» . ولما كان «ميهى» قد تأخر فى العودة قرر حماه اكتشاف المكان بنفسه .

لا أحد .

خفق قلبه أسرع ، ودفع باب المخزن الذى لم يكن حتى مغلقًا . وكان شعاع نور قد عبر نافذة مرتفعة وأضاء صندوقا مليئا بأوراق البردى . وحين كان موسى يبسط أحد أوراقه أخذته الصدمة .

كانت هناك فتاة يانعة الشباب تتقدم نحوه .

ـ من أنت ؟

حررت شعرها ومزقت ثيابها وخدشت صدرها وذراعيها بأظافرها .

ـ ولكن . . . أنت مجنونة!

وصرخت قائلة :

ـ النجدة . . إنه يغتصبنى .

وأخذها «موسى» من كتفيها .

ـ اخرسى ، أيتها الكاذبة الصغيرة .

فما كان منها إلا أن زادت من استغاثاتها .

وعندئذ . انفتح الباب بعنف ، وظهر جنديان كل منهما مسلح بسيف .

ـ اترك هذه الطفلة أيها البائس !

استدار «موسى» مذعوراً ناحية الرجلين المسلحين .

ـ أنتما مخطئان . أنا . . . هى . . .

فاجأه ألم عنيف فى وسط صدره منعه من مواصلة الحديث . ووضع يديه فوق قلبه ، وفغر فمه لاستنشاق الهواء الذى كان ينقصه ثم سقط على الأرض .

ارتدت الفتاة ملابسها فى سرعة وفرت من فتحة سرية فى الحائط الخلفى .

دخل «ميهى» .

ـ ما الذى يحدث هنا ؟

ـ لقد حاول المسئول عن الخزانة أن يغتصب فتاة ، يا سيدى القائد ، لقد فرت الفتاة أما هو . . فأعتقد أنه مات .

انحنى «ميهى» فوق الجثة . كان قلب حميه ـ مثلما تمنى ـ قد توقف عن النبض .

ـ لقد تركنا هذا البائس . هل رأيتما ما حدث ؟

ـ بناءً على صراخ الفتاة ، من المستحيل أن نخطئ. وكما أنك أمرتنا بالتدخل عند وقوع حدث ما . . .

ـ أنتما لم تخطئا . ولكن ينبغى نسيان هذه المأساة . أريد أن تقام جنازة مهيبة لحمى. ولا أريد أن تشوب سمعته أدنى شائبة. لن يكون هناك أى تقرير . وأنتما، لم تسمعا أو تريا شيئا. وفى مقابل طاعتكما، سوف أمنحكما الثياب والنبيذ.

أحنى الجنديان رأسيهما فى إشارة على الموافقة .

أما السورية الصغيرة المأجورة من ميهى للقيام بهذا الدور، فقد تقرر أن تعود فى اليوم نفسه إلى بلادها ومعها مبلغ من المال . وبفضل وفاة «موسى» أصبح القائد واحداً من أثرى أثرياء طيبة .

* * *

الفصل السادس والأربعون

كان نيفر الصامت، قد اعتاد سريعًا على إيقاع «ساحة الحقيقة». ثمانية أيام من العمل، يعقبها يومان للراحة يضاف إليها الكثير من أعياد الدولة أو الأعياد المحلية، وبعد ظهر بعض الأيام التى يمنحها رئيس المجموعة وعطلات أخرى عرضية يوافق عليها كاتب المقبرة. كان الحرفيون يبدءون يومهم فى الساعة الثامنة صباحًا، ويتناولون طعام الغداء ما بين الثانية عشرة ظهرًا والثانية من بعد الظهر، ويستأنفون عملهم حتى الساعة السادسة مساءً. وكثيرون منهم ينتهزون أوقات فراغهم للوفاء ببعض الطلبات الخارجية التى كانوا يطالبون فيها بأجر مرتفع.

كان العمل الرسمى لا يستغرق إلا نصف العام. ولكن المجموعة لم تكن ترى فى ذلك التزامًا شاقا. فلقد كان أفراد مجموعة اليمين ومجموعة اليسار على وعى كامل بمشاركتهم فى مغامرة استثنائية وفى عمل كان الفرعون نفسه يرى أن له الأولوية.

كان «نيفر» يشاركهم هذا الإحساس، ولكنه كان يعيش أوقاتًا عسيرة. فهو بانضمامه إلى مجموعة اليمين، كان يصطدم بعقلية العشيرة لدى زملائه الذين كانوا يراقبونه ببعض الارتياب. وبوصفه نحاتا للحجر، كان على اتصال دائم بنظرائه: «فنيد» المعروف باسم «الأنف» لأنه يتمتع بحاسة القيام بالحركة الصائبة، و«كازا» أو «الحبال/ واضع الأوتار» المتخصص فى نقل وجر المواد. و«نخت» القوى و«كارو» الفظ. أما المثّالون الثلاثة والفنان والرسامون الثلاثة والنجار والصائغ، فنادراً ما كانوا يوجهون إليه الحديث إلا للتفاهات.

عندما كانت مجموعة اليسار تعمل، كانت مجموعة اليمين تستريح، والعكس صحيح، فلم تكن المجموعتان تتقابلان أبدا. وكان لكل رئيس مجموعة، نيب المنجز، وكاها، أسلوبه وطريقته فى الإدارة بدون أن يكون بينهما أى تنافس.

وفى كل مساء كان نيفر يقوم بتنظيف الأدوات، والتأكد من عددها ، ثم يعيدها إلى كاتب المقبرة الذى يغلق عليها حجرة القرية الصلبة ، ثم يعاد توزيعها فى صباح اليوم التالى . كانت كل الأدوات ملكا لفرعون، ولم يكن لأى من الحرفيين الحق فى امتلاك أى منها. وفى المقابل ، كان يتم تشجيع خدام ساحة الحقيقة على صناعة أدواتهم الخاصة ، التى كانوا يستخدمونها عندما ينفذون طلبات من الخارج .

نجح نيفر فى أن يعمل بمعول الحجر، الذى كان يزن ثلاثة كيلوجرامات وله سن حاد، وقوى بحيث يكسر الحجارة الأكثر صلابة . كان نيفر كثيرا ما يكون آخر من يغادر موقع العمل فى وادى النبلاء حيث تعد مجموعة اليمين سكنا أبديا للكاتب الملكى.

ومن خلال مراقبة زملائه، تعلم الصامت أن يتعامل مع المطرقة ذات الرأسين والمقص ذى الشفرة القصيرة الحادة التى جعلها أكثر فاعلية باستخدام أداة لصنع الثقوب. بعد بضعة محاولات لم يرض عنها، نجح فى العمل بالأداتين كما لو كانتا آلتين موسيقيتين، وكان يستشعر الذبذبات التى تتردد منهما وكأنها نغمات موسيقية، فلم يعد يضطر للقيام بأى مجهود غير ضرورى.

لم تكن محاولته سهلة لترويض الأدوات الأخرى مثل السكين ذات الشفرة الحادة على ثلاثة جوانب، وأداة النقش ذات القبضة القصيرة والسن المربع، والأداة التى تستخدم فى وضع الرتوش الأخيرة فى العمل، ولكن نيفر أبدى صبرا كبيرا، حتى يتمكن من إخراج كل الذكاء الذى يتركز فى يديه ، يدى المثال.

ـ تأكد من أن الكتلة التى قمت لتوى بتسويتها ، تتطابق مع الجدار الذى قمنا ببنائه . صاح فيه كارو الفظ.

كانت المهمة صعبة ، ومن الصعب أن يقوم بها أحد إلا خبيرا فى قطع الحجارة. لم يكن يجب على كارو الفظ أن يعهد بها إلى متدرب، ولكن نيفر لم يعترض وحاول أن يتذكر الطريقة التى استخدمها رئيس المجموعة فى العمل الليلة السابقة. تناول ثلاثة عصى تستخدم للتطابق، كل منها بطول ١٢ سم ولها ثقب صغير فى أحد طرفيها. بعدما تأكد أنها متساوية تماما. وضعها على خط عمودى مع المسطح الذى سيقوم بفحصه، ثم قام بمد خيط بين اثنتين منها، أما العصا الثالثة فاستخدمها كوسيلة للإصلاح . ولكن نيفر لم يكن راضيا عن النتيجة ، فقام بإزالة كل خشونة من على الجدار.

ـ بماذا تتسلى؟ سأله كارو، بشيء من الغيظ الظاهر.

ـ لقد كلفتني بعمل ، وأنا أقوم به .

ـ كل ما طلبته منك أن تقوم بالفحص ، وأنت تجاوزت الحدود .

ـ أكان عليَّ أن أكتفى بعمل أقل القليل؟ طالما وجدت عيبا ما ، يجب على أن أزيله . هذه الكتلة سيتم تسوية سطحها بشكل صحيح وسوف تدخل إلى البناء .

ـ إنها تخصنى ، ولا تخصك أنت!

وضع نيفر أدواته جانبا وواجه كارو . إنه رجل قصير وسمين ، ذراعاه قصيرتان وقويتان ؛ حاجباه كثيفان وأنفه مربع مما جعل وجهه يبدو قاسيا .

ـ أنت تتمتع بخبرة أكثر منى يا كارو ، ولكن ذلك لا يسمح لك بأن تخرب عملا نقوم به . تلك الكتلة لاتخصك ، ولا تخصنى ، ولكنها ملك لمسكن الأبدية الذى سيتم إدخالها فى بنائه .

ـ دعك من الكلام المنمق! غادر الموقع واترك الكتلة .

ـ هذا يكفى يا كارو . أنا عضو فى تلك الجماعة ولن أتحمل هذا النوع من الغضب لوقت طويل .

ـ إذا لم يعجبك تصرفاتنا ، فعد إلى الخارج .

ـ إننى لا أهتم بأسلوبك ، قطعة الحجر هذه هى كل ما يهمنى . لقد أثبت لك أنى أعرف كيف أسويها وأدخلها فى الجدار . ماذا تريد أكثر من هذا ؟

أمسك كارو الفظ بمقص وهدده قائلا :

ـ نحن لسنا بحاجة إليك فى القرية .

ـ القرية حياتى .

ـ كان عليك أن تكون خائفًا يا نيفر صدقنى ، لن تبلغ شأوًا بعيدًا .

ـ ضع هذا المقص ، واعلم أن أى خوف لن يحول بينى وبين احترامى لقسمى .

تبادل الرجلان طويلا نظرات كلها تحد . ووضع كارو الأداة فوق الحجر .

ـ إذن ، فما من شىء يخيفك؟

ـ إننى أحب مهنتى وسوف أبرهن للجميع أننى أستحق الثقة التى منحتها لى الجماعة ، أيا كانت الظروف والعداءات .

ـ إننى أترك لك هذه الكتلة الحجرية . أكملها .

ابتعد الحرفى ، وقام نيفر بإزالة بعض الخشونات الباقية على الحجر دون أن يعبأ بمرور الوقت . كانت حركاته هادئة هدوء الضوء الغارب .

سأله رئيس المجموعة :

ـ ألم يحن الوقت لعودتك إلى دارك ؟

ـ لقد انتهيت تقريبا .

ـ مضايقات من كارو؟

ـ لا . . أبدا . إن له طبعه ولى طبعى . إذا ما بذلنا الجهد الكافى ، فسوف تتحسن علاقاتنا . ومهما يحدث ، فلن يؤثر ذلك على العمل .

ـ تعال معى يا نيفر .

أخذ نيب المنجز المتدرب إلى مخزن مودع فيه مختلف أنواع الحجارة .

ـ كيف ترى هذه ؟

ـ حجر رملى عادى ، هين بما يكفى لقطعه بسكين من البرونز ولكنه كثير المسام . وهو لا يأتى من أفضل محجر فى جبل السلسلة ، وغير جدير باستخدامه فى أى من المنشآت الملكية .

ـ أنت محق يا نيفر المحجر شيء رئيسى : أسوان للجرانيت الوردى ، حاتنوب للمرمر وتورا للجير والجبل الأحمر للبلور الصخرى . إن «ساحة الحقيقة» لا تسمح بأى تقصير فى هذا المجال ، وعليها أن تحتفظ بنفس هذا المستوى من الالتزام . سوف تزور كلا من هذه المحاجر ، وسوف تحفر فى ذاكراتك مستوى استخراج الحجارة فى كل منها . هل فكرت فى أصل الحجارة؟

ـ أعتقد أن الحجارة تتكون تحت الأرض ، وأنها تنمو فى بطن الجبال ، ولكنها أيضًا وليدة الفضاء المضيء ، بما أن بعضا منها قد سقط من السماء . فكتلة من الحجارة تبدو ساكنة ولكن يد المثّال تعرف أنها حية وأنها تحمل آثار تغيرات تعجز العين عن رؤيتها لأن العصر المعدنى ليس عصر الإنسان . فالحجارة ، شاهد على طفرات تتجاوز وجودنا ؛ وبإدراكنا لتلك التحولات ، ألا نصبح نحن أيضًا بدورنا شهداء على الأبدية .

ـ هل يعجبك هذا الجرانيت؟

ـ إنه أعجوبة . . . سوف يصقل بإتقان ويعيش على مدى القرون .

ـ هل تحب أن تصبح مثالا؟

ـ إن تعلم قطع الحجارة قد يستغرق حياتى كلها، ولكن النحت يستهوينى .

ـ إن «أوسرهات» رئيس المثّالين يرى أنه ليس بحاجة إلى أى شخص، وسوف تواجهك صعوبات كثيرة لإقناعه بتعليمك . ولكن إذا كانت الحجارة تتحدث إليك فربما تفتح لك الطريق .

ـ إنها هى التى أنصت إليها، لا لشىء آخر

تظاهر «نيب» المنجز بمغادرة الموقع ، ولكنه كان يراقب الشاب من فوق تل صغير . مع الغد ، سوف يتحدث لزميله «كاها» عن ضرورة ترقية نيفر الصامت فى مراتب «ساحة الحقيقة» .

* * *

الفصل السابع والأربعون

لم يكن من الممكن أن تتمنى كلير أكثر من ذلك : حب عميق ووضاء فى قرية متميزة تكتشف رويدا رويدا عاداتها وأسرارها الصغيرة، تخدم كل يوم الإلهة «حتحور» بإعداد باقات الأزهار التى توضع فوق مذابح الزوايا والمصليات.

كانت النساء المتدربات غير منقسمات لمجموعتين مثل الرجال، وكلير فى آخر تسلسل المراتب، تنجز بسعادة المهمة الموكلة إليها. إلا أن قرويات «ساحة الحقيقة» كن لا يتبادلن معها. إلا عبارات تافهة ويشعرنها بأنها ما زالت بعد غريبة وليست محل ثقة.

ومع قدوم المساء، يتبادل نيفر وكلير الحديث كل عن تجربته، ويريان فى موقف الحرفيين وزوجاتهم أمرا طبيعيا. إن هذه القرية لا مثيل لها، ويتحتم خوض قتال طويل حتى يحظى المرء بالدخول فيها دون قيود.

عند الاحتفاء بحتحور إلهة النجوم ـ التى تبعث فى الكون القوة المحبة، القادرة وحدها على التوحيد بين كل عناصر الحياة ـ كانت كاهنات «ساحة الحقيقة» يسهمن فى الإبقاء على نوع من التجانس اللامرئى الذى بدونه يصبح من المحال وجود أى مخلوق مرئى يتبع قوانين السماء ـ كان يقع على عاتق الجماعة ككل وعلى القائمين على الطقوس فى معابد مصر كافة، بدءا بالفرعون نفسه، الإبقاء على هذه الطاقة البارعة لضمان حماية الآلهة لباقى السكان ووجود «ماآت» على الأرض.

وعلى الرغم من أن كلير كانت تشغل درجة متواضعة، فإنها كانت سعيدة بالمشاركة فى هذا العمل الرئيسى ويزيد من إحساسها بهذه السعادة أن القرية قد كرست وجودها لهذا العمل.

كان باب مسكن «كازا» واضع الأوتار مقلقا. وقد جرت العادة على أن تنظف زوجته كل صباح عتبة المنزل وحجرة المدخل وتأخذ بنفسها باقة الورود من يد كلير.

شعرت المرأة الشابة بالقلق فطرقت الباب .

فتحت لها سيدة سمراء قصيرة القامة ، وقالت بلهجة فظة كما لو كانت كلير هى المسئولة :

ـ زوجى مريض . وبسبب انشغال المرأة الحكيمة بزوجة الكاتب «راموسى» لا أعرف متى ستأتى .

ـ ربما استطعت مساعدتك .

ـ هل لديك معلومات فى الطب ؟

ـ بعضها .

ترددت زوجة «كازا» واضع الأوتار .

ـ إنى أنذرك . إذا ثبت عدم فاعليتك ، فسوف أقول للجميع أنك لست إلا مدعية للعلم!

ـ سيكون معك كل الحق .

أسكت هدوء كلير السمراء القصيرة التى أفسحت لها الطريق .

كان كازا ممددا فوق دكة حجرية ، تحت رقبته وسادة . كان متوسط القامة شعره قاتم السواد ، وجهه مربع وعيناه بنيتان وساقاه ممتلئتان .

ـ مم تتألم ؟

ـ بطنى تحرقنى .

فحصت كلير المريض وفقا لتعاليم نيفيرت رئيسة الأطباء ، واضعة فى اعتبارها لون جلده ورائحة جسده وأنفاسه . ربتت بصفة خاصة بطنه وجست نبضه للكشف عن دقات قلبه .

وقال كازا قلقا :

ـ هل الأمر خطير ؟

ـ لا أعتقد ، فليس هناك شيطان يتهددك . أنت تعانى من المعدة نتيجة للإسراف فى الطعام . ستأكل لعدة أيام العسل والخبز الجاف المحمص والكرفس والتمر وتشرب الجعة الخفيفة فى جرعات صغيرة وعلى مرات متكررة .

ورويدا رويدا سيزول الألم .

كان الحرفى قد بدأ يشعر بالفعل ببعض التحسن . ثم توجه بالحديث إلى زوجته قائلا :

ـ أعدى لى كل ذلك ، ولا تنسى إخبار كاتب المقبرة بأننى لن أذهب للعمل اليوم .

كانت السمراء القصيرة القامة تحدق فى وجه كلير ، وقد أخذها الشك .

ـ أترغبين فى أن أضع الأزهار على مصلاك؟

ـ سوف أتولاها بنفسى . اخرجى . علىّ القيام بأعمال كثيرة .

ـ حمتك «حتحور» وشفت زوجك!

كانت كلير تنوى مواصلة توزيع الأزهار ولكنها تسمرت فى مكانها . فعلى بعد متر منها ، وفى وسط الشارع الرئيسى ، كانت المرأة الحكيمة تقف بشعرها الكثيف الأبيض وعينيها الفاحصتين .

ـ من علمك التطبيب؟

«تيفيرت» رئيسة الأطباء .

ارتسمت على الوجه القاسى للمرأة الحكيمة ابتسامة خفيفة .

ـ «نيفيرت » . . إذن لقد عرفتها .

ـ نعم ، إنها هى التى علمتنى .

ـ لماذا لم تصبحى طبيبة ؟

ـ لأن «نيفيرت» تنبأت لى بمستقبل آخر وقد استجبت لنبوءتها .

ـ هل تستطعين علاج أمراض أشد خطورة؟

ـ بعض منها .

ـ تعالى معى .

كان مسكن المرأة الحكيمة تغطيه خطميات برية ، ويقع إلى جوار مسكن راموسى . رأت الجارات بدهشة بالغة كلير وهى تدخل المنزل وراء صاحبة الدار التى لم تكن قد فتحت بابها لأحد منذ عشرين عاما .

اكتشفت المرأة الشابة غرفة كبيرة يفوح منها عطر زهرة العسل . وفوق الرفوف أوعية وأوان تحتوى على مستحضرات طبية وبطول الحوائط ، خزائن مليئة بأوراق البردى . وباحت لها المرأة الحكيمة بقولها :

ـ لقد عملت طويلا مع الطبيب «باهيرى» مؤلف رسالة فى اضطرابات المستقيم والشرج . لقد فرض على القرويين قواعد صحية يومية فى غاية الصرامة . وهى قاعدته الأساسية لتجنب غالبية الأمراض . نحن نمتلك المياه الضرورية وهى أولى وسائل علاجنا . لاتتهاونى بشأن هذا الموضوع، وقاومى القذارة بكل حزم . فأكثر أنواع العلاج فاعلية تغدو عديمة الفائدة إذا لم تتوافر قواعد الصحة العامة . هل تخشين العقارب؟

ـ إنى أخشاها . ولكن «نيفيرت» علمتنى أن سمها يحتوى على مواد مهمة لمكافحة العديد من الاضطرابات .

ـ نفس الحال بالنسبة للثعابين . سوف أصطحبك إلى الصحراء لصيد أكثر أنواعها ضراوة وصنع منتجاتنا . الطبيب الجيد «هو الذى يتمكن من العقارب» حيث إن هذه الحشرة قادرة على طرد الأرواح الشريرة واجتذاب الطاقات الإيجابية التى يضعها الطبيب الممارس فى التعاويذ . إن معالجة الجسد اللامرئى لا يقل أهمية عن علاج الجسد الظاهرى . هل تعرفين أولى تعاليم العلاج؟

ـ إننى الكاهنة النقية للنبوءة «سخمت» الخبيرة فى هذه الواجبات، التى تضع يدها على المريض، يدا خبيرة فى فن التشخيص .

ـ أرينى كيف تفعلين ذلك .

وضعت كلير يدها على رأس المرأة الحكيمة وعلى مؤخرة قمة رأسها وعلى يديها وذراعيها وقلبها وساقيها . وهكذا كانت تستمع إلى أقوال القلب فى كل قناة من قنوات الطاقة . ثم قالت فى النهاية :

ـ أنت لا تعانين إلا من أمراض حميدة .

وجاء دور المرأة الحكيمة لوضع يديها على كلير التى ما لبثت أن شعرت بحرارة قوية .

ـ إن طاقتى لتزيد عن طاقتك، وسوف أمحو عنك كل أثر من آثار التعب فى جسمك . وكلما شعرت بالضعف تعالى إلىّ وسوف أمنحك من جديد القوة التى تنقصك .

استغرقت جلسة العلاج المغناطيسى ما يزيد على نصف الساعة . وأحست كلير بأن دم جديد يسرى فى عروقها .

ـ من الواضح أن «نيفيرت» قد علمتك استخدام النباتات الطبية والسميات .

ـ لقد أمضيت أياما كاملة فى معملها، وقد انحفر تعليمها فى ذاكرتى .

ـ سوف تدخلين خزائنى التى تحتوى على المفردات وبالنسبة للباقى، ها هى ذى أوعية الترشيح التى أستخدمها.

عرضت المرأة الحكيمة على «كلير» زجاجات ينفصل جزؤها الأعلى عن الأسفل بورقة ترشيح. فى الجزء العلوى منها، أدوية صلبة وفى السفلى سوائل.

وفسرت ذلك قائلة:

ـ عند التسخين، يتصاعد البخار فيذيب المواد الصلبة التى تختلط عندئذ بالسوائل. وفى بعض الحالات لا ينبغى التسخين بل سحق المواد الصلبة فى الماء، باستخدام الهاون وصب المحلول الناتج فى آنية. هل ترغبين فى أن أعلمك علمى؟

ـ تألق وجه كلير.

ـ كيف أشكرك ؟!

ـ بالعمل الشاق، وبوضع نفسك فى خدمة الجماعة. واعلمى أن رؤساء المجموعات ـ وهم على صواب فى ذلك ـ لا يسمحون لعامل مريض بالعمل، وأن لهذا الأخير مطلق الحرية فى العلاج إما فى القرية وإما خارجها. وفى هذه الحالة الأخيرة، يطلب من الطبيب فاتورة بالأتعاب ويقوم كاتب المقبرة بسداد تكاليف ما دفعه. لاتفرضى نفسك عليهم أبدا. واتركى لكل واحد مسئولية الاختيار.

ـ هل علىَّ الآن أن أفهم من ذلك أننى قد أصبحت مساعدتك؟

إن كبار الجماعة فقط هم الذين يعرفون سنى. اليوم، يا كلير، أئتمنك على هذا السر: فى الأسبوع القادم سوف أبلغ مائة عام. ووفقا لما يقوله الحكماء، مازال أمامى عدة سنوات أقضيها فى التأمل وأهب نفسى تماما لـ «ماآت»، لا لأحد غيرها. وطالما أنك توافقين على مساعدتى، فربما أتمكن من ذلك.

ـ مائة عام ؟! هذا غير معقول

ـ إن هذه القرية تضم كنوزا لا تقدر بثمن. وأحد هذه الكنوز يتمثل فى معرفة أن العقل ليس مكتوبًا عليه حتما التدهور، حيث إنه يمكن مكافحة تقدم السن عن طريق ممارسة علم من شأنه تجديد خلاياه. أثبتى مقدرتك، وربما نتحدث عن ذلك مرة أخرى.

* * *

الفصل الثامن والأربعون

كان «بانيب» المتأجج يواصل تعلمه تحت الإدارة الحازمة لكنهير الشحيح في الثناء عليه، فقد كان كاتب المقبرة يعتقد أن الرسام الذي سيعمل في ساحة الحقيقة عليه أن يكون متمكنًا غاية التمكن من اللغة الهيروغليفية، وألا يتردد أبدًا عند رسم أحد رموزها. لذا، فكلما أظهر التلميذ ميلاً إلى الرضا عن نفسه، فرض عليه المعلم تمرينا أصعب.

كان «كنهير» لا يزال مندهشا من التناقض الشديد بين قوة هذا الشاب الجسدية ودقة إنجازه لرسومه. فقد كانت لديه القدرة، بفضل ما أخذ به نفسه من صبر لا ينفد، أن يظهر موهبة رسامي المنمنمات؛ وهذا ما كان طبعه الانفعالي والعنيف يؤكد عكسه. ولما كان «بانيب» لا يعرف التعب ولا يهدأ أبدًا إلا إذا رضي عنه معلمه غاية الرضا، فقد طلب هذا الأخير من المرأة الحكيمة مشروبًا مقويًا حتى لا ينهار أمام تلميذه.

في هذا الصباح، لم يعرض «كنهير» اختبارًا جديدًا على «بانيب» الذي اكتفى بأن يرسم - وبسرعة كبيرة - ما يزيد على ستمائة رمز هيروغليفي، من أبسطها إلى أشدها تعقيدًا.

وسأله كاتب المقبرة:

- هل أنت راض عن وجودك في القرية؟

- أنا هنا من أجل التعلم، وأنا أتعلم.

- على ما يبدو، أنت لا تقيم أي اتصالات مع باقي أعضاء المجموعة.

- أنا أقضي يومي في المدرسة، وفي المساء أعد لتدريبات اليوم التالي، أما أوقات فراغي فأقضيها في إعادة بناء مسكني. وللترويح عن نفسي، أسلي نفسي برسم وجوه البشر على قطع الحجر الجيري التي ألتقطها من الصحراء. وهكذا، ليس لدي الوقت للثرثرة مع هذا أو ذاك.

ـ وجوه . . وجوه من؟

ـ وجهك أنت ووجوه الآخرين. إنها تبدو لى مثيرة للضحك، ولكنى أتخلص منها بمجرد انتهائى من رسمها.

ـ هذا أفضل. لقد انتهت المرحلة الأولى من تعليمك يا «بانيب». إن رئيس المجموعة يطلبك، ولا أستطيع الكذب عليه بادعاء عدم استعدادك بعد. إن ساعة الاختيار قد حانت بالنسبة لك.

ـ أى اختيار؟

ـ أن تصبح إما كاتبًا فى طيبة وإما رسامًا فى «ساحة الحقيقة». إذا ما وقع اختيارك على العرض الأول، فسوف أشفع لك عند بعض الزملاء، ومن ثم تنخرط فى سلك الإدارة. أعلم أنك سوف تلاقى صعوبة فى الانصياع للوائح ولكن مثل هذه المتاعب تتلاشى أمام بريق المهنة التى تنتظرك. سوف تنعم بسكن وظيفى، وتثرى عامًا بعد عام؛ والخدم سييسرون عليك الحياة، وسوف ينحنى الجميع أمامك. وبفضل مقدرتك على العمل وذاكرتك الحديدية، سوف تتولى موقعًا عظيمًا من مواقع المسئولية. ولكن فى المقابل، فإن مستقبلك كرسام يبدو مظلمًا، فزملاؤك ليست لديهم النية لمساعدتك، بل على العكس من ذلك، إنهم يعرفون بعضهم البعض منذ أمد طويل ولا يحبذون مجىء قادم جديد يؤخرهم في العمل.

ـ نحن ننتمى إلى نفس الجماعة. أليس كذلك؟

ـ بلى، بالطبع. ولكنهم محترفون مدربون، ورجال قساة يصعب إرضاؤهم. فى رأيى أنك مهما بذلت من الجهد ومنحت من العطايا، فسوف يلفظونك وتظل دائمًا مجرد عامل يشعر بخيبة الأمل لأنه أخطأ المستقبل البراق لمهنة الكاتب.

ـ هل من المتوقع أن يكون زملائى قساة لهذه الدرجة؟

ـ بالنسبة لهم أنت تمثل تهديدًا، لذا فسوف يدافعون عن أنفسهم.

ـ هذا موقف لا يتسم بالود مطلقا.

ـ إن خدم «ساحة الحقيقة» ما هم إلا بشر يا «بانيب».

ـ إن من يسمعك يعتقد أن طريقى مرسوم بالكامل.

ـ إذا ما استمعت إلى صوت العقل . . . فلن تندم أبداً .

ـ هنا أمر يثير فضولي يا أستاذي . . لماذا عالم بمثل موهبتك قبل منصب كاتب مقبرة بدلاً من أن يصبح أحد كبار أشراف طيبة؟ ولا بد أن ساحة الحقيقة تمتلك سحرا كبيرا حتى تجذبك إليها هكذا .

ذهل كنهير ولم يستطع الرد . أردف بانيب قائلا :

ـ لا تقلق بالنسبة لي ؛ سوف أواجه الرسامين وأثبت لهم أن مكاني بينهم .

كان كنهير قد حاول ـ بالاتفاق مع نيب المنجز رئيس المجموعة ـ أن يثبط همة الشاب ، ولكنه كان سعيداً بإخفاقه .

أحس بانيب وهو يعبر الشارع الرئيسي للقرية أنه قد أفاق لتوه من نوم عميق . فمنذ قبوله في الجماعة ، لم يكن لديه إلا هدفان : تعلم رسم الحروف الهيروغليفية وجعل داره صالحة للسكنى . وقد فاق تحقيقه لهدفه الأول كل آماله حتى إنه قد أثر كثيراً في تحقيق الهدف الثاني .

معرفة القراءة والكتابة كانت تعطي الشاب شعوراً رائعاً بالقوة . في كل مرة كان يرسم فيها نمراً أو صقراً أو ثوراً ، كان ينتابه الشعور باكتساب بعض من خصال الحيوان ؛ كانت الكتابة تبعث الحياة في كل ما هو مجرد ، والقراءة تقدم له تعاليم الحكماء .

كان عامان قد مرّا كالحلم ، لم يختلط فيهما «بانيب» إلا بـ «نيفر» و«كلير» اللذين لم يكن يتحدث معهما إلا عن الحروف الهيروغليفية ، وكان يمضي أفضل أوقاته على مقربة من «كنهير» ، إما في المدرسة مع بقية التلاميذ وإما في دروس خاصة . والآن ، وضحت إستراتيجية معلمه : إن كاتب المقبرة ، حاول إعداد كاتب آخر وإرساله للخارج!

ربما يستطيع «بانيب» استخلاص درس من هذا القتال الصامت الذي لم تشتبك فيه الأيدي لكن العقول . كان «كنهير» قد حاول فتنته والتلاعب بمستقبله المهني وتحويل وجهته عن طريق إغرائه بمزايا العمل البيروقراطي التي لا تعد ولا تحصى .

ولكن «كنهير» فشل . و«بانيب» ، دون الانحراف عن طريقه ، استحوذ على علمه وأصبح الآن متمكنًا من أدوات القدرات التي لا غنى عنها لرسام في ساحة الحقيقة . كان سحرها قويا لدرجة امتصت معها طاقته واهتمامه وأنسته أجمل مخلوقات الآلهة : النساء .

منذ بدئه فى العمل، لم ينظر «بانيب» إلى المرأة ولا لمرة واحدة! «كلير» كانت مستثناة لأنها ليست فقط شديدة الاختلاف عن الأخريات ولكنها أيضًا زوجة «نيفر»: أخت كبرى تهدئ من روعه ولا تسدى إليه إلا أفضل النصائح.

كيف استطاع الاستغناء عن النساء طوال هذه الفترة؟ أهى قوة سحر الماكر «كنهير»؟! سوف يأخذ حذره فى المستقبل من هذا الشخص الملتوى الذى يعد واحدًا من الرؤساء الثلاثة للجماعة. ألم يحرمه من الحب عندما اجتذبه إلى شباكه؟

كان يوم الراحة لمجموعة اليمين: فريق منهم نائم، وفريق آخر يجمل داره، وثالث يصنع الأثاث لبيعه للمشترين من الخارج. حتى الآن ظلوا جميعا يتجاهلون «بانيب» الذى عاملهم بالمثل. فقريبا، سيضطر لمواجهة الرسامين ولكنه، فى نهاية هذا اليوم، كان يمنح نفسه متعة لا تقارن: النظر إلى نساء القرية وإغرائهن.

بدلاً من العودة لمنزله فى خطى متعجلة للاهتمام به، أخذ «بانيب» يتسكع فى الشارع الرئيسى ويحملق فى كل واحدة من بنات الجنس اللطيف.

قبل دخوله لساحة الحقيقة، كان بانيب يعتقد أنها مكان يسوده التزمت، تظل فيه زوجات الحرفيين حبيسات ديارهن أو فى المصليات، ولكنه وجد غالبية نسائها - مثل غيرهن فى القرى المصرية كافة - يعملن ويتنزهن وصدورهن عارية. وكانت نظرة «بانيب» تستوقفها صاحبات النهود الشابة. إلا أنهن للأسف، لم تكن تلك اللعبة تروق لهن، فيرمقنه بنظرة سوادوية أو يعدن إلى ديارهن وهن يستشطن غضبًا.

لم تكن عملية الصيد هذه تنبئ بأنها ستكون سهلة. ولكن الشاب الضخم كان لا يشك فى نجاحه. فبعد فترة الحرمان المقيتة تلك، لن يتدلل، وسيقبل أى شىء، سواء كانت امرأة عجوزا مجربة أم شابة مبتدئة.

اعتقد «بانيب» أنه قد وقع على فريسته عندما راقبته بحنو فتاة شقراء تميل إلى الرقة ورائعة الجمال. هرول ناحيتها فأفزعها وصفقت الباب من ورائها.

وهنا همس صوت عذب:

- من يرى ذلك يقسم أنك تخيف الفتيات.

استدار «بانيب» ليكتشف فتاة رائعة الجمال صهباء، فى نحو العشرين من عمرها، ترتدى فستانا أخضر بحمالات يكشف عن صدر عار. كانت ذات نهدين ممتلئين تؤجج استدارتهما رغبته.

ـ اسمى «بانيب» .

ـ أنا اسمى فيروز وغير متزوجة .

متزوجة أو غير متزوجة ، لم يكن ذلك يعنيه كثيراً . المهم أنها امرأة .

ـ أترغبين فى الثرثرة قليلاً؟

ـ إطلاقًا . أنا أرغب فى مضاجعتك وفى الحال .

ابتسمت فيروز .

ـ إنك فعلاً ضخم البنيان . . .

ـ وأنت زهرة يانعة ! أعتقد أننا سنتواءم بشكل رائع وأن لذة لقائنا سوف تكون متبادلة .

ـ أتعتقد أن هذا هو أسلوب التحدث مع النساء؟

ـ لقد تحدثنا بما يكفى .

تسلق درجات السلم القليلة المؤدية لمنزل «فيروز» الصغير وضمها إلى صدره وأنعم عليها بقبلة ملتهبة . ولما لم تستطع المقاومة اصطحبها إلى الداخل حيث ساد ضوء خفيف وانتزع عنها ثوبها الرقيق .

أصاب «بانيب» الجنون من تأثير عطرها العنبرى وبشرتها البيضاء وطريقة التوائها إلى جانبه . استجابت لكل مبادراته وانطلقا سويًا فى رحلة رائعة لاكتشاف جسديهما .

* * *

الفصل التاسع والأربعون

نشد العاشقان أخيرًا بعد ارتواء رغبتيهما، بعض الراحة.

ـ إنك حقًا اسم على مسمى «بانيب» المتأجج.

ـ لم أعرف أبدًا امرأة بمثل إثارتك. . .

ـ هل غزواتك كثيرة لا تحصى لهذه الدرجة؟

ـ فى الريف، لا تمثل الفتيات أية مشكلة.

ـ يبدو أنك لا تعير المشاعر أدنى اهتمام.

ـ المشاعر، إنها مناسبة فقط للمسنين. المرأة تحتاج الرجل والرجل يحتاج المرأة. . . . لماذا نعقد إذن كل شيء؟

ـ هل هذا رأى صديقك «نيفر».

ـ أتعرفينه؟

ـ لمحته مع زوجته «كلير».

ـ هما شيء مختلف. حبهما معجزة سوف تجمع بينهما حتى الموت. ولكنى لا أحسدهما. إنه لن يعرف أبدًا بعد ذلك امرأة أخرى. هل تعرفين معنى ذلك! إذا فكرت قليلاً فسوف تدركين أن ذلك أقرب إلى اللعنة.

انتصب «بانيب» مرتفقا على ساعديه.

ـ أنت رائعة فعلاً. . . لماذا لم تتزوجى؟

ـ لأنى أفضل حريتى مثلك تمامًا.

ـ هذا من شأنه أن يثير القيل والقال فى القرية . .

ـ نعم ولا . إننى ابنة مثال من مجموعة اليسار ، ترمل وهو بعد شاب يافع . وتولى تربيتى بعض الأشخاص من هنا وهناك حتى وافته المنية منذ ثلاث سنوات . فقررت البقاء هنا فى قريتى وأن أصبح كاهنة «حتحور» . أليست هى إلهة الحب وكل حب؟

ـ كان لك عشاق كثيرون؟

ـ هذا أمر لا يعنيك!

ـ أنت على حق . لا أهمية لذلك! ففى الوقت الحالي عاشقك الأوحد هو أنا .

ـ أنت مخطئ يا «بانيب» . أنا امرأة حرة ولن أخضع أبدًا لرجل . وربما لن أضاجعك أبدًا بعد اليوم .

ـ أنت مجنونة .

وعبثًا حاول أن يستلقى فوقها ولكن فيروز أفلتت منه .

ثم أمرته قائلة :

ـ اخرج من دارى .

ـ يمكن أن أسيطر عليك عنوة!

ـ سوف تطرد من القرية اعتباراً من هذا المساء ، ويحكم عليك بالسجن لمدة طويلة . اخرج من هنا يا «بانيب» .

توارى الشاب الضخم من فوره مذهولاً . كم هن معقدات هؤلاء النساء وخاصة عندما ترفض الانصياع لهن! لقد فقد «فيروز» ولكنه سيعثر على غيرها . والآن ، وقد خمدت جذوته الجنسية لبعض الوقت ، فلن يشغل باله إلا الانتهاء من مسكنه .

كما هو الحال بالنسبة للديار الأخرى فى ساحة الحقيقة ، كان الوزير هو الذى خصص له رسميًا مسكنه الذى كانت مساحته المتواضعة التى تبلغ ٥٠ متراً مربعًا تضع فى الحسبان أنه أعزب . أما الأزواج فكانوا ينعمون بمسكن مساحته ٨٠ مترا مربعا فى المتوسط والأزواج اللذين لديهم أطفال مسكنهم ١٢٠ مترا مربعا . أما واجهات المنازل ، فمن ثلاثة إلى سبعة أمتار وتطل على الشريان الرئيسى ، ضيقة ويخترقها باب صغير تؤدى إليه درجات سلم صغير .

كان البناء يرتكز على قاعدة حجرية بارتفاع متر واحد رفعت من فوقها جدران من اللبن النيئ المغطى بأحد الدهانات وبماء الجير. هذه التشطيبات لم تكن موجودة بمنزل «بانيب» الذى كان أبعد ما يكون عن صلابة أقدم بيوت القرية المبنية مباشرة فوق الصخر.

لم يقدم «نيفر» المساعدة لصديقه الذى كان حريصا على العمل بمفرده، ولكنه رغم ذلك أسدى له عدة نصائح لتجنب وقوعه فى بعض الأخطاء القاتلة. ومن ناحية أخرى، استمات «بانيب» فى جعل الجدران الخارجية بالغة السمك أما الجدران الداخلية التى تفصل بين الحجرات فقد جعلها أقل سمكًا ومن الطوب، الذى يربط بينه الملاط. على هذه الفواصل تقوم الأسقف والسطح. والهيكل يتألف من جذوع النخيل التى تم تربيعها بالكاد ووضعها جنبًا إلى جنب. والحق أن رصها بشكل صحيح لم يكن بالأمر الهين ولكن نجح فى ذلك بفضل قوة بنيانه وإرشادات «نيفر» المحددة.

أما وضع النوافذ، فقد استلزم منه كل الاهتمام، فعليها يقع عبء ضمان سريان جيد للهواء مع الاحتفاظ بالحرارة فى فصل الشتاء وبالهواء المنعش فى فصل الصيف. وبعد إخفاق أول اضطره لإعادة جزء من البناء وزيادة سمك الحوائط الخارجية، حصل «بانيب» على نتيجة مرضية.

وكغالبية باقى سكان القرية، كان مسكنه - يتكون من ثلاثة طوابق - به ثلاث غرف رئيسية ومطبخ وقبوان ومرافق وسطح. ولكنه كان خاليًا وعاريًا، وما من زينة تجمله. والأثاث مجرد حصيرة، وتعوزه الرسوم والزينة لبعث الروح فيه.

كان «البانيب» آلاف الأفكار، إلا أنه لم يكن قادرًا على تنفيذها، وكان الكمال وحده هو ما يهتم به. فى الوقت الحالى، كان يكتفى بالأزهار المقدمة يوميًا إلى كاهنات الإلهة «حتحور» والتى كانت «كلير» مكلفة بتوزيعها على سكان القرية لوضعها فوق أحد المذابح تكريمًا للآلهة.

كان الوقت قد حان ليتعلم «بانيب» تقنيات جديدة تمكنه من تجميل منزله وجعله أروع ما فى ساحة الحقيقة.

كان هناك رجل يقترب.

على الرغم من أنه أقل طولا من «بانيب»، فإنه كان لديه تقريبًا نفس عرض الكتفين ويسير وهو يضرب الأرض بقوة كما لو كان يجد مشقة فى رفع كتلته العضلية عنها.

ـ أجئت تبحث عنى؟

ـ أهذا أنت بانيب المتأجج؟

ـ ما اسمك؟

ـ «نخت» القوى، حجار.

ـ لقب جميل . . . ما الإنجازات التى قمت بها حتى تستحقه؟

ـ إنك لو بدأت اليوم فى رفع الأحجار حتى دون أن تتوقف ولو لثانية واحدة فى حياتك وحتى تبلغ من العمر مائة عام، فلن تقطع منها مثل ما أنا قطعت.

ـ لا أنوى أن أصبح حجاراً بل رساماً ومصوراً.

ـ إن هناك بين صفوف الجماعة مصوراً فريداً وثلاثة رسامين من ذوى الخبرة. إنهم من يتولون تزيين دار الأبدية الخاصة برمسيس الأكبر وبأفراد الأسرة المالكة والنبلاء. فكيف لفتى مشاغب مثلك أن يفيدهم؟

ـ أنا متعلم مثلهم وأنتمى إلى نفس الجماعة.

ـ أنت تخلط بين النظرية والممارسة أيها الفتى. بالطبع، أنت محظوظ لقبولك بيننا ولكن إلى متى ستبقى؟

ـ إلى ما يحلو لى من الوقت.

ـ هل تعتقد أنك سيد قرارك؟!

ـ على طول الدرب الذى نسلكه، هناك أبواب. البعض ينظر إليها، والبعض الآخر يدقها على أمل أن تفتح له، أما أنا فأحطمها.

ـ وانتظاراً لذلك، سوف تطيعنى.

ـ بماذا تأمرنى يا «نخت»؟

ـ هناك جدار فى منزلى يستلزم إصلاحه، ولا أرغب فى إرهاق نفسى. بما أنك قد اكتسبت بعض الخبرة فأنت الذى ستتولاه.

ـ إنه منزلك أنت وليس منزلى. حل مشكلتك بنفسك.

ـ لقد عينت لتخدم أيها الصبى .

ـ أخدم العمل نعم، ولكنى لا أخدم مستغلين أمثالك .

ـ أنا أرى أنك شديد الوقاحة . . . . تأديب جيد سيعيدك إلى الطريق السليم .

كان خصمًا قويا، ولكنه لم يثر خوف «بانيب» الذى كان واثقًا من سرعته فى الفر كما هى فى الكر .

ـ خذ حذرك يا نخت، أنت تخاطر بتلقى ضربة هائلة .

ـ اقترب أيها المتبجح، اقترب .

ـ هل فكرت مليّا؟ لو كنت مكانك لعدت إلى دارى لتدللنى زوجتى . إنها إذا رأتك مغطى بالجروح فسوف تهجرك .

حاول «نخت»، بعدما فاض به الكيل، أن يوجه لكمة إلى بطن بانيب، ولكن الأخير قفز إلى جانبه ووجه له ضربة فى جانبه الأيسر كسرت له ضلعًا، فصرخ متألمًا .

ـ توقفا . . قالها «نيفر» بلهجة آمرة وهو يركض تجاههما، اكتشف نيفر هذا المشهد المؤلم بينما كان قادمًا يحمل لصديقه فطيرة التين من صنع زوجته «كلير» .

أطاع «بانيب» على الفور .

إلا أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة «لنخت» القوى الذى انقض على خصمه .

* * *

الفصل الخمسون

كان حرفيو جماعة اليمين يتوجهون ـ بقيادة كارو الفظ الذى يضبط إيقاع سيرهم بعصا طويلة مليئة بالعقد ـ إلى المقر المخصص لهم عند التل الشمالى فى أقصى حدود مدينة الأموات.

اكتشف «نيفر» الصامت مبنى أقرب ما يكون إلى المعبد الصغير يؤدى إليه رواق. وهنا قام «نيب» المنجز رئيس المجموعة بتأدية وظيفته كحارس للمكان وطلب من كل حرفى أن يقدم نفسه.

بعد الانتهاء من هذه الشعيرة، دخل كل عضو من أعضاء مجموعة اليمين فى فناء صغير مكشوف السطح، وركع أمام حوض تطهير مستطيل الشكل. غَرَف منه الفنان شد المنقذ بكأس وصبها على أيادى زملائه الممدودة كفوفها إلى السماء.

طهر «شد» نفسه بدوره، ثم دخل الحرفيون إلى قاعة الاجتماعات التى كان سقفها المرتكزِ على عِمودين مطليين بلون أصفر صلصالى وعلى طول الجدران كراسى خشبية مدمجة فى دكك حجرية وثلاث نوافذ عالية تنشر الضوء الخافت فى أثناء النهار. ولما كان الليل يسدل أستاره، فقد تمت إضاءة بعض المشاعل.

كانت جدران صغيرة تفصل بين قاعة الاجتماعات ومحراب مرتفع لا يدخله إلا رئيس المجموعة. كان يتألف من متَّسع يضم تمثالاً صغيراً للإلهة «ما آت» ومن حجرتين جانبيتين محفوظ فيهما أوانى دهانات وبعض المذابح المتنقلة وأدوات أخرى خاصة بالشعائر.

اتخذ نيب المنجز مجلسه تجاه الشرق فوق المقعد الخشبى نفسه الذى شغله من قبله رؤساء العمل المكلفون بتوجيه جماعة اليمين. ثم أمر قائلاً:

ـ دعونا نحيِّى أسلافنا وندعوهم أن ينيروا لنا طريقنا. وليبق المقعد الخشبى القريب منى

خاليًا دائمًا من أى وجود بشرى ليخصص إلى الـ «كـا» التابع لسلفى الذى يعيش بين النجوم والدائم الحضور بيننا. وليحفظ أمثاله وحدتنا.

صمت الحرفيون، وشعروا جميعًا أن حديث نيب المنجز ليس عقيمًا وأن العلاقات التى تربط بينهم أقوى من الموت.

صرح رئيس المجموعة قائلاً:

ـ هناك نزاع بين اثنين من أعضاء مجموعتنا. وأريد مشاورتكم لمعرفة إمكانية تسوية هذه المسألة هنا أو إحالتها إلى محكمة ساحة الحقيقة.

وهنا التمس «نخت» الحديث وقد لف رأسه فى قماش مبلل بمرهم من نبات المر لتهدئة آلامه.

ـ لقد هجم علىَّ المتدرب «بانيب» المتأجج وحطم رأسى تقريبًا وأنا فى حاجة لعدة أيام من الراحة، وهذا سوف يعطل عمل المجموعة. لذا، يجب أن تحكم عليه المحكمة بأقصى عقوبة.

صدق «كارو» الفظ على رأيه قائلاً:

ـ ليس هناك حل آخر.

كان «بانيب» يتهيأ للاحتجاج بشدة عندما وضع «نيفر» يده على كتفه لمنعه من الوقوف.

وقال نيفر فى هدوء:

ـ لقد شهدت المواجهة بين «نخت» القوى و«بانيب». كان واضحًا أنها سوف تتحول إلى اشتباك بالأيدى وقد تدخلت لوضع حد لهذا الشجار. لقد أطاعنى «بانيب»، أما «نخت» فقد هجم عليه مندفعًا برأسه نحوه. لقد حاول أن يعتبره خائنًا بينما كل ما قام به «بانيب» هو الدفاع عن نفسه فصرعه.

سأله رئيس المجموعة:

ـ ألا تتحدث هكذا لأن «بانيب» صديقك؟

ـ لو كان قد أساء التصرف ما حاولت تسويغ سلوكه. وبالنسبة لى، لم يعد يبقى إلا توضيح نقطة واحدة: سبب هذا الصدام.

قال «نخت» معترضًا :

ـ أبدًا . إن جروحى تبرهن على أننى لم أكن المعتدى .

قال «نيفر» :

ـ هذه حجة خادعة . لو كنت استمعت إلىّ لما أصابك أذى . ولكن ماذا كنت تريد من بانيب؟

ـ كنت أرغب فى مجرد الحديث معه ، ولكنه أمطرنى بوابل من الشتائم . هذا موقف يتنافى مع سلوك المتدرب !

ـ أمن حق حجار أن يطالب متدربا بالخروج عن الطريق الصحيح وخيانة القسم الذى أخذه على نفسه ؟ !

شحب وجه «نخت» القوى وقال :

ـ هذا السؤال لا معنى له ! لقد كنت بعيدا جدا ولم تستطع سماع أى شىء . ثم . . . إننى لم أطالبه بشىء قط .

ـ صحيح أننى لم أسمع أى شىء ، ولكن سلوكك لا يفسر إلا بهذا الأسلوب . نحن نعيش فى ساحة الحقيقة و«ماآت» هى مليكتنا ، فكيف لك أن تستمر فى الكذب؟

لم تكن لهجة حديث «نيفر» عدوانية . كانت أشبه بلهجة أب يحاول أن يجعل ابنه يدرك أنه ارتكب خطأ فاحشًا وأن الوقت لم يفت بعد لإصلاحه .

دارت حجج نيفر فى رأس «نخت» القوى بسرعة هائلة . وبدت له نظرات زملائه أثقل من قفف الحصى التى كان كثيراً ما يحملها . ومن بعيد عادت ، إلى ذاكرته عبارات قسمه الأول .

أطرق برأسه ثم قال :

ـ إنى أسحب شكواى ضد «بانيب» . فشجار صغير مثل هذا لن يشكك فى أخوتنا . أحيانًا تعرف علاقاتنا بعض العنف ولكن ذلك ليس بالأمر الخطير . إذا كنا قد اشتبكنا بعض الشىء لأننا كنا نريد قياس قوانا ، فالأفضل إذا أردنا التصادم أن يكون ذلك من خلال مباراة مصارعة . . .

قال بانيب : أنا تحت تصرفك .

قال رئيس المجموعة: لقد أغلق ملف الحادث الآن. هل من موضوعات أخرى يجب تناولها؟

- أنا مستاء من نوعية الدهانات الأخيرة التى حصلت عليها - قال كارو الفظ - إن جلدى رقيق وهى تسبب لى احمرارًا.

وعد «نيب» قائلاً:

- سوف أخطر كاتب المقبرة ونفرض رقابة صارمة على نوعية الدهانات.

وقال الفنان شد فى أسف:

- سوف تنفد ريش الرسم الدقيقة قريبًا. وأنا حذرتكم من ذلك منذ شهور ولكن ما من مجيب.

- سوف أهتم أنا بهذا الموضوع. أهذا كل شىء؟

لم يطلب أحد الكلمة، فأعلن نيب المنجز:

- لدينا برنامج عمل مكثف جدًا. فعندما تنتهى مجموعة اليسار من دار الأبدية الضخمة الخاصة «بأبناء الملوك» التابعين لرمسيس الأكبر فى وادى الملوك، علينا - طبقا لأمر جاءنا - إصلاح العديد من مقابر وادى الملكات. وإذا ما استلزم لإنجاز هذا العمل ساعات عمل إضافية، فسوف تحصلون على خفاف من الدرجة الأولى وقطع جيدة من القماش على سبيل التعويض.

وقال «كارو» فى لهجة محتجة:

- أمامنا أيضًا عيدٌ نعد له العدة. متى إذن سيمكننا النوم؟ ومع ارتفاع درجات الحرارة، ستزداد مشقة العمل. خصوصا وأنه يعوزنا الماء البارد!

وزاد عليه «نخت» القوى قائلاً:

- لا تنس الجعة، فبدونها لن يكون لدينا أذرع.

وأضاف «جاو» الدقيق:

بوصفى رسامًا، وبالنظر لضخامة هذا المشروع. أطالب المعمل المركزى بتوخى اليقظة التامة بشأن نوعية الألوان التى يقدمها لنا. ينبغى علينا الالتزام بالتقاطيع وبالصبغات الأصلية.

طالب زميلاه «أونيش» (ابن آوى) و«باى» (الخبز الطيب) بنفس هذه المطالب.

ولما لم يرغب أى حرفي آخر فى الحديث، نهض رئيس المجموعة وأمر بإطفاء المشاعل ووجه تضرعا أخيرا إلى الأسلاف.

على الرغم من أن المقر كان قد لفه الظلام، فإن «بانيب» لاحظ بصيص ضوء غريب ينبعث من داخل المعبد حتى إنه كاد يُقسم أن هناك مصباحًا مضاءً بداخل المقبرة الصغيرة، وأن الضوء يخترق الباب المصنوع من الخشب المذهب.

ظنًا منه أنه قد وقع فريسة للهلوسة، حدق الشاب فى الظاهرة العجيبة، ولكنه لم يتح له الوقت لاكتشاف مصدرها لأنه كان مضطرًا لأن يتبع الحرفيين الذين غادروا قاعة الاجتماعات.

سأل بانيب الفنان شد:

ـ هل رأيت هذا الضوء الغريب؟

ـ اخرج فى هدوء.

كان الليل دافئًا والقرية نائمة، وما أن أصبحا فى الهواء الطلق حتى أعاد «بانيب» سؤاله:

ـ إذن، لقد رأيته؟

ـ لم يكن هناك إلا أضواء خافتة لمشاعل تنطفئ.

ـ كان هناك ضوء قادم من داخل المعبد.

ـ أنت مخطئ يا «بانيب».

ـ أنا واثق بأننى على صواب.

ـ اذهب لتنام. فالنوم سيمنعك من أن تترك نفسك فريسة للسراب!

توجه «بانيب» بسؤاله إلى «باى» (الخبز الطيب) الذى لم يلحظ هو الآخر شيئا غير معتاد. وصديقه الذى نجح فى تبرئة ساحته وإعفائه من أى عقوبة، كان قد عاد على الأرجح إلى بيته.

لا، مستحيل. كان من المؤكد أن «نيفر» يحب أن يتحدث إليه عن ذلك.

تشتت الفريق. وظل «بانيب» وحده فى مواجهة الباب المغلق لمقر الجماعة.

ما الذى حدث لنيفر؟

* * *

الفصل الواحد والخمسون

كان «بانيب» قد انتظر حتى الفجر على أمل أن يظهر صديقه من جديد. ومع وصول كاهنات «حتحور» متوجهات إلى المعبد لإيقاظ القوى الإلهية، عاد الشاب الضخم إلى منزله يائسا.

فجأة، بدت له القرية ذات المظهر الهادئ، مثيرة للقلق والعداء. فى الوقت الذى كان يعتقد فيه أنه قد فهم قوانينها، ها هو ذا يجد نفسه فجأة غارقًا فى المجهول. هل أصبح صديقه الوحيد ضحية مؤامرة من تدبير أفراد يخشى بأسهم قرروا التخلص من كل من لا يسير وفقًا لأهوائهم؟! لقد تحدى «بانيب» «نخت» القوى ودافع «نيفر» عن «بانيب». إذن فقد بات من المحتم القضاء على هذين الصديقين.

ولكن «بانيب» المتأجج لن يترك نفسه يذبح كبهيمة فى مجزر؛ فهو وحده قادر على أن يضرم النار والدم فى هذه القرية الملعونة.

كان يستعد للخروج إلى الحرب، عندما دق الباب. أخذت الريبة الشاب، فتسلح بعصا ليكون مستعدًا لشج رءوس الحرفيين الذين سيحاولون إيذاءه.. فتح الباب، رافعا ذراعه اليمنى، فاكتشف سيدتين. كلير وأخرى صغيرة شقراء فزعة. كانت الأولى تحمل تمثالاً نصفيًا من الجبس، والأخرى باقة من أغصان زهرة اللوتس والنرجس والترنجان.

قالت «كلير» مستخدمة العبارة التقليدية لتمنى يوم سعيد:

ـ حُفظَ وجهك. لقد رغبت «أوابت» فى مساعدتى لنبدأ فى إحياء منزلك.

ـ هل لديك أخبار عن «نيفر»؟

ـ هل أنت قلق؟

ـ لقد اختفى!

ـ اطمئن، لقد ذهب لزيارة إحدى الترسانات لدراسة الأساليب الفنية الخاصة بالنجارين.

ـ وحده؟

ـ لا، مع رئيس المجموعة وبعض الحرفيين.

ـ هل أنت متأكدة؟!

تفرست كلير وجه «بانيب» فى اهتمام.

ـ أنت تبدو مضطربًا!

ـ كنت أعتقد أنه قد اختطف أو أنه قد أسيئت معاملته أو....

ـ كل شىء على ما يرام. اهدأ. الأمر لا يعدو مجرد زيارة قصيرة ذات طابع مهنى. ماذا عساك أن تتخيل؟

وضع «بانيب» عصاه.

ـ لقد خفت عليه. لقد خشيت أن تكيد له الجماعة بأسرها.

قالت له كلير:

ـ اهدأ. هذا تمثال نصفى لأحد أسلافنا، سوف تعظمه كل يوم وأنت تفكر فيمن سبقوك من خادمى ساحة الحقيقة.

ـ هل يجب أن أضعه فى الغرفة الأولى، كما فى بيتك؟

ـ هذا هو العرف فى الواقع.

قدمت «أوابت» الطاهرة الأزهار للشاب الضخم وهى خجلة. وعلقت كلير قائلة:

ـ إن عطرها زكى يختلط بـ «كا» الأسلاف. لو لم نكن مرتبطين بهم ولم يمنحونا القوة، لاستحال علينا البقاء على قيد الحياة.

ـ الأسلاف لا يعنونى فى شىء. المستقبل وحده هو الذى يهم.

ـ أنت لن تبنى بلا أساس يا «بانيب». لقد شكل أسلافنا فكر هذه القرية وغذوا روحها بما صنعوه. وما نقله إلينا السلف ينبغى علينا أن ننقله بدورنا إلى الخلف. وأنت إذا ما أهملت الأجداد فسوف تصبح أصم وأعمى.

كان «بانيب» منهمكا فى التفكير فى حديث كلير إلى درجة جعلته لا يلحظ أن «أوابت» الطاهرة كانت تنظر إليه بنظرة حانية.

وضع «بانيب» التمثال النصفى لهذا السلف بلا عناية فى أحد أركان الحجرة الأولى لمنزله، ثم أكل فى عجلة ليتوجه أخيراً إلى منزل الفنان شد الذى كان يَعُدّه بمثابة رئيس الرسامين الثلاثة. كان ينوى مطالبته ببرنامج عمل محدد وألا يترك نفسه لحديث غائم يهدهده.

كان «شد» يستعد للرحيل لوادى الملكات وهو مجهز بأدوات هائلة. وقد جعلته أناقته الربانية وشعره المصفف بعناية وشاربه الدقيق وعيناه الرماديتان الفاتحتان وأنفه المستقيم وشفتاه الدقيقتان يبدو وكأنه ينظر باحتقار لمن حوله.

ـ انتظرنى!

ـ انتظرك!.. لماذا؟

ـ سأرافقك إلى وادى الملكات. أليس كذلك؟

كانت ابتسامة شد أشد من حد النصل.

ـ أنت تهذى يا صغيرى. إنى سأشرع فى أعمال تجديد فى غاية الدقة ولست فى حاجة لشخص عاجز.

ـ إنى أعرف القراءة والكتابة وأرسم الهيروغليفية بإتقان!

ـ شأنك شأن بقية سكان القرية. ولكن ماذا تعرف أنت عن فن الرسم بالقلم وقواعد التناسب والطبيعة السرية للألوان؟ يبدو أنك تريد أن تصبح رساماً أو حتى فناناً. أتجهل أنه ليس أنت من يملى مطالبه على الجماعة؟ عليك أن تتعلم كيف تصنع الجص، وهذا بلا شك سوف يصبح شغلك الشاغل حتى نهاية أيامك.

كانت كلمات شد بمثابة سكاكين تنغرس فى جسد الشاب الضخم. وواصل الفنان حديثه قائلاً:

ـ هناك نقطة أخرى لم تدركها. إن المسكن الذى خصص لك ليس منزل فلاح أو كاتب صغير بل إنه محراب. وأنت لم تفكر إلا فى الراحة المادية. ولكن ماذا تعرف أنت عن المعنى الرمزى لكل حجرة؟ وأين هى الصور والأدوات التى تعطيها هذا المعنى؟ أيها

المسكين «بانيب»، أنت لم تزل بعد رجلا سطحيًا، وأنا لست متأكدًا من أنك تملك من الذكاء والمواهب الضرورية ما يجعلك خادمًا أصيلاً فى ساحة الحقيقة. اتخذ على الأقل من صديقك «نيفر» قدوة، فهو قد تقدم كثيراً. ولا تنس أن باب القرية ينفتح بسهولة إلى الخارج حيث ستحصل بلا أى عناء على عمل يناسبك.

نظر «بانيب» مذهولاً إلى الفنان وهو يبتعد دون أن يستطيع أن ينبس ببنت شفة. لقد أوشك، وقد تمكن منه الغضب، أن ينقض على «شد» وينتزع منه أدواته ويطأها بقدميه. إلا أن تعنيف الفنان له ظل يتردد كلذع السياط. وما زاد من إيلامه أن تعنيف شد له كان صائبًا.

كان شد محقًا: فهو لم يكن إلا فلاحًا وكاتبًا صغيراً. ولكن لماذا لم يساعده صديقه الوحيد «نيفر» على إدراك ذلك؟ وإلى أى نوع من التقدم ألمح شد؟ للتأكد من حقيقة الأمر قرر «بانيب» أن يتوجه بسؤاله إلى كلير.

فى الشارع الرئيسى، التقى باثنين من الرسامين الثلاثة «أونيش» ابن آوى و«جاو» الدقيق وهما فى طريقهما إلى وادى الملكات. حياهما بالكاد وقد شعر بنظراتهما الساخرة إليه.

كان باب منزل كلير ونيفر مغلقًا.

طرق الباب.

ـ كلير! هل يمكننى الدخول؟

ـ لحظة واحدة. . .

أمر غريب! وهى التى عادة تكون مرحبة. أتعتزم طرده ومعاملته باحتقار كما فعل شد الفنان؟ لم يسنح له الوقت لإطلاق العنان لأفكاره السوداوية. فما لبث الباب أن انفتح.

ـ هل عاد «نيفر»؟

ـ ليس بعد.

ـ أريد رؤيته.

ـ إنه يعمل فى ساحة التعمير.

ـ لماذا اختار هو الطريق الصحيح وأنا لم أفعل؟ أنت حتما تعرفين السبب!

ـ ادخل، فأنا عليَّ الانتهاء من عمل.

اكتشف «بانيب» ـ مندهشا ـ الرسام الثالث «باى» الخبز الطيب: رجلاً قصيراً وسمينًا، وجهه بشوش ووجنتاه ممتلئتان. وكان معصمه مضمداً. فسّر ذلك قائلاً:

ـ التواء خفيف. وبفضل عناية كلير بى، سوف أستأنف عملى فى غضون أيام.

تأكدت المرأة الشابة أن الرباط ليس مفرط الإحكام.

ـ الآن يا «باى» عليك بالراحة التامة. لا تقلق، فإنه لن يترك أى أثر.

أخذ «بانيب» يتفحص بنظرة جديدة الحجرة الأولى: هناك بناية غريبة فى إحدى الزوايا، والتمثال النصفى للسلف فوق مذبح، ومذبح آخر مزين بالورود... لقد حول نيفر فعلا منزله إلى معبد.

ـ لقد عاملنى الفنان شد وكأننى عاجز وصديقى الوحيد يختفى. لم أعد أفهم شيئًا. ما الذى يحدث «يا كلير»؟

ـ مجرد أنه عليك اجتياز مرحلة جديدة. وعليك أنت أن ترسم الطريق.

ـ النصيحة الوحيدة التى أسداها إلىّ شد هو أن أصبح صانع جص.

قال «باى» الخبز الطيب.

ـ إنه ممتاز.

كاد بانيب أن يستشيط غضبًا.

ـ أنت أيضًا تسخر منى؟!

ـ هل ما زالت لديك النية كى تصبح رسامًا؟

ـ أكثر من أى وقت مضى!

ـ إذن، افهم أن أول ساحة تعمير بالنسبة لك والتى ستثبت فيها فعلا قدراتك هى منزلك. لقد برهنت لنا أنك تحسن وحدك التصرف فى البناية نفسها وفى إصلاحات بسيطة. ولكن هذا ليس كافيا. ينبغى أن تتعلم كل شىء عن المهنة حتى لا ترتكب خطأ عند عملك على الجدار الداخلى لإحدى دور الأبدية.

ـ ألم تعمل أنت فى صنع الجص؟!

ـ بلى بالتأكيد . كيف تنجح فى رسم دون أن تكون هناك دعامة جيدة؟ إن صنعه ليمثل أول الأسرار .

ـ هل تقبل أن تعلمه لى؟ سأل بانيب بقلق .

وهنا تأمل باى الخبز الطيب معصمه ثم قال :

ـ أنا لا أحب كثيراً الراحة الإجبارية ، على كل يمكن أن نحاول .

* * *

الفصل الثانى والخمسون

كانت سيركيتا حاملا للمرة الثانية، وتنتظر بقلق نتيجة اختباراتها. كان زوجها قد غضب غضباً شديداً عندما أنجبت بنتًا حتى إنه قد رفض رؤيتها وعهد بتربيتها إلى المربيات وأمر ألا تظهر أبداً أمامه. رسميًا، كان ينبغى أن يكون المولود الأول ذكراً. وأحيانًا كان «ميهى» يأسف لعدم كونه يونانيا أو حيثيا حيث لا يحظر قانون بلادهما التخلص من الفتيات الزائدات عن العدد.

كانت سيركيتا تتمتع بدورة دموية ممتازة، ويدور الهواء فى جسدها بصورة طيبة وهذا ما كان يجعلها متيقنة بأنها ستنعم بحمل هادئ وولادة هانئة. فقط كان جنس الطفل يعنيها. ومنذ أسبوعين، أصبحت سيركيتا تبول يوميًا على كيسين، أحدهما يحتوى على القمح والتمر والرمل، والآخر على الرمل والتمر والشعير وإذا ما نبت القمح أولاً، فسوف تلد سيركيتا بنتًا، أما إذا حدث ذلك للشعير أولا، فسوف يكون مولودها صبيا.

أعلنها طبيب الأمراض النسائية المكلف بمتابعتها قائلاً:

ـ لقد حصلنا على نتيجة غير مشكوك فيها.

قال عمدة طيبة متعجبًا:

ـ إنك تبدو فى صحة رائعة يا عزيزى ميهى! إن العسكريين لا يقسمون إلا بك، وأعرب السكان عن خالص تقديرهم للمناورات التى قمت بقيادتها. وهم يشعروك بالحماية وأنهم فى مأمن من كل خطر.

ـ إن الفضل يرجع إلى الضباط ورجال القوات الذين أظهروا انضباطًا نموذجيًا.

ـ ولكنك أنت من أعطى الأوامر!

قال ميهى:

ـ لقد استلهمتها من توصياتك.

أعجب العمدة هذا الإيضاح .

ـ هل تجاوزت أزمة وفاة حميك؟

ـ وهل سأتجاوزها يومًا؟ لقد كان له من قوة الشخصية والمهارات ما يجعل غيابه يمثل فراغًا كبيراً . إننى وزوجتى نسترجع ذكراه كل مساء . ومما لا شك فيه أننا لن نعرف أبداً السلوى بعد وفاته .

ـ طبعا . . طبعا ولكن ينبغى التفكير فى المستقبل وأفضل علاج للآلام الضخمة هو العمل الدءوب . أنت كفء وحى الضمير ومنهجى ، وهذه كلها خصال سوف تجعل منك أحد الخزنة الممتازين لمدينة طيبة الطيبة .

أظهر «ميهى» الاندهاش على وجهه :

ـ هذا مركز غاية فى الأهمية ! . ولا أعرف إذا . . .

ـ أنا الذى أقرر ذلك ، وأنا أعلم أننى لست مخطئا . فأنت عندما تصبح ساعدى الأيمن سوف تكون مسئولاً عن رخاء مدينتنا الحبيبة . ومن ناحيتى ، سوف أتراجع بعض الشىء .

كان «ميهى» يعرف أن العمدة يحتاج إلى كل وقته للقضاء على العناصر التى تسعى لإضعافه ، وعلى الكثير من المرشحين المستعدين للاستيلاء على مكانه .

ـ أنتم تعرضون علىّ مهمة مثيرة للحماسة ، إلا أن هناك سببا قهريا يحول دون قبولى .

ـ ما هو؟

ـ من المستحيل أن أحل محل حمى العزيز ، فهذا من شأنه أن يمثل صدمة قوية لزوجتى .

ـ اطمئن ، سوف أدعوها إلى التعقل ! يا ميهى . إن طيبة محتاجة إليك . وفى بعض الظروف ، ألا ينبغى علينا التضحية بمشاعرنا من أجل الصالح العام؟

كان «ميهى» يود لو رقص فرحًا . فبعد أن أحكم قبضته على القوات المسلحة ، ها هو ذا يسيطر على الأموال العامة . فمن الآن فصاعداً ، سوف يكون أفضل سند للعمدة الذى ـ كرجل إستراتيجية بارع ـ حدد بوضوح المجال التابع لكل منهما . «ميهى» عليه الإدارة الصحيحة التى لا مأخذ عليها ، والعمدة له السلطة التمثيلية .

من المرجح أن هذا الأخير لم يظن أن«ميهى» يحمل ودّا أبديًا لحميه ولكنه كان لا يشك فى الحقيقة. أن يظل قاتلاً بلا عقاب، وأكثر من ذلك أن يحتل موقع الضحية، كان يثبت لمسئول الخزانة الرئيسى الجديد فى طيبة أن قانون «ما آت» ما هو إلا رواية مختلقة من جانب حكماء مزيفين، يعيشون فى عزلة فى المعابد بعيداً عن الواقع. ولن يلبث عالم الفراعنة القديم أن يختفى وتحل محله دولة غازية، تؤمن إيمانًا ثابتًا لا يتزعزع بالتقدم وقادرة على فرض نفسها على الحضارات المنهارة.

وحتى يتمكن «ميهى» من رئاسة هذه الدولة، سيصبح عليه أن يستغل مواهب صديقه «داكتير» الذى لم تكن الأمور الأخلاقية تشغله كثيراً. وبفضل مجموعة جديدة من الرجال من طرازه، لا يربطهم أدنى رابط بالتقاليد، سوف تتحول مصر سريعًا إلى دولة حديثة يسودها القانون الوحيد الذى يحترمه «ميهى»: قانون الأقوى. وبفضل نوع من التعمية القانونية وبعض التصريحات العامة الجياشة، سوف يتم تهدئة الضمائر المتحفظة لبعض كبار أصحاب المناصب الذين لن يلبث أن يتم استقطابهم وقد استحوذت عليهم فكرة الفائدة الشخصية التى ستعود عليهم من هذا الوضع الجديد. أما الشعب، فقد وُجِد ليخضع، وأبداً لن تطول ثورة فرد أمام قوات شرطة قوية وجيش فائق التنظيم.

تبقى عقبة كئود: رمسيس الأكبر. إلا أن الملك كان طاعنًا فى السن وصحته فى تدهور. فعلى الرغم من قوة بنيانه وما يتمتع به من طول العمر، سوف ينتهى به الأمر حتما إلى الموت. كانت فكرة الاغتيال التى تعجل بموت رمسيس ليست مستبعدة، ولكنها كانت تستلزم عدداً لا يحصى من الاحتياطات حتى لا يصل التحقيق فيها إلى ميهى. من المستحسن إذن إفساد الوسط المحيط بالفرعون القادم «ميرينبتاح» على أمل القضاء على حكمه وأن يستبدل به خيال مآتة يحكمه «ميهى».

كان الوقت فى صالحه، ولا ينبغى عليه بصفة خاصة الاستسلام لنفاد الصبر حتى لا يرتكب خطأ قاتلاً. أما الهدف الأسمى، فكان لا يزال هو غزو ساحة الحقيقة. وبفضل الأسرار التى فى حوزتها، سوف يصبح «ميهى» صاحب الأمر والنهى فى الأرضين. ومهاجمة ساحة الحقيقة تعنى الاصطدام وجهًا لوجه برمسيس. وحتى ينقلب ميزان القوى لصالح «ميهى» فإنه سوف يكتفى بهجمات غير مباشرة دون أن يغفل تقويض أسس البنيان.

* * *

عانقت سيركيتا زوجها بحرارة وهى عارية النهدين، معطرة بالبخور، مطلقة الشعر، مزينة رسغيها وعرقوبيها بخلاخل من العقيق الأحمر والفيروز.

ـ أنت عائد فى وقت جد متأخر . . . لقد تعبت من طول انتظارك . .

ـ لقد طلبنى العمدة.

ـ إنه شخص ماكر وبلا رحمة . . . خذ حذرك منه!

ـ لقد عيننى لتوه المسئول الرئيسى لخزانة طيبة.

ابتعدت «سيركيتا» عن القائد لتتأمله.

ـ منصب أبى . . . هذا رائع! كم كنت على صواب عندما تزوجت بك يا «ميهى»! إنك فعلا رجل مميز.

ـ أنا، بالطبع، لم أبد إلا حماسة معتدلة، ولم أتوقف عن الثناء على والدك الموقر مؤكداً أنك حتما سوف يصيبك الحزن لرؤيتى أحل محله. سوف يحدثك العمدة ليجعلك تقرين باستحالة أن يظل المرء يعيش فى الماضى وتوافقى على هذا التعيين.

ـ اعتمد علىَّ يا عزيزى! سوف أقوم بدور الفتاة المكتئبة حتى ينتهى بى الأمر لقبول هذا الواقع الأليم. على أن أضع الأزهار يوميّا على قبر والدى المسكين الذى اختطفه الموت فجأة. ولكن، قل لى . . . سوف نزداد ثراء؟!

ـ هذا مؤكد. ولكن يجب أن اتصرف بحذر حتى لا يستطيع أحد اتهامى باختلاس الأموال.

ـ ألم يكن أبى يَعُدّك ماهراً فى اللعب بالأرقام؟

ـ إن إدارة طيبة ثقيلة ومعقدة، ويلزمنى سنوات عديدة كى أصبح صاحب الأمر والنهى فيها، ولكنى سوف أتمكن من ذلك.

ـ وبعد . . . ذلك؟

ـ ماذا تعنين بقولك هذا يا سيركيتا؟

ـ أليست لديك طموحات أكبر؟

ـ أعتقد أن مثل هذه الطموحات فى مجال العمل ليست بالأمر الهين.

وهنا احتضنت سيركيتا الضابط الأعلى.

ـ إننى أنتظر منك ما هو أفضل من ذلك يا حبيبى!

ضاجع ميهى زوجته بنفس وحشيته المعتادة، ولكنه لم يكشف لها عن مشروعاته الحقيقية. لا هى ولا أى امرأة أخرى غيرها لها من الذكاء الكافى الذى يمكنها من إدراك اتساع تلك المشروعات ولكن ابنة المسئول الرئيسى عن الخزانة الأسبق لطيبة سوف تكون حليفة أمينة وذات نفع.

تحدثت سيركيتا بصوت مفعم بالتأثر، ورأسها فوق صدر زوجها القوى:

ـ لقد أجريت اختبارات الحمل عند طبيب أمراض النساء...

ـ والنتائج؟

ـ لقد نبت القمح أولاً.

ـ وهذا يعنى أن....

ـ للأسف نعم.. إننى أنتظر فتاة ثانية.

لطم ميهى زوجته عدة لطمات.

ـ لقد خنتنى يا سيركيتا! أنا فى حاجة إلى صبى وليس إلى بنات. سيحكم على هذه البنت بنفس مصير الأولى. أرسليها أينما تشائين ولتتجنب الظهور أمامى.

ـ آسفة يا ميهى.. آسفة!

ـ أنا لا أعبأ بالاعتذارات! ما أريده هو صبى. وأنا ألزمك بأن توقعى ـ اعتباراً من الغد ـ عقد تنازل لصالحى عن كل ممتلكاتك بحيث أصبح المتصرف الوحيد فيها. من ذلك الغبى الذى يثق فى امرأة لا تلد إلا البنات؟ سوف أعطيك فرصة أخيرة يا سيركيتا، ولكن حاولى ألا تخذلينى. إذا أخفقت هذه المرة أيضًا فسوف أطلقك.

اشتعل وجهها بنار الغضب، ومن فوق الوسائد التى ارتمت فوقها حاولت مقاومة ميهى.

ـ القانون يحظر عليك ذلك، إذا ما رفضت التنازل عن ثروتى.

أمسكها الضابط الأعلى من ذقنها وهو يبتسم وقال:

ـ تصورت أننى برهنت لك على ألا لا أحد يستطيع مقاومتى يا حبيبتى . . . فإما أن تطيعينى دون مناقشة وإما تصبحى عدوة لى .

ـ لن تجسر على ذلك على أى حال . . .

ـ أنجبى أولاً الابنة الملعونة وتخلصى منها واستعيدى جاذبيتك الأولى كزوجة وامنحينى صبيا . إذا ما نجحت فى ذلك فسوف تصبحين زوجة فى منتهى السعادة .

وفى انتظار ذلك عليكِ أن تنفذى أوامرى .

* * *

الفصل الثالث والخمسون

كان الحر مرهقًا. وفى التلال المحيطة بساحة الحقيقة، تبدو الحياة وكأنها قد توقفت؛ حتى العقارب بدت ساكنة لا تتحرك ولا تسرى نفخة هواء واحدة فى الوديان الحجرية التى تحرقها الشمس.

كان «بانيب» المتأجج هو الكائن الحى الوحيد القادر على التنقل فى هذا القيظ والعمل بمنتهى الهدوء، سافر الرأس، يشرب قليلا، مكتفيا بالماء الفاتر من قربة صغيرة. لم تكن تساور الشاب إلا فكرة واحدة: الحصول على أكبر كمية من الجبس من الوادى البعيد الذى حدد له مكانه «باى» الخبز الطيب. ولأن هذه الإشارات لم تكن دقيقة، فلقد ضل بانيب الطريق مرتين ولكنه وجد ضالته أخيراً.

عادة، يحتاج إنجاز هذه المهمة ثلاثة عمال أقوياء البنية. ولما كانوا جميعهم مشغولين، لم ينتظر «بانيب» أن تخف حدة الحرارة أو أن يصدر له رئيس المجموعة أوامر بهذا الشأن.

حمل على كتفيه قفغا ملآنة حتى حافتيها وعاد إلى المدينة.

أفرغها أمام الورشة التى يعد فيها الجص ثم عاد إلى الوادى مرة أخرى. وظل يكدح هكذا حتى غروب الشمس.

كان نيفر الصامت هو الذى استقبله عند مدخل القرية.

قال بانيب متعجبًا:

- أنت أخيرًا! ولكن أين اختفيت؟

- لقد أرسلنى رئيس المجموعة للعمل فى بعض المحاجر ثم فى ترسانة بحرية لأتعلم تقنيات البناء الحديثة. إنك تبدو لى غارقًا....

- يبدو أن طريقى يمر عن طريق الجص، وللحصول عليه يجب الحصول أولاً على

الجبس، إذن، فهذا ما أفعله! وكما أنهم لم يحددوا لى الكمية فسوف أستنفد ما هو موجود فى الوادى إذا اضطررت لذلك.

ـ هل توافق على أن أساعدك؟

ـ لقد اعتدت على التصرف وحدى!

أخذ الصديقان طريقهما نحو الورشة وأفرغ «بانيب» محتويات قففه ووقف يتأمل تل الجص.

ـ غدا، سوف أعمل أفضل من ذلك. فلقد أضعت الوقت هذا الصباح بحثًا عن المكان الجيد. الآن، أشعر بالظمأ.

ـ إننى على يقين أن كلير قد احتفظت لك ببعض الجعة الباردة.

أفرغ «بانيب» فى جوفه إبريقًا من ثلاثة لترات والتهم وجبة شهية من الحمام المحشى.

قالت كلير:

ـ لقد خاطرت بنفسك كثيراً. إن الثعابين والعقارب تعيث فساداً فى هذا المكان الذى ذهبت إليه.

ـ لقد أعياها الحر . . . وهذه الزواحف لا تخرج من جحورها إلا ليلاً.

ـ هل يمكن أن أعطيك ترياقًا.

ـ هذا ليس ضروريًا. فأنا لا أخشاها. فأنا إذا عزمت على القيام بعمل ما، لا يحول أى شخص بينى وبينه.

نظر «بانيب» شزراً إلى صديقه نيفر :ـ

ـ هل رأيت هذا الضوء القريب الذى اخترق باب مدخل المعبد فى قاعة اجتماعنا؟

ـ نعم، لقد رأيته.

ـ لماذا يرفض الآخرون التحدث عنه؟

ـ لا أعرف لذلك سببًا.

ـ ولا تسع لمعرفته!

ـ لقد عهد إلىّ رئيس المجموعة لتوه بعمل من الأهمية بمكان حتى إنه ليشغل ذهنى ليل نهار.

ـ هل هو سر؟

ـ ليس لحرفى من ساحة الحقيقة ـ أجاب نيفر مبتسمًا ـ إن الفرعون يطلب إصلاح المقبرة التى أقامها فى قريتنا فى بداية ملكه وتوسيعها. وقد اختارنى «نيب» المنجز لتنفيذ الرسم الذى وضعه هو بنفسه بالتعاون مع الكاتب راموسى.

ـ هذا شرف كبير.

ـ ومسئولية ضخمة على وجه الخصوص.

ـ كن صادقا يا «صامت»، ألم ترتفع لعدة درجات فى التدرج الوظيفى؟

ـ هذا صحيح يا «متأجج».

ـ وهذا، لا تستطيع الحديث عنه!

ـ إن حالى كحالنا جميعًا. فأنا ملزم بحفظ السر.

ـ وأنا، أظل فى المؤخرة!

ـ أنت تتبع طريقًا آخر، وأمامك أبواب أخرى لاجتيازها ووفقا للإيقاع الخاص بك. لا يوجد أى تنافس بيننا ولن يكون هناك أبدًا.

كان اليوم ينبىء بحرارة تماثل حرارة اليوم السابق. وكان «بانيب» المتأجج يستعد للعودة إلى طريق الوادى عندما اعترض طريقه رئيس المجموعة:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ أحضر الجص.

ـ من أمرك بذلك؟

ـ يجب أن أتعلم كيفية صنع الجبس للحصول على مسطح للرسم. إذن، أنا محتاج إلى الجص.

لأول مرة منذ قبوله فى الجماعة، تمكن بانيب من رؤية تفاصيل وجه رئيس المجموعة: رجل جاد، قوى، بطىء الحديث ونظرته صارمة. هو الشخص الوحيد التابع لساحة الحقيقة الذى لم يكن الشاب الضخم يريد منازلته فى قتال انفرادى.

ـ ألم تفهم بعد أن ما من أحد هنا يتصدق وفقًا لأهوائه .

ـ الأمر ليس هوى ولكن ضرورة!

ربّع نيب المنجز ذراعيه :

ـ أنا الذى يقرر الضرورات ، وقد تراءت لى فجأة واحدة منها الآن . اذهب وأحضر الجص يا «بانيب» وتعلم كيف تصنع الجبس ثم اهتم بتجديد واجهات بيوت القرية كافة . وعند انتهائك من ذلك ، سوف نتحدث من جديد عن عملك كرسام .

كانت القرية تحتفظ فى ذاكرتها بقصص لبعض المشاهير من العمال الذين قدموا عددًا لا يصدق من أكياس الجبس يوميًا : فقد قدم «مضىء الصباح» مائة وأربعين كيسًا ، ومائتين وخمسة لـ «رجل الله آمون»! ولكن «بانيب» المتأجج ، ما أن استوعب التقنية التى علمها له باى الخبز الطيب ، حتى نجح فى أن يُخرْجِ مائتين وخمسين من الورشة المفتوحة التى كان يكدح فيها طوال اليوم .

كانت احتياجات المجموعة من الجبس تختلف تبعًا لطبيعة الموقع ولكن طالما كان ينبغى إعادة طلاء واجهات المنازل بلون أبيض ناصع ، فسوف يحضر بانيب أولاً كمية هائلة من المادة الخام قبل الشروع فى عمل شاق يستغرق منه عدة شهور ولا يتحمس له . ولكن عصيان رئيس مجموعة من شأنه أن يؤدى إلى معاقبته بالطرد الفورى من القرية . علاوة على ذلك ، كان «بانيب» ينسى مخاوفه من أجل إحراق الجص الخام الذى كان قد استخلصه بنفسه من الأرض . وبعد تكليسه على درجة حرارة مائتين مئوية ، يخلطه بالماء من أجل الحصول على جبس البنائين الذى يدهن به الحوائط من أجل إزالة تعاريجها والحصول على سطح مستوٍ .

ـ إن جبسك أفضل من جبسى ـ قال باى الخبز الطيب معترفا ـ أنت متمكن من أسلوب الطهو بشكل لا يصدق!

ـ لقد بدأت بطلاء الجدار بطبقات متعددة من ماء الجير ووضعت الجبس على أكثر الواجهات تلفًا بمنازل القرية . كيف ترى ذلك؟

ـ عمل جيد يا بانيب . استمر على هذا النحو . أتعرف أن واحدًا من العاملين معنا قد ظل جباسًا طوال حياته وأنه كان يقدم للرسامين أسطحا ملساء للغاية؟

ـ الأمر حسن بالنسبة له ، ولكن ذلك لا يكفينى . هذا الجبس ما هو إلا مرحلة .

ـ أنت لا تعرف بعد كل أسراره. نحن نستخدمه أيضا لتركيب الألوان؛ تلك العملية التى ربما قمت بها لو رأى رئيس المجموعة أنك صالح لها. ولا تنس أيضًا أنه يمكن استخدام الجبس كمزلق أثناء وضع الحجارة الضخمة. كان الشاب الضخم يصغى إصغاءا تامًا.

ـ قبل كل شىء، احرص يا بانيب على التحقق من نوعية المنتج الذى حصلت عليه.

ـ بأى طريقة؟

أظهر باى الخبز الطيب مخروطًا من حجر الكلس.

ـ هذا أشبه بأنبوب اختبار يمكنك من اختبار الجبس الذى تصنعه وتقدير قوامه وفقًا للاستخدام الذى تقوم به. أما إذا أغراك التسرع، فسوف ترتكب أخطاءً جسيمة وتجد نفسك مضطرًا لإعادة كل شىء.

لم يستخف «بانيب» بهذا التحذير. لم يكن يفكر إلا فى التخلص فى أسرع وقت من هذا العمل الشاق الذى كلف به والدخول سريعًا فى عالم الرسامين.

ـ عندما كنت متدربًا يا باى هل أمروك بإعادة جص كل منازل القرية؟

ـ منزلى فقط. ولكنى لا أملك قدرتك على العمل! هنا يتحدد لكل فرد الاختبارات التى يستحقها.

وفجأة، رأى «بانيب» أن باى الخبز الطيب أقل لطفًا مما يبدو عليه. والمساعدة التى يقدمها إليه ترى هل هى تلقائية أم يقوم بها بناءً على أمر رئيس المجموعة؟

هنا أوصاه باى قائلاً:

ـ سَل نفسك الأسئلة المناسبة. فالسيئة تصيب بالعقم. وتذكر الحكمة التى كانت شعاراً لكل أعمالنا العظيمة: اعمل من أجل من يعمل.

* * *

الفصل الرابع والخمسون

كان أهل القرية ينظرون باندهاش إلى «بانيب» وهو يتقدم بانتظام وينتزع إعجاب أكثر الناس قرفًا واشمئزازًا. هو ينكبّ على عمله، مع كل واجهة من الواجهات، بإصرار المحارب الذى يقاتل من أجل الحياة ولا يُرضى قبضته قبل حصوله على سطح أملس ناصع البياض، لامع تزيد أشعة الشمس من ضوئه. بفضل بانيب المتأجج، كانت الحياة تَدب من جديد فى مساكن القرية كافة.

كانت فيروز تتفرس وجه الشاب الضخم بعين ملؤها السخرية وقد وضعت يديها على ردفيها واتكأت بكتفها لا مبالية على إطار بابها.

ـ ها أنت أخيرًا، هنا عندى. . . كنت أخشى أن تستمر فى تجنبى.

ـ علىَّ الاهتمام بكل المنازل. ولكن منزلك فى حالة ممتازة.

ـ هذا وهم. الجبس الجديد وحده من شأنه أن يعيد له مظهره. أظن أنك لا تريد أن أشكوك لرئيس المجموعة؟

وثب بانيب المتأجج على المرأة، محيطا خصرها بذراعه اليسرى ورفعها وأدخلها المنزل.

ـ أهذا ابتزاز؟

ـ هناك تصدع فى غرفة النوم مرجعه الإفراط فى شد الطلاء وقت جفافه. وللحيولة دون اتساع هذا الشق، يفضل إضافة القش بالوَرَق.

ـ أنا لا أهتم إلا بالواجهات.

ـ من أجلى، سوف تقدمين استثناءً.

عقدت ساقيها الطويلتين الرقيقتين حول خصر المتأجج الذى قبلها بنهم شديد لم يتمكن معه من الاستمرار طويلا فى مقاومتها. ثم صعد، وهو رافع حمله اللذيذ،

الدرجات الثلاث للسلم الصغير المؤدى إلى سرير من القرميد مبنيا فى زاوية الغرفة الأولى(*). كان مطليا بالجبس ومزينًا برسوم لامرأة عارية تتزين وعازفة ناى تغطيها أشجار اللبلاب إلى منتصفها ولا ترتدى إلا عقداً. كان الفراش مرتفعًا ووضعت عليه الأغطية السميكة والوسائد التى جعلته مريحا للعاشقين الممددين عليه.

ـ أنت تخطئ المكان يا «بانيب».

ـ أليس سريرا؟

ـ سرير خاص بالطقوس، ينعم برعاية حتحور ومخصص لبعث حورس الشاب فى كل صباح ليقاوم قوى الشر ويحفظ جماعتنا من التدمير.

ـ اجعلينى أتفتح للذات جديدة يا فيروز.

تخلت كاهنة حتحور عن علم اللاهوت وجعلت عاشقها يخلع عنها ثيابها بحماسة جعلتها تشعر بالنشوة. ولشدة انهماك «بانيب» بملامسة جسد المرأة الشابة الرائع، لم يلحظ صورة «بيس» المطلية عند رأس السرير. كان «بيس» هذا قزما ملتحيا وضاحكا تتمثل وظيفته فى ولادة خادم ساحة الحقيقة فى عالمه الجديد.

كان «آبرى» المدير الرئيسى للبر الغربى لا يكف عن السمنة. ولقد أدى ذلك إلى تزايد سخط زوجته، وتسميم الجو العائلى. كانت تأخذ عليه ضعف حماسته فى العمل وأسلوب ارتداءه لملابسه وحلاقته لشعره وميله إلى النبيذ المعقود. باختصار لم يعد بينهما أى مجال للتفاهم، والسمراء الطويلة تزعم إصابتها بالصداع الليلى المؤلم لكى تقضى الليل فى حجرة وحدها. وحتى ينسى بؤسه الزوجى، كان «آبرى» يلتهم كميات كبيرة من الحلوى.

كان قد فكر كثيراً فى الطلاق ولكن امتلاك زوجته للقسم الأعظم من الثروة، كان يهدده بالتشرد. ولما كانت لا تخونه وتحسن جيداً إدارة الثروة والبيت، لم يكن له مأخذ واحد ضدها.

بات مستحيلا ـ كما كان الحال فى الماضى ـ أن يظل متكاسلا لساعات طويلة أمام صفحة الماء أو أن يخلد إلى قيلولة طويلة أو أن يقضى أوقاتًا لا نهاية لها جالسًا تحت ظل

(*) طوله ١,٨٠ مترًا وعرضه ٩٠ سنتيمترًا، وفقًا للاكتشافات الأثرية.

النخيل. فهذه المرأة الشريرة، كانت لا تتركه لحاله. ولكن كان عليها أن تكون راضية. فكما أعلن «ميهى»، تم الإبقاء على «آبرى» فى منصبه ولم يفقد أيًا من مميزاته. ولكن هذه المعجزة لم تكن كافية لزوجته التى لم يعد يفهم طلباتها.

ألم تكن تكفيه هذه المجنونة! زاد عليه ميهى الذى كان يخشى منه أكثر منها مائة مرة، على الرغم من الود الذى يوحى به وأقواله المعسولة. منذ عدة سنوات، أصبح «آبرى» شاهدًا على ارتقاء المسئول الرئيسى الجديد عن خزينة طيبة. وقد أصابه ذلك بدهشة مشوبة بالخوف. لقد اعتقد أولاً أن هذا الضابط المدعى سوف يتحطم سريعًا على أيدى رؤسائه أو بعض الأعيان الذين يشكون فيه. إلا أن ميهى تمكن من تجنب هذه المكائد وكان أمكر من خصومه.

اليوم، أصبحت قوات طيبة لا تقسم إلا به بفضل المزايا الكثيرة التى منحها لهم والتى كان يدعمها منذ توليه لمنصبه على رأس الأموال العامة. كان «ميهى» هو رجل طيبة القوى. كان يغزل شباكه يوما بعد يوم دون إثارة قلق أى إنسان أيًا كان، كما لو كان استيلاؤه على السلطة أمرًا لا مفر منه. كان العمدة قد ترك له مهمة إدارة المدينة الكبيرة التى كان ميهى يؤديها بمهارة جعلته يستحق سمعة ممتازة عند الوزير.

كان على «آبرى» أن يتهلل بسبب علاقاته المتميزة مع القائد إلا أنها كانت ـ العلاقات تحديدا ـ مصدرًا لانشغال باله.

عندما تعهد بأداء بعض المهام الدقيقة، كان يأمل أن يتم استبعاد «ميهى» فيكون بذلك قد نعم بتأييده دون أن يؤدى له أدنى خدمة. إلا أن الوضع قد تطور فى الاتجاه المعاكس والقائد لن يلبث أن يطالبه بتقديم كشف حسابه. ولما كانت سلطات حليفه المزعج قد ازدادت بشكل كبير، لم يكن «آبرى» يستطيع الاستمرار فى الادعاء بأنه ـ على الرغم من الجهود المستمرة ـ لا يتمكن من التوصل إلى أي نتيجة.

ولهذا السبب، وبعد ما يزيد على عامين من الخداع، كان المدير الرئيسى للبر الغربى قد قرر إرضاء راعيه المخيف عن طريق مباشرة عمله فى ساحة الحقيقة بالأسلوب الذى تمناه «ميهى».

كان آبرى قد استيقظ مبكرًا، على أمل تناول فطوره فى هدوء. ولكنه لم يكد يتذوق طبق الزبادى الصباحى حتى ظهرت امرأته الغاضبة لتعنفه بسبب الغلة غير الكافية لأراضيهم المزروعة قمحًا. علاوة على ذلك، كان قد التهم بنهم العديد من الفطائر المستديرة قبل الفرار من منزله متوجهًا لقرية الحرفيين.

كيف يقبل هؤلاء العيش فى جو كهذا؟ لا حدائق شاسعة ولا نخيل يرتاحون فى ظله، لا شىء إلا صحراء وتلال قاحلة وشمس تسود المكان. وغير ذلك، العمل السرى الذى يتكتم العاملون فى ساحة الحقيقة سره منذ وضعت أساساته. لم يكن آبرى يحسدهم على عيشتهم المتقشفة القريبة والبعيدة فى آن واحد من شواطئ النيل ومن ملذات الحياة.

عند وصول الكرسى المحمول الخاص بالمدير الرئيسى للبر الغربى إلى أول حصن صغير، احترم رجل الشرطة النوبى الذى يتولى نوبة الحراسة أوامر الرئيس سوبيك، ورجا آبرى أن يفصح له عن هويته وألزمه بالانتظار حتى يخطر رئيسه بوجوده قبل السماح له بمواصلة طريقه. لم تغير احتجاجات آبرى من الأمر شيئًا.

عزز هذا الموقف من مخاوفه: لقد شدد سوبيك كثيرًا من إجراءات الأمن وقام بإلغاء أى امتيازات بغير وجه حق. لقد درس آبرى ملفه منذ خطواته الأولى فى عالم الشرطة وحتى تعيينه فى ساحة الحقيقة، وقد خلص منها إلى نتيجة مثيرة للقلق: إن سوبيك يبدو رجل شرطة أمين لا يشغل باله إلا عمله. ولا يوجد دليل واحد على فساده، ولا شائبة فى ملفه الوظيفى. إذن، لم يكن بحوزة الموظف الرفيع المستوى دليل واحد يقدمه «ميبى» للتخلص من هذا النوبى النزيه الذى كانت فاعليته تمثل عائقًا لا يمكن الالتفاف حوله إلا أن «آبرى» قد توجه للموقع على أمل اكتشاف نقيصة واحدة.

جاء الرئيس «سوبيك» للقاء «آبرى». وسأله:

ـ هل هناك مشكلة؟

ـ فى إطار وظيفتى، أريد التأكد فحسب أن كل شىء يسير على ما يرام عند المساعدين.

ـ هيا بنا.

لم يكن مصرحًا لآبرى بالدخول فى القرية وكان لا يمكن له تجاوز القلاع الصغيرة إلا برفقة رئيس الأمن.

ـ هل أنت راض عن منصبك يا سوبيك؟

ـ المهمة عسيرة ولكنها أخاذة. لو لم تكن وقعت هذه الجريمة الغامضة. . . .

ـ ليس هناك أى أثر بعد؟

ـ ولا أثر.

ـ لقد مرت السنوات ولم يأخذ عليك أحد شيئا. . . سوف ينتهى بك الأمر إلى النسيان.

ـ أبدًا. إن القتيل أحد رجالى ويومًا ما سأعرف حتمًا ما الذى حدث بالضبط.

ـ وإذا ما كان المذنب واحداً من القرية؟

ـ هذا ما لا أستبعده، ولكنى لا أمتلك أى بداية لدليل.

تظاهر آبرى بالاهتمام بعمل المساعدين وزار مساكنهم المتواضعة، المشيدة خارج القرية قبل أن يدعوه سوبيك لتناول الجعة المنعشة.

ـ أنت لست متزوجًا، على ما يبدو لى؟

أجاب النوبى الطويل قائلاً:

ـ لا وليست لدى النية ولا الإمكانية. فتأمين الأمن الكامل للمجموعة يستغرق كل وقتى.

ـ على المدى الطويل توشك الحياة أن تصبح ثقيلة! ـ قال المدير وهو يتنبأ بالمستقبل ـ لقد برهنت هنا على مدى قدراتك، ألا تتمنى منصبًا آخر أعظم مكافأة وأقل ضغوطًا؟

ـ لست أنا من يقرر ولكن الوزير.

ـ فى محادثة خاصة، سيمكننى التحدث إليه لصالحك. عليه أن يفهم أن خصالك تستحق ما هو أفضل من هذا العمل المضنى.

بدا سوبيك مهتما. ألم يكشف «آبرى» لتوه عن النقيصة؟ وقال النوبى:

ـ ما نوع الترقية التى يمكننى أن آملها؟

ـ إدارة الأمن النهرى فى منطقة طيبة مثلاً. سوف تصبح مساعد المدير الحالى الذى سيحال إلى المعاش قريبًا فتحل محله.

ـ ما الذى تريده فى المقابل؟

ـ لا شىء فى الوقت الحالى يا عزيزى سوبيك. إن هذه الدفعة الصغيرة سوف تجعل منا أصدقاءً إلى الأبد بالطبع. وبين الأصدقاء يكون هناك تبادل للمعلومات وللخدمات. أليس كذلك؟

هز النوبى رأسه موافقًا.

أخيرا، سيصبح بوسع «آبرى» أن يمد القائد «ميهى» بمعلومات ممتازة.

* * *

الفصل الخامس والخمسون

كان بانيب المتأجج يعيش هوى مضنيا مع فيروز التى باتت تعلمه المبادئ الأولية لأروع أشكال الحب وأكثرها همجية . وفى نهاية يوم عمله ، عندما كانت الشمس تأخذ طريقها للاختفاء وراء الجبل الغربى ، كان الشاب الضخم يتوجه إلى عشيقته ليتلذذ بنشوة سعادة لا تنتهى .

الشهور تمر وبانيب مستمر فى إضفاء رونق جذاب على كل واجهات مساكن القرية ، ولكنه لم يعد يرسم إلا رسوما باهتة على قطع الجير الكلسى أما منزله فقد تركه على حاله . ولما كان يمضى كل لياليه عند فيروز ، لم يكن يرى ، إلا نادراً ، صديقه نيفر الذى كان يعمل فى ورشة الرسوم تحت إدارة رئيس العمل نيب المنجز .

كان جمال فيروز ـ مثل جمال السماء أو النيل ـ يتغير بتغير المواسم . فهو مزدهر فى الصيف ، رقيق فى الخريف ، وحشى فى الشتاء ، مثير فى الربيع ، يوجه «بانيب» لدروب رغبة لا تنتهى .

قريبًا ، سوف تتألق القرية فى بياض ناصع ، ويكون الجباس قد أتم على أكمل وجه المهمة التى عهد بها إليها رئيس المجموعة ويطالب بقبوله أخيراً فى مجموعة الرسامين . فى هذا اليوم ، كان يعتزم وقت دخوله عند فيروز أن يحتفل بهذا النجاح بمضاجعتها كالكبش الهائج ، ولكنه وجدها ترتدى ثوبًا أحمر طويلا ومزينة بعقود وأساور من حجر الملاخيط وعلى رأسها شعر مستعار خاص بالاحتفالات جعل وجهها الرائع يميل إلى القسوة .

فسرت ذلك قائلة :

ـ أشارك فى أحد الطقوس مع كاهنات حتحور ، وعلىّ التوجه إلى المعبد .

ـ أتتركيننى وحدى؟

قالت مبتسمة :

ـ أعتقد أنك سوف تتجاوز تلك المحنة.

ـ عادة، لا تكونى مشغولة فى المعبد إلا فى الصباح الباكر أو فى نهاية بعد الظهر. . . .

ـ اهدأ يا بانيب، مساء الغد سوف تكون أكثر تأججًا.

خرجت فيروز من منزلها فى مشية رقيقة أثارت رغبة الرجل الشاب فى أن يرتمى عليها ويغطيها بالقبلات. إلا أن هيئتها ككاهنة، مفعمة بالكرامة قد أثنته من عزمه.

ـ فيروز. هل توافقين على الزواج منى؟

ـ أكرر عليك قولى: أنا لن أتزوج أبداً.

رحلت فيروز ووجد بانيب نفسه وحيداً وغبيًا ولا طائل منه، فتوجه مثقل الخطى إلى منزله.

على بعد عدة أمتار من العتبة، اشتم رائحة عذبة كما لو كان الجو معبقًا بعطور خلابة.

كان الباب مفتوحًا ينطلق منه صوت نسائى يترنم بأغنية رقيقة.

دخل بانيب ورأى أوابت الطاهرة الرشيقة الضعيفة وهى ترش الأرضية بماء به ملح البارود بعد أن بخرت الحجرات بمسحوق قابل للاحتراق مكون من اللبان الجاف والسعد والكافور وحبوب الشمام والبندق. وكان الدخان يتصاعد من موقد حجر ويقتل الحشرات.

ـ ماذا تفعلين فى بيتى؟

قالت المرأة الشابة وقد أخذتها المفاجأة، فتوقفت عن العمل:

ـ آه. هذا أنت. لا تدخل الآن، سوف تلطخ كل شىء!

وفى عجلة أتت بحوض نحاسى ملئ بالماء ليغسل فيه بانيب قدميه ويديه. وأردفت قائلة:

ـ لن تخشى بعد اليوم شياطين الليل. لقد نشرت فى كل زاوية من زوايا كل حجرة ثومًا مطحونًا ومسحوقًا بعد خلطه بالجعة. أما دهن طائر الصفرة الذى طليت به الجدران فسوف يبعد الذباب. أيمكن لك أن تنتظر لحظة؟ لم أنته بعد من تنظيف الغرفة.

أخذت «أوابت» الطاهرة مكنسة كانت أليافها الطويلة من النخيل الصلب مطوية ومجمعة بربطات خيوط، وقفزت مهرولة حتى تنتهى من عملها.

وقف بانيب مذهولا ينظر إلى منزله من الداخل. بالكاد يستطيع التعرف عليه. فبالأمس القريب، كانت لا تغطى الحجرتين الأوليين إلا حصيرة واحدة، أما اليوم فقد أصبح فيهما مقاعد، وكراسى تطوى ومناضد صغيرة قوية ارتفاعها خمسون سنتيمتراً وطولها سبعون وعرضها أربعون ومصابيح على أعمدة وآنية من الطين الناضج والكثير من صناديق الملابس ذات الغطاء المسطح أو المقبب والقفف والسلال والحقائب. كانت المرأة الشابة قد ثبتت فى كل مكان كلابات من الخشب علقت فيها القفف.

اكتشف «بانيب» غرفة نظيفة ومعطرة وضع فيها سريران من طراز جيد أحدهما طوله ١,٩٥ متر والثانى ١,٧٥ متر كلاهما مزود بعارضات صلبة مثبت فيها مفرش من الأسلاك المضفرة عليه حصائر وأغطية جديدة. كانت «أوابت» تلمع الأرضية بفرشاة من البوص المربوط بحلقة.

ـ يمكن لك أن تعاين المطبخ. فهو لا ينقصه شيء تقريبًا. لقد أنزلت جرات الزيت والجعة فى القبو الأول واللحم المحفوظ فى الثانى. وعليك أن تركب لى ألواحًا خشبية لأدوات الزينة فى قاعة المياه وأن تشترى مرجلا أو مرجلين.

وبعد ذلك، سوف يكون لدينا الوقت لنرى إمكانية أن تصنع لى سريعًا دولابًا صغيراً من الخشب أرتب فيه المرآة والأمشاط والشعر المستعار ودبابيس الشعر، فأكون أسعد امرأة فى العالم. ثم لا ينبغى نسيان الحمامات. . . لقد طهرتها ولكن الجدران الصغيرة المبنية من اللبن التى تحيط بالمقعد الخشبى شديدة الانخفاض بعض الشيء. عليك أن تأخذ الوقت الكافى لزيادة ارتفاعها والتحقق من انطلاق مواسير الصرف.

جلس بانيب المتأجج بثقل على مقعد قوى بثلاثة أرجل كما لو كان قد قطع لتوه مسافة طويلة منهكة.

ـ ولكن ماذا تفعلين هنا؟

ـ كما ترى: أرتب قليلاً.

ـ كل هذا الأثاث.

ـ إنه مهرى وملكى وأستخدمه كما يحلو لى. لم يكن بوسعك الاستمرار فى العيش بحصيرة واحدة، علاوة على أنها فى حالة سيئة. ولدى الانطباع أنك لا تأكل جيداً. . .

طالما أنك تعمل أكثر من أى عامل وقمت بتجميل كل منازل القرية. لن يهنئك أحد، ولكن السكان راضون والغالبية تَعُدّك جباسًا لا مثيل له. لو استمعت إليهم لما غيرت مهنتك أبدًا.

كانت «أوابت» الطاهرة خليطًا غريبًا من الحياء والثقة بالنفس. صوتها يبدو خافتًا وتصرفاتها مرتبكة، إلا أنها لم تكن تشك فى حسن مساعيها.

وفهم بانيب من أقوالها أنه قد وقع فى فخ جديد. فهو بتمكنه من تقنية الجبس وبتحديه للقرية التى أظهر لها بالطبع قوته ومثابرته فى العمل، ألم يهمل مرة أخرى مثله الأعلى؟

قالت أوابت فى أسف:

ـ بسبب التنظيف، لم أعد إلا عشاءً بسيطا: خبزا محمصا ومهروس الفول المدمس وسمكا مجففا. غدًا، سوف أطهو لك طعاما أكثر.

قال بانيب متعجبًا:

ـ أنا لا أطلب منك شيئًا.

ـ أعرف ذلك جيدًا. ولكن ما أهمية ذلك؟

ـ اسمعى يا أوابت، أنا أحب فيروز، و. . .

ـ كل القرية تعرف ذلك. هذا شأنك.

ـ إذن أنت تعرفين أننى لست حرًّا!

ـ كيف، لست حرًّا؟ لقد أعلنت دائمًا أنها لن تتزوج، وأنت تكتفى بمضاجعتها دون العيش معها تحت سقفها. إذن أنت حر.

ـ سوف ينتهى بى الأمر إلى إقناعها بالزواج منى.

ـ أنت مخطئ.

ـ سوف أثبت لك العكس!

ـ أنت تجهل أن فيروز قد نذرت نفسها للإلهة حتحور. وهى عندما تهبها خوالج قلبها

ـ أنت تجهل أن فيروز قد نذرت نفسها للإلهة حتحور . وهى عندما تهبها خوالج قلبها تنعم طوال حياتها بالجمال الذى تمنحه لها ، شريطة ألا تتزوج . وكاهنة حتحور لا تفسخ عهداً قطعته على نفسها .

انهار الشاب الضخم ، ولكن أوابت الطاهرة لم تبد روح الفائز فى المعركة .

ـ أنت تحب فيروز وأنت تثير إعجابها . وهى سوف تلهو معك طالما تجد لذة فى ذلك . أما أنا فوضعى مختلف . أنا أحبك وأمنحك كل ما أملك . وطالما أننا سوف نعيش تحت سقف واحد ، فسوف نكون زوجا وزوجة دون أى شكل آخر من أشكال الاحتفالات . وأعترف لك أيضًا أن أسرتى تعارض قطعيّا هذا الارتباط وترفض حتى مجرد إعداد حفلة صغيرة للاحتفال به .

ـ ليس لك الحق فى إهمال رأيها !

ـ بالطبع لى الحق . أنا أتزوج الرجل الذى يقع اختيارى عليه ، وهذا الرجل هو أنت .

ـ اعتباراً من الغد لن أكون مخلصا لك .

ـ إن اللذة الجسدية لا تعنينى كثيراً . ولكنى فى المقابل ، أتمنى لو أنجبت لك طفلاً . . ولكنك أنت الذى ستقرر ذلك .

ـ أظن أنك لن تفرضى نفسك .

ـ فكر يا «بانيب» ، أعدك بأن أكون ربة منزل جيدة ، وأن أحيل أيامك إلى نعيم ، وألا أحرمك من أي حرية . سوف تكسب كل شىء ولن تخسر أى شىء . ماذا لو شربنا الجعة القوية لتوطيد ارتباطنا ؟

ـ أليس ذلك تسرعا ؟ !

ـ إنه أفضل حل لكلينا . أيّا كان مصيرك ، عليك الإقامة فى منزل نظيف ومعتنى به . سوف أكون خادمتك حتى إنك لن تلحظنى .

وافق «بانيب» ـ وقد تفوقت عليه محدثته ـ على شرب الجعة التى لم تنعم عليه بصفاء الذهن . إلا أنه أكل بشهية وانتهى به الأمر إلى الإقرار بأن الفراش الذى أعدته أوابت الطاهرة كان يفوق فى راحته بكثير حصيرته القديمة .

هو متزوج من امرأة لا يحبها وعاشق لأخرى لا يمكنه أبدًا الزواج منها. كان رأسه يدور. إذا لم يقم فوراً بطرد أوابت الطاهرة من هذه الحجرة ومن بيته، فسوف تقدم نفسها اعتباراً من الغد على اعتبار أنها زوجته الشرعية فى حين أنه حتى لا يعرف إذا ما كان سيبقى فى جماعة تقصر وظيفته فيها على مجرد جباس.

نام «بانيب» وكله أمل فى أن يكون ما يراه أضغاث أحلام وإن كان مدركًا أنه كان جبانًا فى تلك اللحظة.

* * *

الفصل السادس والخمسون

عندما استيقظ بانيب، كانت أوابت الطاهرة قد اختفت، بعد أن طوت الأغطية ولفت الحصيرة. شعر الشاب الضخم بالراحة وصعد السلم المؤدى إلى السطح حيث كان يحلو له النوم فى ليالى الصيف الحارة.

متحررًا، تذوق الشاب بنهم أشعة الشمس المشرقة، قبل أن يبدأ فى فحص الفتحة العريضة جهة الشمال التى تغطيها سقيفة مائلة مثلثة الشكل. تلك الفتحة تقوم بعمل خرطوم التهوية الذى يسمح بمرور جيد للهواء فى المنزل الذى كانت ببعض جدرانه تحمل كوات صغيرة يسهل إخفاؤها إذا ما رشقته الشمس بأشعتها الحارقة.

وأخيرا، تخلص من هذه الورطة. لا بد أن أوابت الطاهرة قد أدركت استحالة هذا الزواج، إلا أنها تركت له منزلاً رائع النظافة مزود بأثاث جميل. هل من حقه الاحتفاظ به؟ لا. سوف يعيده كله. إنه مهرها ولا يمكن أن يظل فى حوزته.

أثار صياح بعض الأطفال فضوله. نظر من السطح فوجد قرابة عشرة أطفال عند باب بيته يحملون أقفاص صغيرة من البوص المقطوع حديثًا والذى يربط بينه لب أوراق البردى. وفى داخل هذه الأقفاص الصغيرة ثمار كبيرة من دوم النخيل.

هبط الشاب يفتح لهم.

ـ ماذا تريدون؟

قالت فتاة ذكية وقد أطلقت شلالاً من الضحكات:

ـ نحن نقدم لك هدية احتفالاً بزواجك.

ـ زواجى؟.. ولكن...

ـ إن «أوابت» لطيفة. وكل القرية تعرف أنكما تسكنان تحت سقف واحد.

ـ أنتم مخطئون! لقد رحلت هذا الصباح و . . .

عندئذ ظهرت أوابت الطاهرة وهى تحمل فوق رأسها سلة من المؤن. كانت مشرقة وتسير بخفة رغم حملها.

ـ هل استيقظت يا زوجى العزيز؟ لقد ذهبت لإحضار الخضراوات والفواكه الطازجة. أليست رقة هؤلاء الأطفال مؤثرة بحق؟

انهار «بانيب» وفكر فى الجبس وفى الواجهات الأخيرة التى تنتظره.

* * *

استقل «آبرى» المدير الرئيسى للبر الغربى المعدية المخصصة لكبار الموظفين للتوجه إلى طيبة. فى الميناء، كانت هناك مركبة موضوعة دائمة تحت تصرفه، نقلته إلى الڤيلا الفخمة التى أصبح يقيم فيها القائد «ميهى» وزوجته «سيركيتا» منذ عهد قريب.

قدم آبرى نفسه للبواب الذى أصدر أوامره لأحد الخدم بإخطار سيده، بينما دعاه كبير الخدم إلى غسل قدميه ويديه بالماء المعطر قبل دخول قاعة الاستقبال. كان سقف القاعة مزينا بتشبيكات زهرية حمراء وزرقاء ومرتكزا على عمودين من الرخام.

أتيحت لآبرى فسحة من الوقت، ليتأمل فيها حوض أزهار اللوتس والحديقة المزروعة بالنخيل وأشجار الجميز والخروب والسنط، والمظلة والنافورة الخاصة بها، والفناء الكبير الذى تحفه على جانبيه مخازن الغلال وحظائر الماشية، ويتوسطه بئر. كان المنزل الشاسع والفخم يضم ما لا يقل عن عشرين حجرة غير سكن الخدم.

كان نجاح «ميهى» باهراً ومستقبله ممتدا أمامه. شعر آبرى بالخوف أمام كل هذا الثراء. لقد فهم أن الرجل الذى اختاره حليفًا له يتسم بالهيبة الشديدة التى يتسع نطاقها يومًا بعد يوم.

أعلنه كبير الخدم قائلاً:

ـ سوف يستقبلك وزير الخزانة فى قاعة التدليك. تنفس آبرى الصعداء. فعلى الأقل، ميهى لن يطرده. وهذه المرة، يجب ألا يصيبه بخيبة أمل، بل على العكس من ذلك، سيقدم له الدليل الأكيد على تعاونه معه.

قاد كبير الخدم المدير عبر قاعة فخمة بها أربعة عمدان لاتزينها إلا صور الصيد البحرى والبرى فى المستنقعات، ثم أدخله فى قاعة الدهانات التى تحف بها دكة مبنية مغطاة

بالحصير الفاخر الكثير الألوان. وعلى الأرفف، كميات هائلة من قوارير وآنية الدهانات المصنوعة من العاج والزجاج والمرمر وقد أخذت أشكال أزهار اللوتس وأوراق البردى والرمان وعناقيد العنب أو سباحات عاريات تدفع أمامهن بطًا واضح الأجنحة وتشكل أجسامها آنية.

كان «ميهى» ممددًا على بطنه بينما كان مدلك يمسد ظهره وآخر ينظف أظافره بفرشاة من «شعر شجر التمر» أو هكذا كان يطلق على الشعيرات المأخوذة من أوراقه.

- اجلس يا عزيزى آبرى واعذرنى لاستقبالك على هذا النحو ولكن جدول أعمالى مثقل للغاية ولم أرغب فى إرجاء هذا اللقاء. ألديك أخبار سارة؟

- ممتازة... ولكنها سرية.

- لقد انتهى عامل (المانيكير) من عمله. أما مدلكى فهو أخرس ولا يسمع.

انسحب عامل (المانيكير) واستمر المدلك فى عمله.

قال ميهى:

- لقد مر وقت طويل لم يسنح لنا فيه تبين الأوضاع، وانشغل كل منا بوظيفته، برغم أن مجالى عملينا متقاربان وإن كانا مختلفين.

- هذا هو رأيى بالضبط. وأنا أهنئك على أسلوبك فى إدارة الشئون المالية لمدينتنا الغالية. سوف يفخر بك حموك.

- هذه المجاملة تمس أوتار قلبى يا آبرى. إننى كثيرًا ما أفكر فى هذا الرجل الغالى وأجله الذى حان قبل الأوان.

- إن المسئوليات تثقل كاهلك وتتزايد يومًا بعد يوم. ربما دفعك ذلك إلى إهمال أو حتى نسيان الأهداف التى تحدثنا عنها.

أجاب ميهى بصوت حازم:

- أبدًا.

- ألا زلت تريد أن تقضى على ساحة الحقيقة؟

- إن نواياى لم تتغير ولا اتفاقنا أيضا. ولكنى لست متأكدًا من أنك أنت قد احترمته.

سرت رعدة فى أوصال آبرى من أثر هذه المخاطبة المفاجئة التى رفع فيها الكلفة بينهما .

ـ لقد بذلت كل ما فى وسعى . صدقنى ، إلا أن جهودى لم تكلل بالنجاح . إن أسرار هذه الجماعة مصونة بشكل أفضل مما توقعت . وأى سوء تصرف من شأنه أن يثير غضب الوزير والفرعون شخصيًا .

ـ إذا كان هناك رأى فى طيبة يؤخذ فى الاعتبار فهو رأيى . لقد وعدتك بالاحتفاظ بمنصبك وقد وفيت بوعدى . إلا أننى فى مواجهة ما أراه منك من التباطؤ فى إرضائى يمكننى تعديل موقفى وإعلام كبار السلطات فى الدولة بأن المدير الرئيسى للبر الغربى ليس كفئا .

بهت آبرى ثم تمتم قائلاً :

ـ أنتم تعرفون أن هذا غير حقيقى . أنا أؤدى واجبى على أكمل وجه . ولا يشكو أحد منه و . . . .

ـ أنا فى حاجة إلى حلفاء ذوى فاعلية . ألم تكن تتحدث عن أخبار سارة؟

كان آبرى ، وقد عدم الحيل فى مواجهة ميهى ، قد نسى تقريبًا أنه يمتلك حججًا دامغة .

ـ إن الأمر يتعلق بالرئيس سوبيك . لقد درست ملفه بتعمق .

ـ ما الذى اكتشفته فيه مثيرًا للأهمية؟

ـ للأسف لا شىء . وأنا أعترف أننى قد أصبت بخيبة أمل حيث إن رجل الشرطة هذا كان يبدو نزيهًا . عندئذ ، اتخذت مبادرة : توجهت إلى القرية متذرعًا برغبتى فى تفتيش منشآت المعاونين . كان هدفى الأوحد هو معرفة سوبيك بشكل أفضل .

ـ ممتاز يا عزيزى آبرى ، والنتائج؟

ـ إنه رجل شرطة ضميره حى للغاية وينجز مهامه بدقة بالغة .

ـ هذا ما تعرفه فعلاً . وما الجديد؟

ـ إن سوبيك يؤكد رضاءه عن قدره ولكن هذا فى الظاهر فقط . فالواقع أنه قد بدأ يمل عمله الشاق الذى يستغرق كل وقته ويحول بينه وبين تكوين أسرة .

انتصب «ميهى» وبحركة عنيفة أمر مدلكه بالخروج .

قال القائد وهو ينظر لنفسه فى مرآة من النحاس مقبضها على شكل فتاة عارية :

ـ إن هذا قد يكون مثيراً . هل ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك؟

ـ أبعد من ذلك بكثير . لقد عرضت عليه مركزاً أفضل كمكافأة فى إدارة الشرطة النهرية لطيبة ، وأعتقد أنك لن تجد أدنى صعوبة فى الحصول عليه من أجله .

ـ بالضبط . ولكن هل أفهمته أن لمثل هذا الكرم مقابلا؟

ـ بالطبع .

ـ وماذا كان رد فعله؟

ـ أعتقد أنه مستعد لمساعدتنا بالأسلوب الذى يناسبنا .

ـ إنه فعلاً خبر ممتاز!

وضع ميهى المرآة ومشط شعره الأسود الذى كان شديد الفخر به . ولما استنتج آبرى رضاء حاميه القوى ، بدأت أعصابه فى الارتخاء .

أعلن ميهى قراره :

ـ سوف أعد العدة بهدوء لهذا التعيين . وعندما يحصل عليه ، سوف تستجوب سوبيك الذى سيسر إلينا بكل ما يعرفه عن ساحة الحقيقة وعن إجراءات الأمن المتخذة لحمايتها . ولكن لا تنس أننى قد عهدت إليك بمهمة أخرى .

ـ أنا لا أنساها . كن واثقًا من ذلك! لقد مر وقت طويل منذ قام أحد الحرفيين بالخروج من القرية والإقامة خارجها بصفة مستديمة .

امتلأت نظرة ميهى بكثير من الغضب .

ـ هذا أمر يصعب تصديقه جدًا . . . . أنا أعتقد أنك لم تقم أى نظام مراقبة وأن الحرفيين قد تنقلوا بحرية تامة .

ـ أنا أعترف أن الرجال الذين عينتهم تعوزهم اليقظة . ولكنها مهمة بالغة الحساسية .

ـ لقد نفد صبرى يا آبرى . فى الوقت الحالى ، أطالب بالنتائج .

* * *

الفصل السابع والخمسون

منذ أن استدعى نيفر من جانب رئيس المجموعة لإعداد مقبرة «كا» الجديدة الخاصة برمسيس الأكبر، ندرت الأوقات الحميمة التى تتقاسمها كلير مع زوجها. وبعد أن تعلم نيفر الصامت أسرار الترسانة البحرية، ارتقى لعدة درجات فى التدرج الوظيفى للبنائين لصرامته فى العمل والتى قدرها الجميع.

وتصور المناصرون له أن الشاب يستوعب الأساليب الفنية بسهولة كبيرة وأنه ليس عليه إلا بذل قليل من الجهد لإثبات تمكنه المتنامى. فقط زوجته، هى التى كانت تعلم أن هذا خطأ مؤكد وأن كفاءته هذه مرجعها العمل المضنى. ولكن العمل يثقل عليه، فقد كان نيفر يتقدم فى عالم يتناغم مع ذاته بشكل كامل. كان قد ولد لساحة الحقيقة وشكلته الآلهة ليزدهر فيها ويخدمها.

رغم ضخامة العمل ومتطلبات الحياة اليومية، فلقد سارت السنوات فى عذوبة العسل. ووقتما كان نيفر يتدرب على أيدى الحجارين والمثالين، كانت كلير تتلقى تعاليم كاهنات حتحور والمرأة الحكيمة. الأوليات يلقنها أبعاد الطقوس والرموز، والثانية العلوم التقليدية وإدراك القوى الخفية.

ومثل كل صباح، كانت كلير تتأمل - من فوق سطح منزلها - قرية الحرفيين القابعة فى أعماق الوادى الذى يشرف عليه نتوء صخرى يُعَدّ بمثابة سفح قمة الجبل المقدسة والمشيد فوقها معابد صغيرة مكرسة للآلهة ولذكرى الفراعنة الأموات الذين قاموا على حماية ساحة الحقيقة وبخاصة أمنمحتب الأول وتحتمس الثالث وسيتى والد رمسيس. كان الخط المتعرج لهذا المحراب يتفق مع أسفل الشاطئ الصخرى، وتستند القاعة الرئيسية للمعبد إلى الجبل الغربى حيث يحدث كل ليلة، سر البعث بعيداً عن الناظرين.

لم تندم كلير، ولا للحظة واحدة، على تركها البر الشرقى والحياة العادية التى أعدتها لها تربيتها. ومثلها مثل «نيفر»، أصبح اليوم وطنها الحقيقى هو تلك القرية المتواضعة التى

لا مثيل لها. هنا تعلمت أن سعادة المجموعة تقوم على تبادل القرابين وعلى نوعيتها. فالعطاء وليس الأخذ يقيم نوعًا من التضامن الكفيل بالقضاء على اختلافات وجهات النظر والبغض والأنانية. وكان يقع على كاهل الكاهنات عبء ضمان هذا التواجد الدائم للقرابين ومكافحة الميل الطبيعى للجشع.

كانت كلير تحب حيوية لحظات الصباح الأولى وانبثاق الضوء خارج الجبل الشرقى. كان لديها شعور بأن الحياة تتوالد من تلقاء نفسها وأن عملية الخلق تكتسب، مع الفجر، انطلاقة جديدة تحمل معها عجائب لا يمكن تخيلها.

فجأة، جذب انتباهها خيال شخص.

كانت المرأة الحكيمة تتقدم بعناء فى الشارع الرئيسى للقرية وشعرها الأبيض الرائع تداعبه نسمات الهواء. وقد أصبحت تلاقى صعوبة متزايدة فى السير إلا أنها لم تكن بعد تستخدم عصا. وما أن لمحتها كلير حتى هبطت الدرج وفتحت الباب لانتظارها عند عتبته.

كانت المرأة الحكيمة قد سبقتها. ولكن، كيف استطاعت أن تعبر بهذه السرعة المسافة التى تفصلها عن هدفها.

- هل أنت مستعدة يا كلير؟

- كنت أهم بإحضار الأزهار من الباب الرئيسى.

- سوف تحل أخرى محلك. أما أنت فاتبعينى.

ولإحساس كلير بأن المرأة الحكيمة لن تجيبها، تجنبت توجيه الأسئلة لها. واكتفت بتتبع خطاها. أما مرشدتها فقد بدت وكأنها استرجعت قوتها السابقة لاختراق القرية واتباع الطريق المؤدى إلى وادى الملكات.

توقفت المرأة الحكيمة عن السير أمام سبع مغارات محفورة فى الصخر تأخذ شكل قوس قزح فى مواجهة الشمال.

- هنا يسود «مرسجر» إلهة الصمت و«بتاح» إله النبائين. اختارى واحدة من هذه المغارات السبع يا كلير وابقى فيها فى حالة تأمل حتى نأتى لاصطحابك.

دخلت زوجة نيفر الصامت فى أول مغارة جهة الشمال. كانت بمثابة مصلى صغير مقام فيه نصب لذكرى بتاح الذى قام بتشكيل الكون بالكلمة. جلست كلير القرفصاء وتذوقت انتعاش المكان وسكونه.

وفى منتصف النهار، انتقلت بها إحدى الكاهنات إلى المغارة الثانية التى تسودها إلهة قمة جبل الغرب وقد أخذت هيئة ثعبان كوبرا خَيِّر. ومع انتصاف النهار، شربت كلير اللبن فى المغارة الثالثة فى مواجهة نقش على الجدار يصور رضاعة الفرعون من الإلهة الأم. وفى المغارة الرابعة، بجّلت القدرة الخالقة لحتحور إلهة النجوم. وفى الخامسة «البا» الموجود فيها وقدرته على السمو إلى السماء بأفكار المؤمنين به. كان الليل يسدل أستاره عندما اكتشفت كلير فى المغارة السادسة ممثلا للفرعون يقدم الأزهار لحتحور. وعلى ضوء أحد المشاعل، رأت فى المغارة السابعة، الملك أمنحتب الأول وزوجته أحمس نفرتارى التى كانت بشرتها سوداء رمزاً للبعث بعيداً عن الموت واستقبال نصير جديد. كانت الرسوم معبرة لدرجة بعثت الحياة فى الزوجين الملكين، ممثلى الخير فى ساحة الحقيقة.

تحت الضوء الفضى لشمس الليل، دعيت كلير للخروج إلى الساحة المنثور عليها أزهار اللوتس. وقدمت لها إحدى الكاهنات الماء والنبيذ.

ظهرت المرأة الحكيمة فى مواجهتها كما لو كانت تنبثق من الحجر.

ـ أنت موجودة بين الأسدين يا كلير. بين الأمس والغد، بين الغرب والشرق. وحتى الآن، تلقيت تعاليمى. وقد حانت الساعة التى ترسمين فيها طريقك بنفسك وتتحدين مع كائنات للعالم اللامرئى وأن تتولد فيك طبيعتك الحقيقية.

ـ إذا ما كان ذلك هو الطريق القويم لخدمة ساحة الحقيقة، ليكن كذلك.

ـ اشربى هذا النبيذ وكُلى هذا الخبز مع الوضع فى حسبانك أن كل حركة من حركاتك، حتى أكثرها تواضعا، يجب أن تكون يقظة. وإلا فوجودك فى هذا العالم لن يكون إلا ظلالاً. لقد قتل أوزيريس على أيدى قوى الظلام ولكن علم إيزيس قام ببعثه. أصبح دمه النبيذ وجسدها الخبز. الإنسان ليس الإله ولكن مشاركته ممكنة فيما هو إلهى شريطة اجتيازه لأبواب السر الأعظم. إذا كانت لديك الشجاعة اللازمة لذلك، اتبعينى.

لم تتردد كلير.

تسلقت المرأة الحكيمة طريقا بالغ الوعورة حتى إن تابعتها قد وجدت صعوبة فى تتبعها. وفجأة، أصبح الليل دامساً كما لو كان القمر يرفض إرسال نوره. إلا أن هالة من النور الغريب كانت تطوق شعر المرأة الحكيمة فمكنت كلير من تتبع أثرها.

بدا لها التسلق بلا نهاية وصعوبته متزايدة، إلا أنها لم تتراجع هى ومرشدتها، التى

تتقدم فى طريق يحف به الفراغ. لم تستدر خلفها ولو لمرة واحدة. وأخيراً، توقفت المرأة الحكيمة عند قمة أحد المرتفعات وأدركتها كلير.

ـ القرية نائمة، والأحلام تخترق الأجساد، والآلهة مستمرة فى الخلق دون كلل أو ملل. إن عملهم هذا هو الذى عليك إدراكه وليس عمل البشر الذى سيمحوه الزمن. أنصتى يا كلير، أنصتى إلى أقوال الجَبل المقدس.

كان الصمت يخيم على المكان. ما من ضبع يئن أو عصفور ليل يغنى كما لو كانت الطبيعة بأسرها قد أبرمت عهداً. لأول مرة، رأت كلير السماء. لا السماء فى صورتها الظاهرية المليئة بكوكبة من النجوم، لكن فى صورتها الخفية: امرأة ضخمة تحتضن النجوم المتلألئة وأبواب الضياء. كانت أيادى وأقدام «نوت» إلهة السماء الزافرة تمس أطراف الكون.

كل ما تعلمته كلير منذ دخولها إلى ساحة الحقيقة اكتسبت بعداً جديداً يتناغم مع هذا الكون النائى الذى تتوالد فيه الحياة من تلقاء نفسها. أوصتها المرأة الحكيمة قائلة:

ـ تعالى للقاء حلفائك.

غادرت من فورها رأس الجبل وهبطت فى واد ضيق للغاية تحف به شواطئ صخرية، وجلست فوق صخرة مستديرة شكلتها الرياح والأعاصير. خف الظلام وبدا القمر مركزاً نوره على هذا الركن الخالى. وبفضله، تمكنت كلير من رؤيتهم.

ثعابين.

عشرات من الثعابين ذات أحجام وألوان مختلفة. أحمر وبطنه أبيض، أحمر وأصفر العينين، أبيض وذيله سميك، أبيض وظهره مبرقش ببقع حمراء، أسود فاتح البطن، أفعى نافثة وأخرى تبدو وكأن غصن لوتس مرسوم على رأسها، وقارنة، وثعبان الكوبرا المستعد للهجوم.

ذعرت كلير ولكنها لم تطلق العنان لساقيها. فإذا كانت المرأة الحكيمة هى التى أتت بها إلى هذا المكان، فحتما ليس لإيذائها.

ثبتت كلير نظرها على الثعابين واحداً تلو الآخر فى الوقت الذى كانت تشكل نوعًا من الدائرة من حولها. ولم تلمح فى أعينها اليقظة أى علامة من علامات الكراهية.

كان شعر المرأة الحكيمة يلمع فى الليل. وعندما مدت ذراعيها نحو الأرض، بهدف تهدئة هذه الزواحف، انسلت أسفل الحجرة المستديرة.

وقالت لكلير :

ـ لن يكون لك أبدًا حلفاء أفضل منها . إنها لا تكذب ولا تخدع وتحمل بداخلها السم الذى ستستخدمينه لإعداد علاجات الأمراض . ومعى ، فى الجبل سوف تتعلمين كيفية الحديث إليها ومناداتها عند الضرورة . إن الثعابين هى أبناء إله الأرض . وهى تعرف الطاقات التى تؤججها ، فلقد كانت حاضرة وقت تشكيل الآلهة الأولية لها . وسوف تفهمك هذه الثعابين أن الخوف مرحلة ضرورية والشر يمكنه التحول إلى خير . هل تقبلين منحة الثعابين ؟

أمسكت كلير بالعصا التى تمدها إليها المرأة الحكيمة . وعند تحولها إلى ثعبان ذهبى طويل ، يبدو ثغره مبتسمًا ، لم ترخ المرأة الشابة قبضتها .

* * *

الفصل الثامن والخمسون

كان النزل الذى تم افتتاحه على مقربة من السوق الرئيسى فى طيبة مقصداً للتجار المصريين والأجانب الباحثين عن بعض الانتعاش ومكان للتخاطب. كان جوه العام مرحًا، والحديث يدور فيه عن الصفقات والأرباح. وقد بدا «داكتير» ببدانته ولحيته كأى تاجر سورى يسعى إلى عقد الصفقات المربحة. هنا، كان لا يخاطر بلقاء أحد علماء المعمل الرئيسى أو أحد كبار الموظفين. ولهذا السبب، كان قد حدد موعداً فى هذا النزل مع أحد معاونى ساحة الحقيقة الذى يعمل غسالا.

جلس الرجل المستدير المنكبين فى مواجهة داكتير. كان يسود القاعة ضجيج كاف يجعل من المستحيل الاستماع لحديثهما.

قال العالم:

ـ لقد طلبت أفخر ما لديهم من جعة.

ـ هل لديك مسحوق الغسيل الخاص بى؟

ـ هناك حقيبة كاملة منه فوق ظهر الحمار الذى ينتظرك بالخارج. وقد أدخلت مزيداً من التحسينات على فاعليته.

قال الغسال:

ـ هذا حسن. آه لو كنت تدرك مشقة عملى. أسوأ ما فيه، هو الغسيل الملوث بطمث النساء. وهن متشددات جداً ويرفضنه لو لم يكن بياضه ناصعًا! من الواضح أنهن لم يقمن بغسله بأنفسهن. بفضل إنتاجكم، أكسب وقتا وأستطيع العناية ببستان الفاكهة الخاص بى.

ـ إنه سرنا...

ـ لا تبح بكلمة واحدة عنه، خصوصا إلى رؤسائى. عليهم الاستمرار فى الاعتقاد أننى أعمل مثل زملائى ولكنى أقوم بعمل أفضل.

ـ مفهوم. ولكن ينبغى أن تقدم لى خدمة صغيرة.

سأله الغسال وقد بدا عليه القلق المفاجئ:

ـ ما هو؟ أنا رجل فقير ولا يمكننى أن أدفع لك مبالغ كبيرة!

ـ أنا لا أرغب إلا فى بعض المعلومات.

غض الغسال بصره:

ـ يجب أن تدرك أننى . . . . أنا لا أعرف الشىء الكثير، أنا . . . .

ـ هل سبق لك دخول القرية؟

ـ ليس لى الحق فى ذلك.

ـ هل نجح فى ذلك معاونون آخرون؟

ـ لا. إن الحرس شديدو البأس. وكما أن القائد سوبيك قد عزز من إجراءات الأمن، ولن يخاطر أى فرد من الخارج بالدخول عنوة. إن رجال القرية يعرفون بعضهم البعض جيداً وأى دخيل سوف يتم تحرير مكانه على الفور وطرده وإدانته.

ـ هل التطفل لا يحدث غالبًا؟

ـ بالطبع لا، لكل مكانه. ونحن المساعدين نلتزم بما هو مخصص لنا.

ـ وفقًا لكمّ الغسيل الذى تتولى أنت وزملاؤك غسله، ينبغى أن تكون لديكم فكرة محددة عن عدد السكان ونسبة الرجال بالنسبة للنساء.

أمعن الغسال النظر إلى داكتير:

ـ هذا ممكن . . . ولكن قد أمرنا بالحفاظ على السر.

ـ ما الذى تريده؟

ـ ثلاث حقائب مجانية من مسحوق الغسيل.

ـ هذا ثمن غال.

ـ إن المعلومات التى تطلبها سرية . وأنا أعرض نفسى لمخاطر شديدة . وإذا ما عُرف أننى قد أفشيت أسراراً سوف أفقد وظيفتى . وآخر الكلام ، أريد أربع حقائب .

ـ لن أعطيك أكثر من ذلك .

ـ اتفقنا .

تصافح الرجلان إعلانا عن إبرام الصفقة ، شأن التجار الأصليين .

ـ فى اعتقادى أن عدد الحرفيين يبلغ نحو الثلاثين ، كما أن فيهم بعض العزاب . ويمكن القول إن عدد النساء يتراوح ما بين عشرين وخمس وعشرين .

ـ الكثير من الأطفال؟

ـ وفقًا للروايات التى أسمعها ، طفلان فى المتوسط لكل زوجين . إلا أن بعض كاهنات حتحور لا يرغبن فى الأطفال .

ـ إنها جماعة صغيرة جداً . لن يمثل القضاء عليها مشكلة ضخمة .

* * *

كان إصلاح واجهات القرية قد انتهى ، وأصبحت وضّاءة تحت أشعة الشمس . شعر بانيب المتأجج بالزهو بنفسه لتمكنه من فن الجبس وفى الوقت نفسه بالملل يزحف إلى داخله . فهو لم يعد ينجز إلا حركات مكررة بدون شغف أو روح ، فلم يعد فى هذا النوع من هذا الفن المزيد لاكتشافه .

تأقلم الشاب الضخم على وجود أوابت الطاهرة التى كانت تقوم بأعمال التنظيف والطهى على أكمل وجه ، ولا تلومه على أى من ساعات الحب التى يقضيها مع فيروز . كانت زوجة بانيب الرسمية هى الكتمان ذاته ، وحرصت على ألا تضايقه . وفى حديثها مع النساء الأخريات ، لا تنتقد زوجها وتتمنى لكل منهن أن تعرف سعادة مثل سعادتها .

غداً ، من المقرر لـ «بانيب» أن يلتقى بالرسامين ، بل وحتى رئيس المجموعة إذا ما اقتضتى الأمر ذلك . ويدافع من شعوره بالخروج منتصراً من هذا الاختبار الذى فرض عليه ، كان ينوى الإعراب عن مطالبه وعدم قبول الأحاديث المبهمة . لذا فإن وجبة جيدة من شأنها أن تغذى قدرته على الإقناع .

كانت هناك مفاجأة فى انتظاره : أوابت الطاهرة ترتدى رداءً أبيض وقد زينت عنقها

بعقد من العقيق الأحمر وطوقت جبهتها بعصابة من الزهور. لم يكن لمظهرها أدنى علاقة بربة البيت المتواضعة.

وقالت له:

ـ ادخل بهدوء.

دفع بانيب باب بيته ليكتشف وجود كلير ونيفر وقد اتخذا موقعهما فى حالة تأمل أمام تمثالين نصفيين من الحجر الكلسى فوق مشكاة فى حائط الحجرة الأولى. كان أحدهما يتحدث عن الإله بتاح والآخر عن الإلهة حتحور. وكان التمثالان مقطوعين تحديداً أسفل القفص الصدرى، بلا أذرع وفوق صدرهما عقد عريض، ويرسلان نظرة حادة وعميقة.

أحرقت كلير بعض حبات البخور فوق موقد محمول ودفعت به لبانيب. وقالت له:

ـ شرف أجدادنا بالنار. فبفضل وجودهم فى كل دار من ديارنا، يمكن للآلهة أن تعلن عن نفسها. لك أن تعيش بفضل قدرتها وليس تابعًا لها. إنها تتجلى بألف طريقة وطريقة وبإمكانها أن تصيبنا بالعمى أو بعودة الإبصار. عسى النار التى تحترق فيك ألا تدمر شيئًا.

وبينما كان «بانيب» يبخر الأجداد، كانت كلير تصب الماء على الورد والفاكهة التى وضعتها فوق أحد المذابح. وقال نيفر:

ـ كان قد حان الوقت لتقديس هذا المسكن. تعال معى إلى الحجرة الثانية فقد وضعت فيها هدية.

كان الصامت قد ثبّت فى الحائط شاهداً كلسيّا مستطيل الشكل فى القسم الأعلى المقوس، يمثل ـ على ارتفاع ثلاثين سنتيمتراً ـ أحد الأجداد الذى كان يحمل اسم روح «رع» الفعالة والمضيئة. كان يبحر بصفة دائمة فى قارب الشمس، فيما وراء الموت، ويتخذ صورة هذا الكوكب ويشع على سكان القرية.

وسأل بانيب:

ـ هل أنت من قمت بنحت هذا الشاهد؟

ـ أيعجبك؟

ـ إنه أعجوبة. يحمل الجد علامة الحياة فى يده اليمنى. أليس كذلك؟

ـ بلى إنه ينقلها إلينا، إذا ما كنا نعرف كيف نستمع إليه. إن الاستماع هو أفضل شىء ـ كما كان الحكيم بتاح حوتيب يقول ـ والقلب هو الذى يجعلنا نحسن الاستماع. فإذا ما اتبعنا إرشاداته، فسوف يجعل منا كائنات مستقيمة. وإذا لم نفصل بين قلوبنا وألسنتنا، فسوف تثمر مشروعاتنا.

ـ ومشروعاتى أيضا؟

ـ بفضل القلب توجد كل معرفة، وبفضله أيضا ندرك نور أجدادنا وعطر أزهار اللوتس الذى يتنفسونه. هذا ما علمنى إياه رئيس مجموعتنا. هذا الشاهد إحدى همزات الوصل الكثيرة بين العالم الآخر والقرية، بين الآلهة والأحياء. إن وجه أحد الأجداد هو شعاع الشمس الذى يضىء يومنا فى خضم المصاعب المضنية.

وقال بانيب معترضًا، وقد تأثر بالطابع الرسمى لحديث «نيفر»:

ـ زد على ذلك، أنه ينبغى للقلب أن يطيع وألا يكون كارها. إن قلبى أنا متمرد فى الغالب ولست متأكدًا من قدرتى على السيطرة عليه.

اقترحت زوجته قائلة:

ـ ماذا لو تناولنا العشاء؟

تقاسم الأربعة الطعام الذى أعدته أوابت الطاهرة التى كانت تشعر بفرحة غامرة لاستقبال أصدقاء زوجها. أخذوا جميعا فى الضحك وهم يتحدثون عن عيوب القرويين دون نسيان عيوبهم أيضا. وفى نهاية العشاء، وضعت كلير مصابيح فى أركان الغرفة الأربعة حتى لا يقلق أى شيطان نوم الزوجين.

وهكذا، تم الانتهاء من إضفاء الطابع القدسى على المنزل.

شكر الضيوف أوابت الطاهرة على ضيافتها، ولكن عندما آن الرحيل، لمح نيفر علامات الغيظ على وجه بانيب الذى اعترف بقوله:

ـ أنا لا أعتزم قضاء حياتى فى الاستماع. أريد أن أرسم وينبغى أن يسمعنى الآخرون!

أجابه نيفر:

ـ إن الظهر لا يكسره الانحناء.

* * *

الفصل التاسع والخمسون

أيقظت المرأة الحكيمة كلير ونيفر فى أثناء الليل . وأعلنتهما قائلة :

ـ زوجة الكاتب راموسى فى أسوإ حالاتها . لم يعد لدى أى أمل ، ولكن بإمكاننا تخفيف آلامها .

ارتدت كلير ملابسها مسرعة .

ـ تعال معنا يا نيفر . هكذا طلبت منه المرأة الحكيمة متعللة بالإرهاق .

سار الثلاثة فى صمت حتى بلغوا أجمل منازل القرية المضاءة من الداخل بمصابيح الغاز . توجهت المرأة الحكيمة وكلير إلى الغرفة ، أما الكاتب راموسى فقد التمس من نيفر الجلوس فى مواجهته .

وقال بصوت يمتزج فيه الحزن بالهدوء :

ـ زوجتى ستموت . لقد قضينا كل حياتنا سويًا ، وعرفنا السعادة هنا فى تلك القرية . لن أتركها تشرع وحدها فى الرحيل الأكبر ، لذلك ، لن أبقى طويلاً على قيد الحياة من بعدها . إن الشيخوخة أمر سيئ يا نيفر ، معها يغرق القلب فى الخدر ، ويتلعثم اللسان ، وتنغلق العيون ، وتصم الآذان ، وتحرم الأعضاء قوتها . الذاكرة يصيبها الوهن ، والعظام تصبح مؤلمة والزفرات قصيرة . واقفين كنا أم جالسين أم حتى راقدين ، يفترسنا الألم ويختفى الميل لملذات الحياة . إلا أنه ، وحتى اليوم ، يحمل إلىّ كل فجر جديد السعادة لأننى دومًا كنت أرى القدسية تعيش فى ساحة الحقيقة . ولكن بدون زوجتى ، لن أقوَى حتى على رؤيتك أنت وإخوانك فى الروح تتوجهون إلى أعمالكم . أن يظل المرء على هامش الموت أمر سيئ . فالموت هو ممر ضيق يؤدى بنا إلى محكمة أوزيريس ، وإنه هو الذى يحكم بنقاء القلوب . وحتى إن كنت ما زلت شابًا ، عليك أن تفكر من الآن فى إعداد دار الأبدية فى مقبرة القرية ، حيث إن دار الموت هى دار الحياة . ويبقى لى إنجاز عمل

واحد برفقة نيب، وهو عمل قررنا، أنا وهو، ضمك إليه وهو إعادة إنشاء المبنى المخصص لـ «كا» الملكى. وأرغب أن يراه رمسيس الأكبر مكتملاً قبل أن يلحق بأسلافه فى وادى الملوك. عدنى بالعمل دون توان.

ـ أعدك.

ـ إن السعادة الحقيقية يا نيفر تجدها فى الاستقامة وفى حب ماآت. إن الله والفرعون يحبان «ماآت»، العمل الخلاق المستقيم. إن «ماآت» عظيمة ودائمة وفعالة، لم يعترها أى تغيير منذ بدء الخليقة وهى وحدها التى ستبقى بعد أن يختفى كل شىء. لذا، فإن وظيفة فرعون الرئيسية هى إحلال «ماآت» مكان كل فوضى وظلم. أنجز ما تعلمه لنا «ماآت» وسوف تنكشف لك، إنها هى التى تمثل غذاء الآلهة بطعم العسل. إن النور الإلهى مستمد من «ماآت»: هى الاستقامة التى بفضلها نفصل بين الخير والشر. ابنِ طريقك بنور ساحة الحقيقة يا نيفر ولا تنس ابتسامة «ماآت».

خرجت المرأة الحكيمة وكلير من غرفة زوجة كاتب «ماآت» وقد غطى وجهيهما الحزن. وقالت المرأة الحكيمة:

ـ إنها لم تعد تتألم. إنها تطلب رؤية زوجها.

* * *

سار «بانيب» المتأجج فى خطى ثابتة نحو دار «شد» الفنان. إنه هو رئيس الرسامين وهو من يجب إقناعه ليفتح له أخيراً أبواب تلك المهنة. منذ دخوله فى تلك الجماعة، كان الشاب الضخم قد وافق على اجتياز اختبارات عسيرة مثبتًا بذلك أنه على مستوى المهام التى تعهد إليه. ومرت السنون دون أن يحرز تقدمًا فى الفن الذى يعشقه. ولشغفه الجم به لم يعد يتحمل التأجيل.

وفجأة، توقف عن السير.

كان هناك شيء على غير العادة. فعادة، أول انبعاث لأشعة أشعة الشمس، كانت الحركة تدب فى القرية وتملأ الصهاريج ويتناول الناس فطورهم فوق الأسطح. أما فى هذا الصباح، فلم يكن هناك حياة. ولا ضجيج ولا ضحكة طفل ولا شخص واحد فى الشارع الرئيسى.

هرول «بانيب» لمنزل نيفر وكلير ولكنه لم يجدهما. كانت كل الديار خالية.

غادر المتأجج القرية من بابها الغربى ورأى القرويين متجمعين أمام أحد مقابر المقبرة .

وهمست أوابت الطاهرة :

ـ ها هو ذا أنت . أخيرا!

ـ لقد استيقظت متأخرًا عن المعتاد، ليست هذه قضية دولة!

ـ التزم الصمت إذن، نحن فى مأتم .

ـ من المتوفى؟

ـ راموسى، كاتب «ماآت» وزوجته . لقد وجدا جنبا إلى جنب وأيديهما متشابكة فى هدوء تام .

كان على كنهير، خليفة راموسى وابنه بالتبنى أن يرأس الجنازة . ومنذ أن علم كاتب المقبرة بوفاة الزوجين، أرسل حرفيا لاستدعاء الفنانين المختصين بالتحنيط الذين قاموا بتحويل الجثتين إلى أجساد أوزيرية .

وفى تحية لراموسى وزوجته، اللذين أحبهما الجميع، تم إقرار الحداد فى ساحة الحقيقة . وعلى مدى شهر قمرى كامل، سوف يتوقف الرجال عن الحلاقة والنساء عن تسريح شعورهن . فى كل يوم، فى المعبد كما فى المنازل، يبتهل القرويون إلى أجدادهم حتى يستقبلوا الموتى فى الجنات السماوية حيث تسير دائما مركب الضوء وتوضع المآدب .

أوقف الحرفيون كل أعمالهم للانتهاء من الأثاث الجنائزى لكاتب «ماآت»، وأنهى شد الفنان المنقذ كتابة ورقة بردى «كتاب الخروج إلى النور» التى سيتم وضعها على المومياء لتمكينها من الرد على حراس أبواب العالم الآخر ونطق عبارات التعارف اللازمة للبعث .

وضع «بانيب» اللمسات الأخيرة للسريرين الجنائزيين تحت إشراف النجار «ديديا»، وهو رجل طويل القامة، بطىء الحركات . قام بضبط الأقدام الخشبية الأربعة المربعة الشكل التى يربط بينها أخشاب تثبيت قوية وجدار الدعم الرأسى عند الطرف الأسفل للسرير بينما كان «ديديا» يشكل رأس سريرين من خشب السنط ترتاح فوقهما رأسا المومياوين .

لاحظ بانيب :

ـ يبدو عليكم جميعًا الإحباط . هل كان راموسى شخصا مهمًا لهذه الدرجة؟

ـ لقد منحه فرعون لقب «كاتب ماآت» وربما لن يحق لكاتب مقبرة آخر حمل هذا اللقب.

ـ ألا تثقون فى كنهير المتذمر؟

ـ كنهير هو كنهير. وهذا فى حد ذاته كثير.

ـ إن إجابتك ليست شافية بالنسبة لى!

ـ اعمل بأفضل ما يكون يا بنى وسوف يأتيك النور . . . إذا ما أراد.

فى يوم الدفن فى المقبرة، عمل الحرفيون وزوجاتهم ككهنة وكاهنات دون أى مساعدة من الخارج. ورتل كنهير ورئيسا المجموعتين العبارات الطقسية أمام المومياوين بعد أن تم وضعهما فى وضع الوقوف وفتح الفم والعينين والأذنين.

ثم وضع الحرفيون الجسدين الأوزيريين فى نعشين خشبيين تزينهما وجوه الآلهة الحافظة وبعض الرموز مثل مفتاح الحياة وعقدة إيزيس السحرية أو عمود «الثبات» رمزًا لبعث أوزيريس.

وبدا بعد ذلك طواف موكب القرابين، على أيدى الرجال والنساء الذين سيزودون دار الآخرة بالعصى وبلوحة ألوان الكاتب وأدوات البناء وملابس طقسية وسرائر ومقاعد وكراسى وخزن للحلى والدهانات ومناضد القرابين وتماثيل خشبية صغيرة «خدام القداس» المقرر لهم الاستمرار فى نقل أدوات بناء إلى العالم الآخر عند مناداة الشخص المبعوث.

أما أحشاء المتوفى، فقد وضعت فى أربع أوان تحمل رسم أبناء حورس: رجل يحرس الكبد وصقر يحرس الأمعاء وقرد يحرس الرئة، وابن آوى يحرس المعدة. فمن الجانب الآخر للموت سوف يعاد بناء جسد من النور لن ينقصه أى عنصر.

كان التأثر باديًا على وجه «نيفر»، وشعرت «كلير» أنه فريسة لنوع من الاضطراب.

سألته قائلة:

ـ ما الذى تخشاه؟

ـ لماذا وجه راموسى حديثه الأخير إلىَّ وليس لكنهير ابنه بالتبنى أو حتى لرئيس المجموعة؟

ـ لقد كان راموسى رمزًا للطيبة نفسها ولكنه كان يقوم بوظيفة كاتب «ماآت» وعمله ليس بمحض الصدفة. لقد كان يعرف ساعة موته، وقد اختارك أنت وليس أى شخص آخر ليسر إليه بأقواله الأخيرة.

ـ أنا لا أفهم قراره.

ـ ألم يحدد لك مهمة محددة؟

ـ لقد تحدثت عنها بالفعل مع نيب المنجز.

ـ وكيف كان رد فعله؟

ـ مع نهاية فترة الحداد، سوف أبدأ العمل دون كلل أو ملل.

منذ الليلة التى قضتها كلير فى الجبل برفقة المرأة الحكيمة، ونظرتها تقوم باكتشاف ومضات من المستقبل. وكانت لا ترى فى مسلك الكاتب راموسى شيئًا غامضًا.

انتهت المراسم الجنائزية. ورغم تيقن الجميع أن محكمة أوزيريس سوف تعترف بكاتب «ماآت» وزوجته على أنهما من المعادلين، فإن الحزن كان ثقيلاً. فعدم التمكن من الآن فصاعدًا من الحديث إليهما والتماس نصائحهما والاسترشاد بحكمتيهما لهو فى الواقع عقبة ضخمة.

«بانيب» كان الوحيد الذى يشعر بعدم المبالاة. وقد بدت له فترة الحداد بلا نهاية وبخاصة أن فيروز نفسها قد رفضت مضاجعته. إن من ماتوا قد ماتوا وانقضى الأمر ولن يعودوا أبدًا من مملكة أوزيريس. الحياة مستمرة والنحيب لن يحل أية مشكلة.

ربت بانيب كتف نيفر.

ـ ألن يعقب هذا الاحتفال احتفال آخر؟

ـ فى كل يوم يقوم كاهن أو كاهنة بتكريم «كا» الموتى.

ـ إذن سوف تستأنف الحياة غدا مجراها الطبيعى؟

ـ بعض الشىء....

ـ هل توافق على أن أعبر عن بعض المطالب المشروعة؟

ـ من أى نوع؟

ـ أن أتعلم أخيراً أسرار الرسم؟!

ـ فى الوقت الحالى، أنا أوظفك.

ـ أنا لست حجاراً.

ـ علىّ الانتهاء سريعًا من عمل عام وأنا فى حاجة لكل الطاقات.

* * *

الفصل الستون

فى اليوم التالى لموت راموسى، غسل كنهير شعره ثلاث مرات حيث كان يجد فى ذلك لذته المفضلة. ولما كانت زوجة كاتب «ماآت» قد توفيت هى أيضا، فهذا معناه أنه سوف يرث من كل أملاك راعيه وبخاصة مكتبته الأسطورية التى تضم أعمال أكبر الكتاب مثل أمحتب، المهندس المعمارى لهرم سقارة المدرج، والحكيم هورديدف من عصر الأهرامات الكبرى، والوزير بتاح حوتيب الذى لم تكن تتوقف أبداً عملية إعادة نقل تعاليمه الشهيرة والنينى «نفرتى» والعالم كيتى الذى كتب «هجاء المهن» للإشادة بمزايا مهنة الكاتب.

ومع انتقال كنهير للإقامة فى دار راموسى الجميلة، كان كنهير قد شعر فجأة أن الهَرَم قد أصابه. هو الذى تجاوز الخمسين دون فقدان قوته يشعر فجأة بثقل الوحدة. بالطبع، لقد ترك له راموسى مسئوليات عديدة وهو يؤدى على أكمل وجه مهنته ككاتب مقبرة. إلا أن كنهير، كان يشاور كثيراً سلفه، وبرغم أسفه لطيبته المتناهية ولتفهمه الشديد لأوجه الضعف الإنسانى، فقد كان يستفيد من آرائه استفادة جمة. من الآن فصاعداً، سوف يتولى وحده إدارة القرية. وكانت أحاديثه مع رئيسى الفريقين، اللذين لا يشاركانه دائمًا الرأى، تنبئ بصعوبتها.

كان من المقرر أن تباشر له أعمال النظافة والطهى فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها تدعى «نيوت» القوية. كان كنهير يأمل فى أن يدفع لها أقل القليل، إلا أنها قد طالبت بصرامة بمرتب مناسب حتى إن كاتب المقبرة قد اضطر للإذعان. كانت قد راودته فى أول الأمر فكرة طرد هذه الفتاة المزعجة إلا أن إتقانها للأعمال المنزلية التى تؤديها، دون نسيان إزالة الغبار من فوق أوراق البردى الكثيرة، قد جعله يختار أخيراً الإبقاء عليها.

كان كنهير لا تعوزه المشروعات: أولاً: إرساء دعائم سلطته بشكل غير قابل للمناقشة مع إفهام رئيسى المجموعتين أنه هو بحق كاتب المقبرة، وأنه لا يمكن اتخاذ أى قرار دون

موافقته. وثانيًا، التوقف عن السماح للحرفيين بارتكاب عدد من الحماقات غير اللائقة بساحة الحقيقة. كان كنهير ـ وهو المسئول أمام الوزير عن نوعية العمل المنجز من قبل الجماعة ـ يكتب يوميًا يوميات المقبرة حيث يدون فيها، بخطه القبيح وغير المقروء، أنشطة كل واحد فيها ودوافع غيابه وطبيعة المعدات ومواد البناء المقدمة للقرية وكميتها. هو وحده كان يعرف بحق ما يجرى فى هذه القرية، وأبدًا لن يظهر تسامح راموسى فى مواجهة المخالفات الصغيرة. فمعه لن تكون كلمة نظام كلمة فارغة.

كان كنهير يعرف أراء غالبية الحرفيين فيه. كانوا يرونه مغرورًا وفظًا وأنانيًا ومتشبعًا بسلطاته، ولكن لم يكن أحد يشك فى قدراته. كثيرون كانوا لا يعرفون عنه قدرته على توجيه الانتقاد لنفسه والاعتراف بأخطائه شريطة أن يكون هو وحده الذى يعنف نفسه.

استقبل كنهير رئيسى المجموعتين فى قاعة استقبال مسكنه الجديد. ولإحساس كنهير بأنهما يشعران بالضيق، دخل فى صميم الموضوع:

ـ لقد كان هذا المنزل ملكًا لراموسى الذى سبقنى فى هذا المنصب. واليوم، أصبح ملكى، بعد موافقة الجماعة. إذن، سوف تعقد هنا مباحثاتنا وجلسات أعمالنا. وإن تقديسنا لذكرى كاتب «ماآت» لا يجب أن يحول بيننا وبين مواصلة عمل ساحة الحقيقة.

وافق رئيسا المجموعتين على ما قال.

ـ إن الواجب يحتم علىَّ أن يكون قرارى الأول هو مطالبتكم بحفر دار الأبدية الخاصة بى فى المنطقة الجنوبية من المقبرة، وأن تكون شاسعة ورائعة لتمجيد المهنة التى أتولاها.

قال نيب المنجز:

ـ سوف يكون ذلك من اختصاص مجموعة اليسار. فالحجارون التابعون لى مشغولون ببناء مقبرة «كا» الخاصة برمسيس.

قال كنهير متذمرا:

ـ مفهوم. ولكنى لن أكون رحيمًا بالكسالى. إن القبول فى هذه القرية ينطوى على عدة واجبات وليس على امتيازات بغير حق. ما العمل الذى أنيط به بانيب المتأجج بعد انتهائه من تجديد واجهات المنازل؟

ـ لقد عينه نيفر الصامت مساعدًا له.

ـ ألم يعد يريد أن يصبح رسامًا؟

ـ إنه يخضع لمتطلبات الظروف.

ـ ممتاز! لعله يتمكن من الاستمرار في هذا النهج.

بعد استقبال الوزير لكنهير وتأكيد هذا الأخير له أن موت راموسى لن يغير شيئًا من قانون العمل فى ساحة الحقيقة، تلقى الكاتب الجديد تهنئة حارة من آبرى، المدير الرئيسى للبر الغربى الذى دعاه لتناول الغذاء. اتخذا أماكنهما تحت عريش ظليل حيث أتى إليهما الخدم بنبيذ الدلتا الأحمر وسلطة بزيت الزيتون والسمان المحشو.

أعلن «آبرى» قائلاً:

ـ نحن آسفون على هذا العزيز راموسى.

قال كنهير مُذكراً:ـ

ـ مع هذه المقابر الثلاث فى مقبرة القرية سوف تظل ذكراه حية بيننا.

ـ ولكن يجب التفكير فى المستقبل. والمستقبل هو أنت. فمنذ سنوات طويلة وأنت تعيش فى ظل رمواسى دون أن تتمكن من التعبير صراحة عن شخصيتك الثرية. وبرغم الألم الذى تسببه لك وفاته، فإنها تفتح لك أفاقًا جديدة.

كان كنهير يأكل بشهية:

ـ ما هى تحديداً؟

ـ أنا لا أشك لحظة واحدة فى نجاحك المحقق والكامل وبخاصة أنك تنعم بتأييد السلطات. ولكن الوجود فى هذه القرية المغلقة، كل يوم أليس بالأمر الغريب؟

ـ بلى، هذا بالتأكيد صحيح.

وجد آبرى صعوبة فى إخفاء دهشته. فلقد كان يتوقع من كاتب المقبرة نفيا قاطعًا واحتجاجات ساخطة. وأردف كنهير قائلاً:

ـ أنا لا أتمنى لأحد أن يشغل منصبى. لا يوجد كاتب واحد يعمل أكثر منى وفى مقابل مزايا هزيلة.

شعر المدير بالغبطة. فلو كان راموسى العفيف لما نطق أبدًا بمثل هذه الكلمات! وأصبح

واضحًا بما لا يدع مجالاً للشك أن كنهير، ببدانته ومشيته البليدة وعينيه الماكرتين، رجل وصولى لن يكون مغلقا أمام بعض المقترحات.

- هذا العمل . . . أمستحيل حديثك عنه؟

- أنا ملزم بكتمان السر، ولكنى أستطيع التأكيد لك أن أهميته ضئيلة! إذا كنت تعرف بعض الكتبة الطموحين، فانصحهم بتجنب ساحة الحقيقة.

- لماذا وافقت على شغل هذا المنصب؟

أوضح كنهير قائلاً:

- إنه تعاقب سيئ للظروف. لقد تلقيت دراسات طويلة وشاقة على أمل أن أتقلد منصبًا مرموقًا، حتى ولو كان ذلك المنصب فى إدارة بعض أملاك الكرنك. عندما التقيت راموسى أغرانى ذكاؤه وعلمه الذى نقله إلى بسخاء. وكما أنه هو وزوجته لم يكن بمقدورهما إنجاب أطفال، فقد تبنيانى شريطة قيامى بمهمة كاتب المقبرة. فى البداية، كنت سعيدًا ومغترا بنفسى، وبعد ذلك خف غلوائى. وأقول إن هذا المنصب هو أكثر المناصب إثارة للحسد فى مصر!

- لو كنت أستطيع أن أكون لك نافعًا . . . .

- يتحتم علىّ حل مشكلاتى وحدى دون التحدث إلى أى إنسان إلا الوزير.

- هذا سر ثقيل . . . . ألا ينبغى إلغاؤه؟

- نحن بلد تقاليد ليس من اليسير تغييرها.

شعر «آبرى» أن كاتب المقبرة مستعد للتنازلات ولأن يُسر بأسراره، إلا أنه لا ينبغى دفعه إلى ذلك دفعًا. من أفضل من كنهير يستطيع أن يمده بالمعلومات الرئيسية عن ساحة الحقيقة؟ إذا ما أصبح «آبرى» صديقًا له، فسوف ينعم بمزية غير متوقعة بالنسبة للقائد «ميهى» ويبدأ عندئذ فى إرخاء قبضته.

- أنت رجل لطيف للغاية يا كنهير، ولا أحب رؤيتك وأنت غارق فى مثل هذه الهموم.

- إنه قانون القرية، إزعاجات متوالية لا ننتهى منها أبدًا.

ـ إزعاجات . . . من أى نوع؟

ـ ليس لى الحق فى الحديث عنها .

ـ يا لها من وحدة تلك التى تعيشها!

ـ سوف أشرب طواعية مزيدًا من النبيذ . . . إنَ لديك حتما قبواً هائلاً .

ـ هل أستطيع أن أقدم لك بعض قارورات من نبيذ أتريبيس الأحمر؟

ـ بكل سرور يا آبرى ، سوف أخرج بها عن المألوف .

ـ وفى مواجهة كل هذه الصعوبات ، ما هى مشروعاتك ؛ إذن؟

فكر كنهير مليًا ثم قال :

فيما يخص ساحة الحقيقة ، من المستحيل أن أحدثك عنها . ولكن لى مشروعاتى الخاصة .

تهللت روح المدير . فمع وفاة راموسى ، فقدت ساحة الحقيقة روحها . ولقد أساء كاتب ماآت بحق اختيار خليفته ، موظف مشمئز ومتذمر ، لن يكون من العسير إفساده .

ـ هل هذه المشروعات سرية هى الأخرى؟

ـ تقريبًا . حتى إننى آمل أن ينعم واحد منها ببعض الشهرة!

ـ هل توافق على كشفه لى؟

تشنج كنهير ثم قال :

ـ هل تعدنى بالكتمان التام؟

ـ نعم ، بالطبع .

ـ إننى أنوى كتابة أسماء كبار الكتاب المخلدين من بعد وفاتهم برغم أنهم لم يشيدوا لأنفسهم أهرامات . إن نصوصهم هى أبناؤهم ، ومسطحات الكتبة هى زوجاتهم . إن أشد الآثار رسوخًا تنهار ، ولكننا أبدًا لا ننسى الكتب . فكتاب جيد يقيم هرمًا فى قلب القارئ ويكتب له الدوام أكثر من أى مقبرة فى الغرب . إن أفكار كبار الكتاب تتحقق ، وما

تلفظ به شفاههم يظل محفوراً فى الذاكرة. هم يخفون قدرتهم السحرية ولكننا نستفيد منها عند قراءتهم.

نهض كنهير.

ـ لا يمكن لى أن أتأخر. لا تكرر هذه الأسرار على مسامع شخص آخر، ولا تنس أن تحضر لى النبيذ الأحمر.

ترك كاتب المقبرة، آبرى الذى أصابه الوجوم التام.

* * *

الفصل الواحد والستون

فى الثكنة الرئيسية لطيبة حيث كان القائد «ميهى» يجرب مركبة جديدة تم تدعيم صندوقها، أحاطه آبرى علمًا بالحديث الذى دار بينه وبين كاتب المقبرة.

- لم أنجح فى انتزاع أدنى معلومة منه، ولكن لا يجب أن نيأس.

كان ميهى غاضبًا ومزاجه متعكرا.

- هل هو يشبه راموسى؟

- أبدًا، كن متأكدًا من ذلك.

- ولكنه يتعلق على الرغم من ذلك بأسراره تعلق القرد بجذع النخيل!

- هذا لا يعدو أن يكون ظاهريًا . . . كنهير لا يكف عن الشكوى من الأعباء التى تثقل كاهله والمضايقات الدائمة التى يسببها له القرويون.

- ما طموحاته؟

بدا على «آبرى» مظاهر الضيق.

- لم يكشف لى إلا عن واحد فقط . . . .

- ما هو؟

- الكتابة.

انتاب «ميهى» الغضب، فوجه لكمة حانقة إلى ضلع حصان أسود، فصهل من الألم.

- هل أنت تسخر منى؟

- لا، أيها القائد. لقد امتدح كنهير أعمال الكتاب التى تدوم أكثر من البنايات الحجرية.

ـ هذا الرجل مجنون بالفعل .

ـ على أى حال ، ينبغى استغلال عدم رضائه هذا .

ـ فلنأمل ألا يبوء هذا المسعى بالفشل كما حدث مع القائد سوبيك!

ـ ما الذى حدث؟

ـ بكل بساطة يا عزيزى آبرى . لقد اقترحت على الوزير تعديل وظيفة سوبيك وترقيته كمساعد لإدارة الأمن النهرى فى طيبة . إنها أول هفوة أرتكبها فى وظيفتى ، بسبب فكرتك الغبية! الفرعون والوزير وحدهما يتخذان قرارهما بشأن تغيير رئيس الشرطة فى ساحة الحقيقة . وهما لا يحتاجان لأي نصيحة وبخاصة أن عمل سوبيك مُرْض للغاية . لقد جعلتنى يا آبرى ارتكب زلة لن تستطيع محوها بهذيان كنهير . حاول أن تصّلح هذا الخطأ وبسرعة .

* * *

قال نيفر الصامت لبانيب المتأجج :

ـ لقد جاء دورك .

مباشرة ، وقبل أن يضع الشاب الضخم كتلة حجرية ضخمة ينهى بها القاعدة العلوية للجدار ، استخدم ميزانًا خيطيًا للتحقق ، للمرة الأخيرة ، من استقامة الجدار . ثم زلج «نخت» القوى وكارو الفظ هذه الكتلة فوق سرير سميك من ماء الجير واستخدم «فنيد» الأنف إصبعا خشبيا لتمليس الرابطة ، واستخدم كازا واضع الأوتار ، الذى يطبق حرفيًا الأسلوب الذى علمه له أمحتب عند تشييده للهرم الأول ، نصلاً نحاسيًا مغطى بمسحوق حكاك لتمريره بين الحجارة وتحسين قدرتها على الالتصاق .

منذ أن بدأ بانيب عمله فى بناء مقبرة رمسيس الأكبر تحت إدارة صديقه وهو يعيش أيامًا مجيدة . وكانت قدرته الفائقة على عدم الإحساس بالإرهاق تأتى بالأعاجيب ، وعدم معرفته بشىء تقريبًا من فن المعمار ، تجعله يتقبل ودون نفور أوامر الحجارين . كان أسلوب نيفر الصامت فى العمل يحظى بتقدير بانيب . ولأنه كان اسمًا على مسمى ، لم يكن يتحدث إلا قليلاً ولا يرفع صوته أبدًا حتى عند الغضب . يصدر تعليمات محددة من رسم رئيس المجموعة ثم يترك للحرفيين هامشًا كبيرًا من الحرية عند التطبيق . فى كل صباح ومساء يجتمع بزملائه فى العمل ويطلب منهم رأيهم دون مواربة فى نوعية العمل الذى تم

الانتهاء منه. كان يتقبل النقد ويفنده فى هدوء إذا ارتآه بغير أساس وذلك دون أن يحمل الحفيظة لناقده. كان يحب أن يتاح الوقت للمجموعة للتفكر قبل الشروع فى عملها، ولكن ما أن يتخذ القرار، يصبح على كل شخص أن يبذل من قوته وموهبته دون حساب لإنجازه.

كان «نيب» المنجز يفتش مساحة العمل يوميًا، وأحيانا يرافقه كنهير. وهو، لدقته، لا يجزل فى المجاملات ويبين، دون مداورة، أوجه النقص التى يتعين إصلاحها على الفور.

ظلت عينا بانيب متيقظتين: يراقب الأسلوب الفنى الذى لجأ إليه هذا أو ذاك لطمس خطئه ويحفره فى ذاكرته. كان التعلم هو أطيب ما يأكل، يتلذذ من اتصاله بهؤلاء الرجال القساة الذين كانوا لا يتورعون عن انتقاده والسخرية منه. وكان ينسى قابليته الشديدة للتأثر حتى يتسنى له أن يتشرب علمهم بشكل أفضل.

وقد شعر بفخر شديد عندما سمح له نيفر باستخدام ميزان خيطى ضخم معلق من أحد أطرافه فى هيكل خشبى وينتهى طرفه الآخر بقلب حجرى. وتأمل الجدار بعد الانتهاء منه وكأنه يحتضن جزءًا من روحه.

وضع نيفر يده على كتف صديقه.

ـ لقد قمت بعمل جيد.

ـ إن الشعور بهذه الأداة بين يدى. كان رائعًا!

ـ إن مسلكك يجب أن يتفق مع الميزان الخيطى يا بانيب. فأى أسلوب عمل غير سوى لا يأتى بنتيجة طيبة. الكائن المنحرف، لا يقبل فى المركب التى تخترق موطن الأبرار. أما الإنسان المستقيم فيرسو فى البر الآخر. إن الأدوات تعلمنا العمل المستقيم ولا يشغل بالها أوجه ضعفنا ولا حالاتنا النفسية. فبفضلها ولدت هذه المقبرة.

كان الباب الرئيسى يؤدى إلى دهليز ينقلنا إلى ممر مبلط يخلص إلى قاعة الرسومات المتعددة الألوان التى تمثل عرشًا يحمل عناقيد ضخمة من العنب ونصوصًا هيروغليفية زرقاء. كان شد المنقذ قد أنهى عملاً رائعًا، بالغ الدقة والنعومة، يتوّجه مشهد الطقوس لرمسيس الأكبر وهو يقدم العطور لحتحتور. ثم تنفتح بعد ذلك قاعة معقود فى مؤخرتها درج من ثلاث درجات يؤدى إلى معبد. وعن يسار هذا الدرج قاعة تطهير ومذابح توضع عليها القرابين. كانت المساكن الخاصة للفرعون تتضمن غرفة نوم ومكتبا ومرافق وشرفة؛

وتتقارب مع المجمع المقدس، أما القصر الملكى الصغير فكان يتصل بفناء معبد حتحور عن طريق «نافذة الرؤية» يعلوها صف من رءوس الليبيين والنوبيين والآسيويين؛ تجسيداً للفوضى وللجحيم الذى كانت «ماآت» وحدها القادرة على هزيمته.

وأقر بانيب قائلا:

ـ لقد أتممنا عملنا. ولكن رمسيس يقيم فى عاصمة الدلتا ولن يأتى هنا أبداً.

ـ هذا المبنى يطلق عليه اسم «خنو» أى الداخل، ونحن تحديداً رجال الداخل المخصصون لحماية الـ «كا» الملكية التى تبعث فينا الحياة. أن يكون رمسيس متواجداً بجسده أم لا فإن الـ «كا» الملكية الخاصة به تشع نورا شريطة أن تكون الحجارة المجمعة، حية فعلاً. وهذا هو السبب فى أن احتفال الافتتاح يعد أمراً رئيسيا.

ـ أقوالك غريبة يا نيفر حتى إننا لنقسم أنه أنت الذى قمت بتصميم دار رمسيس!

ـ ثب إلى رشدك. لقد اكتفيت فقط باتباع إرشادات راموسى وتجسيد الرسم الذى أملاه نيب المنجز رئيس العمل.

ـ لقد قمت على كل حال بالإشراف على عمل حرفيين أكثر تدريباً منك!

ـ إن الرئيس الأوحد هو رئيس مجموعتنا وقد استنتجت ذلك بنفسك.

ـ لقد أسر لى «فنيد الأنف» أنك نحت تمثالاً لمعبد هذا القصر.

ـ هذا حقيقى.

ـ هل يمكننى رؤيته؟

قام نيفر باصطحاب بانيب حتى عتبة المعبد الذى سيعمل فيه عما قريب الكا الملكى. وبهدوء رفع الغطاء عن أحد الأسلاف من الحجر الكلسى.

فى مواجهة خرطوشة ضخمة تمثل الكون على شكل بيضاوى ومكتوب بداخلها اسمه، وقف رمسيس المصور فى قامة قصيرة فى حماية البقرة الضخمة حتحور وهى تخرج من أدغال أوراق البردى. كان الحيوان يحمل عقد البعث الذى كانت طاقته تحمى الفرعون.

وأعرب بانيب عن رأيه قائلاً:

ـ إنه أسطورى! هل أنت الذى اخترت الصيغة؟

ـ بالطبع لا . لقد أعطانى رئيس المجموعة رسمًا منجزًا واتبعته حرفيا .

ـ وبرغم ذلك ، فإن هذا الملك الصغير . . .

ـ لقد سألت نيب المنجز عن هذا الموضوع فأجابنى بأنه فى هذا المعبد سوف تقوم يوميًا الإلهة الأم بإحياء «الكا» الملكى الذى سيظهر فى شكل طفل وإن كان بالغًا . هنا ، سوف تتحقق معجزة البعث الدائم التى لا يعرف سرها إلا الآلهة .

ـ أنا لست متأكدا من ذلك بالدرجة . . . .

ـ ما الذى تريد أن تقوله يا بانيب؟

ـ هذا النور الذى يمكنه اختراق الأبواب . . . لقد رآه بعض الناس فى تلك القرية وهم ليسوا من الآلهة ! انظر إلى هذا الأثر : لقد بنيته ولكن لم يعطوك مفاتيحه .

ـ لكل شىء أوانه ، إذا ما اتبعنا الطريق القويم .

ـ أنا لا أشاركك هذه القدرية يا نيفر ! أنا أريد اكتشاف كل شىء ومعرفة كل شىء وكشف النقاب عن الأسرار الخفية لهذه القرية . أريد أن أفهم لماذا لا يُعَدّ أهلاً للعمل فيها إلا حفنة قليلة من الحرفيين ، وكيف يتم حفر دور للأبدية . وأريد أن أرى بأم عينى لحظة البعث . وأنا مقتنع أن الطريق القويم يبدأ من هنا .

* * *

الفصل الثانى والستون

للاحتفال بنهاية العمل فى الموقع، اجتمع المثالون أمام مقبرة رمسيس الأكبر الجديدة. وحصل رئيس المجموعة، بعد جهد جهيد، على جرة من النبيذ يرجع تاريخها لعام ثمانية وعشرين من بعد ميلاد الفرعون، نبيذ ممتاز لا يزال تبقى منه بضعة لترات فى قبو كاتب المقبرة.

وبوصف بانيب المتأجج متدربًا، أنيط به تنظيف الأدوات وترتيبها فى صناديق خشبية وتسليمها لكنهير الذى شرع ـ وفقًا لعادته ـ فى فحصها طويلاً وبدقة قبل إقرارها، فى يوميات المقبرة ـ وأن كل شىء على ما يرام.

وقال فنيد الأنف لبانيب:

ـ أتوقع لك أن تكون مثّالا ممتازًا.

ـ إن طريقى هو الرسم والتصوير.

ـ أنت جرىء وعنيد!

ـ وأنت لماذا تحمل هذا الاسم؟

ـ ألا تعرف أن لا شىء أهم من الأنف؟ فرئيس العمل عند حكمه على طالب عمل، ينظر أولاً إلى أنفه لأنه المحراب السرى للجسد. للعمل فى هذه الجماعة أيها الفتى، يجب أن تكون لك أنوف، الكثير من الأنوف، وأن يكون لك أيضا نفَس قوى! ليس مثل تلك الأنفاس التى تتخلل أنوف جميع الكائنات الحية وتسمح لهم بالتنفس، ولكن أقصد بها نفحة الخلق التى تنشئ الأهرامات والمعابد ودور الأبدية، تلك النفحة التى تطرد كل خمول كما تبدد الريح الضباب. وطالما قد تعلمت الكتابة، فأنت تعرف أن كلمة «فرح» تكتب بشكل الأنف، وبدون هذا الفرح ـ صدقنى ـ لا نقيم شيئًا له الدوام. إن أنقى مصدر للفرح هو ممارسة المهنة فى خدمة «ماآت».

وهنا تدخل نخت القادر موصيا بقوله :

ـ كف عن وعظه ، ألا ترى أنه لا يفهم شيئًا واحدًا مما تقول؟!

سأل بانيب :

ـ القوة ، هل هى بالضرورة مرتبطة بالغباء؟

نهض «نخت» وقد جمع كل قواه :

ـ سوف أجعلك تفرغ ما فى جوفك أيها الصبى!

تدخل فنيد الأنف وكارو الفظ بينهما .

ـ كفا . . توقفا ، لا تفسدا هذه اللحظات الجميلة . فلنشرب هذا النبيذ الفاخر ولنعد أنفسنا لحفلة رأس السنة الكبرى .

توعد نخت القادر بانيب بسبابته .

ـ أنت لا تخسر شيئًا من أجل الانتظار!

ـ أنا تحت تصرفك ، أنت تتكلم ولكنك لا تفعل شيئًا .

وهنا ابتسم الحجار ابتسامة ساخرة :

ـ وأنت تتحدث سريعًا جدًا .

كانت الأعياد تثير غضب بانيب ، وهذه أكثر من غيرها لأنها منعته من الانضمام لمجموعة الرسامين ومن سؤال رئيس المجموعة للحصول على حقوقه . ومع مودة زوجته ، فلقد كان على العشاء ذا مزاج لا يحتمل . لم تظهر أوابت الطاهرة أى رد فعل واكتفت بأداء واجباتها كربة منزل مثالية .

كان بانيب مغتاظًا لفكرة أن القرية سوف تسلم نفسها للذات أول أيام السنة ، فى حين أنه قد نفد صبره . وعليه ، نهض فى جنح الليل وخرج من الباب الغربى الصغير ليسلك الطريق المؤدى إلى الممر الجبلى المشرف على وادى الملوك . ولعلمه بأنه مراقب من القوات التى نشرها سوبيك ، عرج بين الأحجار للإفلات من مراقبتهم ، ثم جلس على إحدى الصخور .

وفقا لتوقعات الخبراء ، سيكون الفيضان ممتازًا هذا العام . ومرة أخرى سيقدم «هابى» ، المخصب الحيوى للنيل ، الرخاء لمصر . ولكن بانيب كان يستخف بالطمى وبالمزروعات

وبثراء الدولة. كان يريد أن يرسم وأن يلون، هو الذى تم تدريبه فى الجماعة التى تحتفظ بأسرار كل ما يطمح إليه، ولكن يظل الإصرار على إغلاق أبوابها فى وجهه.

أما نيفر الصامت، فقد تقدم بخطى عملاقة. ففى غضون بضع سنوات، كان قد اجتاز عدة مراحل وأصبح يتصرف كرئيس للحجارين رغم إنكاره لذلك. لم يكن بانيب يشعر بالغيرة أو بالحسد ولكن بالغضب وأيضًا بالإحباط. فى كل مرة يعتقد فيها أنه قد اقترب من الهدف، يفاجأ بمهمة إجبارية تبعده عنه. بالطبع، تعلم الكثير، ولكن لا شيء مما كان يتمنى معرفته!

أغمضت عينيه يدان رقيقتان رشيقتان ومعطرتان.

ـ كنت أنتظرك يا بانيب.

ـ فيروز! كيف عرفت أننى سآتى هنا.

ـ كاهنة حتحور هى بالضرورة منجمة بعض الشيء....

وفى حركة صلفة، ضمها إلى صدره.

ـ هل نسيت أنك متزوج. إن الزنا خطأ فاحش.

من بين الأعاجيب كافة التى خلقتها الآلهة، كانت فيروز تعد من أكثرها إغراءًا. خلع بانيب وزرته وعن المرأة الشابة رداءها وفرشهما على الحجارة ليجعل منها فراشًا. كان هو من تمدد على ظهره وقد أنساه جسد فيروز الخفيف الذى اختلط بالسماء وعورة الحصى المدببة.

وتحت سماء آخر أيام السنة المرصعة بالنجوم، تضاجع العاشقان حتى الفجر.

عندما استيقظ بانيب، كانت عشيقته قد اختفت. أغمض عينيه للحظات لاستعادة ذكرى لهوهما اللذيذ ثم استأنف طريقه صوب القرية.

كما حدث صباح وفاة راموسى وزوجته، فوجئ بالصمت المطبق، وزاد من غرابته أن اليوم يوم عيد. مما لا شك فيه أن وفاة جديدة قد وقعت وتم إلغاء مظاهر البهجة كافة. وتبعًا لمكانة المتوفى فى تدرج الوظائف، يتم إعلان الحداد لمدة تطول أو تقصر، ويجد بانيب نفسه مرغمًا على التزام الصمت واحترام حزن الجماعة.

لا، لن يستسلم، حتى ولو خرق العرف! ما من شخص واحد، ولا حتى رئيس

مجموعة، يمكنه معارضة مطلب شرعى. ففى الوقت الذى سينسحب فيه الآخرون، سوف يتدرب المتأجج على التقنية مع أحد الرسامين، طوعًا أو كرهًا.

كان الباب الغربى الصغير، المخصص للقرويين، مغلقًا.

توجه بانيب، وقد أخذته الحيرة، إلى الباب الرئيسى الذى كان جواره مهجوراً بما أن المعاونين استحق لهم يوم عطلة.

تفرس الحارس فى وجه الحرفى وحياه بإيماءة من رأسه وهو جالس القرفصاء يلوك فى فمه قطعة حلوة من أوراق البردى.

اجتاز بانيب الباب وأغلقه من خلفه.

لا أحد على مرمى البصر.

كان سكان ساحة الحقيقة غير موجودين لا فى المقبرة ولا فى القرية. أين عساهم يكونون، إن لم يكونوا فى المعبد؟

سار الشاب الضخم فى الشارع الرئيسى وسمع وقع خطوات من خلفه. استدار فرأى كازا واضع الأوتار وفنيد الأنف وكارو الفظ ونخت القادر وقد اصطفوا جميعًا من خلفه لا يتحركون ويحملون الهراوات. وقال نخت ضاحكًا :ـ

ـ مفاجأة عظيمة، أليس كذلك؟ تعال يا فتى، كنا بانتظارك.

لحق بالحجارين الأربعة أو سرحات الأسد وإيبوى الممتحن.

مجموعة من ستة رجال مسلحين، بعضهم يميل إلى الضخامة . . . كانت المواجهة تنبئ بأنها ستكون شديدة. ولكن بانيب لم يكن خائفًا. حتى لو تلقى ضربات سيرد عليهم بأكثر منها. قال نخت محذراً.

ـ ليس أمامك أى فرصة للفرار. انظر أمامك.

فى الطرف الآخر من الشارع الرئيسى، كان يتوبيه الجذل وشد المنقذ وجاو الدقيق وأونيش ابن آوى وديديا الكريم وتوتى العالم وحتى باى الخبز الطيب، يقفون جميعًا، حاملين الهراوات، وعلى ما يبدو، مستعدين للمعركة.

فقط، ظل رئيس المجموعة ونيفر بعيدين عن المشاركة فى هذا القتال.

كانت جماعة الرسامين تبدو أقل قوة من جماعة الحجارين. ومن المتوقع أن يسبق

بانيب إلى شج رأس باى والاستيلاء على هراوته وصدع شركائه. وإذا ما ناء تحت وطأة العدد فلن يكون ذلك إلا بعد أن ينهكه القتال.

إذن، فلقد تواطئوا جميعا للتخلص منه! أصاب بانيب الغثيان من هذا التدليس وشعر أن الحنق يضاعف من قواه فتقدم بخطى مهددة نحو الرسامين.

انفلقت الجماعة للسماح بمرور المرأة الحكيمة التى كانت ترتدى رداء رائعًا، لونه أحمر فاقع يبرز جمال شعرها الأبيض الغزير المصفف بعناية.

- لا تتقدم أكثر من ذلك يا بانيب! فأنت لا تعرف إلا الصراع والتمزق. أنت لم تخطئ فهذا أسلوب حياتنا، ولكن حياة ساحة الحقيقة تطالبنا بما هو أكثر من الوجود. فهى تدعونا لتحقيق الإنجاز وصفاء النفس. وقبل ذلك علينا هزيمة أعدائنا وبخاصة المندفع والمتطرف والحقود الذين يضنون قلوبنا، وقد تم اختيارك لتجسدهم حتى نعدم قدرتهم على الإيذاء ونعلن ميلاد عام سعيد للجماعة.

ألقى أعضاء جماعة اليمين هراواتهم فى الهواء وأطلقوا صيحات السعادة وهم يتدافعون صوب بانيب الذى لم يبد أى مقاومة. وبعناء كبير، تمكنوا من رفع الشاب الضخم ووضعوه أمام معبد حتحور. وهنا، أوثقوه بشدة لأحد الأعمدة.

وجهوا إليه جميعًا - من أصغرهم إلى أكبرهم - سيلاً من السباب والشتائم، وأمروه بعدم التدخل فى حياة القرية وإلا أوسعوه ضربًا.

من موقعه الذى لا يحسد عليه، شاهد بانيب المتأجج استعدادات إقامة المأدبة التى غالى فيها الحجارون وزوجاتهم من النبيذ. لم تنظر إليه فيروز نظرة واحدة. أما أوابت الطاهرة، فقد رمقته ببعض النظرات الحانية. وكلير ونيفر ببعض إشارات الود. وهذا الأخير، على كل حال، كان قد جاء إليه كثيراً بالماء المنعش، الزاد الوحيد الذى يتفق مع المندفع.

- كان عليك أن توضح لى أنه قد تم اختيارى.. لقد أوشكت على قتل نصف عدد الفريق... ألم تكن هذه الفكرة الغبية، بمحض الصدفة، من وحى أفكارك؟

نظر صامت إليه نظرة يصعب فهمها ولم يجب.

صبر بانيب على وضعه ككبش فداء، على الرغم من أن رؤيته لأصناف الطعام الشهية

قد جعلته يتضور جوعًا . إن من اعتقدوا إضعافه بفرض هذه المحنة الجديدة عليه قد باءت جهودهم بالفشل .

ومع ظهور النجم سوتيس الذى أتاح للمرأة الحكيمة إعلان ميلاد عام جديد يحمل دموع إيزيس رمزًا للفيضان ، فك رئيس المجموعة قيود بانيب .

وبينما كان المندفع يفرك رسغيه ، وجه إليه نيب المنجز لكمة عنيفة فى ظهره بين عظمتى الكتف .

ـ لقد انفتحت أذن ضميرك الآن يا متأجج .

وبدأ العمل الجاد .

* * *

الفصل الثالث والستون

جفا النوم تقريبًا عينى الرئيس سوبيك منذ أن بدأ يبحث عبثا عن مرتكب جريمة مقتل رجل الشرطة النوبى. كانت جرعات الدواء التى وصفتها له المرأة الحكيمة تهدئ أعصابه ولكنها أبدًا ما كانت تقضى على هواجسه. فأحد مرءوسيه قد مات موتة بشعة وآخر مجرم لا يزال ينعم بحريته مع يقينه بإفلاته من العدالة.

لم يعد بوسع سوبيك أن يلتقى بأى من الحرفيين دون أن يشك فى أنه هو الفاعل، وكان هذا الشك الدائم يسمم حياته وخاصة أنه لم يكن هناك بداية لدليل واحد يدعم من هذا الاحتمال المخيف. ولكن لماذا ارتكبت جريمة القتل هذه؟

ولكن حادثا مباغتا جعله يتأمل فى أمر مستبعد الحدوث، وكان يتحتم عليه مشاورة كاتب المقبرة.

كان كنهير يكتب، على مكتبه بالحصن الصغير الخامس، تقريره اليومى بخط يصبح تدريجيا غير مقروء. كان فى الوقت نفسه يلعن مطالب هذه الإدارة التى تهوى تصفح الأوراق القديمة وتصر على أن تعرف بدقة عدد الأزاميل التى يستخدمها حرفيو ساحة الحقيقة، وكان عليه بالطبع، تقع مسئولية التحقق من الأدوات والتنبيه على من ينسى إعادتها إليه بعد العمل.

- لقد جئت فى يوم غير مناسب يا سوبيك!

«قال النوبى لنفسه: معه دائمًا، نأتى فى وقت غير مناسب على العكس تمامًا من راموسى».

- إننى أعرف سبب شكواك: المساعدون يطالبون بتعديل فى مواعيد العمل بسبب قدوم فصل الصيف. أنا أتفهم وجهة نظرهم ولكن ينبغى ضمان رفاهية القرية. ثم، إن هذه النوعية من المشكلات لا تدخل فى دائرة اختصاصك.

ـ أنا أعرف يا كنهير، لقد جئت لمشاورتك فى مسألة أهم بكثير.

ثار فضول كاتب المقبرة.

ـ اجلس.

اتخذ سوبيك مجلسه فوق أحد المقاعد.

ـ أنت لا تجهل أننى مستمر فى تحقيقاتى بشأن مقتل أحد رجالى.

قال كنهير معربًا عن رأيه:

ـ قضية معقدة للغاية. اعتقدنا أن الأمر حادث، ثم أثير احتمال وقوع جريمة، وأخيرا، ذهبت كل التساؤلات فى طى النسيان.

ـ ليست تساؤلاتى.

ـ هل اهتديت إلى خيط؟

ـ ربما يكون القدر هو الذى وضعه فى طريقى، ولكنى بحاجة إلى رأيك.

ـ أنا لست رجل شرطة!

ـ إن صح ظنى، فقد يكون مستقبل الجماعة فى خطر.

ـ ألا تبالغ بعض الشىء؟

ـ آمل أن أكون كذلك.

همهم كنهير المتذمر. لم تكن من عادة سوبيك أن يشيع القيل والقال ولا أن يتحمس لأفكار مجنونة. ولكن الكاتب قرر أن يقتطع بعضاً من وقته للاستماع إليه.

ـ إذن، إلى من تتجه شكوكك؟

نظر الرئيس سوبيك أمامه كما لو كان يتحاور مع شخص لا مرئى.

ـ آبرى، المدير الرئيسى للبر الغربى عرض علىّ تغيير منصبى لأصبح مسئولاً عن الأمن النهرى لطيبة.

ـ ترقية جميلة.

ـ هناك مرشحون كثيرون أكفأ منى لهذا المنصب وعرض آبرى ينطوى على مقابل.

تأجج فضول كنهير.

ـ محاولة رشوة؟

ـ من وجهة نظرى، نعم. ففى مقابل الخدمة التى من المقرر أن يقدمها آبرى، علىَّ الالتزام بأن أقول له كل ما أعرف عن ساحة الحقيقة.

مضغ كاتب المقبرة بضعة حبات من لب ثمرة البطيخ وهو يسترجع بذاكرته حديثا كان قد أجراه مع آبرى هذا. وعلى ضوء ما كشفه له سوبيك، أصبح له مغزى يميل إلى إثارة القلق.

ـ وكيف كان رد فعلك يا سوبيك؟

ـ تظاهرت بالاهتمام، وأعتقد أن آبرى قد التقط الطعم. إلا أنه كان من الذكاء الذى دعاه إلى عدم الإلحاح؛ ولكن مما لا شك فيه أنه سوف يعاود المحاولة.

ـ لا تنخدع.

ـ ولماذا أنت متأكد لهذه الدرجة؟

ـ لأننى أعرف موقف الوزير. أنت ترضيه غاية الرضا، كما ترضى كذلك الفرعون شخصيًا. إذا كان آبرى قد عرض عليك منصبًا جديدًا، فمن الحتمى أن مطلبه قد رفض بشكل حازم وقطعى. ووفقا لما هو معتاد، ما كان ينبغى علىَّ أن أمدك بتلك المعلومات السرية، ولكن نظرا للظروف. . . .

ـ أنا رجل شرطة وأحب مهنتى ـ أكد سوبيك بشكل علنى ـ إن ضمان حماية ساحة الحقيقة ليس عبئًا ولكن شرفًا ولا تظن أن اقتراح آبرى قد وجد عندى أدنى استحسان.

ولما شعر كنهر أن النوبى قد بات على شفا الغيظ، حرص على طمأنته.

ـ إن أمن القرية لم يكن أبدًا أفضل مما هو فى أيامنا هذه أيها الرئيس سوبيك. وأنا أثق فيك بالغ الثقة ولكن لماذا تربط بين محاولة الرشوة من جانب آبرى وبين مقتل تابعك؟

ـ لأن شخص بمثل مركزه ليس لديه سبب ليهتم بى إلا لأننى رئيس الشرطة فى ساحة الحقيقة. وإذا ما كان يرغب فى ترقيتى، أليس من أجل تنحيتى عن هذا الموضوع وتركه يغرق إلى الأبد فى طى النسيان؟

أثار أسلوب سوبيك فى التفكير اضطراب كاتب المقبرة.

ـ لا أتصور آبرى ينسل فى الجبل تحت جنح الظلام ويقتل الحارس . . .

ـ وأنا أيضا، ولكن، ألا يكون هو الذى أوصى بارتكاب هذا الجرم؟

ـ لأى سبب؟

ـ إرسال مبعوث تكون مهمة رسم خريطة للمكان.

ـ هل تعتقد. . . فى محاولة نهب القبور الملكية؟

ـ إن هذا هو الخطر الدائم الذى يتربص بنا. كثيرون يعتقدون أنها تحتوى على كنوز رائعة ويحلمون بالاستحواذ عليها. وطالما يتم ضمان حمايتها، فسوف تكون المخاطر ضئيلة. ولكن افترض أن كل سكان القرية أصبحت الشبهات تحوم حولهم وفقدوا حظوتهم وتم وضع حد لنشاطها. . . .

ـ هذا مستحيل يا سوبيك؟

ـ أريد أن أقنع نفسى بذلك. ولكن ألا ينبغى اعتبار الأسوأ؟

نظراً لطبيعته المتشائمة، تأثر كنهير المتذمر بحجج رجل الشرطة.

ـ إذن، فأنت تفترض أن مؤمراة خطيرة تحاك ضد ساحة الحقيقة، وأن المدير الرئيسى للبر الغربى واحد من مثيريها. . . ؟

ـ لا أجد سببًا آخر لمحاولة الرشوة التى قام بها.

أعرب كنهير عن أسفه لموت راموسى. هو، كاتب ماآت، كان سيعرف كيف يدافع عن الجماعة.

* * *

بعد فترة قصيرة، سُمح للمتأجج بتناول وجبة الحفل التى أضيفت إليها جلسة تدليك طويلة ولذيذة من أوابت الطاهرة التى شعرت بالقلق لما أصاب الهيكل العضلى لزوجها من ألم.

أخيراً، كانت أقوال رئيس المجموعة تفتح له الطريق! ولن يرحل أعزل للقتال ولكن محصنًا بتصريح نيب المنجز.

كان الشاب الضخم، وهو الذى يتسم بالحذر لدرجة تفاجئه هو شخصيًا، قد التمس رأى صديقه نيفر الذى لم يراوغه: إن اللكمة التى وجهها له رئيس العمل فى ظهره تعنى أن بانيب قد سمح له بدخول جماعة الرسامين.

بشعره الرقيق وشاربه الدقيق المعتنى به وعينيه الرماديتين الفاتحتين، المليئتين بالازدراء والقدرة على التفحص، بدا «شد» الفنان المنقذ للشاب خصمًا مرعبًا. كان المصور يعد الألوان، ومرت دقائق ثقيلة من قبل أن يظهر ملاحظته لوجود بانيب.

ـ ماذا تفعل هنا؟ كنت أعتقد أنك منتميًا لجماعة الحجارين.

ـ لقد كانت مهمة مؤقتة، والآن وقد انتهت، جئت لأضع نفسى تحت تصرفك.

ـ أنا لا أحتاج لأحد أيها الصبى. ألم أقل لك ذلك من قبل؟

ـ لقد ربت رئيس المجموعة ظهرى ليفهمنى أننى قد بت مستعداً.

ـ آه. هذا مدهش. نيب المنجز بنفسه.

ـ بنفسه.

ـ ماذا تستطيع القيام به تحديداً؟

ـ إعداد مسطح ما عن طريق الجص.

ـ طيب. طيب. لماذا لا تستمر فى هذا النهج؟ إن جباسًا ممتازاً له مستقبل كبير فى هذه القرية.

ـ أريد تحقيق ما هو أكثر من ذلك.

ـ هل أنت قادر على ذلك؟

ـ سوف ترى.

قال شد الفنان المنقذ:

ـ ما من أحد يستطيع عصيان أوامر رئيس المجموعة. إذن علىَّ الآن أن أعهد بك إلى الرسامين ليعلموك أوليات فنهم حتى تدرك ـ مثل كثيرين من قبلك ـ أنك لا تمتلك على الإطلاق موهبة ممارسة هذه المهنة. ولكن هذا مستحيل.

كانت أعصاب بانيب تتأجج.

ـ لأى سبب؟

ـ سبب قهرى. ففى غضون عدة أيام، سوف تشهد القرية حدثًا استثنائيًا، ونحن جميعًا مستدعون لإنهاء بعض الأعمال. ليس لدينا إذن الوقت للاهتمام بتعليم مبتدئ.

كان بانيب متيقنا أن الرسام يهزأ منه.

ـ ما هذا الحدث؟

ـ رمسيس الأكبر سوف يفتتح بنفسه مقبرته.

* * *

الفصل الرابع والستون

وإذا ما وقع للملك العجوز حادث أدى إلى موته؟ ظلت هذه الفكرة الجذابة لا تفارق «ميهى» أبدًا منذ أن تم إخطاره ـ كباقى أعيان طيبة ـ بمقدم الفرعون. لقد كان الملك، ولا أحد غيره، الذى يبقى الرئيس سوبيك فى منصبه ويسهر على ساحة الحقيقة بيقظة لم يتم أبدًا إنكارها. وإذا ما اختفى رمسيس فذلك سوف يعنى حرمان القرية من حاميها الرئيسى.

إن قوات الأمن المكلفة بحماية الملك لن تترك نفسها تخدع بسهولة ولن يجد «ميهى» مختلاً واحد يحاول القضاء على رمسيس الأكبر، الذى أصبح أسطورة حية سواء فى داخل البلاد أو فى خارجها.

وفى الوقت الذى كان لا يصغى فيه إلى ثرثرة زوجته الخاضعة والمبتسمة، طرأت فكرة على القائد الأسبق لسلاح المركبات.

فبقليل من الحظ، لن يعترض الملك طريقه بعد الآن.

كانت زيارة رمسيس تثير حماسة كبيرة. على البر الغربى لطيبة، كل السكان يريدون رؤية هذا الملك الذى تمكن من إقامة سلام دائم في الشرق الأوسط ومن إثراء الأرضين.

كان الحرس الخاص يسهر على زعيم الدولة، ولكن من ذا الذى يمكنه أن يفكر فى التعرض لشخصه؟ صعد رمسيس، وبصحبته سكرتيره الخاص الأمين «أمينى» ـ والبالغ نفس عمره تقريبا، على مركبة يقودها ضابط محنك ويجرها جوادان يتسمان بالقوة والهدوء، وتحمى المظلة، المسافر الشهير الذى كان يتأمل بانفعال قمة الغرب ومعابد آلاف السنين.

عند خروجه من المنطقة الزراعية، بعد محاذاته لمقبرة أمنمحتب الثالث الضخمة والتى تقترب فى طرازها من مقبرة الأقصر التى عمل رمسيس على تكبيرها بعد أن أضاف إليها

فناء محفوفا بالأعمدة وبوابة ضخمة ومسلتين، أعرب الفرعون عن إعجابه بهواء الصحراء الذى غالبًا ما استمد منه القوة الضرورية للوفاء بمهام وظيفته المنهكة.

شكل رجل الشرطة - فى زيهم المعبر عن الأبهة - سياج شرف عند اجتياز الملك للحصون الخمسة الصغيرة وقد تبعه موكب من كبار موظفى الدولة من بينهم عمدة طيبة والمدير الرئيسى للبر الغربى و«ميهى» وزير الخزانة.

دهشوا جميعًا عندما تدخل سوبيك وأرغمهم على التوقف عند الحصن الصغير الخامس.

هبط آبرى من مركبته وقد استبد به الغضب.

- ما الذى دهاك؟ نحن الموكب الرسمى.

- هذه أوامر الفرعون: لا أحد يذهب إلى أبعد من ذلك.

- هذا غير معقول علينا حضور الاحتفال و....

- افتتاح المعبد يتم فى الحرم المقدس لساحة الحقيقة، وأنتم غير مصرح لكم بدخولها.

تلاشت الاحتجاجات سريعًا. وتظاهر القائد «ميهى» بالهدوء التام رغم شعوره بالإهانة الجارحة من جانب هذه الجماعة الملعونة. فمرة أخرى، ها هو ذا يصطدم بأبوابها المغلقة، ولكن هذه الإهانة لن تكون إلى الأبد.

كان كل أهل القرية، وعلى رأسهم كنهير ورئيسا المجموعتين، قد ارتدوا ثياب الأعياد المصنوعة من الكتان الملكى الفاخر والشعور المستعارة والحلى المصممة من جانب صائغ الجماعة.

عند مرور رمسيس فى الشارع الرئيسى، ركع الرجال والنساء والأطفال. حتى إن بانيب نفسه قد دهش من القوة المنبعثة من العجوز العظيم.

جرت نحو الملك طفلة صغيرة، متأثرة وإن كانت ضاحكة، ترتدى ثوبًا أزرق بشرابات، وقدمت له باقة من أزهار اللوتس البيضاء. وقالت بلا لجلجة بعد أن كررت الجملة ألف مرة على الأقل:

- إنها من أجل الـ «كا» الخاص بك يا جلالك الملك.

قَبَّل رمسيس الطفلة بحنو الأب والجد الذى لقى فى حياته حداداً كثيراً والذى يرى فيها مستقبل القرية.

توردت وجنتا الفتاة الصغيرة فهرولت تحتمى فى حضن أمها، زوجة حجار شاب فى جماعة اليسار. إن الحظوة المذهلة التى أنعم بها لتوه رمسيس على الطفلة، سوف تعم مجموع الأسر التى أصبح حب الملك يحميها.

رافق نيب المنجز وزميله كاها الفرعون حتى المقبرة التى تم الانتهاء منها أخيرا. كان الملك يسير بصعوبة، مستعينا بعصا ولكنه لا يتردد بشأن الطريق الواجب اتباعه. كان يعرف كل شيء عن ساحة الحقيقة، الروح الخفية لمصر حيث يخلق الضوء ليبعث الحياة فى المادة، أيّا كانت طبيعتها وشكلها.

استقبلت المرأة الحكيمة الملك عند عتبة المبنى، وقد شاركت فى الاحتفال بوصفها رئيسة كاهنات حتحور وقالت:

- إن أبواب هذا المعبد مفتوحة. ودخان البخور يصل إلى السماء. وآلاف من أرغفة الخبز وأباريق الجعة وكل ما يحبه الله قد قدمت إليه. فليحم الله الفرعون وليبث الفرعون الحياة فى هذا المعبد.

واجه رمسيس الأكبر الجماعة. وبدلاً من أن يحمل صوته آثار الشيخوخة والمرض، انطلق مليئًا بالسلطان والنفوذ حتى إن بانيب المتأجج تسمر فى مكانه.

- إنى أعرف قيمتكم ومهارة أيديكم التى تشكل أكثر أنواع الحجارة قسوة وصالبة كما تشكل أشد أنواع الذهب رقة. إن مهمتكم ضرورية وشاقة إلا أنكم تعرفون كيف تتواصلون مع المواد وتظهرون جمالها الخفى. إن العمل الذى تؤدونه له الأولوية فى سعادة الدولة، وأنتم تستمدون منه سعادة بالغة لا تضاهيها سعادة أخرى فى هذا العالم الأرضى. استمروا فى احترام قانون «ماآت»، كونوا متشددين وفعالين، اعملوا وفقًا لخطة رئيس العمل، عندئذ سوف تلازمكم دائمًا مساندة الفرعون. أنا حامى مهنتكم، ولن ينقصكم شيء من أجل ممارستها. فمن أجلكم سيكون الغذاء أشبه بفيض من السيول والمساعدون سيخدمونكم بتفان. فإذا عملتم بقلب ملؤه حب العمل الذى تشيدونه، فلن تتمكن منكم أى أزمة أو كارثة. وسوف أعمل معكم بقلب واحد، فأنتم أبنائى ورفقاء معبدى.

كان كنهير، الذى حصل على فاتـورة تسلـم الخيـرات الملكيـة، يعـرف أن رمسيس لا يتباهى وهو يتحدث عن النعم التى ستفيض على القرية فى خلال الأيام المقبلة: واحد وثلاثون ألف رغيف مخبوز فى القدور واثنان وثلاثون ألف سمكة مجففة، وستون كتلة من اللحوم المجففة والمملحة، وثلاث وثلاثون بهيمة للجزارة، ومائتا قطعة لحم فى الشباك، وثلاث وأربعون حزمة خضراوات، ومائتان وخمسون جوالاً من الفاصوليا، ومائة واثنان وثلاثون من الحبوب المختلفة والجعة والنبيذ من أفخر الأنواع. كانت المآدب تنبئ بفخامتها بما يتناسب مع «كا» الخاصة برمسيس.

أمسك رئيسا المجموعتين فأسا كبيرة من الخشب المذهب، وبدآ يلقيان العبارات التى تستخدم فى الطقوس الخاصة بفتح فم وعيون وآذان المعبد الذى أعطاه رمسيس اسمه: «خنو» أو الداخل. وفى الصالة المعقوفة التى تجمع فيها الحرفيون وكاهنات حتحور، التقى الملك بتمثال «الكا» الخاص به، وهو نسخة مطابقة له قام بتشكيلها نيب المنجز. قال رمسيس:

- إن الفرعون يولد مع «الكا» الخاصة به، وهى قدرته الخلاقة وهو يكبر معها وبفضلها يعيد بناء هذا العالم بلا توقف ويقيم علاقاتنا مع الآلهة والأجداد. إن الكائن لا يصبح حقيقيا إلا باتحاده بالكا الخاص به والذى يتغذى من «ماآت». وهنا فى ساحة الحقيقة، تدب الحياة فى الكا الملكية.

اضطرب بانيب المتأجج. فبهذه الكلمات القليلة، كشف رمسيس الأكبر النقاب عن طبيعة النار التى تضطرم بداخله.

بعد أن بعث كلام الفرعون الحياة فى تمثال «كا»، تم وضعه فى المعبد حيث سيعيش بعد ذلك حياة مستقلة. وسوف يقيم الحجارون جداراً به فتحة ضيقة يتأمل التمثال من خلالها عالم البشر ويشع طاقته من خلالهم.

وأنهى رمسيس حديثه قائلاً:

- عندما يتم وضع أثر كهذا فى هذا العالم، تستمر فيه القوة إلى ما شاء الله.

كان بانيب يود لو توجه بما لا يقل عن ألف سؤال إلى الرب الحقيقى للجماعة والتى كانت كل كلمة من كلماته تنحفر فى ضميره. وتولد لديه الاقتناع بأن رسومه المقبلة سوف تكون عديمة المعنى إذا لم تحيها هذه الطاقة الخفية التى تعرف الجماعة سرها.

وبناء على أمر نيب المنجز، وضع الحرفيون آخر أحجار المحراب، الباب الذى نحته نيفر الصامت وزينه شد الفنان المنقذ بألوان براقة.

سأل الملك:

ـ من الذى صنع هذا الأثر البديع؟

أجاب رئيس المجموعة:

ـ نيفر يا جلالة الملك.

انحنى الصامت:

ـ أنا لم أكن إلا منفذًا يا جلالة الملك. إنه الكاتب راموسى الذى أملى علىّ الموضوع والتشكيل، والفنان شد هو الذى. . . .

ـ أعرف.

وقال بانيب لنفسه: «المرة واحدة، تحدث الصامت أطول مما يجب».

ـ هل تعرف ماذا يعنى اللفظ «هيم» يا نيفر؟

ـ «الخدمة» و. . . «الجلالة».

ـ نحن جميعًا خدمة الأثر الضخم الذى يتم إنجازه فى ساحة الحقيقة، ويجب علينا أن نهب أنفسنا له. ولكن الخدمة لا تستبعد الإدارة. فبدون إدارة جيدة، لا تكون هناك خدمة حقيقية. أما الآن، فاتركنى أفرغ إلى نفسى فى هذا المعبد.

جذب باى الخبز الجيد «بانيب» من كمه لإرغامه على الخروج مع الآخرين. كان الشاب الضخم قد فتنه رمسيس حتى إنه كان يود لو استمع لحواره مع كا.

* * *

الفصل الخامس والستون

كان رمسيس الأكبر يستعد للرحيل لوادى الملوك لمعاينة دار الأبدية التى كان شد الفنان المنقذ ومعاونوه قد وضعوا فيها اللمسات الأخيرة قبل وصوله.

كان «بانيب» هو المكلف بتقديم الماء البارد لجياد الفرعون الواقفة فى ظل أفريز. وعند اقترابه من المركبة التى يحرسها سائقها، ألقى الرجل الشاب نظرة خاطفة على عجلاتها. عمل رائع، ومتانة تتصدر لكل المحن، أدهشت النجار السابق.

شربت الجياد فى هدوء، وقد هم بانيب بالرحيل عندما أثار اهتمامه إحدى التفصيلات الغريبة. كان شعاع العجلات مطليا بالأصفر المذهب إلا أن ما ظهر على إحداها من بهت وشحوب قد جذب انتباه رسام المستقبل وسأل سائق المركبة:

- هل أجرى بها أحد أخيرا الإصلاحات؟

- لا أعلم عن ذلك شيئا. هذا ليس عملى.

- من أين أتت هذه المركبة؟

- من الثكنة الرئيسية لطيبة حيث تحقق منها الفنيون.

- أعتقد أنه من المستحسن إجراء معاينة أخرى.

- ولم لا تهتم بشئونك أيها الغلام؟

كان بوسع بانيب أن يشج رأس الجندى بسهولة ثم يقوم بفحص الإطار إلا أنه رأى من الأفضل اتباع التدرج الوظيفى، فأخطر رئيس المجموعة الذى سرعان ما استدعى النجار «ديديا».

كان تشخيص هذا الأخير قطعيا: لقد أُستبدل شعاعٌ من أشعة العربة تم طلاؤه على عجل. وقد صاحب هذا الإصلاح المهمل تثبيت مشكوك فيه لإحدى العجلات التى لا تلبث أن تعوج تدريجيا حتى تسبب حادثا. كان من المقدر أن تنحرف العربة، حتى لو كانت تسير بسرعة معتدلة، وأن يتعرض الملك لصدمة قاتلة.

جيء بمركبة أخرى - عاينها بدقة ديديا - إلى رمسيس الأكبر الذى رحل برفقة رئيسى المجموعتين وشد الفنان المنقذ وبعض الحرفيين من بينهم نيفر الصامت.

فهم بانيب أن صديقه قد ترقى فى السلم الوظيفى، وأنه سوف تسنح له الفرصة العظيمة بالدخول إلى المقبرة الملكية. ولكن المتأجج لم يعرف أن يقظته قد أنقذت فرعون مصر كما أنقذت ساحة الحقيقة.

* * *

كان «ميهى» قد أغلق على نفسه مكتب ڤيلته الفخمة وأخذ يمزق بغضب شديد بعض أوراق البردى القديمة. هذه المرة، لم يعد لديه أدنى شك فى أن حظا غير عادى يحمى رمسيس. على الرغم من أن عملية التخريب قد أجريت بعناية فائقة على أيدى أحد المتخصصين الذى حصل فى مقابل ذلك على مبلغ سخى، والذى يجهل - بطبيعة الحال - سبب قيامه بهذا العمل. وقد تم تسليم الإطار بعد ذلك للثكنة، حيث قام بتركيبه أحد الجنود الذى لم يلحظ شيئا، كما تمنى ميهى.

كان الحادث سيقع حتما لو لم يكن أحد حرفيى ساحة الحقيقة شديد التطفل. سوف يوجه اللوم لحاكم الثكنة والعقوبة للقسم الفنى. على ميهى الإسراع فى العمل لقطع الخيط الذى قد يؤدى إليه.

وأخيرا، أسدل الليل أستاره.

قالت زوجته مندهشة:

- أتخرج فى هذه الساعة؟

- سوف أحضر وثيقة من مكتبى.

- ألا يمكنك الانتظار حتى صباح الغد؟

- اهتمى أنت بالعشاء يا سيركيتا. وليبذل الطباخ مهارة أفضل من الأمس.

لو كان رمسيس قد لقى حتفه فى حادث، لكانت مصر كلها قد اكتفت بالحداد التقليدى ولما انشغل بال أحد بعجلة المركبة. ولكن طالما تم الإقرار بوجود عيب، فحتما سوف يجرى تحقيق.

قفز القائد فوق جواده وركض به حتى حديقة أشجار أثل ربطه فيها. ثم سار بعد ذلك بخطى عصبية حتى ورشة النجار، وهو أرمل فقد، لحسن الحظ، كلبه أخيرا.

كان الرجل وحيدا ، يأكل الفول الساخن .

اقترب ميهى من الخلف وبهدوء ، وفى حركة سريعة ودقيقة غطى وجه ضحيته بجوال من الكتان السميك وأبقاه عليه حتى توقف النجار عن التنفس .

سوف يستنتجون توقفا فى القلب . ولن يخشى القائد أى ثرثرة .

بوصفه وزير الخزانة الرئيسى لطيبة ، استقبل ميهى داكتير بشكل رسمى ليدرس معه الميزانية المتوقعة لقسم الأبحاث التابع له . من الآن فصاعدا ، لم يعودا مضطرين للاختباء .

كان الرجل الممتلئ القصير القامة لا يتوقف عن العبث فى لحيته من شدة اضطرابه وشكا قائلاً :

ـ لقد أصبح موقفى لا يحتمل . لقد مر عامان وأنا أعمل بضراوة من أجل تنفيذ الماكينة الهوائية التى ستحل محل الشادوف والأجهزة العتيقة كافة . وقد نجحت أخيرا !

قال ميهى مندهشًا :

ـ كان عليك إذن أن تكون راضيا .

ـ إننى راض ولكن مدير المعمل أمرنى بنسيان هذا الاختراع الرائع !

ـ لماذا ؟

ـ من المتوقع أن تكون هذه الآلة شديدة الفاعلية وسوف تزيد من الرى بنسب يراها مفجعة . فهو لا يعير اهتمامًا إلا للإيقاع الطبيعى ولاحترام التقاليد . وفى هذه الظروف ، يستحيل إحراز تقدم علمى !

ليس هناك إلا سبيل واحد : إخضاع الطبيعة للإنسان . وطالما لم يفهم هذا البلد ذلك ، سوف يظل متخلفا .

ـ لا تفقد الثقفة يا داكتير ، واتركنى إلى أن أستقر فى منصبى . لقد وعدتك بأنك سوف تنعم بالحرية فى تصرفاتك وأنا متعود على الوفاء بوعودى .

ـ لو كان فى وقت أقرب لكان أفضل . . . وبخاصة أننى قد اكتشفت خيطين مهمين .

ـ على علاقة بساحة الحقيقة ؟

ـ إن مدير المعمل يظهر يقظة خاصة إزاء بعض الملفات . وببعض الحيلة ، تمكنت من الحصول على بضعة معلومات موثوق بها .

هناك مراسلات وبعثات منظمة فى سرية تامة للحصول على منتجين : الغالينا والقار.

ـ فيما يستخدمان؟

ـ رسميا ، فى استخدامات بسيطة منزلية أو فى الطقوس . ولكن إذا كان ذلك صحيحا ، فلم كل هذه الاحتياطات ؟ ولماذا توجه العديد من حرفيى ساحة الحقيقة ـ لمرات متكررة ـ إلى مواقع استخراجها؟

ـ هل يمكنك الحصول على مزيد من المعلومات عنها؟

ـ دون أن أتعرض لمخاطر متهورة ؟ لا . أنا لست إلا مساعد المدير ، وتقديره لى فى تناقص . وعلى الرغم من ذلك فإنى مقتنع بأننا نقترب من الهدف . إن تسليم الغالينا والقار للحرفيين يتم سرًا . وإذا ما عرفنا أين يتم ذلك ، فسوف أنجح فى تحديد طبيعة هذه المواد واستخداماتها الممكنة .

كان ميهى يفكر فى صناعة أسلحة جديدة ، وداكتير قد يكون وجد لتوه توجها حاسما . كان يكفى استبعاد الكاهن العجوز آمون الذى يدير المعمل ، وفرض داكتير وإشراكه فى البعوث .

خفف ميهى من لهجته .

كان مدير المعمل المركزى كاهنا من كهنة الكرنك منتميا إلى تدرج بالغ القدم يقع تحت إدارة الكاهن الأكبر آمون . وقد عين فى هذا المنصب بعد موافقة الفرعون ، ووضع على رأس أملاك تنعم بثراء فاحش . لا عمدة طيبة ولا غيره من القادة العلمانيين ، كان بوسعهم التدخل للمطالبة بالنقل .

لم يتراجع القائد وجمع أكبر قدر من المعلومات بشأن هذا الكاهن الذى أصبح مثيرا للإزعاج . كان يبلغ من العمر سبعين عاما ، متزوجا وأبا لبنتين ؛ لم يكن له أى هموم مالية ولم يعرف عنه أى نقيصة ؛ تلقى تعليمه فى مدرسة المعبد ، فاشتهر بأنه عالم محنك وحريص وله آراء يعتد بها .

كانت الوشاية ، وهى أحد الأسلحة المفضلة لميهى ، توشك أن تثبت عدم فاعليتها . من ذا الذى يعتقد أن هذا الكاهن المتعنت فى أخلاقه والذى يسير فى مهنته على خط مستقيم يمكن أن تكون له عشيقات أو أن يحصل على رشا ؟ كان الرجل بالغ النزاهة وليس عرضة لهجوم يصيبه فى مقتل .

كانت عملية اغتيال جديدة لا تثير فزع القائد ميهى، ولكن الكاهن كان يعيش حياة بالغة الانتظام ولا يرتاد إلا ثلاثة أماكن : مسكنه والمعبد والمعمل . ولم يكن من اليسير بهذه الدرجة القضاء عليه، ووفاة مريبه من شأنها أن تؤدى إلى إجراء تحقيق متعمق.

بقى أن ينشر انتقادات ضد إدارته عن طريق إثبات العجز الذى يعانى منه معمله وكيف أنه يمثل عبئا ماليا كبيرا على المعبد وعلى المدينة؛ ولكن هذه الحجة توشك أن تنقلب ضد خليفته المرجح أن تكون ميزانيته متقلصة .

كان ميهى قد فقد الأمل فى إيجاد حل ، عندما ابتسم له الحظ بألف طريقة. أولا، توفى الكاهن وفاة طبيعية. ثانيا لم تقترح إدارة شئون العاملين خليفة لهذا المنصب لانشغالها بمشكلات داخلية، وأخيرا ، سنح الوقت لوزير خزانة طيبة وشريكه داكتير لتزوير ملفه والذى أشير فيه بفضل تدخلهما ، إلى أن المتوفى يوصى بشدة أن يتولى مساعده منصب المدير القادم للمعمل.

تقلد داكتير المنصب الذى طمع فيه منذ أمد بعيد، بعدما رؤى أنه كفء ومندمج بالكامل فى مجتمع طيبة . بناء على نصائح ميهى ، لم يبد إلا رضاء متحفظًا وعند مثوله أمام الوزير ، أكد على مصاعب مهنته وعلى رغبته فى اقتفاء أثر سلفه الحكيم.

فى نشوة النجاح ، حقق ميهى ضربة معلم : نقل المعمل إلى مبان جديدة على مقربة من الرامسيوم بحجة تخفيف الضغط فى إدارة طيبة وتوفير النفقات فى أسلوب العمل.

وبناء عليه ، سوف يعمل داكتير قريبا جدا من ساحة الحقيقة ، وتحت الإشراف النظرى لآبرى ، حليف ميهى المخلص. إن قرب العدو الواجب هزيمته وإمكانية وجود الكنوز التى يريد الاستيلاء عليها من شأنها أن تحفز من حماسة العالم إلى الغزو وتعطشه للاكتشاف.

كان القائد مقتنعا بضرورة حصوله على مساندة غير مشروطة للعلم والأساليب الفنية حتى يستطيع أن يقيم سلطة كبيرة . كان قد اجتاز مرحلة حاسمة فى عملية غزوه التى لا رجعة فيها.

* * *

الفصل السادس والستون

كان بانيب المتأجج يدور حول نفسه فى منزله كأسد فى القفص.

أوصته أوابت الطاهرة قائلة :

ـ عليك بالجلوس والأكل . الفطائر سوف تبرد.

ـ لست جائعا.

ـ لماذا تقلق نفسك هكذا ؟

ـ رمسيس الأكبر رحل وكذلك رئيس المجموعة ، والفنان والرسامون لا يمكن العثور عليهم . أما نيفر فقد اختفى!

ـ بالطبع لا .

هز بانيب كتفيه.

ـ أنت ، ربما تعرفين أين يختفى!

ـ صديقك لا يختفى . لقد تم قبوله للتو فى دار الذهب .

فتح الشاب الضخم عينيه مندهشا:

ـ دار الذهب . . . ما هى ؟

ـ إنها أكثر الأماكن سرية فى القرية .

ـ ماذا يتم فيها ؟

ـ ليس لدى أدنى فكرة.

ـ كيف عرفت أنها قد فتحت أبوابها لاستقبال نيفر؟

ـ أتنسى أننى إحدى كاهنات حتحور . إنها الإلهة خيرة تسر إلى المؤمنين بها.

رفع بانيب أوابت الطاهرة من على الأرض كما لو كانت لاتزن أكثر من وزن ريشة وألصق وجهها بوجهه .

ـ قولى لى كل ما تعرفينه .

ـ أنا زوجة صالحة ولا أخفى شيئا عن زوجى .

كانت أوابت الطاهرة عارية الصدر ، لا ترتدى إلا تنورة من الكتان الخشن ، حَلّتها لتنزلق بطول ساقيها . وقدمت إليه ، وهى ملتفة فى صدره ، حرارة جسدها النحيل .

كان بانيب قد تعهد بينه وبين نفسه أن يقاوم إلا أنه كان يجهل أن المرأة الشابة بمثل هذا الجمال .

عندما شعرت أوابت برغبة زوجها تتأجج ، عقدت ساقيها حول خصره وتذوقت أخيرا السعادة الباهرة فى أن تصبح زوجته .

أيقظ طرق عنيف على الباب أوابت . تدثرت بعباءة خفيفة وذهبت لتفتح وهى لا تزال غارقة فى ملذات فراش الزوجية .

كانوا ثلاثة : جاو الدقيق وأونيش ابن آوى وباى الخبز الطيب .

لم تكن وجوههم المتجهمة مشجعة أدنى تشجيع .

قال جاو بجفاء :

ـ لقد جئنا لاصطحاب بانيب .

ـ ماذا تريدون منه ؟

ـ هذا أمر رئيس المجموعة . فليسرع .

فى الحال ، استيقظ بانيب . كان قد نسى عيون الحب وحدق فى الرجال الثلاثة .

قال جاو فى لهجة ملزمة :

ـ اتبعنا .

كان هيكله الضخم واللين بعض الشىء ينتهى بوجه عابس يميل إلى القبح ، تشاء الصدفة أن يتوسطه أنف بالغ الطول .

ـ إلى أين نحن ذاهبون ؟

ـ سوف ترى ذلك .

ـ وإذا ما رفضت ؟

ـ اترك ساحة الحقيقة . إن الباب مفتوح على مصراعيه لكل من يرغب فى الرحيل واجتيازه يصعب فقط فى الدخول .

أمل بانيب أن يرمقه باى الخبز الطيب بنظرة تشجيع ولكنه بات قاسيا مثل رفيقيه .

ـ هيا بنا . ولكنى أحذرك ، إذا ما تطلب الأمر ، فسوف أعرف كيف أدافع عن نفسى .

تقدم الجميع جاو الدقيق ثم تبعه بانيب وقد أحاط به من الجانبين أونيش ابن آوى وباى الخبز الطيب . سار بمشيته البطيئة والمنتظمة متوجها إلى مقر اجتماع جماعة اليمين .

كان النجار ديديا واقفا عند العتبة .

ـ ما اسمك ؟

ـ بانيب المتأجج .

ـ هل ترغب فى معرفة أسرار الترسانة البحرية ؟

«الترسانة البحرية» . . . كان نيفر قد توجه إليها ! . . . إنها اسم جديد لمقر الجماعة كان بانيب يعرفه بالفعل .

ـ نعم ، أرغب .

ـ إن الترسانة البحرية التى رسمها على جدران بعض دور الأبدية هى ـ كما أوضح ديديا ـ الورشة الحقيقية التى نقوم فيها بتفريخ النجارين والنحاتين والرسامين والأعمال التى يقومون هم أنفسهم بخلقها . كل شىء فى طريقنا يتمثل فى عملية تجميع . فمركب الجماعة تأخذ شكل قطع مبعثرة فى الترسانة وعلى حرفيى ساحة الحقيقة أن يقوموا بتجميعها وتحقيق نوع من الترابط بينها . احذر يا بانيب ، إذا كنت شخصا مشوشا ، فلن تلق إلا خيبة الأمل فى هذا المكان . ما زلت مصرّا؟

ـ سوف أواصل .

أدخل ديديا والرسامون الثلاثة بانيب فى قاعة التطهير حيث قام جاو الدقيق بقياسه بحبل رفع رفيع ، ثم أوضح قائلاً :

ـ لقد خلق الله هذا الكون بأرقام ووفقا لمقايس . ادخل فى لعبة العلاقات المتجانسة هذه .

قام باى الخبز الطيب بجعل بانيب يأخذ وضع الركوع أمام حجرة مكعبة وضع عليها يديه بعد غسلهما بالماء المطهر المنبثق من آنية على شكل الحرف «إنك» «الحياة» والتى كان يمسك بها أونيش ابن آوى .

نهض بانيب فلطخ له باى الخبز الطيب يديه بأحد الدهانات ثم رسم عينا فى راحتيها .

ـ بفضل هذا الدهان ، تبدأ يداك العمل فعليا ، وبفضل هذه العين أصبحت ترى .

فى إحدى زوايا القاعة ، كان هناك حوض كبير مستطيل ملآن بالمياه . خلع أونيش ابن آوى عن بانيب ملابسه وأمره بأن يغمر نفسه فيه . وقال له :

ـ المياه الأولية وحدها هى التى ستخلصك من قيودك ، فلتطهرك كما تطهر بلا توقف القوى الإبداعية ، ولتجعلك تدرك طاقة البدء والتى بدونها تكون قلوبنا وأيدينا خاملة .

شعر بانيب بأحاسيس غريبة . لم تكن إلا مياها باردة ، ولكنها غلفته كرداء واق وأعطته انطباعًا بالخفة رائعا ومثيرا للقلق .

كان عليه الخروج من هذا الحوض كأنه يولد من رحم الأم ، وبدافع من الرسامين الثلاثة ، اجتاز عتبة مقر الاجتماع .

ومن على جانبى الباب وقف «أوسرهات» الأسد ، رئيس النحاتين و«شد» الفنان المنقذ . كان الأول يرتدى قناع صقر والثانى يرتدى قناع أبيس . وكان حورس ممسكا بإحدى ريش «ماآت» توت علامة الحياة .

ركع بانيب على فسقية على هيئة سلة . وهى الكلمة الهيروغليفية التى تعنى «التمكن» وأعطاه اسمه .

خرج رئيس المجموعة من الظلال ووضع حول رقبة المتأجج قلادة معلقا بها قلب .

من قمة وقاعدة الريشة ومن الشكل البيضاوى ومن القضيب الذى يمر بعرض مفتاح الحياة ، انبثقت موجات مرئية أخذت شكل خطوط متعرجة .

عندما لمست جسد بانيب ، شعر بدفعة هائلة لم يصاحبها أى ألم . كانت نارا هادئة تخللته كأشعة شمس فى ليلة باردة .

أضاء النور قاعة الاجتماع . ولاحظ بانيب أن جميع أعضاء المجموعة حاضرون ، بما فى ذلك نيفر .

جلس رئيس الجماعة فوق مقعده.

- جماعتنا هى قارب، مهمته اختراق المياه السماوية والتآخى مع النجوم. لقد نودى عليك فى هذا القارب ورأيت نوره فى مقبرته - فلتمنح القدرة على السفر. ولتتمكن من الإمساك بحبل المقدمة فى مركب الليل وبحبل المؤخرة فى مركب النهار.

ولتمنح الإلهة فى السماء والقوة الإبداعية على الأرض، والصوت العادل فى مملكة العالم الآخر.

وأمام نظرة بانيب المتيقظة، قام نيفر الصامت وكازا واضع الأوتار وديديا الكريم بتجميع بطىء لمختلف أجزاء نموذج مصغر لمركب خشبية مجهزة بقمرية على شكل مصلى.

- احفر هذا السر فى ذاكراتك يا بانيب. فربما تدرك مغزاه لاحقا، بعد أن تكون قطعت شوطا على الطريق.

وفى أعلى الكتف الأيمن للمتأجج، رسم جاو الدقيق إناء يرمز إلى القلب - الضمير. ورسم أونيش ابن آوى الصولجان رمز «القدرة»، ورسم باى الخبز الطيب خبز القرابين والذى يعنى «العطاء». وهنا قال نيب المنجز:

- بوصفى رئيس العمل ورئيس المجموعة، فأنا أعرف سر الأقوال الإلهية. هنا يكتسب المرء التمكن من الصياغة السحرية حتى يبدع حرفيو ساحة الحقيقة فى فنهم ويعرفوا كيفية استخدام النسب الصحيحة والتعبير، فى النحت والرسم، عن هيئة رجل ورشاقة امرأة وتحليق طائر وسعى أسد وكذلك عن مشاعر الخوف والفرح. وحتى تتمكن من ذلك أنت أيضًا يا بانيب، عليك أن تعمل دون كلل أو ملل وأن تتعلم صناعة الألوان التى تذوب دون أن تحرقها النار ولا تذوب فى المياه ولا تتأثر من الهواء. إنها أسرار المهنة التى لم تكشف قط لأى علمانى. فهل تلتزم بحفظها مهما حدث؟

- أقسم بحياة الفرعون وبحياة الجماعة.

- إن شد الفنان المنقذ ورسامى مجموعة اليمين يوافقون على تعليمك. فمنذ هذا اليوم، أنت تنتمى إلى مجموعتهم وسوف تنفذ المهام التى يعهدون بها إليك.

* * *

الفصل السابع والستون

بعد تلقين بانيب المتأجج فى الترسانة البحرية والمأدبة التى أعقبت ذلك، كان جاو الدقيق يود ، طواعية ، لو حصل على قسط من الراحة . فكثيرا ما كان يشعر بالإرهاق وخاصة بعد الاحتفالات وقد أنقذته المرأة الحكيمة مرتين من قبل من احتقان فى الكبد أدى إلى انسداد مجاريه .

ولكن المتدرب كان قد طرق باب الورشة مع صباح اليوم التالى وقد دفعته إرادة ثابتة على ألا يضيع دقيقة واحدة . وأمام نداءات المتأجج التى أيقظته ، اضطر باى الخبز الطيب إلى الذهاب لجاو وإحضاره .

قال بانيب مؤكدا :

ـ أنا مستعد . . بم نبدأ ؟

ـ إن أسرار مهنتنا لا يتم تناقلها إلا داخل جماعة الرسامين التابعة لنا . فإذا كان سلوكك معيبا أو قدراتك غير كافية ، فسوف نستبعدك نهائيا . إن مهمتنا عسيرة جدا وقد فشل فيها شباب كثيرون من قبل وصولك بيننا . فهى تحتم معرفة الحروف الهيروغليفية وهى أقوال الآلهة وفن الخط وعلم توت . فإذا ما كنت تنوى العمل وفقا لأهوائك ، فاترك الورشة على الفور .

ـ أرنى المعدات التى ستكون تحت تصرفى .

جرجر جاو الدقيق قدميه ـ كما لو كان مطلب بانيب يزعجه ـ وذهب يفتح سلة مستطيلة وأخرج منها لوحة كاتب وهاونات ومدقات وريش رسم وفرش وأزميل .

لقد أصبحت هذه اللوحة ملكك ، لا تقرضها لأى شخص . فى الفجوات المستديرة أو المربعة سوف تضع الألوان التى ستحتاج إليها .

ـ كيف نقوم بإعدادها؟

ـ سوف نرى ذلك لاحقا. أما الآن، فسوف تكتفى بقوالب الألوان التى سنمنحها لك، تقوم بإذابتها باستخدام وعاء الماء وسحقها بالهاون ويد الهاون. لنبدأ أولا بذلك.

كان جاو واثقا بأن الشاب الضخم سوف يبدد العديد من القوالب قبل التوصل إلى نتيجة مرضية. ولكن بانيب المتأجج لم يندفع، حيث قام بتقدير سعة الوعاء وتحسس عجينة اللون الأحمر للتحقق من أنه يمكن تحويله بسهولة إلى مسحوق، ثم أذابه بكمية المياه الصحيحة وقام باستخدام يد الهاون بالقوة المناسبة.

حرص جاو على عدم إبداء دهشته، وواصل درسه بنفس لهجته الباردة.

ـ سوف تزود نفسك بالشقف والأصداف لإعداد الأصباغ أو خلطها وسوف تبسط الألوان بشكل متجانس ودون أى إعتام. ليس من السهل استعمال ريش الرسم والفرش، والغالبية يصيبها الإحباط.

كل تلك التنوعات المطروحة أذهلت وأثارت إعجاب بانيب. كان هناك البوص الدقيق المشذب الأطراف والمشقوق وغيره الأكثر سمكا وفرشة ضخمة من ألياف النخيل المثبتة والمربوطة: واحدة من عروق السعف المنسحقة عند أحد الأطراف والمنفصلة الألياف لتشكيل وبر طويل إلى درجة ما، وأخرى طويلة وضيقة وثالثة أعرض والملاعق المسطحة... فبفضل هذه القطر والسنون المختلفة، علينا رسم الكون وأسراره!

هذه المرة، لم يكن الأمر حلمًا. كان أمام بانيب الأدوات التى طالما تمناها، وقام باستخدامها الواحدة تلو الأخرى، فى حنان واحترام.

كان المتأجج على وشك البكاء وهو يعيش سعادة لم يقدر أبدا قوتها.

انتزعه صوت جاو المبحوح من نشوته.

ـ اجمع معداتك واتبع باى الخبز الطيب. سوف يصطحبك إلى ساحة عملك الأولى.

تبع بانيب، وهو بعد تحت تأثير الصدمة، الرسام الذى لم يكن قد إستيقظ تماما. وقال باى معترفا:

ـ لقد أفرطت بعض الشىء فى تناول جعة فرعون.

ـ إلى أين نحن ذاهبون ؟

ـ بما أن تجاربك الأولى سوف تكون حتما سيئة وأن جاو يبغض تبديد سطح جيد الإعداد ، فلقد وقع اختياره على حقل تجارب لن يتضرر منه إلا أنت شخصيا : بيتك .

وضع بانيب ، ببعض الفخر ، فرشه وريش رسمه فوق منضدة صغيرة فى الحجرة الأولى من مسكنه ، تحت أنظار أوابت الطاهرة ، والتى امتلأت بالقلق .

ـ هل من الضرورى تخيل أى زينة ؟ هذا التقشف يناسبنى و . . .

قال بانيب بلهجة قاطعة :

ـ إننى أتعلم مهنتى .

وسأله باى الخبز الطيب

ـ ما الألوان التى ترغب فيها ؟

ـ الأحمر والأصفر والأخضر ، سوف أبسطها فى شرائط أفقية الواحدة تلو الأخرى .

ـ هل أنت واثق بأن جدارك معد جيدا؟

ـ بلا شك . لقد اعتنيت به بنفسى . قمت بسد الفجوات بالاستعانة بالطمى الذى زدت من مقاومته بعجنه بالقش المفروم ثم طليته بالجبس الكلسى .

بدا الشك على وجه باى .

ـ كما أن الأمر يتعلق بمنزل ، فإن الخطأ الذى ارتكبته ليس جسيما . . . ولكنه سيكون غير مقبول ، لو تعلق الأمر بمعبد أو بدار أبدية .

ـ ما هو هذا الخطأ ؟

ـ إن مسطحك ميت .

ـ ميت ؟ . . . ماذا تريد أن تقول ؟

ـ المسطح أملس للغاية ، تنقصه الحياة . فأى جدار يجب أن يحمل بعض التموجات لتوضيح الذبذبات التى تخترق الفضاء بلاتوقف وتسجيلها . فالتماثل المطلق والحيود شكلان آخران من أشكال الموت يجب على يدك أن تقهرهما .

تأمل بانيب جداره بنظرة جديدة . كان يشك فعلا بأن أمامه الآلاف من الأمور لتعلمها، ولكن تلقينه فى الترسانة البحرية فتح له حقا أبواب عالم جديد لكل شىء فيه له معنى .

أعد المبتدئ ألوانه . وفطريا ، رسم شرائط عريضة على قواعد البناء .

ذهل باى الخبز الطيب من أسلوب بانيب الواثق فى التنفيذ وقد حرص على ألا يظهر له مفاجأته . كان الرسام الشاب قد تخير ريشة الرسم المناسبة وتحركت يده ببطء لرسم الشكل الأفقى . حتى إن أوابت الطاهرة فتنت به وأخذت تنظر لزوجها وهو يأخذ بطرف الألياف الكمية المناسبة من الطلاء الضرورى ويبث الحياة فى جدار كان حتى الآن خاملا .

ثم استخدم بعد ذلك فرشاة لإنهاء شريط أخضر، ثم توقف عند ثلث المسطح الواجب تزينه .

وأعرب عن رأيه قائلا :

ـ أكثر من ذلك سوف يكون زائدا . ما رأيك يا باى ؟

ـ هناك تقنية محددة لرسم الطبقات ؟

ـ ولِمَ لَمْ تعلمها لى ؟

ـ كنت أريد التحقق من أنك سوف تكون قادرا على استيعابها .

ـ إذن . . ؟

ـ ينبغى إجراء محاولات أخرى . . .

أدرك بانيب أن طريقه سيكون محفوفا بالمكائد والخدع ولكنه لم يكن يبالى وسوف يستمر فى اقتحام الطريق أمامه . وبما أنهم يمنحونه الأدوات فهو ليس أعزل . وبفضل هؤلاء الحلفاء ، لم يكن يخشى أحدا .

اقترح عليه باى قائلا :

ـ أترغب فى محاولة رسم بعض الأشكال الهندسية ؟

ـ أرنى !

صعد الرسام على مقعد صلب بثلاثة أرجل وبالاستعانة بريشة بالغة الدقة ، بدأ يرسم ربطة من البوص عند قمة أحد الجدران . وأوضح قائلا :

ـ هذا الرمز يؤمن الحماية السرية للجدار إلا أنه ينبغى رسم إفريز . وذلك ليس بالأمر السهل .

وعلى الفور ، حاول بانيب نسخ النموذج . لم تنعدم المهارة فى محاولته . كانت هناك بعض العيوب فى رسم المنحنيات أصلحها باى دون أن ينبس بكلمة . لاحظه المتأجج ولم يكرر الأخطاء ذاتها .

وسأل معلمه :

ـ ما الذى يناسب المنزل ؟

ـ وحدات من الزهور ووحدات هندسية تعبر عن السعادة الهادئة فى المنزل وحسن سير الحياة اليومية .

كانت آلاف الأشكال تتزاحم فى عقل بانيب ، وقد خطها على الرمال أو على بعض الشقف الكلسية . إلا أن الحياة لم تكن قد دبت فيها .

ـ هل تصنع لى معروفا يا باى ؟

بدا الرسام متحفظا .

ـ هذا يتوقف على ما تقول .

ـ هل يمكن أن تستضيف زوجتى عندك حتى صباح الغد؟

علىّ محاولة تزيين هذه الدار وأنا بحاجة لأن أكون وحيدا .

ـ ولكن . . . سوف تحتاج إلى عدة أسابيع !

ـ أرغب فى إعداد تخطيط شامل وأن تعطينى رأيك فيه .

ـ كما ترغب . . . إذن إلى الغد .

لم يعجب أوابت الطاهرة إبعادها عن مسكنها ، حتى ولو لفترة وجيزة . إلا أن زوجة باى الخبز الطيب قد أحسنت استقبالها ، ولكنها رغم ذلك مع شروق أول شعاع للشمس أسرعت بالعودة إلى دارها .

عندما دخل أوابت وباى إلى المنزل أصيبا بالذهول .

كان بانيب قد طلى إفريزا من البوص الحافظ عند قمة كل الجدران بدقة وإنتظام يثيران الدهشة . إلا أنه لم يتوقف عند هذا الحد . فقد زين كل حجرة بأسلو خلاب يتكون من

الورد الصغير وزهور اللوتس المنمنمة وعناقير العنب وأوراق العنب وزهور البرسا الصفراء والخشخاش الأحمر القاني والمعينات والضمامات .

أغلقت أوابت الطاهرة عينها خشية أن تكون فريسة لسراب . ولما فتحتها ، كانت تلك الأعاجيب ثابتة فى مكانها لم تختف .

ـ أصبح لى أجمل منزل فى القرية . . . ولكن أين بانيب ؟

هرولت إلى الغرفة وألقت بنفسها فوق زوجها الذى كان قد تمدد للتو بعد ليلة من العمل .

ـ هذا رائع ياعزيزى رائع ! فبفضلك سوف نعيش فى قصر حقيقى !

وقف باى الخبز الطيب متحيرا ، يبحث هباء عن نقد ذى مغزى يوجهه له . فحتى من قبل أن يحصل بانيب على علم الرسامين والمصورين ، استطاع أن يقدم ما يشبه الأثر . لقد كان لديه إحساس فطرى بالنسب والألوان .

إذا لم يتدخل القدر أو الغرور للقضاء على مواهب بانيب المتأجج ، فسوف يصبح واحدا من أروع خدام ساحة الحقيقة .

* * *

الفصل الثامن والستون

منذ تعيينه فى منصب مدير المعمل المركزى لغربى طيبة، وداكتير يمشط لحيته ويعطرها كل صباح. ووفقا للوعد الذى قطعه على نفسه، أعلن لمجموعة الفنيين أنه سيواصل برنامج الأبحاث التقليدى جدا الذى كان يتبعه سلفه، والذى كان قد وضع حدود العلم بمنتهى الحكمة. هو، الغريب الذى تم الاعتراف به أخيرا كأحد الأعيان، قد منح نفسه فترة من الراحة يستفيد فيها من مقر الوظيفة ومن خدمه ومن الاعتبار الذى حصل عليه أخيرا.

أوشكت هذه الراحة الدقيقة أن تعطله عن العمل، ولكن لم يلبث أن سيطرت عليه أفكاره المثيرة. ومن جديد، اهتم داكتير بالغالينا والقار، هذين المنتجين اللذين لا تحمل الملفات الموضوعة تحت تصرفه أى معلومات محددة بشأنهما.

إلا أنه كانت تتوافر لديه معلومة قيمة: كل عامين تقريبا، ترسل بعثة للحصول على هذين المنتجين وتقديمها لساحة الحقيقة. وبوصفه المدير الجديد، سوف يقع على عاتق داكتير تنظيم عملية التسليم هذه. عليه أن يتذرع بالصبر لستة شهور أخرى على الأقل قبل عملية التسليم المقبلة. وبرغم سخطه، كان عليه عدم تغيير العادات. وقريبا، سوف ينكشف له أحد أسرار الجماعة.

وقد أتاح له قرب القرية أن يعين فيها غسالا خاصا هو المساعد الذى كان يقدم له مسحوق الغسيل. وفى تلك الليلة، كان مخبره يحمل ابتسامة راضية:

- أعتقد أن لدى الجديد... إن ساحة الحقيقة تتلقى بريدها عن طريق ساعى بريد معتمد يدعى «أوبوتى» وهم يسلمونه الرسائل الموجهة للخارج. وأوبوتى هذا رجل شريف ولكنه ثرثار أحيانا. وهو يحب التحدث مع هذا أو ذاك. كما أنه دقيق الملاحظة. فقد لاحظ أن واحدا من الحرفيين قد كتب رسائل عديدة أخيرا.

- إلى من كان يوجه رسائله؟

– إن سر المراسلة حتما بين يدى أوبوتى . وما أعرفه أيضا هو أن هذا الحرفى المعنى قد توجه إلى البر الغربى على مدى يومى الراحة خلال الشهرين الماضيين . وهذا سلوك غير مألوف . ربما تعلق الأمر بعميل يصنع له أدوات فاخرة، ولكن عادة لا تجرى الأمور على هذا النحو . . . ولا تتعدى فقط الطلبية والتسليم .

– بالطبع . أنت تعرف اسم هذا الحرفى .

– سنحت لى تلك الفرصة .

– بكم ؟

– مسحوق الغسيل لن يكون كافيا . . تلزمنى سبائك نحاسية .

– لقد أصبحت مكلفا جدا أيها الصديق .

– معلومة كهذه لها ثمنها .

– هل المساعدون الآخرون على علم بذلك ؟

– لا . . أنا وحدى . لقد ندم «أوبوتى» كثيرا على البوح لى بهذا الاسم ولن يعيد الكرة . إذا ما كنت ترغب فى معرفة هذا الاسم ادفع لى .

همهم داكتير .

– سبيكتان ؟

– أربعة .

– ثلاثة ؟

– أربعة . . . ربما تكون هذه فرصة عمرى ولن أدعها تفلت من بين يدى .

– ثلاثة غدا والرابعة بعد أسبوع إذا ما تبين أن المعلومة مهمة .

– إذن ثلاثة واثنتان .

– اتفقنا .

عندئذ، أفصح الغسال لداكتير عن الاسم، ووصف له الحرفى وهو رجل من جماعة اليمين .

اضطر داكتير إلى انتظار نهاية حفل الاستقبال الذى أقامه ميهى، وسيركيتا على شرف العمدة ، الذى صدق الوزير على توليه هذه الوظيفة ، حتى يدلى إليه بالمعلومة التى حصل عليها لتوه. وسرعان ما شعر وزير خزانة طيبة أن بحوزته سرا بالغ الأهمية . فهو الذى لا يستطيع الحصول مباشرة على معلومات حول الأنشطة السرية للحرفيين. قد يكون قد حصل على معلومات حول الأنشطة السرية للحرفيين. قد يكون قد حصل على ما هو أفضل بكثير : جاسوس فى ساحة الحقيقة !

- كيف على أن أتعامل مع الغسال ؟

- قل له أن سبائك النحاس سوف يحصل عليها مساء الغد ، فى أرض النخيل الواقعة شمالى طيبة على مقربة من البئر المهجورة ، بعد ساعة من غروب الشمس .

- كيف سنحصل عليها ؟

- لا تقلق . أنا سأتولى كل شىء . وإذا ما استجوبتك الشرطة بشأن هذا الغسال ، فأوضح لها أنه قد تقدم إليك لشغل الوظيفة وأنك قد رأيت أن ظروفه مناسبة . هذا هو الحديث الوحيد الذى كان لك معه وأنت لا تعرف عنه ما يزيد على ذلك .

- وبالنسبة لهذا الحرفى . . .

- أنا سأتولى هذا الأمر أيضا . فكلما قل ظهورك ، كان هذا أفضل . اهتم بظروف البعثة الخاصة بإمداد ساحة الحقيقة بالغالينا والقار .

كانت ساقا الغسال ترتعدان من فكرة أنه سيصبح ثريا .

من المؤكد أنه ينتهك بذلك العهود التى قطعها على نفسه عند تعيينه مساعدا . ولكن كيف يتخلى عن فرصة كهذه؟ فى أن تتوافر لديه الثروة، حتى يترك هذه المهنة التى يمقتها ويشترى لنفسه مزرعة فى مصر الوسطى حيث تباع الأراضى بأسعار تقل عن أسعار أراضى طيبة وهناك سوف يقضى أياما هادئة .

ولما كانت المعلومة قد اتضحت أهميتها ، وافق داكتير على منح مخبره- وبلا تأخير - السبائك النحاسية الخمس . وأسف هذا الأخير لعدم مطالبته بعدد أكبر .

بمجرد حصول الغسال على ثروته ، سوف يختفى للأبد ولن يعود أبدا إلى نواحى ساحة الحقيقة .

« أسفل أكبر شجرة نخيل فى مواجهة البئر المهجورة ـ هكذا قال داكتير ـ سوف تكون السبائك فى جراب مدفون على عمق ضيئل » .

تأكد الغسال أن هذه المنطقة من ساحة النخيل خالية تماما . لا أحد كان يرتاد هذه البقعة فى المساء ولن يراه متطفل وهو ينبش الأرض للحصول على غنيمته .

لم يكذب داكتير . كان الجراب موجودا بالفعل أسفل أضخم شجرة نخيل . ولم يبذل الغسال جهدا مضنيا للكشف عنها .

كان يهم بفك الحبل الرفيع المربوط به الجراب عندما سمع صوتا جهوريا جعل الدم يتجمد فى عروقه .

– الشرطة ! قف وظهرك ملتصق بشجرة النخيل ولا تحاول المقاومة .

أصاب الغسال الذعر ، فاحتضن ثروته وآثر الهروب سريعا .

– قف !

كانت فرصته الوحيدة هى إطلاق ساقيه للريح والفرار من مطارديه . ولكنه اصطدم بحارس شرس يحمل هراوة .

حاول الغسال أن يصرعه بجرابه ولكن الحارس شج رأسه فى اللحظة نفسها التى انغرس فيها سهم فى رقبته .

سقط ، صريعا .

التف حول الجثة عشرة من رجال الشرطة الذين قد نصبوا الفخ للغسال وقام قائدهم بفحصه :

– أمر غريب . . . لقد قيل لنا إن هذا الرجل لص خطير ومدجج بالسلاح .

– ما الذى يحتويه هذا الجراب .

فتح القائد الجراب وألقى بمحتواه على الأرض .

– أحجار . لا شيء غير الأحجار .

– لو كان أحسن استخدام الجراب لكان سلاحا فتاكا .

لقد أحسنا فعلا الدفاع عن أنفسنا .

دون أن يبدو عليه أدنى اكتراث ، علم ميهى بنبأ قتل أحد الأشقياء فى ساحة النخيل شمالى طيبة . كان رجال الشرطة قداستجوبوه بشكل قانونى ، ولكنه أبدى من العنف الشديدما اضطرهم لقتله فى دفاع شرعى عن أنفسهم .

توصل التحقيق إلى معرفة شخصيته ، وأنه أحد الغسالين الذى كان يعمل مساعدا فى ساحة الحقيقة . لم يكن يحظى بتقدير زملائه ولم يقرظه أحد . وقد اشتبهوا فى قيامه بسرقات صغيرة ، وأشارالغسالون الآخرون إلى غطرسته وعدوانيته .

أكد الرئيس سوبيك على هذه الشهادات . ولما كانت القضية قد شهدت نهاية مأساوية وضعت حدا لكل شىء ، لم يكن يبقى إلا حفظها .

لم يعد ميهى يندهش من الحظ الذى بات حليفه وملازما له لهذه الدرجة . والسبب فى ذلك يرجع إلى أنه كان يتخذ المبادرات الجيدة فى الوقت المناسب حيث كللت كل أعماله بالنجاح وتعزز موقفه . لقد كان واثقا أن هذا الغسال سيستجيب بغباء لهذا الأمر وينتهى به الحال إلى إدانة نفسه . ومع اختفائه ، أصبح داكتير فى مأمن ، وعليه فسوف يستغل هذه المعلومة فى هدوء بالغ .

إضافة إلى ذلك ، كان لا ينبغى القيام بأى عمل طائش : من المستحيل ، هذه المرة ، استخدام الشرطة . لذا ، فقد توجه بحديثه إلى زوجته « سيركيتا» .

- سوف أصف لك رجلاً . وسوف تحاولين التعرف عليه عند نزوله من المركب القادم من البر الغربى . بعد ذلك تتبعينه وتحددين المكان الذى يذهب إليه .

- ولكن هناك الكثير من المراكب يوميا!

- اكتفى بأولى مراكب الصباح .

- أمقت الاستيقاظ مبكرا يا حبيبى !

- لن تحرمينى هذه الخدمة الصغيرة يا سيركيتا؟

- وإذا ما استمر هذا العقاب لعدة شهور ؟

- إنها مهمة مهمة ، يا يمامتى ، ولا يمكن أن أعهد بها إلا لك .

- بم تهدينى ؟

- هل ترغبين فى حلى جديدة ؟

- لن أرفض. فلقد بدأت أملّ القديمة . ويبدو أن صائغا فى ممفيس يصنع عقودا رائعة من الفيروز ، ولكن أسعاره غانية للأسف.

- اطمئنى ، لن تكون كذلك من أجلك .

فى اليوم الثامن عشر من الترصد ، تعرفت سيركيتا على الحرفى الذى كان قد أخذ المركب الثانية فى هذا الصباح.

لم تجد أدنى صعوبة فى تتبعه حتى رأته يدخل فى مخزن مكدس فيه أثاث من نوعيات مختلفة. تحسست سيركيتا رقبتها بهدوء ، راضية عن نفسها ، فقريبا سوف يزينها عقد مبتكر من الفيروز.

* * *

الفصل التاسع والستون

عندما دخل بانيب ورشة «الخط» القريبة من قاعة اجتماعات فريق اليمين، دهش من ملاقاة نيفر الصامت برفقة جاو الدقيق. كان الرجلان يتدارسان ورقة بردى تحمل عنوان: «نموذج حسابى من أجل سبر الحقيقة ومعرفة ما هو غامض».

كانت الورقة مليئة بالعلامات الحسابية التى كان الرجل الشاب يراها للمرة الأولى.

- ورقة البردى هذه تخصنى ؟

أجاب جاو الدقيق قائلاً :

- لقد نظم مهندس العالَمين عناصر الحياة وفقا للنسب والمقاييس. ويمكن عَدُّ عالمنا بمثابة لعبة أرقام. اعتبر هذه الأخيرة مصدرا للطاقة ولن يكون ذهنك خاملا أبدا. فى تقاليدنا، يتزعم الفكر الهندسى التعبير الحسابى. وهى تقوم على أساس «الواحد» الذى ينمو ويتضاعف ثم يرجع إلى نفسه. إن فن «الخط» يقوم على أساس إثبات وجود الوحدة فى كل شكل حى

وقال نيفر :

- إن جسدك موجود ؛ لأنه عبارة عن مجموعة من النسب وسوف تحتاج إلى هذا العلم لتجعل يدك تعمل بذكاء. ولكن لاتمارس الهندسة من أجل الهندسة أو الحساب من أجل الحساب، فمن ارتكب هذا الخطأ، وقع فى فخ العلم العقيم.

وأمره جاو الدقيق قائلا :

- ارسم مثلثا.

أخذ بانيب ريشة رسم دقيقة وقام بإنجاز ما طلب منه.

وقال معلمه :

- هذا هو أحد أبسط الأساليب لتمثيل ضوء الشمس بطريقة مجردة، وسوف نضع تعليمك «الخط» تحت رعايتها يؤكد القدماء أن إدراك أسرار السماء والأرض والمياه سيسمح لنا بفهم لغة الطيور والأسماك وأخذ جميع الأشكال التى ترغبها.

- إذن، إلى العمل!

أدرك نيفر أن لصديقه عطشا لا يروى للتعلم وأنه قد أحسن صنيعا بالمجىء وتقديم يد المساعدة لجاو الدقيق الذى لم تكن لديه الطاقة اللازمة للتدريس لعدة ساعات.

مارس بانيب سريعا العمليات الأربع الرئيسية، واكتشف القوى والجذور وحل سريعا وبلا مشقة بعض المعادلات دون الابتعاد أبدا عن التطبيق العملى، مثل صناعة زوج من النعال أو شراع مركب. وهكذا أدرك أنه لا يوجد عمل واحد من أعمال حرفيى ساحة الحقيقة تصنعه الصدفة.

سواء تعلق الأمر بعمليات القسمة أو الضرب أو حساب جذور الأعداد، كان يطلب دائما من المتأجج إعادتها إلى عملية الجمع الأولى. وفى النظام العشرى، كان يستخدم كسورا أحادية مع صورة كسر تعادل الوحدة باستثناء الثلثين. وكان يتدبر أمره مع الجداول التى تم تسليمها له من أجل التحقق من نتائج تمارينه.

وأوضح له جاو الدقيق :

- إن الحرف الهيروغليفى للفم يرمز إلى الكسر الأول، حيث إن جميع الأشكال تنحدر من فم المسئول عن رعايتنا الإله «بتاح» الذى خلق العالم عن طريق الكلمة. والآن ارسم دائرة.

رسم بانيب الدائرة دون أن ترتعش يده.

- ها هى ذى الطريقة التى تحسب بها مساحة دائرة. اطرح التُسْع من قطرها، وما يتبقى تحسب تربيعة وبذلك تحدد المساحة(*). وهذا أمر لاغنى عنه حتى تقوم - مثلا - بتقدير حجم شونة قمح أسطوانية الشكل. سوف يكون كل ذلك مفيدا بالنسبة لك عند وجودك أمام جدار. حيث سيتعين عليك تنظيم الفراغ وفقا لقواعد التناسق.

بسط نيفر الصامت ورقة بردى أخرى، فألجم لسان بانيب من شدة الدهشة.

(*) كانت مصر تعرف العدد «بى». وبتشبيه الدائرة بالمربع يمثل ضلعه $\frac{8}{9}$ من قطره، تكون قيمه «بى» : ٣,١٦.

عليها رسم مربع بالحبر الأحمر وضع بداخله رجل واقف مرسوم بالأسود. وكان يوافق كل جزء من أجزاء جسمه عدد محدد من المربعات.

ـ هذا الرسم قائم على مقياس تناسبى يبلغ ثمانى عشرة وحدة : ستة مربعات من أخمص القدم وحتى الركبتين، وتسع وحدات حتى الردفين واثنتى عشرة حتى المرفقين وأربع عشرة ونصفا إلى الإبطين وست عشرة حتى الرقبة وثمانى عشرة حتى الشعر. وهكذا، تفك رموز تناسق جسم الإنسان ويمكن رسمه دون الإخلال به. ولكن الأمر لايتعدى كونه نموذجا وليس نظاما ثابتا. ولرُبَّ العمل القدرة على تطبيق تربيعات أخرى يكشف من خلالها عن وجود أشكال جديدةَ من النسب.

كان بانيب المتأجج ونيفر الصامت جالسين جنبا إلى جنب تحت قبة السماء المرصعة بالنجوم.

ـ لم أكن أعرف أن المسألة ستكون مذهلة لهذه الدرجة. . . أو بالأحرى، إذا كانت فطرتى تعرف ذلك منذ أمد طويل وأننى كنت على حق عندما استمعت إليها، فلماذا بددت كل هذا الوقت؟

ـ اطمئن يا بانيب. إنك لم تضع ثانية واحدة. لقد أعدتك الاختبارات السابقة لأن تعيش بقوة هذه اللحظات، وأن تتعلم مع كل هذا الحماسة التى تؤججك. هذا مجرد بداية، وفى أقرب فرصة ممكنة، سوف تذهب لدراسة الأهرامات التى ستمثل مرحلة جديدة على طريقك.

ـ سوف ترافقنى ؟

ـ إذا ما صرح لى رئيس الفريق.

ـ لقد تم قبولك فى دار الذهب، أليس كذلك ؟

تردد نيفر فى الإجابة.

ـ إنها أوابت الطاهرة التى حدثتنى عن هذا الأمر.

ـ ما قالته صحيح.

ـ أعرف أنك متعهد بكتمان السر، ولكن أخبرنى على الأقل إذا ما كنت رأيت من جديد هذا النور الذى يخترق المادة.

ـ إنه موجود يا بانيب . وسوف تكتشفه أنت أيضا إذا ما حققت نفسك من خلال العلم الذى اخترته .

ـ عندما نفتح بابا فى هذه القرية ، هناك عشرة أبواب أخرى من خلفه . . . ولكن هذا يعجبنى . هل دخلت فى دار أبدية رمسيس الأكبر؟

ـ لن تصاب بخيبة أمل عند زيارة وادى الملوك .

ـ أنا أيضا سوف أعمل فيه ؟

ـ أليس هذا مصير رسام فى ساحة الحقيقة ؟

ـ أنا مستعد .

ـ ليس بعد يا بانيب . أنت لم تشبع العين .

ـ لا أفهم . . . .

ـ الكون عين ضخمة ، أجزاؤها متناثرة بفعل نظرتنا . وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذه النظرة هى التى توجه يدنا وتلهم أعمالنا . من واجبنا إعادة بنيان تلك العين ولكن يتعين علينا ـ مسبقا ـ أن نقوم بإشباعها حتى لا تبتعد عنا .

كان بانيب لايزال لا يفهم ولكنه شعر بأن صديقه قد فتح له للتو بابا جديدا . وبتأمله للقبة المرصعة بالنجوم ، أحس بوجود العين الكاملة التى سيعرف يوما كيف يشكلها من جديد عن طريق الرسم .

كان «تران بل» أسود الشعر الملتصق بمقدمة جبهته المستديرة ، عريض الصدر ، أصابع القدمين واليدين بضة مثل أصابع الرضيع . كان «تران بل» يشرب ويأكل بشراهة وانسجام . من أصل ليبى ، لم ينجح فى الإثراء فى بلده الأم فجاء واستقر فى طيبة حيث ابتسم له الحظ . تاجر نفوس عديم الأخلاق ، لم يكن يحب إلا الاكتناز والاكتناز حتى وإن كانت أساليبه غير جديرة بالاحترام . وبرغم ذلك ، لم يثر «تران بل» ، الحريص والماكر ، شكوك السلطات ، بل إنه كان ينعم بسمعة طيبة .

قال له أحد عماله :

ـ هناك من يطلب رؤيتك أيها الرئيس .

ـ ليس لدى الوقت .

ـ عليك ، رغم ذلك ، الذهاب لتحرى الأمر . . . فالرجل يبدو لى مُهما .

« وسيط حقير آخر» هكذا ظن «تران بل» ، واعتزم الخلاص من هذا الدخيل ببعض الكلمات القاسية .

أذهلته مفاجأة ضخمة .

كان للرجل الواقف على عتبة مخزنه وجه مشابه لوجهه . لم يكن شبيها ، بل كانت بينهما قسمات مشتركة تدعو للاعتقاد أن القادم أخوه .

ـ ما الذى تقترحه علىَّ أيها الصديق ؟

ـ هل أنت فعلا «تران بل» .

ـ أنا هنا الرئيس وأنا مشغول جدا .

ـ فلنتحدث فى مكان هادئ .

ـ أتعتقد أن بإمكانك إعطائى أوامر ؟ !

ـ أنا على ثقة من ذلك بوصفى وزير خزانة طيبة وقائد القوات المسلحة .

ابتلع تران بل لعابه .

كان ـ مثل كثيرين غيره ـ قد سمعهم يتحدثون عن هذا الميهى الذى كانوا يصفونه كمدير لا يرحم ولا يمكن الصمود فى وجهه . ولكن ما الذى يجعل موظفا كبيرا مثله ـ على هذه الدرجة العالية ـ يهتم بشخص مثله .

ـ تعال من هنا . هناك ركن أرتب فيه سجلاتى .

أحس «تران بل» بالأمور تتبدل . ما الخطأ الذى ارتكبه والذى أدى إلى الظهور المفاجى لهذا الشخص المخيف؟

كانت الخلوة المكدسة فيها مناضد صغيرة ، مظلمة وبعيدة عن حركة الورشة .

– تريد رؤية حساباتى! أليس كذلك؟

– أن تكون لصا صغيرا يسرق زبائنه والضرائب ، فهذا أمر لا أهتم به ، ولكن أن

تستخدم بشكل غير مشروع حرفيًا من ساحة الحقيقة فهذا جرم خطير يستحق عقابا شديدا .

من شدة ذعر تران بل ، لم يفكر حتى فى مجرد الإفكار .

ـ لم أكن أدرك ذلك . لقد التقينا فى السوق . وانتقى واحدا من مقاعدى الذى كانت تنقصه المتانة . وقد تناقشنا واقترح علىّ صناعة مقاعد تفوقها جودة بشرط اقتسام الأرباح . ومنذ ذلك الحين وهو يأتى إلى هنا ويصنع مقاعد بالغة الجمال .

ـ وتبيعها بسعر غال جدا دون أن تعلنها للإدارة .

ـ مجرد هفوة ألتزم بإصلاحها .

ـ هذا لن يحدث أبدا .

لم يصدق تران بل أذنيه .

ـ أنت على الأرجح الذى تقدمت بمقترحات غير شريفة إلى هذا الحرفى ، ولكن ما يهم فقط هو النتيجة . سوف أنسى عملية التهريب التى تقوم بها شريطة أن توضح لى الطرق التى يسلكها شريكك فى الذهاب والمجىء وطبيعة الأعمال السرية التى ينجزها لك وإجمالى دخوله السرية .

قال الليبى وقد زال عنه توتره :

ـ أنا فى خدمتك . أترغب أيضا فى عمولة أخرى على أرباحى .

ألقى ميهى عليه نظرة باردة أرعبته .

أوضح القائد قائلا :

ـ عندما آخذ شيئا ، أخذه كله . احرص على عدم نسيان ذلك وأخبرنى بكل المعلومات بدقة متناهية . والزم الصمت المطبق بشأن اتفاقنا هذا . وأقل زلة من جانبك سوف تعنى نهايتك .

* * *

الفصل السبعون

لم تكن أوابت على استعداد للتنازل عن شبر واحد من أراضيها إلى عدوها اللدود : «الغبار» فى كل يوم ، تقيم عملية تنظيف ضخمة تشمل كل أرجاء المنزل الذى تقوم بتطهيره أسبوعيا . كانت المرأة الشابة شأنها شأن كل ربة منزل ، كانت المرأة الشابة تعرف أن القواعد الصحية الصارمة هى أساس الصحة الجيدة . أضف إلى ذلك إحساسا زائدا للترتيب ، كان بانيب يراه مُغَالىً فيه إلا أنه قد كف عن مقاومته .

لذا ، فقد فوجئ ، عند عودته من ورشة الخط التى أتقن فيها علم الهندسة ، برؤية كرسى فى غير مكانه المعتاد وأحد أردية زوجته ملقاه بلا عناية على أحد المقاعد . من الواضح أن حدثا مهما للغاية قد أثار اضطراب أوابت الطاهرة .

ـ هل أنت هنا ؟

رد عليه . . صوت خافت :

ـ أنا فى الحجرة .

وجد بانيب زوجته ممددة على ظهرها ووسادة خلف ظهرها .

ـ هل تشعرين بألم ؟

ـ هل تعرف أن هناك قنوات تنطلق من القلب لدى أعضاء الجسم كافة؟ إنها كلير التى علمتنى هذا عندما ذهبت لاستشارتها . فى القلب ، يتكون السائل الحيوى ومنه المنى . وقد علمتنى أيضا أن الإنجاب هو التقاء قلبين .

ـ هل تحاولين إفهامى أن . . .

ـ إننى أنتظر طفلا منك يا بانيب . إن فيروز تستخدم وسائل لمنع الحمل . أما أنا فلا .

ذهل الشاب الضخم . فهذا الاختيار لم يكن يتوقعه .

ـ لا تقلق ، سوف أهتم به اهتمامى بالمنزل . ألا ترغب فى رؤية إلى أى حَدٍّ يشبهك ؟

ابتسم المتأجج وقبض برفق على يدى زوجته .

ـ أعترف بأنك تثيرين فضولى بعض الشىء . . ولكن يجب عليك الراحة .

ـ عندما سيثقل علىّ التعب سوف أطلب العون من كاهنة أو اثنتين من كهنة حتحور . فلقد اعتدنا على تبادل المساعدة كزميلات .

خشيت أوابت الطاهرة أن يتبنى بانيب موقفا رافضا، إلا أن أب المستقبل بدا تحت تأثير الصدمة . وهى ستعرف كيف تشفيه من هذا المرض البسيط .

* * *

كان ميهى يمقت القانون المصرى . ففى غالبية الدول الأخرى، كان يمكنه بلا مشكلات تطليق زوجة لا تنجب إلا البنات . أما فوق أرض الفرعون، فهذا مستحيل . علاوة على ذلك ، وبرغم دسائسه القانونية التى لا تمس القانون إلا عن بعد ، فإن وزير خزانة طيبة لن يتمكن من تجريد سيركيتا من ثروتها . وكما أن ميهى ، كان لا يطيق حرمانه من أى ممتلكات اكتسبها ، فإنه كان لزاما عليه تحمل زوجته حتى وفاتها . فالطلاق سوف يأخذ شكل كارثة مالية ولكن، من زاوية أخرى، فإن وفاة مفاجئة سوف تبدو أمرا مشتبها فيه وتجر عليه المتاعب وتسىء إلى سمعته .

علاوة على ذلك ، كانت سيركيتا تشاطره أسرارا كبيرة، وقد تغريها فكرة الثرثرة فى لحظة من لحظات الضياع . لم يعد هناك إلا حَلٌ واحد بالنسبة لميهى : أن يجعل منها شريكته المثالية .

بعد أن أهداها العقد الباهظ الثمن الذى كانت تحلم به، دعاها إلى نزهة طويلة كحبيبين على شاطئ النيل . وقدمت لهما الحلوى وعصير الفاكهة ، خادمة نوبية كانت تشعر بالفخر لخدمة أشخاص بمثل هذه السطوة .

قالت سيركيتا بدهشة :

ـ مضى زمن طويل لم تعتن بى هكذا .

ـ هل يعجبك العقد ؟

ـ ليس قبيحا . . . ما الذى تقترحه على ؟

ـ لنصل سويا .

ـ الند بالند ؟

ـ أنا رجل وأنت امرأة . أنا الذى أتولى إدارة الأمور .

ولكنى بحاجة لشريك بالغ النشاط .

بدا على سيركيتا الاهتمام . أخيرا ، سوف تهرب من هذا الملل الذى بدأ من جديد يصيبها بالاختناق ! وزوجها الجذاب سيجهل دائما الخطر الذى أفلت منه للتو .

قررت سيركيتا التخلص منه بعد أن أصابها الخوف منه . ولكن فى الوقت الذى كانت تبحث فيه عن أفضل الوسائل لتحقيق أملها عرض عليها تحالفا ينبئ بأنه سيكون أخاذا .

ـ لم لا ؟ شريطة ألا تخفى عنى شيئا .

ـ هذا أمر مفروغ منه يا محبوبتى .

ـ لنبدأ باليوم الذى خرجت فيه من أجل البحث عن ملف .

ـ ما الغريب فى ذلك ؟

ـ لقد عدت بدون هذا الملف الذى كنت شديد الرغبة للاطلاع عليه .

ـ لديك قوة ملاحظة شديدة يا سيركيتا .

ـ أين ذهبت فى ذاك المساء؟

ـ هل تريدين حقا معرفة كل شىء ؟

ـ هذه أغلى أمنياتى .

ـ خذى حذرك يا يمامتى ، سوف تكونين حليفتى ولكن أيضا شريكتى ، ولن أسمح بأدنى إفشاء للأسرار .

كانت فكرة أنها تحيا حياة خطرة ، تجعلها تشعر بنشوة لذيذة .

ـ أوافق على قواعد اللعبة .

تحدث ميهى طويلا دون إغفال تفصيل واحد . وفى عينى زوجته أبصر التعجب والرغبة .

ـ يجب أولا العمل بأسلوب خفى ولكن ، بعد ذلك ، سوف يكون نجاحنا باهرا . هل تعتقد أن بإمكانك الاعتماد فعلا على داكتير هذا .

ـ إنه ضعيف وماكر وكفء ، ومتلهف للثراء وللسلطة . كلها خصال مفيدة .

آبرى يبدو لى أقل أمنا منه ولكنه لا يتعدى كونه بديلا مؤقتا. هل أنت مستعدة لأداء مهمتك الأولى ؟

قفزت سيركيتا إلى عنق ميهى.

ـ تحدث ، سريعا .

ـ إننى أحذرك ، هذا أمر بالغ الأهمية .

ـ هذا أفضل ، لن أخيب ظنك.

شرح ميهى لسيركيتا ما ينتظره منها . ثم اختليا بأنفسهما فى القمرية المركزية للسفينة حيث مارس معها الجنس بعنفه المعتاد.

بعد الطقوس الصباحية ، ذهبت كلير لتعاون المرأة الحكيمة فى استقبالها سكان القرية لعلاجهم جسديا ونفسيا . كانت زوجة نيفر قد تعلمت كيف تنصت إلى المرضى وتهدئ من روع الأطفال الذين يبكون وتطرد القلق وتبث الأمل فى صدور من يفتقرون إليه.

كانت المرأة الحكيمة ، بما لها من قوة مغناطيسية ، تضع يديها على الآلام فتختفى . وكلير حريصة على ألا ينقص العيادة أى دواء ؛ فكانت تصنع بنفسها غالبيتها . أما الباقى فتمنحه لساحة الحقيقة إدارة الصحة العامة التى دائما أولاها الفراعنة أنفسهم أهمية كبرى.

كانت المرأة الحكيمة تتحدث قليلا ولكنها تسمح لكلير ، يوميا ، بإحراز بعض التقدم بنقل خبرتها إليها وبإبراز إخفاقاتها أكثر من نجاحاتها حتى تستخلص منها دروسا للمستقبل.

كان نيفر ، منذ أن تم قبوله فى دار الذهب، يعمل بلا توقف فى المهمة المطلوبة منه . أما صمته فقد زاد عن المعتاد. كانت كلير تدرك كل خلجة من خلجات نفسه، وتكتفى بنظرة ذات مغزى حتى تفهمه أن قواها تتضافر مع قواه.

مضى اليوم منهكا . لم يكن هناك أمراض خطيرة لعلاجها ، ولكن كان هناك سلسلة لا تنتهى من الهموم الصغيرة وزيارات لمرضى أكثر من المعتاد . كانت كلير تتلهف للعودة إلى دارها والاستغراق فى النوم.

قالت لها المرأة الحكيمة فى لهجة آمرة :

ـ تعالى معى .

حشدت كلير أقصى طاقاتها لتتبع مرشدتها التى خرجت من القرية، واتخذت طريقها نحو القمة وقتما كانت الشمس توشك على الغروب .

كانت ساعة خروج الثعابين والعقارب من مخابئها، إلا أن المرأتين لم تكونا تخشيان شيئا.

فى كل مرة ، كانت المرأة الحكيمة تتسلق فيها الطرق الجبلية المتعرجة ، كانت تبدو وكأنها استعادت شبابها الذى ولى.

رغم الإرهاق ، وجدت كلير صعوبة أقل من العادة فى تتبعها.

شعرها الأبيض الجميل يضوى كالشمس وينشر ضياءه على سفح الجبل المؤدى إلى مصلى فى حضن الصخر الذى كانت وعورته تشتد مع تقدمها.

من على هذا الصخر ، كانت النظرة تمتد لتشمل أرض ساحة الحقيقة والوديان السرية حيث يبعث الفراعنة وزوجاتهم ومعابد ملايين السنين، حيث تعيش ال «كا» التابعة لهم بصورة أبدية.

رفعت المرأة الحكيمة يديها إلى السماء لتصلى فى مواجهة المصلى. وقالت :

ـ إن البشر هم دموع الله. وكل الآلهة ولدت من ابتسامته. إلا أن هؤلاء البشر ـ وهم قطيع الله ـ لديهم كل ما يحتاجون إليه. فالله قد خلق السماء والأرض من أجل قلوبهم، والنفثة من أجل أنوفهم . ومن أجلهم ، وهم صورته ، خلق أيضا كل أنواع الطعام. إلا أنهم ثاروا عليه وفضلوا الفوضى على التناغم. وعندما يقرض الجنس البشرى ، سيكف الضجيج ويعود للأرض هدوؤها. وأنتِ ، يا إلهته ، سوف تخلقين من جديد جمال البدء.

خرج من المصلى ثعبان كوبرا ملكى ضخم ، رفع رأسه بإباء. كانت عيناه حمراوين ، تبدوان وكأن الشرر يتطاير منهما.

قالت المرأة الحكيمة لكلير :

ـ قَدِّسى «مرسجر» المحبة للصمت، إلهة القمة وحامية ساحة الحقيقة . عند عودتى للغرب ، اتخذى منها مرشدك ونظرتك .

* * *

الفصل الواحد والسبعون

كان على نيفر الصامت أن يعبر عما رآه فى دار الذهب. لقد عاش أدق أسرار طقوس ساحة الحقيقة واكتشف الأسرار الخفية الرئيسية التى كلف بنقلها إلى الآخرين. ولكن، هل كان حقًا جديراً بذلك؟

ولمعرفة ذلك، طالبته الجماعة بعمل يقدمه إثباتًا، ليس لقدراته فحسب ولكن لمقدار حساسيته أيضا. لم يتم إعطاؤه توصية واحدة ولا فرض عليه معيار واحد. فعلى نيفر أن يقوم ببيان محصلة السنوات التى أمضاها فى القرية، أن يستخلص منها الدروس العظيمة المستفادة وأن يشكل الشيء الذى من شأنه أن يحظى بموافقة رؤساء المجموعات وغيرهم من الخبراء رفيعى الشأن.

ووفقا لعاداته، استغرق الصامت وقتًا طويلا فى التفكير. كانت مشروعات كثيرة تتخبط فى رأسه. ولكن قلبه كان قد اختار. فبعد أخذه برأى كلير التى أيدته فى مسعاه، ذهب وقدم نفسه لنيب المنجز، الذى اصطحبه، مساء اليوم نفسه، إلى معبد حتحور الذى قام ببنائه الفرعون سيتى أبو رمسيس.

صعد نيفر درجات السلم المؤدى إلى بوابة المدخل، واجتاز المدخل وعبر فناءً مكشوفًا ثم سلك طريقا مبلطا يفضى إلى فناء آخر، وهنا تم تطهيره. ثم اختلى بنفسه أمام مائدة القرابين.

وبعد ذلك، سمح له بدخول قاعة مغلقة، أرضيتها مبلطة وسطحها يرتكز على عمودين. وبطول الجدران تم وضع دكك حجرية يجلس عليها القضاة. وفى نهاية القاعة، باب يحيط به نُصُب تذكارية تصور الفرعون فى مواجهة حتحور، ويؤدى إلى المقبرة التى كانت الألهة تشع فيها فى هدوء.

كان نيفر يعلم أن هذه المحكمة لن تكون متسامحة، ولذا خشى حكمها. لو أخطأ، فهذا معناه قضاؤه على جميع الجهود المبذولة منذ قبوله.

وسأل رئيس فريق اليسار :

ـ ماذا علمتك الآلهة ؟

ـ لقد حاولت إدراك إشعاع رع، وخلق بتاح ، وحب حتحور .

توجه إليه رئيس فريق اليمين بسؤاله قائلا :

ـ ما الصفات الواجب توافرها لإتمام عمل فنى على خير وجه؟

ـ إدراك الحياة بكل أشكالها، سعة القلب وتجانس الكائن والقدرة على التحكم والتجسيد. إلا أن جميع هذه الصفات تصبح عديمة المعنى لو لم تخلص إلى التمام والسلام. وما من حرفى واحد بلغ منتهى الفن.

ـ أرنا عملك .

أزاح نيفر الصامت الحجاب عن تمثال صغير من الخشب المذهب . كان طوله لا يتجاوز ذراعًا واحدًا(*) ويمثل الإلهة ماآت وقد اتخذت وضع الجلوس وهى ممسكة برمز الحياة.

* * *

لم يكن أونيش ابن آوى قد انتحل اسمه. فوجهه الطويل والدقيق كان يثير فى الخيال صورة الحيوان الذى يرعاه. وهذا الرسام يتنقل بخفة وسرعة القناص الذى تتمثل مهمته الرئيسية فى تخليص الصحراء من جثثها.

كان أونيش، المنعزل بنفسه، الدائم الترصد، ذو النظرة الفاحصة، يبدو حاملا فى داخله عنفا يصعب السيطرة عليه.

كان بانيب لا يحبه البتة ولا ينتظر شيئا طيبا منه. لذا، عندما وجده يوما واقفا ويداه متكتفتان أمام الباب المغلق لورشة الخط، أعد نفسه لنزاع لا مفر منه.

ـ إنك تعترض طريقى يا أونيش؟

ـ وهل تتصور أننى قادر على ذلك ؟

ـ أنا واحد من مجموعتك الآن! عليك السماح لى بالدخول.

ـ ألا ترغب فى معرفة المزيد عن أسرار المهنة؟

نظر بانيب مليا إلى أونيش ابن آوى بعين كلها اهتمام وريبة .

(*) ٠,٥٢ متر.

ـ البعض يتعلم المهنة فى الورش، أما أنا فأفضل أماكن أكثر خطورة. اتبعنى إذا ما كانت لديك الشجاعة.

لم يتردد المتأجج. كان أونيش يتنقل بسرعة مذهلة، دون أن يعدو. اخترق المنطقة الصحراوية ودخل إلى حقل قمح ثم فى أجمة بوص تحف بإحدى القنوات.

وأمره قائلا :

ـ انبطح.

أزعج البعوض بانيب، فتضمخ بالطمى. وقد رأى وهو ممدد، عن يمين الرسام، ثعبان بحر يمضى.

قال أونيش :

ـ انظر جيدا.

وهنا نظر بانيب بإعجاب إلى طائر أبى منجل وهو يتحرك برشاقة مَنْ يرقص رقصة محددة الإيقاع.

ـ ما الذى تلحظة؟

ـ انتظام خطواته . . . فخطواته متماثلة دائما.

إن خطوة أبى منجل تساوى «ذراعا»، فهو الذى يجسد «توت» وهو يكشف لنا عن هذا المقياس الرئيسى المسجل فى ساعد الإله. إن «مه» وهو اسم الذراع هو مرادف لكلمات ذات مغزى مثل «يفكر» «يتأمل» «ينهى» ويكون كاملا وممتلئا، حيث إن معرفة الذراع سوف تتيح لك إدراك قاعدة الكون. والآن العودة للورشة.

بالنسبة للمتأجج، سوف يظل اكتشاف الذراع الذى كان الإله «توت» يستخدمه لقياس الأرض لحظة لا تنسى. فلقد استوعب سريعا انقسامه إلى سبعة أشبار وإلى ثمانية وعشرين أصبعا؛ وعندما تلقى من رئيس العمل ذراعا صغيرة سهلة الطىّ وقام باستخدامها لاحقا فى عمله، اجتاحه الشعور بأنه بات يمتلك كنزا لايقدر بثمن.

إذن، فأحد أهم أسرار العمل يكمن فى جسم أبى منجل الذى شاهده الشاب الضخم كثيرا دون أن يراه. وفهم أن الآلهة تعبر عن نفسها، بلا هوادة، عبر الطبيعة، وأنه يستلزم أن نفتح أكثر عيوننا ونرهف أسماعنا حتى ندرك رسالتها.

كان موقف الرسامين قد تبدل. فجاو الدقيق أصبح يعلم ببرود أقل، وباى الخبز

الطيب يوجه طواعية يد زميله الجديد، وأونيش ابن آوى يؤكد على لعبة الألوان. وبتوجيه من هؤلاء الحرفيين الثلاثة المحنكين، كان بانيب يستوعب بسهولة القواعد الفنية التى لو تركت لطبيعته الفائرة للفظها عن طيب خاطر.

فى مساء كل يوم، كان ينظف الورشة دون تلقى أى أمر بهذا المعنى. وقبل العودة إلى داره، يرسم فوق قطعة كلسية مركبات وكلابا أو رجلا يسير، ثم يكسر محاولاته إلى ألف قطعة. وذات يوم، تولد لدى بانيب الاقتناع بأن يده قادرة على رسم صور لوجوه دون أدنى تعديل.

ومع حلول الظلام، خرج من الورشة ليصطدم بالرئيس سوبيك.

ـ لقد أصبحت محترفا بحق يا بانيب.

ـ هل هذا لا يعجبك؟

ـ أنت لازلت على عدوانيتك هذه، يا بنى. وهذا سوف يسبب لك أضراراً.

ـ ما الذى يريده رئيس الأمن منى؟

واجه بانيب النوبى. كانت المواجهة تبدو حتمية.

أقر رجل الشرطة قائلا:

ـ نحن الاثنان، لا يحب أحدنا الآخر كثيرا ولكنى متيقن بأنك لست كاذبا.

ـ إذا ما اتهمتنى بالكذب، فسوف تندم.

ـ إذن، فأنت تؤكد براءتك.

ـ بالطبع، نعم!

ـ لقد شككت فيك ولكنى أميل إلى تصديقك.

ـ جرؤت على الشك فى، أنا... سوف أحطم رأسك يا سوبيك.

ـ ويتم اعتقالك والحكم عليك... استمر بالأحرى فى العمل الدءوب.

«ليس هو»، ترددت تلك العبارة فى ذهن سوبيك وهو يبتعد.

كان رئيس الأمن غير نادم على محاولته. فلقد وضح له الأمر بالنسبة «لبانيب» وأعادته إلى خيط آخر كان قد حاول نسيانه: آبرى المدير الرئيسى للبر الغربى.

إذا ما حاول النوبى التقدم فى هذا الاتجاه ، فهو يخاطر بالقضاء على مستقبله الوظيفى . إلا أن ضميره كان يمنعه من التصرف بجبن .

* * *

ظل نيفر وكلير متعانقين فوق سطح منزلهما حتى أصبحت حرارة الشمس لا تحتمل . وبعد أن مارسا الحب ، ظل كلٌ منهما نائما بين أحضان الآخر ، يحلمان بتلك الليلة التى لا تنسى حينما أخطر فيها الصامت ، على لسان رئيس العمل نفسه ، أن تمثال «ماآت» الصغير الذى صنعه ، قد اعترف به على أنه «مضبوط الصوت» من جانب محكمة ساحة الحقيقة . ولأنه على درجة عالية من إتقان التنفيذ ، فسوف يدخل إلى كنز المعبد .

من الآن فصاعدا سيكرس نيفر نفسه ، بوصفه أحد كبار المثالين فى دار الذهب ، لتشكيل التماثيل المستخدمة كمهد للقوى الخلاقة المنتشرة فى الكون . وهو ، عندما يبث الحياة فى الحجر ، ويطبق التعاليم التى تلقاها سيسهم بذلك فى نشر الضوء الخفى الذى تعجز أى مادة من مواد البناء عن إيقافه . سوف يبدأ بنحت تمثال للكاتب راموسى وهو متخذ وضع الجلوس ليكون بمثابة نموذج للتلاميذ الذين سيتعلمون الهيروغليفية .

كانت المرأة الحكيمة جالسة أمام منزلها تحت أشعة الشمس . وقد أثار هذا الوضع غير المألوف قلق كلير إذ خشيت أن تكون مريضة . إلا أن المرأة الحكيمة تحدثت إليها بصوت هادئ .

ـ لن أعالج أحدًا اليوم . هل أنت مستعدة لأن تحلى محلى؟

ـ سوف أبذل قصارى جهدى . هل تعانين من شىء؟

ـ علىّ قضاء اليوم كله فى المعبد فى محاولة لتهدئة «سخمت» الإلهة اللبؤة الصارمة .

ـ أهناك خطر يتهدد القرية ؟

ـ نعم يا كلير ، خطر شديد .

* * *

الفصل الثانى والسبعون

كان نيفر مضطربا .

ـ «خطر شديد» . . . ألم تقل المرأة الحكيمة شيئا آخر ؟

أجابته كلير قائلة :

ـ لا ، لقد ذهبت إلى المعبد .

ـ ليس من عادة المرأة الحكيمة التحدث باستخفاف . طالما تحدثت عن الإلهة اللبؤة المرعبة ، فهذا يعنى أن التهديد من أخطر ما يمكن .

ـ فيم تفكر ؟

ـ لا أتصور شيئا ، حقيقة لا أتصور إطلاقا . القرية واقعة تحت حماية رمسيس الأكبر . ولن يجرؤ أحد على الاعتراض على سلطاته .

لم يكن لكلير احتمال جدى تطرحه ، إلا أنها قد أقرت بأن المرأة الحكيمة عرافة أصيلة ولا ينبغى الاستخفاف بنبوءتها . ولكن ، كيف يمكن محاربة خطر نجهل طبيعته؟

دق «كارو» الفظ على الباب .

ـ رئيس الجماعة يود مقابلة نيفر . الأمر عاجل جدا .

كان الكثير من أعضاء جماعة اليمين مجتمعين أمام دار «نيب» المنجز . ودخل الصامت وقتما كانت المرأة الحكيمة تخرج من غرفة رئيس العمل .

أفصحت قائلة :

ـ هذه لحظاته الأخيرة . عَجِّل .

الحقيقة التى كان فريق اليمين يخفيها ، أصبحت واضحة أمامها : كان نيب المنجز

رجلا مسنا، وفجأة أنهكته شيخوخته . كانت قوة بنيانه تبدو لا تقهر؛ إلا أن دفاعاته قد انهارت فجأة حتى إنه قد بات يصعب تقريبا التعرف عليه .

كان رئيس العمل جالسا على مقعد مريح تأخذ أرجله شكل أقدام الأسد ، يرتدى رداء احتفالات يبرز مكانته ، تنفسه قصير ونظرته منهكة . وقال لنيفر :

ـ لقد مرت سنوات عمرى وأنا أنعم براحة القلب . لم أعمل ضد قاعدة جماعتنا ولم أرتكب انحرافا واحدا . لقد أصبحت مثالا كاملا ، تنعم بتقدير الجميع ولكن يلزمك تعلم القيادة . ابحث عن كل فرصة تجعل منك شخصا فعالا ليصبح أسلوبك فى الحكم لاغبار عليه . وليحترمك الجميع وفقا لقدراتك ولهدوء لغتك . لا تدع شخصا حقيرا يصدر أوامر أو يوزع التعليمات ، فإنه سيبدد العمل ويشيع الاضطراب . وتذكر جيدا أن العظيم عظيم إذا كان عظماؤه عظماء ، والموقر هو من يحيط به أشخاص نبلاء بأفكارهم . إن مهمتك لن تكون سهلة ولكنى أموت وأنا هادئ البال ، فأنا أعرف أن كتفيك لن يثقل عليهما أى حمل !

أطرق نيب المنجز رأسه بهدوء كما لو كان يوجه التحية لخلفه .

قال نيفر لكنهير :

ـ أنا أرفض . لقد كان نيب المنجز بالنسبة لى معلما وقدوة . لذا، أرفض أن أخلفه . إن هدفى الأول يتمثل فى خدمة الجماعة وفريق اليمين وليس فى قيادتها . إن الثقة التى أولاها لى نيب المنجز تمس أوتار قلبى، ولكنه قد بالغ فى تقدير إمكاناتى .

أجاب كاتب المقبرة قائلا :

ـ ليس من شأنك الحكم على نفسك . إن «نيب» المنجز، قد تسلح بخبرته ووضوح رؤيته ، لم يقم إلا بالتصديق على القرار الذى اتخذه راموسى . إن كاتب «ماآت» هو الذى اعترف بك رئيسا مقبلا لجماعة اليمين ورئيسا للعمل بالجماعة . لقد نقلت ساحة الحقيقة علمها إليك ورأيت النور فى دار الذهب . إذا كنت ترغب فى الالتزام بالكلمة التى أعطيت وإحترام «ماآت» ، فعليك أداء المهمة الموكلة إليك .

كان نيفر يبحث عن حجج يقنع بها كنهير بتقبيل وجهة نظره . ولكن كيف الاعتراض على راموسى الذى رفع إلى مرتبة «سلف ذى عقلية مستنيرة وفعالة» ؟ ورغم ذلك ، كان لايزال هناك مخرج أخير .

ـ ألا يتعين الموافقة على تعييني بالإجماع من جانب أعضاء فريق اليمين؟

ـ هذا أمر لا غنى عنه، في الواقع. فلن يتمكن شخص من تولي الإدارة ما لم يكن محبوبا ومعترفا به من قلب من يحكمهم. سوف يتم استشارتهم اعتبارا من اليوم.

كان بانيب المتأجج يمقت المراسم الجنائزية. ففيروز سوف ترفض ممارسة الحب، وأوابت الطاهرة ستقضي ساعات طويلة في المعبد برفقة كاهنات حتحور، وسوف يتوقف العمل وتغلق الورش. ولما كان الأمر يتعلق بوفاة رئيس الفريق. فسوف تكون الجنازة مهيبة وفترة الحداد لانهاية لها! وسوف يروح عن نفسه برسم رسوم كاريكاتورية لمختلف الأشخاص للاستمرار في تمرين تلك اليد التي بدأت في استيعاب الخط والنسب.

ظل نيب المنجز يمثل للمتأجج رجلا غامضا وبعيدا، لم يقم معه إلا قليلا من الاتصالات. لذا، فهو لن يفيض في نحيب منافق. إلا أنه قد كن احتراما حقيقيا لرئيس العمل المتوفى الذي فتح له باب جماعة الرسامين بعد أن أرهقه باختبارات مضنية.

كان بانيب يقضم إحدى الأسماك المجففة عندما دخل عنده نيفر وقد استحوذ عليه اضطراب واضح.

ـ اجلس واشرب. أنت في حاجة إلى ذلك.

ـ إني أعُدُّك صديقا لي يا بانيب وآمل أن يكون هذا الشعور متبادلا.

ـ قل لي من يسبب لك الضيق، وأنا أسوي في الحال هذا الأمر.

ـ لقد سبق وأنقذت حياتي، هل توافق على إعادة الكرة؟

ـ باسم كل شياطين الصحراء! ما الذي يحدث لك؟

جلس نيفر على حصيرة.

ـ راموسي كاتب ماآت ونيب المنجز رئيس العمل وكنهير كاتب المقبرة، جميعهم اختاروني رئيسا جديدا للفريق.

أضاءت وجه بانيب ابتسامة عريضة.

ـ لقد كان ذلك أمرا واجب الحدوث ولن يفاجئ أحدا! ياله من خبر رائع.. لاحظ أنه مع تشددك الفطري وميلك إلى العمل المتقن، لن تستمتع كل يوم. ولكن، إذا ما أمعنت التفكير، فسوف تدرك أننا لسنا هنا لهذا الغرض. انهض لأقبلك!

ـ يجب أن تصوت ضدى يا بانيب .

ـ ما الذى تقوله ؟!

ـ لا أتمنى أداء هذه المهمة . وآخر مرحلة يتعين علىّ اجتيازها هى الاعتراف الجماعى بى من أعضاء الفريق . فإذا كنت صديقا بحق . . .

ـ وإنى أوافق على تعيينك عشر مرات بدلا من مرة واحدة! وإذا ما ارتكب واحد منا خطأ الاعتراض على ذلك ، فسوف يكون لنا حديث موجز ولكنه مكثف . لقد ولدت لتعيش فى ساحة الحقيقة . لقد وهبتك كل شىء ياصامت ، واليوم سوف تثبت بإدارتك امتنانك لها .

كررت كلير حديث بانيب ولكن بكلمات مختلفة .

وصدقت على قرارات راموسى ونيب المنجز وكنهير . وأضافت عليه أن كاتب ماآت المتوفى قد استشار المرأة الحكيمة والتى كانت رؤيتها تتفق مع رؤيته .

لم يجد نيفر أى راحة حتى عند زوجته . كان يأمل فى أن يصدر أكبر أعضاء فريق اليمين سنا آراء مخالفة ، وأن ينتقدوا افتقاده الخبرة أو طابعه ، وأن يثيروا جدلا يرغم كنهير على اقتراح اسم آخر .

ولكن ، لم يعترض شخص واحد على اختيار نيفر الصامت خليفة لنيب المنجز ، وعلى العكس من ذلك ، عم الجميع الغبطة . لقد اجتاز رئيس الفريق الجديد كل مراتب التدرج الوظيفى دون أن يتملكه الغرور أو يظهر ميلا للتسلط علاوة على امتلاكه لجميع الخصال الضرورية لإنجازه لعمله .

فى أقل من ساعة ، سيحين وقت الاحتفال بالترشيح الذى لم يعد لـ «نيفر» فرصة واحدة للإفلات منه ، إلا إذا آثر الفرار ورحل نهائيا عن القرية .

وضعت كلير رأسها برفق على كتف زوجها :

ـ أحيانا تجول بخاطرنا أفكار مجنونة ، ولكنها ليست إلا سرابًا . بعض القتال يكون سُدى ، فلا ينبغى تبديد الطاقة فيه . خض المعركة التى يتحتم عليك خوضها ، معركة الحفاظ على كنوزنا وتوريثها .

ـ كنت أريد فقط العيش معك فى سلام فى هذه القرية .

ـ لقد سمعت النداء يوما واستجبت له . هل اعتقدت أنه أبدا لن يتكرر ؟ أنت لم تعد مدعوا فقط لتحقيق ذاتك ولكن لأداء مهمة فى خدمة الآخرين وروح الجماعة . هذا هو الواقع ولا يجب أن يكون مخالفا لذلك .

فى أعقاب فترة الحداد ، التى شهدت تأييدا أرضيا وسماويا ، لنيب المنجز ، رقى نيفر الصامت لمرتبة رئيس فريق اليمين لساحة الحقيقة وذلك فى حضن المعبد المكرس للإلهتين ماآت وحتحور .

في السادسة والثلاثين من عمره ، أصبح لزاما عليه القيام بمهمة خلافة أسلافه من رؤساء العمل الذين أقاموا دور الأبدية الخاصة لكبار الفراعنة فى وادى الملوك وصمموا آثارا أخرى عديدة تولدت عنهم بفضل المواهب الكثيرة للجماعة .

قوبل نيفر الصامت عند ظهوره على عتبة المعبد بعاصفة من التهليل من جانب كافة سكان القرية مجتمعين .

أدرك ، وقد بلغ به التأثر حد ذرف الدموع ، حجم مسئولياته وأسف لوقت التعلم الجميلة حيث كان بإمكانه دائما طلب مساعدة حرفى أكفأ منه . من الآن فصاعدا ، هو الذى ستطلب منه المشورة ، وهو من سيقع عليه عبء إصدار الأوامر مع تجنب الأخطاء الجسيمة .

سلم كنهير ، كاتب المقبرة ، إلى نيفر ، الذراع المصنوع من الذهب والذى كان يتناقله رؤساء الفريق وكل من تقسيماته الثمانية والعشرين تحمل اسم أحد الآلهة واسم المقاطعة التى يحميها والعبارة الهيروغليفية القائلة : «ذراع نافع حتى تصبح كائنا من نور ، قويا ، صوتك مضبوط ، تحمل سعة الحياة والاستقرار» .

كان ذراع رئيس العمل ، وهو المطابق لقول «رع» أى الضوء الخلاق ، تجسد ناموس الكون الذى عليه التطابق معه .

كانت كلير هى أول مَنْ قَبَّلَ رئيس الفريق الجديد ، الذى احتضنها طويلا بين ذراعيه .

* * *

الفصل الثالث والسبعون

عندما وصل حرفى ساحة الحقيقة إلى مخزن «تران بل»، بدت له الحياة تميل إلى الهناء. لقد تلقى فى القرية تعليما استثنائيا واكتسب معرفة من شأنها أن تتيح له، اليوم، بيع موهبته لمن يدفع أكثر.

منذ أن بدأ اتصاله بالتاجر وهو يحقق حلمه الخفى : الشراء. وكان من حقه استخدام وقت فراغه كما يحلو له.

فى أثناء فترة الحداد التى أعقبت وفاة نيب المنجز، كان الحرفى قد مكث فى القرية وكتب رسالة لتران بل يحدد له فيها موعدا. وكان على هذا الأخير أن ينتظر بفارغ الصبر طُرفا جديدة فاخرة مخصصة لمجموعة من العملاء من ذوى الخبرة ممن يجزلون العطاء.

قال الحرفى للموظف :

ـ لقد جئت لمقابلة رئيسك.

ـ إنه فى مكتبه.

اخترق الحرفى المخزن لبلوغ الحجرة المنعزلة الهادئة التى يحفظ فيها تران بل سجلاته. دفع الباب، ففوجئ برؤية امرأة ذات شعر مستعار أسود وكثيف. جعلت عينيها تبدوان بشكل مبالغ فيه.

ـ آسف. لقد أخطأت.

ـ أنت فى المكان الصحيح. قالت سيركيتا، أنا أعرف من أنت ولماذا جئت إلى هنا. أغلق الباب ودعنا نتحدث.

ـ أنا لا أعرفك . . . أنا . . .

ـ إن أسلوب تعاونك مع تران بل ليس جديرا بالاحترام، فهو يجعلك شريكه فى الاحتيال وتستحق العقاب الشديد، قد يقترن بإستبعاد نهائى من ساحة الحقيقة.

بهت الحرفى :

ـ أنت تعرفين أن . . .

ـ أنا لا أجهل تفصيلا واحدا . إما طاعتى وإما نهاية حياتك الحرفية .

قبع الرجل فى أحد زوايا الخلوة . وصفقت سيركيتا الباب .

ـ ماذا . . . ماذا تريدين ؟

ـ أوافق على كتمان سرك الخاص بالتهريب والذى يمكنك الاستمرار فيه على مهل ولكن بشرط واحد : أريد معرفة كل ما يدور فى القرية .

ـ مستحيل ، أنا ملتزم بكتمان السر .

ـ إذن ، بئس الأمر بالنسبة لك . فاعتبارا من الغد ، سوف أشى بك عند الوزير .

ـ لا تفعلى ذلك ، أتوسل إليك !

ـ إذا كنت تريد تجنب المضايقات الشديدة ، فليس أمامك إلا حل واحدا : أن تتكلم .

كان الانصياع لهذه المرأة الشريرة يعنى خيانة قانون الجماعة ونقض العهد وفقدان نفسه .

سأل الحرفى :

ـ من أنت ؟

ابتسمت سيركيتا ابتسامة متوحشة .

ـ ليس عليك طرح الأسئلة ، ولكنى سوف أجيبك على الرغم من ذلك لأثبت لك أنه ليس من حقك الاختيار . . . أنا زوجة رجل مهم لا يتوقف نفوذه عن التعاظم وسوف يعرف كيف يكافئ من ساعدوه فى أثناء فترة ترقيته .

لم يكن هذا التوضيح أمرا يستهان به من جانب الحرفى .

كان يجب اختياره رئيسا للمجموعة وليس نيفر . فبخدمة رئيس له سلطات واسعة ، يمكنه الحصول على الثراء والمركز الذى طمع فيه .

ـ أتمنحنى وقتا للتفكير ؟

ـ أطالبك بالرد هنا وفورا .

كان الحرفى قد خدم ماآت وساحة الحقيقة والجماعة فى مقابل أرباح هزيلة . . أليست هذه فرصة سانحة لأن يخدم أخيرا قضيته هو بعزفه على كل الأوتار ؟

* * *

كان القائد ميهى يشد الأقواس فى حديقة مزرعته الفاخرة . وينشب سهما تلو الآخر فى جذع إحدى أشجار النخيل دون التمكن من تهدئة عصبيته .

لماذا تتأخر زوجته ؟ ربما لم يذهب الحرفى للموعد الذى كان قد حدده فى تران بل . . . وأسوأ من ذلك ، سيركيتا قد أخفقت ولا تجرؤ على المثول أمام زوجها خشية أن يقوم بضربها .

جذب ميهى سهما جديدا ، وأخفق فى إصابة هدفه . فاستشاط غيظا ، ووطأ القوس بقدميه .

همس صوت معسول :

ـ لم يكن جديرا بك . سوف يسنح لك الأفضل .

ـ سيركيتا ! ما الأخبار؟

ركعت على ركبتها لضم ساقى زوجها .

ـ نجاح تام .

ـ هل يوافق على التعاون؟

ـ لقد حالفنا الحظ كثيرا : إنه رجل مشمئز ونهم وماكر ومنافق . كان لا يمكننا الكشف عن حليف أفضل . هل أنت راض عنى؟

رفع ميهى سيركيتا بقسوة ونزع عنها شعرها المستعار ووضع يداه على وجنتيها .

ـ حان وقتنا الآن يا عصفورتى . سوف نحقق انتصارات عظيمة ! كم عدد الحرفيين فى هذه القرية اللعينة ؟

ـ بضعة وثلاثون . إن ظروف القبول متشددة للغاية وعليهم الالتزام بقانون ماآت .

ذكرت سيركيتا أبرز المظاهر التى كشف عنها الحرفى النقاب .

أعرب ميهى عن رأيه قائلا :

ـ بلا أهمية . . مبادئ أخلاقية عتيقة ، لن تصبح سارية عما قريب . من رئيس الجماعة؟

ـ الرئيس الأعلى هو الفرعون الذى يسهر على رخاء القرية ولا يسمح بأى اعتداء ضدها .

ـ أعرف . . أعرف . . . ولكن رمسيس لا يعيش فى القرية ؟!

ـ ثلاثة أشخاص يتقاسمون السلطة : كاتب المقبرة ، رئيس فريق اليمين ، ورئيس فريق اليسار . والحرفيون يُشَبّهون الجماعة بالقارب ، ومن هنا انقسامهم إلى يمين ويسار .

كنهير ، كاتب المقبرة ، هو ممثل السلطة المركزية ومدير القرية ، وهو يحظى بمحبة أقل كثيرا من سابقه راموسى بسبب طابعه الصعب والشرس .

ـ ما عمره ؟

ـ اثنان وستون عاما .

ـ إذن ، كنهير هذا فى نهاية حياته العملية . لن يمر إلا وقت قصير حتى يموت أو يتم إحلاله بآخر . هل هو قابل للإفساد؟

ـ وفقا لقول مخبرنا ، هذا محتمل . ولكن من غير المؤكد أن يكون كنهير على علم بكل أسرار ساحة الحقيقة .

ـ رئيسا الفريقين ، هما ، يعرفانه بالتأكيد !

ـ نعم ، فلقد تم قبولهما فى دار الذهب .

كانت إثارة ميهى تتزايد بلا توقف .

ـ ما الذى يحدث فيها ؟

ـ مخبرنا يجهل هذا الأمر .

ـ لقد كذب عليك !

ـ لا أعتقد . قالت سيركيتا ذلك وهى تبتعد اتقاء للصفعة التى كانت تخشاها . إن الأقدمية وحدها لا تكفى للقبول فيها ، وهو لم يجد بعد الأسلوب الذى يمكنه من كسر باب هذا المكان الغامض . ولكن لماذا اليأس ؟

ـ ما الذى كشف عنه بخصوص رئيسى الفريقين ؟

ـ كاها ، رئيس فريق اليسار رجل مسن ، متقشف للغاية ومتخصص فى حفر الصخور ونحت الحجارة . هو لا يغادر أبدا أرض ساحة الحقيقة ويبدو فى منجى . أما نيب المنجز رئيس فريق اليمين فقد توفى أخيرا وحل محله نيفر الصامت ، رجل شاب وعديم الخبرة .

ـ لماذا وقع عليه الاختيار ؟

ـ اختاره الكاتب راموسى ، ولم يعترض مسئولو الجماعة على قراره .

ـ نزعة رجل مسن . . . وكيف يرى مخبرنا نيفر هذا ؟

ـ مثّال طيب ، حرفى مأخوذ بالروحية ، شديد التعلق بساحة الحقيقة حيث تلقى تعليمه ، وإن كان سيلاقى فيها أكبر المشكلات لإتمام مهمته . فلن يعرف كيف يديرها أو كيف يصدر الأوامر . ومما لا شك فيه أنه سيتم تخفيض مرتبه .

ـ إن خيبة الأمل قد تجعل منه فردا هشا ، تواجهه رغبة الانتقام . . . هل حصلت على قائمة محددة بأسماء الحرفين؟

ـ ها هى ذى .

أبرزت سيركيتا بفخر قطعة من ورق البردى . لقد أصبحت هى وزوجها يمتلكان الآن سرا من أسرار الدولة .

قرأ القائد الوثيقة ، ولم يتوقف إلا عند اسم واحد ، حيث كان يجهل الأسماء الأخرى .

ـ بانيب المتأجج . . .

ـ يعتقد مخبرنا أنه لن يندمج أبدا فى المجموعة ، وسيتم استبعاده لعدم الانضباط .

ـ هذا أيضا ، سوف يقع بين أيدينا ! بفضلك يا سيركيتا نتقدم بخطىً عملاقة . وهذه ليست إلا مهمتك الأولى .

ترنمت زوجة ميهى . كان نهمها ورغبتها فى الإيذاء قد طردا سأمها من الحياة .

* * *

الفصل الرابع والسبعون

رغم اقتراب نهاية فصل الجفاف وبداية الفيضان، كانت الحرارة أقل من المعتاد، والسماء ظلت متقلبة منذ أكثر من أسبوع. قطعت المرأة الحكيمة استشاراتها ، تاركة لكلير مهمة أن تحل محلها.

كان نيفر، الرئيس الجديد للفريق قد منح ، بالاتفاق مع كاتب المقبرة، عدة أيام من الراحة للحرفيين الذين احتفلوا بتعيينه بسعادة غامرة. كانت فترة الاحتفالات على وشك الانتهاء والصامت يستعد للبدء فى برنامج ترميم أقدم مقابر القرية عندما جاءه، بعد الفجر مباشرة ، نخت القوى لتحذيره.

ـ رسول من الوزير بالباب، وهو يريد رؤية أحد المسئولين على وجه السرعة .

كان كنهير لا يزال نائما، وكاها رئيس جماعة اليسار مريض لشعوره بالقلق. أسرع «نيفر» الخطى. فتح له «نخت» الباب حيث كان يوجد الرسول من خلفه وقد احتجزه الحارس.

ـ هل أنت رئيس عمل؟

ـ أنا رئيس فريق اليمين.

ـ ها هى ذى الرسالة التى ستذيعها على سكان القرية : لقد طار الصقر إلى السماء وارتفع آخر بدلا منه على عرش النور الإلهى.

قفز الرجل فوق ظهر حصانه وانطلق راكضا.

كان نيفر شاحب الوجه وعلى وشك الإصابة بوعكة.

سأله «نخت» القوى :

ـ ما الذى يحدث ؟

ـ أيقظ سكان القرية من أصغرهم إلى أكبرهم. ولنساعد المرضى على النهوض والسير، وليحتشد الجميع فى ساحة المعبد.

ذهب نيفر لإحضار زوجته التى كانت على أهبة الرحيل.

ـ المرأة الحكيمة لم تخطئ. لقد غاب عنا حامينا منذ فترة وجيزة ونحن فى خطر شديد.

ما هى إلا دقائق معدودة حتى تجمعت الطائفة الصغيرة. كان كنهير، وقد تورمت عيناه من النوم، على استعداد لفرض عقوبات ضد من أيقظه لسبب تافه.

وبحركة واحدة، فرض نيفر الهدوء. وقال فى صوت ملؤه الشجن:

ـ فى نهاية سبع وستين عاما من الحكم، رحل رمسيس الأكبر عن هذه الأرض ليلحق بالشمس التى منها انبثق.

ظل سكان القرية فى ذهول.

لا، إن رمسيس الأكبر لا يمكنه أن يختفى. لقد عاش طويلا جدا حتى إن الموت قد نسيه وبات محظورا عليه استرجاعه بسبب التأثر الذى سيصيب شعبا بأكمله والذى بدونه سيشعر بأنه تخلى عنه وضائع.

أنحى كنهير نيفر جانبا.

ـ على مدى فترة التحنيط التى ستستمر سبعين يوما، سوف تعمل، أنت والرسامون، فى دار الأبدية الخاصة برمسيس لتنفيذ الأعمال الكبرى، وفقا لوصية الملك المسجلة فى ورقة البردى المختومة التى سوف أعهد بها إليك، ولن يكون لأحد غيرك الحق فى قراءتها.

ـ لماذا لا يرافقنى زميلى كاها؟

ـ حالته الصحية لا تسمح له بذلك. وعليك إنجاز مهامه علاوة على مهامك أنت. أنت رئيس عمل الجماعة يا نيفر، وطالما تعرف سر دار الذهب فبوسعك تحويل مقبرة إلى دار بعث.

كيف كان للصامت أن يتخيل أنه سوف تقع على عاتقه أضخم مسئولية يمكن لحرفى أن يتحملها؟ كان قلق مخيف يقبض قلبه ويخنقه، فعليه هو، وعليه فقط، وضع الحجر الأخير فى ا لمبنى المخصص لتخليد رمسيس الأكبر.

اجتمع غالبية كبار موظفى طيبة عند ميهى الذى كان قد دعاهم لوجبة طعام خفيفة انتظارا لآخر الأخبار الرسمية القادمة من العاصمة «بى ـ رمسيس».

أخيرا، ظهر القائد. أعلن قائلا:

ـ فرعوننا الجديد هو «ميرينتاح»، «حبيب الله بتاح».

لقد صعد على عرش الأحياء وتم الاعتراف به بالهتاف ربا للأرضين. وسوف يحتفل بالقداس ككاهن فى أثناء المراسم الجنائزية لرمسيس والتى سيتولى فى ختامها السلطة العليا.

هلل آبرى قائلا:

ـ يعيش فرعوننا الجديد.

وما لبث الحضور أن ردد من بعده هذا التهليل.

فكر القائد أنه «مادام ميرينتاح يبلغ من العمر خمسة وستين عاما، فسوف يكون حكمه قصيرا».

كان ميهى قد جمع الحد الأقصى من المعلومات عن خليفة رمسيس: يقال عنه إنه متسلط ومتشدد، صعب العريكة، متعنت بشأن المبادئ الروحية التى قامت عليها مصر، كاره لكل تجديد، يميل إلى الوحدة، ولا يلقى بالا إلى التماسات حاشية الملك. باختصار، كان على النقيض تماما مما كان يتمناه وزير خزانة طيبة!

كانت هذه ملامح شخصية بارزة تعيش فى ظل رمسيس؛ لكن ممارسة السلطة ستغيرها حتما وتظهر بعض النقائص فيها. كان أكثر ما يثير ضيقه هو تفانيه لبتاح إله بنائى ساحة الحقيقة. . . هل سيواصل ميرينتاح نفس سياسة رمسيس تجاه تلك الساحة؟

إذا ما صح ذلك، فإن القتال ينبئ بشراسته. إلا أن ميهى كان يشعر بأنه أقوى من أى وقت مضى: ألا ينعم بحلفاء شديدى الفاعلية وبجاسوس عند خصمه؟ علاوة على أن ميرينتاح ليست له شعبية رمسيس. وتدبير المكائد ضده ليست بالأمر المستحيل.

بعد أن شهدت مصر حكما طويلا وفعالا مع رمسيس الأكبر، أصبح من المتوقع خضوعها لنوع من أنواع الإحباط، لن يكون لميرينتاح الديناميكية اللازمة لتبرئتها منه. فالقائد الجديد سيقع فريسة لهموم كبرى وسيضطر إلى درء اللكمات الموجهة إليه من كل

صوب ومنحى ، مما سيجعله يقضى غالبية وقته فى «بى - رمسيس» فى الدلتا ، بعيدا عن ساحة الحقيقة التى سيتركها - تدريجيا - لمصيرها .

لماذا لا يولى الفرعون ثقته لسلطات طيبة ، جاهلا أنها تخضع لميهى؟

لقد أقام رمسيس عاصمته فى الشمال ، لتأمين دفاع أفضل عن مصر فى مواجهة الغزاة . وكان ميهى مقتنعا بأن غزو الدولة يبدأ بطيبة وبتملك الأسرار المصونة جيدا فى ساحة الحقيقة .

لم يتوقع الحرفيون ملاقاة عدو قوى وعاقد العزم ، علاوة على أنهم لم يكونوا حتى مهيئين للقتال .

كانت ساعة ميهى تقترب .

قال الفنان شد «المنقذ» وهو يكبح جماح غضبه :

- أنا لست واثقا من صواب هذا القرار . فالعمل بفاعلية وسرعة فى دار أبدية رمسيس يحتاج إلى رسامين محنكين ؛ وهذا ليس الحال بالنسبة لبانيب .

اعترض نيفر على ذلك وقال :

- وفقا لتقارير معلميه ، هو على استعداد لمساعدتهم .

غمر وجه نيفر تعبير صارم لم يألفه منه الفنان .

- إنه دورى كرئيس طاقم يحظر علىَّ الانحياز . وما من قرار واحد من قراراتى سيكون دافعه الصداقة أو العداء .

لو كنت أرى أن بانيب غير كفء لاستبعدته من ساحة العمل . وأنا أعُدّ أنه ليس بيننا شخص واحد له وضع مكتسب بشكل نهائى .

ابتسم شد ابتسامة غامضة .

- على عكس ما يعتقد البعض ، يبدو أن لك مزاجَ رئيس . نعم الأمر بالنسبة للجماعة . وطالما أنك تأمر فأنا أطيع . وسوف يقدم لنا بانيب يد العونً .

- عليك أنت إبلاغه بذلك . نحن راحلون إلى وادى الملوك اعتبارا من الليلة ومعنا التجهيزات اللازمة .

ـ سوف أتولى هذا الأمر . لن ينقصنا شيء .

ابتعد شد المنقذ بمشيتة المتعاظمة .

وفجأة ، أدرك نيفر أنه لم يعد يرى الفنان بنفس عيون الأمس . وأن هذا التغير فى النظرة لا يخص شد وحده، بل يشمل جميع الحرفيين . بالأمس فقط ، كان زميلا لهم ، أما اليوم ، فعليه توجيه عملهم وإثبات قدرته على حل ألوف المشكلات التى لن تلبث أن تظهر .

شاع اضطراب قلق فى القرية التى عرفت لتوها أن مرينبتاح هو الفرعون الجديد . كان البعض يعتقد أنه لن يقل حزما عن رمسيس ، فى حين يرى البعض الآخر أنه سوف يطبق سياسة حتما مختلفة ، وفريق ثالث يتوقع نشوب أزمة اقتصادية واضطرابات اجتماعية . إلا أن نيفر قد أعاد للقرية هدوءها بإعلانه عن عدم إدخال تغيير واحد على الجماعة ، وأنها ستقوم بإعداد ـ على ما جرت عليه العادة ـ دار الأبدية الخاصة بالملك من أجل المراسم الجنائزية .

ولكن ماذا عساه أن يعرف عن الأحداث التى قد تقع فى أثناء الفترة القلقة الممتدة من وفاة رمسيس الأكبر إلى وضعه فى القبر وتولى الملك الجديد السلطة ، فعليه إذن السيطرة على مخاوفه وحسن تأدية المهمة الرئيسية الموكلة إليه مع بث الطمأنينة فى القرية نفسها .

مر نيفر قبل رحيله إلى وادى الملوك بالمرأة الحكيمة لرؤيتها . وأقر قائلاً :

ـ إن وفاة رمسيس تصيبنا باليأس ، ولكننى سوف أسعى للحفاظ على وحدتنا .

ـ إن الخطر لم يختف ، بل العكس .

ـ سوف يحاولون الاعتداء علينا ، بل وربما تدميرنا . أليس كذلك ؟

ـ أنت أيضا يا نيفر ، بدأت ترى . إن الشياطين تحوم وعليك التسلح بكثير من الشجاعة ووضوح الرؤية حتى تنتصر عليها . ولا تنس أن ساحة الحقيقة لن يكتب لها البقاء إلا لو سلكت طريقا واحدا ، طريق النور .

* * *



الفهـــرس